سمير الهضيبي

لوحات من





بسم الله الرحمن الرحيم

دار الأمـة الإسـلامية

للطباعة والنشر والتوزيع

٦ ش عماد الدين كامل – متفرع من ش عباس العقاد – رابعة العدوية – مدينة نصر – ت : ٢٦١١٧٤٧ – فاكس : ٢٦١٨٢٤٠ – القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

صدق الله العظيم
آل عِمْرَان / ١٠٤

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨

الجمع التصويرى والتجهيز
بدار الأمة الإسلامية

الرسوم دراسات من لوحات لكبار فنانى عصر النهضة
بريشة : عصمت داوستاشى - غلاف وإخراج فنى

لسمير الهضيبي

لوحات من

نهاية أورشليم





مقدمة

يحكى أنه فى قديم الزمان ، اجتمع سبعة من حكماء الهند ، فقال بعضهم لبعض : اجلسوا حتى نتناظر ، فننظر ما قصة العالم ؟ وما سره ؟ ومن أين أقبلنا ؟ وإلى أين نمر ؟ وهل خروجنا من عدمٍ إلى وجود وراءه حكمة أم لا ؟ وهل خالقنا المخترع لنا ، والمنشىء لأجسامنا يجتلب بخلقتنا منفعه ؟ أم يدفع بموتنا وفنائنا عن هذه الدار عن نفسه مضرة ؟ أم يدخل عليه من الحاجة والنقص مايدخل علينا ؟ .. وهل هو غنيٌّ من كل وجه ؟ وما وجه إفنائه إيانا وإعدامنا بعد وجودنا وآلامنا وملاذّنا ؟

فقال الأول : أترى أحدا من الناس أدرك الأشياء الحاضرة والغائبة على حقيقة الإدراك ، فظفر بالبغية واستراح إلى الثقة ؟

وقال الحكيم الثانى : لو تناهت حكمة البارئ عز وجل فى أحد العقول ، لكان ذلك نقصا من حكمته ، وكان الغرض غير مدرك ، وكان التقصير مانعا من الإدراك .

فقال الثالث : الواجب علينا أن نبتدئ بمعرفة أنفسنا التى هى أقرب الأشياء منا ، ونحن أولى بها وهى أولى بنا ، من قبل أنه نتفرغ إلى علم ما بعد منا .

قال الرابع : لقد ساء وقوع من وقع موقعا احتاج فيه إلى معرفة نفسه .

قال الخامس : من هنا وجب الاتصال بالعلماء الممدودين بالحكمة .

قال السادس : الواجب على المرء المحب لسعادة نفسه ألا يغفل عن ذلك. لاسيما إذا كان المقام فى هذه الدنيا ممتنعا . والخروج منها واجبا .

قال الحكيم السابع : أنا لا أدرى ما تقولون ، غير أنى أخرجت إلى هذه الدنيا مضطرا ، وعشت فيها حائراً وأخرَج منها مكرهاً ..

وأغلب الناس يولدون ويموتون .. وبين ساعة مجيئهم وساعة رحيلهم تنقضى أيامهم على هذا الكوكب يوما بعد يوم ، وهم يلهثون وراء مطالبهم . لايكاد أحدهم يخلو إلى نفسه ساعة تشغله فيها هذه الأفكار ..

..ولكن منذ أكثر من أربعة آلاف عام ، وعلى شرق نهر الفرات ، كان هناك فتى لاتشغله إلا مثل هذه الأفكار .. رفع وجهه نحو السماء يتأمل الكواكب والنجوم ، ويبحث فى شقاء وضنى وألم عن معنى كل ماحوله ، وعن خالق هذا الكون ، حتى أعياه الفكر ، فذبل عوده ، وتاهت نظراته ، ولم يجد ما يقوله لمن يسأله عن حاله وشروده إلا أن يقول : إنى سقيم ..

..ولما رأى الخالق سعى الفتى وعناءه ، تحنن عليه ورحمه ، فملأ قلبه بمعرفته ومحبته ، وقربه إليه وأصبح له صديقا .. ذلك الفتى هو « إبراهيم » الخليل عليه السلام .

« وقال الرب لإبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك إياها فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك . وتكون بركة . وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنُهُ . وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض .. »

فذهب « إبراهيم » كما أمره الرب وتنقل بين مصر والشام وجزيرة العرب وأخبره الله بأن نسله سيرث هذه الأرض التى عاش فيها « .. لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات .. »

وتحققت النبوءة فقد ولد لإبراهيم ثمانية أبناء :« إسماعيل ، وإسحاق ، وزمران ، ويقشان ، ومدان ، ومديان ، ويشباق ، وشوحا » .

...فأما« إسماعيل » فقد أسكنه الله جبال فاران (مكة) ، وتحققت نبوءة الله لأمه هاجر : « قومى احملى الغلام وشدى يدك به . لأنى سأجعله أمة عظيمة » ، فأنجب إسماعيل اثنى عشر ولدا* من بينهم « قيدار » ، الذى خرجت من نسله قبيلة قريش ، أعظم القبائل أثرا فى التاريخ ، وعلى رأسها محمد (صلعم) ..

وأما إسحق فقد سكن الشام ، وأنجب ولدين ، هما : عيسو (عيص) .. وإسرائيل (يعقوب) .. فأما عيسو فتزوج كثيرا من النساء وأنجب كثيرا من الأبناء ولكن لم تع ذاكرة التاريخ من ذريته إلا النبى أيوب عليه السلام .. وأما إسرائيل (يعقوب) .. فقد تحققت أيضا نبوءته : « ..وقال له الله اسمك يعقوب . لايدعى اسمك فيما بعد يعقوب . بل يكون اسمك إسرائيل . فدعا اسمه إسرائيل . وقال له الله أنا الله القدير . أثمر وأكثر . أمة وجماعة أمم تكون منك . وملوك سيخرجون من صلبك . والأرض التى أعطيت إبراهيم واسحق لك أعطيها ولنسلك من بعدك أعطى الأرض .. » .. فأنجب إسرائيل أثنى عشر ولدا (الأسباط) ، وكان من بينهم يوسف عليه السلام فلما مكنه الله فى أرض مصر أرسل إلى أبيه وإخوته ليعيش إسرائيل ، وبنوه من بعده فى أرض مصر ، فلما استبعد فرعون بنى إسرائيل خرج بهم « موسى » عليه السلام إلى أرض الشام .. ودخل بنو إسرائيل فى صراع مع أهل هذه البلاد ، وكان الله مع بنى

إسرائيل ، فأورثهم الأرض وجعل منهم ملوكا عظاما كنبى الله « داود » ونبى الله « سليمان » ..

...وأما باقى أبناء إبراهيم فقد عاشوا وتناسلوا وماتوا ولكن التاريخ لم يذكر من أبنائهم أحدا ذا شأن .. اللهم إلا واحدا هو نبى الله (شعيب) ، الذى هو من نسل مديان بن إبراهيم ..

..وهكذا نرى أن كلمات الله لاتبديل لها .. فذرية إبراهيم قد ورثت الأرض وأصبحت شعوبا وقبائل لايحصى عددهم كنجوم السماء .. فبنو إسرائيل مكن الله لهم فى الأرض حتى صار نبى الله « سليمان » أعظم الملوك ، وعاصمته « أورشليم » أعظم وأقدس مدن زمانه ، وسلطانه يمتد من النيل إلى الفرات إلى اليمن ..

وذرية إسماعيل التى أورثها الله جزيرة العرب ، وتوارت فترات طويلة عن أعين التاريخ ، حتى إذا مااختفت بنو إسرائيل من مسرح الأحداث وزالت دولتهم .. شاء الله أن يبعث من بنى « قيدار بن إسماعيل » ، رسوله محمدﷺ ، ليرفع راية التوحيد من جديد ، ولينشر لواءه ... ليس من النيل إلى الفرات فقط ولكن على العالم أجمع .

وتدور أحداث هذه الرواية . فى الأيام الأخيرة لدولة بنى إسرائيل .. تلك الأيام التى قُتل فيها نبى الله يحيى (يوحنا المعمدان) الذى قال عنه القرآن : (لم نجعل له من قبل سميا) وكذب فيها رسول الله عيسى عليه السلام كلمته وروح منه . فكأنما كتب بنو إسرائيل بذلك نهايتهم بأيديهم . بتكذيبهم الرسل

وقتلهم الأنبياء .. « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون .. » صدق الله العظيم

...وتحققت النبوءات .. ودمرت « أورشليم » ، وانتهت دولة بنى إسرائيل ، وأضاع بنو إسرائيل ميراثهم .. وكتب الله عليهم الذلة والمسكنة .. فأما من آمن بالمسيح فقد نجا « من آمن بى فسيحيا .. » وأما من كفر بالمسيح ، فقد عاش شعبا ممزقا ، مشتتا بين الأمم .. تتقاذفه أمواج الحياة ، فتارة يهنأ تحت رحمة حكام أخيار ، وتارة ينسحق تحت أيدى الجبارين .. وهو يعيش على حافة الهاوية ، يقتله الجبن والذل والحرص على الحياة ، أو تقتله خيانته وحقده على الشعوب التى يعيش بينها ..

..وهكذا تسير ملحمة بنى إسرائيل عبر التاريخ عظة وعبرة للمتقين .. ولتشكل هذه الملحمة جزءاً من تاريخ البشرية وملحمته الكبرى ...



اللوحة الأولى

بنيامين وسيمون





.. الزمان .. أواخر العشرينيات من القرن الأول الميلادى ..

.. المكان .. مدينة أورشليم .. تلك المدينة التى اختارها الملك « دواد » لتكون عاصمة لملكه ، والتى بنى فيها ابنه الملك « سليمان » هيكلاً للرب ؛ لتصبح بذلك هى المدينة المقدّسة عند بنى إسرائيل .

.. ومدينة « أورشليم » بنيت على ربوة عالية ، وقد أحاطت بها أسوار عظيمة ، تتخللها بوابات كبيرة ، هى مداخل المدينة .. فالصاعد إلى « أورشليم » عليه أن يرتقى هذه الربوة العالية ، ويدخل من أحد أبواب المدينة التى يحرسها دائماً الجند الرومان ، وقد علّق النسر الرومانى على هذه البوابات رمزاً لغلبة روما وسيادتها .

.. فى ساعة متأخرة من الليل ، وضوء القمر الساطع يغمر شوارع المدينة بنوره ، فتبدو مصابيح الزيت المعلقة ذات ضوء باهت .. كان « بنيامين » قد خرج لتوّه من حانة « ديموستيس » اليونانى ، وقد أفرط فى الشراب كعادته ، ولكن ذلك لم يفقده رشده ، فكان لوقع قدميه دقات منتظمة ذات إيقاع ، على أرض الشارع الضيق الذى رصف بحجارة سوداء ، وكان « بنيامين » يسير وقد شبّك يديه خلف ظهره ، منتشياً بسكره ، وبإحساسه بالانتصار .

.. ظلّ « بنيامين » يستعيد فى خياله منظر الراقصة « سيمون » ، وهى تملأ الحانة بروحها المشرقة ، ورقصاتها البديعة .. آه ماذا فعلت هذه

الغانية اللعوب بالرجال ؟ !! إن لها روحاً ساحرة ، تضفى على المكان بهجة هى أشدّ من بهجة السكر ، أيمكن أن يكون للجمال كل هذا السلطان على قلوب الرجال ؟ ! .. لا .. ليس هو الجمال ، فكم من نساء جميلات .. ولكن لا يمكن أن يكنّ بهذا السحر .. إنه شيء غير الجمال ، إنها روح « سيمون » المبهرة الشريرة .. وتذكّر « بنيامين » كيف أقسم لها فى نشوة الحب واللذة ، أنه قادر على أن يمنحها كل شيء .. المال .. والحب .. والسعادة .. ولكن سحقاً لهذه الفاجرة ، لقد شعر بطعنة فى قلبه وهو يستعيد هذه الذكريات ، فهو واثق اليوم من عدم إخلاصها لأحد ، وأنها تلقى بنفسها فى أحضان كلّ من يرضى غرورها ، ويلبى رغباتها وأطماعها .. وهى الليلة لابد ستبيت فى أحضان ذلك الثور الرومانى الذى اختارت مائدته لتجلس إليها .. سحقاً لها .. بل سحقاً للمرأة فى كل زمان ومكان .. لا بل سحقاً لنفسه الضعيفة التى تذلها هذه الغانية الحقيرة ..

.. ولكن بنيامين كان يتملكه بجانب هذا السخط شعور بالانتصار .. لقد انتصر على نفسه أمام « سيمون » .. فقد رفض أن يرقص أمامها ، نعم لقد جذبته من يده ، وحاولت كثيراً أن تدفعه أمام الجالسين إلى مراقصتها ، ولكنه رفض بعناد .. كان الموقف محرجاً لكليهما ، ونظرات الاستنكار تلتهمه وتحتقره وتحسده .. ولكنّه تسمّر على كرسيه ، ولم يستطع أن يطاوعها .. إنها تريد أن تجعله ينزلق إلى عالمها ، ولكن هيهات .. أتريد أن تجعله مثل هؤلاء الرعاع ؟ !! .. حقاً إن بينهم كثيراً من جند الرومان ، ولكن ما هؤلاء إلاّ رجال من السوقة وعامة الشعب .. أمّا هو فمن طراز آخر من الرجال .. طراز حبته الطبيعة بملكات وعقل خاص ، إنه من خاصة الرجال وليس من عامتهم ،

من الرجال الذين خلقوا ليقودوا وليفكروا ويعلموا الآخرين كيف يعيشون .. وماذا لو رآه أحدهم وهو يرقص أمام « سيمون » ؟ يالها من فضيحة ، لكم سيسخر منه من يعرفه .. ودعك من الآخرين ، فهل

يقبل « بنيامين » على نفسه أن يكون بهذا الهوان ؟ ، وهو الذى طالما حلم أن يكون مثل قيصر ! ، نعم مثل قيصر ، بل وأعظم منه لو استطاع ، فإذا به اليوم يرقص بين سفلة الجند ! . لا .. لايمكن أن يحدث هذا ، بل الأحرى به ألا يذهب إلى هذه الحانة ثانية ..

... كان « بنيامين » لا يتعجل العودة للمنزل ، لذلك اتجه يميناً ليقطع طريق السور الممتد بحذاء سور المدينة .. كان السور عالياً وعليه مراكز للحراسة يقف بها الجند ، وحينما أحس بنيامين بالجند يلتفتون إليه ، اعتدل فى مشيته وأسرع الخطا ؛ حتى لايبدو أمامهم متسكعاً ؛ فيتعرض لمضايقاتهم أو إهاناتهم .. وأدرك « بنيامين » أن ما أصابه من حذر يتنافى مع ما فى نفسه من إحساس بالعظمة ، فشعر بالمذلّة والخزى ، فانعطف بعيداً عن شارع السور إلى الشوارع الضيقة ؛ ليتوارى عن أنظارهم ، وقد تملكه حقد شديد على الرومان .. فهو فى مدينته « أورشليم » يخاف ويذلّ نفسه أمام سفلة جنودهم .. وتمنى « بنيامين » لو استطاع أن يقود ثورة عارمة ضد الرومان .. ولكن هيهات .. وهل يرى حوله إلاّ يهوداً جبناء ؟ ! وشعباً مقهوراً مستضعفاً ذليلاً ، أعمته الشهوات ، نصفه مرضى والنصف الآخر جياع ، اللّهم إلاّ حفنة من الكهنة والأغنياء .

.. كان « بنيامين » قد اقترب من بيته ، فاجتهد أن يمتلك زمام نفسه ، ليبدو ذلك الرجل المهاب الذى ينال احترام الأهل والجيران .. واستيقظت زوجته عند دخوله ، فهبت مسرعة تساعده على خلع ملابسه ، وتقدم له لباس النوم .

.. كان « بنيامين » فى الثلاثين من عمره فاتح اللون ، فى عينيه بريق الذكاء الشديد الممزوج بشىء من القسوة ، ويبدو قوى الجسم ، قوى الشخصية كذلك .. أمّا زوجته « إيزابيل » فقد كانت على شىء من البدانة ، ووجهها جميل ولكن يطفئ جماله ، ملامح الاستكانة فى عينيها والتى تخفى خلفها سخطاً وغضباً ؛ لذلك كان « بنيامبن » يؤكد لنفسه أن نظرات زوجته خبيثة وغير صافية .. ولطالما شعر بالملل من حديثها المتكرر عن قصص الأهل والجيران ، وأحداث البيت ومشاكله التافهة . أين هذا من حديث « سيمون » الذكى ، لقد حدّثته « سيمون » عن وطنها مصر ، وعن حنينها للعودة إليه ، عودةً ليس بعدها فراق .. وكم حدّثته عن الفراعنة ولياليهم الرائعة على النيل ، وقصورهم ومقابرهم ومعابدهم .. ما أجمل أغانى « سيمون » الحزينة ، التى تخرج من قلب ممتلىء بالحب والحنين إلى الوطن ! . وما أحلى بسمتها ! ، وما أروعها وهى تترجم له أشعار بلدها ! ، وتحكى له قصصهم وأساطيرهم الساذجة الطريفة . إنها لا تملّ من الكلام أمامه وهى سعيدة ، وهو لا يملّ أيضاً أن ينصت لها ساعات طويلة وهو يشعر بنشوة ولذة تهيم فيها نفسه .

.. وأفاق « بنيامين » على صوت زوجته :

– هل أعد لك شيئاً من الطعام ؟

– لا .. لقد أكلت .

.. أجابها بنيامين فى اقتضاب ، وهو يرتمى على فراشه ، وقد ضاق صدره بامرأته دون مبرر لذلك ، ولكنه أخذ يلعن كل شيء .. فلماذا يا أورشليم نساؤك أقل نساء العالم فهماً ووعياً ومعرفة ؟ .. لماذا ياأورشليم يقتل شعبك الغباء والفقر ؟ لماذا تجثم الأمم فوقك منذ قرون من بابل إلى فارس إلى الإغريق ثم الرومان ؟ لماذا أصبح اليهودى هزأة بين رجال الأمم ؟ .. وحتى هيكلك ياأورشليم .. هيكلك المقدس ، علّق عليه النسر الرومانى علامة الذل والخضوع .. !! .. وكهنتك يالكهنتك ما أفظعهم وألأمهم !! لقد أفقدوا الشعب ثقته بالشريعة وبالرب ، وبكل ما فى السماء وما يأتى من السماء !! لقد أقنعوه أن الذهب هو كل شيء ، وبه تنال كل شيء ! حتى بركات السماء لا تنال إلاّ بالذهب يرمى على أعتاب الهيكل !! ، آهٍ ما أتعسهم ! ، بل ما أتعس هذا الشعب !!

.. وأحس « بنيامين » « بإيزابيل » قد تسللت إلى جواره واقتربت منه فى مذلّة ، فرقّ قلبه لها ، وأحسّ برغبة فيها .. وظلّ متردداً لحظات ، ثم وضع كفّه على كتفها وهو يسألها :

– كيف حال الأولاد ؟

– بخير .. لقد خرج « شاول » ليلعب مع الصبية ثم جاء متسخ الملابس ، فتحمم ثم تناول عشاءه ونام ، أمّا « دينا » فقد نامت بعد الغروب .. و « شاول » يلح على رغبته فى الذهاب معك إلى البستان ، ولقد ذهبت بهما اليوم إلى بيت أبى وهو يسلم عليك كثيراً .. ولقد فرح الأولاد باللعب هناك مع أبناء خالتهم ..

... ضاق « بنيامين » ذرعاً بثرثرتها ، فضغط بكفه على كتفها كأنما يمنعها من مواصلة الحديث .. وأحست « إيزابيل » بما هو مقدم عليه ، فاستسلمت فى نشوة غامرة ، وشعر « بنيامين » بالرضا إذ رآها على هذه الحالة من الرغبة ، فقد كان يسعده أن يراها تطلبه بكل هذه النشوة .. لقد أحسّ برجولته وفحولته .

* * *

... استيقظ « بنيامين » فى الصباح ، ودخل عليه خادمه « يوسف » ، وهو غلام فى الخامسة عشرة من عمره ، يحمل صحناً مليئاً بالعنب .. وبعد أن ألقى تحية الصباح على سيده ، ترك الصحن عل المنضدة وخرج .. وقام بنيامين ليتكئ على الأريكة ، وقد أحسّ بالارتياح لمنظر الغلام الذى يشرق وجهه بفطرة طيبة ، ونظرات جريئة ، تدعو للتأمل والإعجاب ..

.. كان « بنيامين » هذا الصباح منشرح الصدر على غير عادته .. ومدّ يده ليأخذ من حبات العنب الذى أمامه ، فبدت له ناضجة شهية ، كحبّات من اللؤلؤ الثمين ، فصار يتناولها حبّة حبة ، وهو يتأمل العنق المتصل بكلّ حبة ، والغشاء الذى يحيط بها ، وما يملؤها من عصير متماسك ، تنعكس عليه أشعة الضوء ، فيبدو كقطع من ثلج أخضر اللون . وأحس بمتعة كبيرة ، وهو يقضم ببطء كل حبة ، فيأكل أولاً نصفها ، ثم يتناول النصف الثانى بعد أن يكون قد ابتلع النصف الأول .. وتعجّب « بنيامين » !! .. أليست هذه اللذات الصغيرة ، مسرّات كبيرة فى الحياة ؟ أمن الضرورى أن يدنّس الرجل حياته بالنساء العاهرات والخمر ؟ .

.. كان هذا الصراع يدور دائماً داخل عقل وقلب « بنيامين » .. فهو حائر بين أشواق علوية لحياة أفضل ، وبين واقع لا يرضى عنه . ولا يستطيع منه فكاكاً .. وكان أحياناً يفكر فى زوجته وبيته وأهله ، فيودّ لو تخلّص منهم جميعاً .. بل ليته قادر على أن يقطع كل الجذور التى تربطه « بأورشليم » .. هذه المدينة التى ولد فيها ، وقضى فيها طفولته وصباه وشبابه .. هذه المدينة التى أحبها وكرهها فى آن واحد وحتى الموت .. هذه المدينة التى أعطته كل شيء ، المال والجاه والمتعة ، ولكنها حرمته أهم شيء .. السعادة ..

.. ولقد توصّل « بنيامين » أخيراً إلى أن سبب شقائه ، وسبب ماهو فيه من ضنىً وقلق وعدم رضا ، هو أنه قد فهم وأدرك وعرف أكثر مما يجب ، نعم هذا هو السبب .. فلو لم يدرك مدى ما فى المجتمعات الأخرى : يونانية ، ورومانية ، ومصرية .. من بهجة وحياة ، لما أدرك ما فى « أورشليم » من كآبة وموت .. نعم هو لم يسافر إلى هذه البلاد ، ولكن يكفى أن ترى أهلها وعلى وجوههم النضارة والسعادة ، أما هنا فى « أورشليم » فالناس موتى ، والبيوت كالمقابر ، والحياة راكدة مملة ، تكاد تدفعه للجنون .. ولكن من يفهم هذا ؟ !! .. لقد حاول أن يشرح الأفكار التى تزعجه مرّة إلى زوجته فى ساعة صفاء.

.. أو كما أصبح يقول « بنيامين » .. فى ساعة غباء ، فلم يجد عندها إلا هذه الكلمات التعيسة ، ترددها فى ثقة الجهلاء :

ــولكن الله إلٰه إسرائيل سينقذها فى النهاية مهما فعلت ، إنه إلٰه قادر ولكن هو يصبر على ذلك ، ثم ينتقم من أعدائه ، وهؤلاء اليونانيون والرومانيون التعساء ، لن يكون مصيرهم سوى الجحيم ، مهما أعطاهم الله فى هذا العالم ، لأن هذا العالم يعطى فيه البرّ والفاجر ، ومن يعرفون الله ومن يعبدون الأوثان ، ولكن ملكوت الله لنا نحن أبناء إسرائيل فقط

.. آه .. ماأجهل هذه المرأة ! . إنها لاتعرف شيئاً عن أيام الملوك والأنبياء .. بل هى لا تعرف شيئاً حتى عن « أورشليم » أو هيكلها ، والأدهى أنها لا ترى ضرورة لمعرفة هذه الأمور .. ليتها كانت مثل « سيمون » .. سيمون !! .. لو لم تكن هذه المرأة فاجرة !! .. وأنت يا إلٰه إسرائيل ، هل أنت إلٰه إسرائيل حقاً ؟ . أم أنك إلٰه الناس جميعاً ؟ .. وهل هذا شعبك الذى اخترته حقاً ؟ .. لست أفهم لماذا اخترته ؟ .. هل اخترته لتعذّبه وتذلّه وتجعله مضطهداً من كل شعوب العالم ؟ .. ياإلٰهى أنا أريد أن أفهم .. أنا لا أتطاول عليك .. أنا فقط أريد أن أعرف .. أليس الناس جميعاً أبناء « آدم » ، ثم أبناء « نوح » ، وكل الناس هم صنع يديك وهم عبيدك ؟ .. فلماذا اخترت أبناء إسرائيل نبيك فقط دون العالم ليكونوا هم شعبك ؟ وإذا كنت قد اخترتهم فلماذا تركتهم هكذا ولماذا لم تظلّلهم بنعمتك دائماً ؟ .. لماذا جعلتهم شعباً مقهوراً مذلولاً محتقراً بين الأمم ؟ بل لماذا رجال هذا الشعب فاسدو الطباع يملأ قلوبهم الشرّ والجبن والحرص على لذائذ الحياة وحب المال ؟ .. لماذا ؟ .. فهل هم حقاً شعبك المختار ؟ أم أن هذه أكذوبة كبيرة ؟

... مثل هذه الأفكار كانت هى عذاب « بنيامين » كلما خلا إلى نفسه .. ولقد كان « بنيامين » محسوداً من معارفه .. فهو شاب متين البنيان ، محبوباً من النساء ، له مزرعة كبيرة على طريق « بيت لحم » جنوب « أورشليم » وله مزرعة أخرى شرقها عند جبل الزيتون ، كما أنه متزوج من ابنة أحد رؤساء الهيكل : وله منزل كبير وسط بيوت الأغنياء فى « أورشليم » .. وهو فضلاً عن ذلك من « اللاويين » ، وهم أحد الأسباط الاثنا عشر ، الذين يتكون منهم شعب إسرائيل ، ولكن هذا

السبط هو الذى جاء منه موسى ، لذلك كانت له قدسيّة خاصة عند الشعب – وأما امرأته « إيزابيل » فهى من سبط يهوذا وهو الآخر سبط عظيم حيث كان منه الملك « دواد » والملك « سليمان » ، أعظم ملوك بنى إسرائيل .

.. ولعلّ ما حظى به « بنيامين » من مال ومكانة فى أورشليم ، هو الذى ملأ قلبه منذ طفولته بحبها ، فقد أحس دائماً بأن أورشليم تعطيه كل مايريد ، بل وأكثر مما يريد ، بينما هى تحرم الكثيرين .. لذلك فقد فكّر أحياناً فى أن تعاسته هذه إنما هى نتيجة لهذا التدليل الذى لقيه منذ طفولته وصباه ، فلو أن فقراً أذلّه ، فجعله يكافح ليحصل على رزقه ، أو وضعاً مهيناً ورثه فأعطاه الدافع ؛ لكى يثبت مكانته بعمله وجهده وطموحه ؟ !

... كان « بنيامين » ينوى أن يذهب هذا الصباح إلى مزرعته الشرقية فى جبل الزيتون ، ولكنه وجد نفسه متكاسلاً مرهقاً ، فطلب كأساً من الحليب فشربه وتمدد ثانيةً فى الفراش ، ولم يستيقظ إلاّ عند تناول الغداء ، وقد أكل بشهية كبيرة وأخذ يلاطف ابنه « شاول » قليلاً ، ثم قام ليبدل ثيابه استعداداً للخروج كعادته ، فهو لا يطيق أن يبقى بالبيت أكثر من ذلك .. فالبيت عنده مكان للراحة والنوم وتناول الطعام ، وهو يعجب من الرجال الذين يحلو لهم أن يقبعوا فى بيوتهم ساعات طويلة دون ملل ..

* * *

.. خرج بنيامين من بيته ، وهو يحدث نفسه بأنه لن يذهب الليلة إلى حانة « ديموستيس » مهما كلّفه ذلك من عناء ، ومهما اشتاقت

نفسه ، لا لن يذهب الليلة ولا الليالى المقبلة ، وليته قادر على ألا يذهب أبداً إليها .. ولما كان « بنيامين » يعرف ضعف إرادته فقد قرر أن يهرب إلى أصدقائه ، فمرّ على صديقه « إيليا » ، وطلب منه أن يلحق به فى بيت العائلة أو البيت الكبير كما كان يسميه ، وأن يحضر معه « دواد » ، ثم ذهب إلى « يوقيم » وأخبره باجتماع الصحب عنده .. وأسرع « بنيامين » يسبقهم إلى بيت العائلة ، وهو بيت كبير قديم ، تعيش فيه أمّه المريضة وحدها مع بعض الخدم ، وحينما دخل « بنيامين » أمر بتهيئة الغرفة الخارجية التى تقع قرب الباب ، وتفصلها ساحة كبيرة عن باقى غرف البيت ، وكانت تستخدم فيما مضى لمبيت الخدم ، ولكن بنيامين هيأها ؛ لكى تناسب استقبال أصدقائه فيها بعيداً عن غرف البيت .. ثم دخل « بنيامين » على أمه وقبّل يدها بحنان ، ثم قبّلها من جبينها ، وقبّلته هى بشوق شديد ، فقد كانت شديدة الحب له ؛ لأنه وحيدها رزقت به بعد أن أنجبت ثلاث بنات ، وقد دلّلته كثيراً منذ طفولته ، وهو الآن وبعد موت أبيه أصبح كل شىء لها فى الحياة ..

.. أحس « بنيامين » بوجه أمّه شاحباً ، فساوره القلق ، وجلس بجانبها ، وسألها :

– كيف حالك اليوم ياأمى ؟ .. هل تحسين بأى ألم ؟

– لا الحمد للرب .

– لماذا لا نسافر سوياً ياأمى إلى « أنطاكية » .. إن بها طبيباً شهيراً فى المستشفى العسكرى الرومانى .. يقولون بأنه أعظم طبيب يعالج مجارى البول ، إنه يقوم بعمل جراحات مذهلة ، إنه يصنع آيات كما يحكون عنه ، وهو يعطى عقاقير مخدّرة رائعة ، وكل مرضاه يمتدحونه ، ويقولون كذلك بأنه من أم يهودية .. لقد أجرى لرجل نعرفه جراحة عظيمة وبدون ألم ، وقد شفى بعدها تماماً .

– أوه يا « بنيامين » .. أنا لن أسافر إلى « أنطاكية » هذه أبداً .. وهل أتحمل أنا سفراً طويلاً كهذا ؟ . إنني بخير ونحمد الرب .. لم يبق فى العمر بقية .. الحمد للرب على كل حال ، إننى حينما أراك وأرى إخوتك بخير أكون فى أحسن حال ، لقد شبعت من الدنيا ، ولا أمل لى سوى أن أراكم تسعدون .

قاطعها بنيامين وقد رق قلبه لها كثيراً :

– لك عمر مبارك طويل إن شاء الرب .. ومن لنا بعدك ؟ ! مباركة أنت بيننا دائماً وإلى الأبد .. ولكن لماذا ياأمى لا تذهبين للأطباء ، إذا كانوا ماهرين ؟ !

ألم يقل يوشع : « .. الرب خلق الأدوية من الأرض والرجل الفطن لا يكرهها .. » علينا أن نأخذ بالأسباب يا أماه .

.. وأرادت أمّه أن تتخلص من إلحاحه ، فغيّرت مجرى الحديث قائلة :

– لقد جاءت جارة لنا أمس من « بيت لحم » ، وسألتها عن أختك ، فهى عادةً تزورها كلما ذهبت إلى هناك .. فقالت : إنها سألت عنها وعلمت أنها مسافرة مع زوجها إلى برية الأردن ؛ لترى ذلك النبى وتتعمد منه ، إنهم يسمّونه « يوحنا المعمدان » ، ويقولون : إنه نبى حقاً ويعرف طريق الرب .

– سمعت أن أناساً كثيرين يسافرون إليه ليتعمدوا منه .. أظن أنه نبى صادق على ما يحكون عنه .

– يقولون يابنى : إنه زاهد جداً ، ويعرف كلمات الرب كلّها ، والشعب كلّه يقول : إنه حقاً نبى الله .. وكل ما يتكلم به هو من عند الرب .

ـ حقاً يبدو أنه كذلك .

ـ أتعرف جارنا الذى كان يأتى به الجند فاقد الوعى من السكر كل ليلة ويلقون به عند بيته ؟ لقد انصلح حاله و لم يعد يقرب الخمر ، بعد أن ذهب إلى هناك وتعمد وتاب على يدى هذا النبى ، حتى لم يعد يضرب امرأته ، بعد أن كنّا نسمع صراخها من هنا فى منتصف الليل .

ـ أحقاً ؟ . هذا شىء عظيم .

.. قال ذلك « بنيامين » وهو مشغول الفكر« بيوحنا المعمدان » ، وأحس بأنه غير منصت لما تقول أمه ، فاستحسن أن يخلو إل نفسه ليمعن التفكير .. فأضاف :

ـ أستأذنك يا أماه .

ـ أو هكذا سريعاً ؟ !

ـ لا .. أنا أنتظر أصدقاء ، وقد أمرت أن ينظفوا الحجرة الخارجية ، وسأذهب لأرى ما فعلوا .. وأنتظر .. أو لعلّهم قد جاءوا الآن .

.. خرج « بنيامين » من عند أمه ، وبعث خادمة إلى بيته لتحضر له قارورة خمر كبيرة ، فأمه لا تحتفظ بخمر فى البيت ، فهى متشددة مثل أبيها الفريسّى ، فالخمر عندها للأعياد فقط .. لذلك « فبنيامين » لا يجرؤ أن يخبرها عن إفراطه فى معاقرة الخمر ، أو عن ذهابه إلى حانة « ديموستيس » ، وحينما أحست أمه بأنه يشرب الخمر بكثرة عاتبته فى ذلك ، فطمأنها أنه يشربها ممزوجة بكثير من الماء ، وأنه إنما يفعل ذلك لمجاراة أصحابه فقط .. كما أنه لا يفعل ذلك كثيراً .. ولم تصدّق أمه كلامه ، ولكنها أدركت أنها لن تثنيه عمّا هو فيه ، فلم تعد تناقشه فى هذا الأمر .. فعلى كل حال هو رجل .. والرجل له نزواته ، كما أنه يفعل

عادةً ما يريد .. و لم تكن هذه هى طبيعتها مع بناتها ، فقد كانت معهن متشددة كثيراً ، وقد أورثتهن هذا التشدد فى الأخذ بالوصايا والتعاليم .

.. جلس بنيامين ينتظر أصدقاءه وقد سرح فكره حول « يوحنا المعمدان » ، فهو يظن أنه نبى صادق ، ولكن ما سمعه عنه لم يشجعه على الذهاب إليه .. فالمعمدان ككل الرجال الصالحين يدعو الناس إلى التوبة من الذنوب والامتناع عن مخالفة الشريعة ، ولكنه يتجاهل أهم القضايا التى يجب أن تشغل المصلحين الذين يريدون خيراً للشعب .. فهو لا يذكر شيئاً عن الحكم الرومانى الذى يذل أمة إسرائيل ، ولا عن حكم « هيرودس » الفاسد ، ولا عن موقف الشريعة من « بيلاطس » الرومانى الذى يحكم أورشليم ويعلّق النسر الرومانى على هيكلها .. ثم فساد الكهنة والعشارين وانشغالهم بأكل أموال الناس ، و« أورشليم » مدينة الرب المقدسة تدنسها أقدام الوثنيين ولكن « المعمدان » لايتكلم إلاّ عن الشريعة والتوبة .. لا : إننا فى حاجة إلى ثورة .. إلى يهوذا المكابى ، يأتى من جديد ؛ ليعيد إلى إسرائيل كرامتها ، وإلى الهيكل قدسيته .. وهكذا ظل « بنيامين » فى حوار مع نفسه ، فلم يشعر إلاّ« بإيليا » ، و « دواد » أمامه ..

... كان « إيليا » يعمل بالهيكل ، وهو ينفق أحياناً عن سعة ، ويدّعى أنه يأخذ من أموال النذور التى تقدّم للهيكل ، وهو يضحك مع أصحابه على ذلك دون خجل ، فهؤلاء الحمقى إنما يلقون بأموالهم إلى ذئاب الهيكل السمان ، أى الرؤساء الذين لا يشبعون من الذهب ؛ فأى ضير أن يتخيّر هو بعض الشواقل الذهبية بين حين وحين لنفسه ؛ ليعيش كما يعيش الآخرون فى سعة ؟ ، ثم أليس هو يعمل بالهيكل ومن حقه أن يناله بعض هذا الخير ؟ ! ، ولكن « بنيامين » لم يكن يصدق

أن هذا هو مصدر إنفاقه الذى يبدو فى بذخ أحياناً . لذلك كان يراوده الشك أحياناً فى أن « إيليا » على علاقة آثمة مع بعض الشيوخ الأغنياء ورؤساء الهيكل ، فهو كثيراً ما يتحدث عن علاقة حميمة مع أحد هؤلاء ، وهل يمكن أن تكون هناك علاقة حميمة بين شاب مثله ورجل كبير فى عمر أبيه مع منصب وجاه إلاّ إذا كانت هناك أسباب لذلك ؟ .. ولكن رغم شكوك « بنيامين » إلاّ أنه كان يحب « إيليا » ويسعد كثيراً بمجلسه ، فقد كان « إيليا » متواضعاً مريحاً منكسراً طيب القلب ، كما أنه حريص على إضحاك رفاقه والتودد لهم ولو بالسخرية من نفسه ، لذلك فقد كان محبوباً من الجميع .

.. أما « دواد » فقد كان يعمل عشاراً ، وهو ذو عقل كبير ، ويعرف كيف يكسب الأصدقاء ، وكيف يختارهم ، وهو ليس من أهل « أورشليم » ، ولا يعرف أحد كيف جاء إلى هنا ولا كيف أصبح عشاراً ، ولكنه كان يتمتع بأصدقاء مرموقين من بينهم « بنيامين » .. وكان « بنيامين » يعرف عنه حبه للمال ، وتظاهره دائماً بأنه صفر اليدين ، وسعادته فى أن يقضى سهراته على حساب الآخرين .. ولكن « بنيامين » كان يرى له عقلاً وفهماً ويتمتع بمجالسته ، خاصةً حينما تدور بينهم الكأس ، وهم يتجاذبون أطراف الحديث ..

.. عندما دخل الصاحبان على « بنيامين » وهو شارد الفكر ، قال « إيليا » مازحاً :

– من أخذ عقلك ؟ فيمن تفكر ؟ .. إن النساء سيصبنك بالخبل ..

.. ابتسم « بنيامين »وقال فى هدوء وأسى :

– أى نساء أيها الأحمق .. لقد شرد فكرى فى شيء آخر .. إننى

أفكر فى « يوحنا المعمدان » .

.. قال « إيليا » والبسمة لم تفارق شفتيه :

— آه .. حسن إذ تفكر فى شيء صالح .. أتفكر فى الذهاب لرؤيته ؟ .

.. تنهد بنيامين ونظر إلى صديقيه ساهماً ثم قال :

— أليس عجيباً أنه لم يذهب أىّ منا حتى الآن لرؤية هذا الرجل ؟

.. قال « إيليا » وهو مستمر فى مجونه ضاحكاً :

— ذلك لأننا مازلنا شباباً يريد أن يغترف من طيبات الحياة ، ولا نريد أن نتوب الآن . فإذا ما ذهبنا إليه صرخ فى وجوهنا : لا سكر .. لا سهر .. لا حانة « ديموستيس » .. دعوا اللباس الناعم .. البسوا مثلى وبر الإبل .. دعوا الطعام اللين .. لا تشربوا الخمر بل اشربوا الحليب .. لا تأكلوا إلاّ الجراد .. هذا لا يصلح أن يذهب إليه إلاّ الأسينيون *

.. وتكلم داود بلهجة جادة قائلاً :

— هو بالطبع رجل صالح .. ولكنه بعيد عن واقع حياتنا .. إنه يعيش فى البريّة بعيداً عن الناس وعن مخالطتهم بخيرهم وشرّهم ، لقد أعفى نفسه من كل تكاليف الحياة ، فلا أهل ولا زوجة ولا أولاد ، وليس فى حاجة لأن يبحث عن المال ؛ فهو يأكل جراداً وعسلاً من الجبال ، ولكننا اليوم نحتاج لمن يقول لنا : كيف نتعامل مع الرومان ، ومع رؤساء الهيكل ، إننا فى حاجة إلى التغيير ، إلى رجل قوى يستطيع أن يقود الشعب إلى حياة جديدة .. نريد أن تعود أمجاد اليهود كما كنّا أيام الملك « سليمان » ، أو حتى أيام « المكابيين » .. المهم أن نصبح أمة قوية .

... كان « بنيامين » دائماً يحسّ بأن داود يجيد تنميق الكلام ، ولكن دون روية أو إمعان فكر ، وكذلك دون صدق وإخلاص .. لذلك لم يجد غضاضةً فى أن يقول مبكتاً إياه :

– كثيرون من الرجال دون أهل ولا زوجة ولا أولاد ، ولكنهم يبحثون دائماً عن المال ؛ لكى يدخروه ، فحب المال هو شغلهم .

.. تغيّر وجه « دواد » قليلاً .. وأحس « بنيامين » بأن هجومه ليس له ما يبرره الآن فأكمل :

– أقصد أن الرجال جميعاً وحتى رؤساء الهيكل كلهم يبحثون عن مزيد من المال والجاه ، ولكن ما يفعله « يوحنا » ليس لأنه خال من المسئوليات ، بل لأنه نبى صادق يحمل مسئوليات شعبه على كتفيه ، وهو يرى أن التوبة والرجوع إلى الناموس هى بداية الإصلاح ..

...حينئذٍ دخلت الخادمة ، وهى تحمل الكئوس وقارورة خمر كبيرة ، وضعتها على المائدة وانصرفت ، فالتفت « دواد » إلى « بنيامين » قائلاً فى حنق :

– صب يا قديس .. صب املأ الكئوس أيها الزاهد .. ولماذا إذاً مادمت تراه نبياً عظيماً لم تذهب أنت إليه حتى الآن ؟

.. ابتسم « بنيامين » وأسند ظهره وقد ملأ كأسه ورشف منه رشفة كبيرة ، فقد كان يعجبه ألا يترك صديقه ثأره فى المناقشة ، وألا يسكت عمّا لحقه من إهانة ؛ لأن ذلك يريح ضمير « بنيامين » ، ثم قال :

– هذا والله ما كنت أفكر فيه ، فلماذا لانذهب جميعاً لنرى « المعمدان » ؟ ، إن الرحلة إلى هناك لن تكون شاقة ، إنه قرب « ساليم » .. إننا نستطيع أن نذهب ونعود فى خمسة أيام فى رحلة مريحة ، وسيزيد من متعتها أن نكون سوياً ، إنها ستكون أشبه بنزهة طويلة نبتعد فيها عن « أورشليم » وعن مشاكلها ..

.. قال « إيليا » ضاحكاً كعادته :

– لن تكون الرحلة طيبة إلا إذا أخذنا معنا قارورات خمرك المعتقة هذه ، لكى تعيننا على هذا السفر الطويل ، ولكى نستطيع أن نفهم كلام « المعمدان » ونتأثر بوصاياه .

.. ابتسم « بنيامين ، و دواد » ، وأضاف « بنيامين » :

– ولم لا ؟ سنأخذ معنا مانريد ، ولعلّ كلمات « المعمدان » تجعلنا نقلع عن السكر ، وإذا لم تفلح كلماته هذه ، فسنعود سكارى كما ذهبنا ..

.. وقرع الباب ، ودخل عليهم صديقهم « يوشع » ، فأشرق وجههم فرحاً به ، وبعد أن ألقى عليهم التحية قال ضاحكاً :

– لقد عرفت أنكم لابد مجتمعون هنا .. لأنكم لستم فى بيوتكم فى هذه الساعة وموعد الحانة لم يحن بعد ..

.. قال « بنيامين » فى ترحيب :

– اجلس .. لقد جئت فى موعدك .. حسناً فعلت .. نحن نتناقش فى موضوع جيد ، هل أصب لك كأساً ؟ .

.. كان « بنيامين » يعلم أنه لن يشرب ؛ لذلك أمر بإحضار بعض الفاكهة ، « فيوشع » رجل مستقيم ، وهو يعمل نجاراً .. ولكنه نجار ميسور الحال ، فأعماله واسعة ، وقد ورث هذه المهنة عن آبائه ، فجدّه الأكبر ، هو الذى أعاد ترميم وإصلاح الهيكل أيام « يهوذا المكابى » ، وشهرة عائلته فى هذه الصناعة كبيرة ، و « يوشع » لايشرب الخمر ولا يقرب النساء ، وهو يفتخر أنه منذ زواجه أخلص لزوجته تماماً ، وكان « بنيامين » أحياناً حينما يضيق « بيوشع » ، يعزى إخلاصه لزوجته ؛ لأنها شديدة الجمال ، وكذلك عزوفه عن الخمر لبخله الشديد ، فهو

يقول دائماً : إنه لا يجب أن ينفق شاقلاً من فضة إلاّ فى مكانه الضرورى ، لأن ماعدا ذلك إسراف يغضب الرب ، وكان « بنيامين » يسأله أحياناً فى سخرية : أهذه هى الوضنية الوحيدة التى تحبها وتحافظ عليها ؟ ، ولكن « يوشع » كان دمث الأخلاق ، شديد الإخلاص ، يستجيب لدواعى الخير ، فضلاً على أنه يشارك أصحابه فى انشغالهم بقضايا إسرائيل ، ويبحث عن كيفية الخلاص من حكم الرومان ، وعودة ملكوت الله .

.. وقال « بنيامين » مخاطباً « يوشع » :

– كنّا نتحدث عن « يوحنا المعمدان » .. ونقول لماذا لا نذهب لنراه ؟ .. ولماذا لا نتعمد منه فهو لا شك نبى ؟ .. والرحلة إليه ستكون ممتعة إذا ذهبنا معاً .. فقال « يوشع » فى استحسان :

– إنها لفكرة طيبة وعظمة الرب ؛ لقد كنت أنا وزوجتى نفكر فى هذه الرحلة ، ولكن منعنا من ذلك خوفنا من ترك الأولاد وحدهم وبينهم طفل رضيع .

.. فقاطعه بنيامين :

– لا .. لا .. نحن نريد أن نذهب سوياً بدون نساء ولا أولاد .. فإذا كان ما سنراه حسناً .. فسنعود إليه مع الزوجة والأولاد .. وإلاّ فيكفى أن نذهب نحن لنرى حقيقة الأمر .

.. قال « يوشع » موافقاً :

– هذا كلام حسن .. ومتى تريدون أن نذهب إلى « المعمدان » ؟

.. وأحسّ « بنيامين » أنه قد أخذ الفكرة مأخذ الجد ، وأنها ستدخل مرحلة التنفيذ ، فأجاب فى تردد فلم يكن قد حزم أمره بعد :

– إنها مجرد فكرة نبحثها .. نريد أن نرى هذا النبى ، وهل يصلح أن يكون زعيماً نسير جميعاً خلفه ، نريد أن نناقشه فى كثير من الأمور ، وأن نرى ماهى الحلول التى يقدّمها لخلاص شعب إسرائيل .. فإذا لم يكن عنده سوى أن يقول للناس توبوا ، فما هو إلاّ أسينّى صالح ، ولكنه لا يصلح أن يكون قائداً ولا زعيماً ، ولا منقذاً للشعب مما هو فيه .

..كان « إيليا » و « دواد » قد استرخيا فى مقعديهما وهما يعبّان من كأسيهما ، ويتابعان الحديث ، وهما شاردان قليلاً ، ولكنهما تنبّها على « يوشع » يقول فى حماس :

– لقد استمعت فى الهيكل إلى معلّم يونانى ، هو يهودى بالطبع ، ولكنه كان يعيش حياته فى أثينا . لقد كان يتكلم بجرأة شديدة .. وهم يقولون : إنه على علاقة حسنةٍ بشخصيات رومانية كبيرة ، وأنه يتمتع بحماية « بيلاطس » نفسه ، لذلك لا يجرؤ أحد على إيذائه .. لقد جاء « أورشليم » زائراً .. ويقولون : إنه يعيش الآن فى « أنطاكية » لقد كان العدد الكبير من الشباب يستمعون إليه .

.. فقاطعه « بنيامين » فى اهتمام :

– المهم ماذا يقول؟ هل فى تعاليمه شىء مثير؟

فأكمل « يوشع » :

– لقد سمعت منه كلاماً كثيراً .. ولكنه يستخدم طريقة فلاسفة الإغريق فى محاوراتهم ، إنه يتحدث بالمنطق ، أنا لا أذكر كثيراً مما قال ، ولكنه قال شيئاً عن تغيّر الزمان ، فهو يرى أن الزمان قد تغير ، وما كان يصلح فى الماضى لم يعد يصلح الآن ،وأن خلاص شعب إسرائيل لن يكون عن طريق الحرب والثورة ، فلن يستطيع « يهوذا المكابى » لو عاد الآن ، أو لو جاء مثله أن يخلّص « إسرائيل وأورشليم » .. كما حدث

بالأمس ؛ لأن العالم قد تغيّر ، فنحن محاطون بإمبراطوريتين عظيمتين : فارس فى المشرق ، وروما فى المغرب ، وبلادنا محصورة بينهما ، فلو خرج الرومان لوقعنا فى قبضة الفرس ..

.. فقال « بنيامين » محتداً :

– إنه عميل للرومان .. ألم تقل : إنه على علاقة طيبة « ببيلاطس » ؟ ، إنه بالتأكيد عميل لهم – إنه يريد أن يقطع على الشعب كل رجاء فى الخلاص .. يريد أن يجعلنا نخضع لسادتنا الرومان .. ولا يفكّر أحد فى الثورة عليهم .

... كانت الخمر قد لعبت برأس « إيليا » ، فلم يطق هذا الحديث الجاد ، فأخذ يردّد بعض كلمات الأسفار المقدسة وهو يغنّى فى سخرية مضحكة ، خالطاً هذه الكلمات بكلمات من عنده ؛ حتى تبدو الكلمات ذات وقع موسيقى يصلح للغناء ،ولكى يضحك رفاقه ويضفى المرح على اجتماعهم :

– أورشليم .. يا أورشليم .. يا بنت الزانية يا أورشليم .. كل الأيادى بالدم تنجّست .. كل الشفاه بالكذب تكلمت .. أورشليم .. يا أورشليم .. أورشليم .. يا .. يا .. يا أورشليم .

.. لم يعجب « بنيامين » كلمات « إيليا » فقال وهو يحاول أن يعود بالحديث إلى جدّيته :

– أليس عجيباً .. ونحن نعتقد أننا شعب الله المبارك .. أننا الشعب الوحيد الذى يلذّ له أن يسخر من نفسه ويستهزىء بها ؟

.. وأحسّ « إيليا » بأن كلمات بنيامين موجهة إليه ، فاندفع يقول فى حماس :

– ولم لا وجميع أنبيائنا كان يلذّ لهم أن يستهزئوا بالشعب .. ألم يقل « أشعياء » : « .. جميع الموائد امتلأت قيئاً وقذراً .. الكاهن والنبى ترنحا بالمسكر .. »

.. ألم يقل « أرمياء » : « .. حقاً كما تخون المرأة قرينها هكذا خنتمونى يا بيت إسرائيل يقول الرب : طوفوا فى شوارع « أورشليم »، وانظروا واعرفوا وفتشوا فى ساحاتها ، هل تجدون إنساناً أو يوجد عامل بالعدل طالب للحق فأصفح عنهما .. ؟ »

.. ألم يقل الرب « لحزقيال » : « .. عرّف أورشليم برجاساتها ، وقل لها : هكذا قال السيد الرب « لأورشليم » .. اتّكلت على جمالك وزنيت على اسمك ، وسكبت زناك على كل عابر .. فلذلك يا زانية اسمعى كلام الرب .. لذلك هأنذا أجمع جميع محبيك .. مع كل الذين أبغضتهم .. وأكشف عورتك لهم .. ويصعد إليك جماعة ويرجمونك بالحجارة ، ويقطعونك بسيوفهم .. »

.. ألم يقل صفنيا .. « .. ويل للمتمردة المنجّسة ، المدينة الجائرة ، لم تسمع صوت الرب ، لم تقبل التأديب ، لم تتكل على الرب ، لم تتقرب إلى إلهها ، رؤساؤها فى وسطها أسود تزأر ، قضاتها ذئاب .. أنبياؤها متفاخرون أهل غدرات ، كهنتها نجّسوا القدس خالفوا الشريعة .. »

.. ألم يقل ملاخى « .. قال رب الجنود فإنى أرسل عليكم اللّعن ، وألعن بركاتكم بل قد لعنتها ؛ لأنكم لستم جاعلين الرب فى القلب .. »

.. كان الجميع ينصتون إليه ويتعجبون من حماسه ضد « أورشليم » ، وقال « بنيامين » فى محاولة لإيقافه عن الاستطراد :

– نعرف أنك تحفظ الأسفار المقدسة .. ولكن لم أكن أظن أنك تكره « أورشليم » هكذا ؟ .

.. فقال « إيليا » وقد عادت إليه ابتسامته ، ولان كلامه ، وعاد إلى مزاحه :

– وماذا أفعل ؟ .. ومنذ أن كنّا صغاراً نقرأ فى الهيكل .. لم نسمع إلاّ .. ملعونة أنت يا إسرائيل .. زنيت مع كل الشعوب يا إسرائيل .. سأجعلك هزأة بين الأمم يا إسرائيل .. تركت طريق الرب يا إسرائيل .. كأن الرب لا يرى فى العالم إلاّ عورات إسرائيل فهو لها بالمرصاد .. لقد نشأنا واللعنات حولنا ..

.. فقاطعه « يوشع » بجديّة :

– ذلك لأننا أبناء يعقوب ويجب أن يكون طريقنا دائماً مستقيماً

.. فرد عليه « إيليا » باستهزاء وقد لعبت الخمر برأسه :

– ألأننا أبناء « يعقوب » .. يصب علينا الرب دائماً جام غضبه ؟ .. كل الشعوب تفعل ما تفعل من آثام .. فلماذا هى تعيش فى سلام وبهجة ، ونحن فقط كتب علينا أن نعيش فى الخزى ونمطر باللعنات ؟ « .. أورشليم تعثرت ويهوذا سقطت ؛ لأن لسانيهما وأفعالهما ضد الرب .. » .. « هأنذا أعود أصنع بهذا الشعب عجباً عجيباً فتبيد حكمة حكمائه ويختفى فهم فهمائه .. »

... أحسّ « بنيامين » بالغيرة على شعب إسرائيل ، فرغم كلمات الأنبياء التى قالها « إيليا » إلاّ أن الأمر له تفسير آخر ، فقال :

– إن الرجل تزداد غيرته على المرأة إذا كان يحبها .. ولكن المرأة التى لا يحبها لا يغار عليها .

.. فقال « إيليا » مفحماً « بنيامين » :

- ولكن المرأة تكره الرجل الذى تكون غيرته عليها سبباً فى شقائها .

.. وبدأ « داود » يلقى بدلوه فى هذا الحديث فقال فى هدوء :

- نحن شعب الأحزان . تاريخنا مأساة متصلة الحلقات ، ملحمة طويلة من العصيان والعقاب ، نتقلب بين رضا الرب فترات قصيرة ، وغضبه سنوات طويلة ، كأنما كتب علينا أن نحمل خطيئة آدم ، دون باقى الأمم ..

.. وتجاهل « بنيامين » كلام « داود » قائلاً « لإيليا » :

- الحقيقة إن فى هذا الكلام الذى تقوله كثيراً من الحقيقة ، ولكن لا تنس أن هذا حدث فى القرون الثمانية الأخيرة ، أمّا قبل ذلك فقد عاش بنو إسرائيل أمجاداً ، كان أعظمها ملك « سليمان » .

.. ولكن « إيليا » لم يكن على استعداد لأن يتراجع وهو فى نشوة السكر ، فرد على الفور على « بنيامين » والابتسامة المنكسرة لا تفارق شفتيه :

- أى أمجاد ؟ !! ونحن أمام الرب إلٰهنا منذ البداية أبناء عاهرات .. نعم منذ « موسى » .. ألم يقل الرب « لموسى » .. « .. ها أنت ذا ترقد مع آبائك فيقوم هذا الشعب ويفجر وراء آلهة الأجنبيين .. ويتركنى وينكث عهدى الذى قطعته معه ، فيشتعل غضبى عليه .. وتصيبه شرور كثيرة وشدائد .. » . بل و« موسى » نفسه لم يسلم من تبكيت الرب له : « .. مت فى الجبل الذى تصعد إليه كما مات أخوك هرون .. لأنكما خنتمانى فى وسط بنى إسرائيل .. » .. ألم أقل لكم : إن حب الرب لنا هو حب ملعون .. ملعون ملعون ملعون ..

.. وبينما كانت الابتسامة تعلو وجه « داود » و « يوشع » ، لطريقة « إيليا » فى الحديث ، ولأنهما لا يأخذان كلماته على محمل الجد عادةً ، كان وجه « بنيامين » يتغيّر ؛ فهو يدرك أن إيليا وإن كان الآن تحت وطأة السكر ، إلا أن هذه الكلمات تعبر عن أفكاره حقاً ، وهذه الكلمات رغم أن فيها كثيراً من الصدق إلاّ أنها تقدم الحقيقة مشوهة ، ولم يطق « بنيامين » أن يسمع هذا الكلام ، وهو الذى امتلأ قلبه بحب أورشليم ، فانطلق يرد على « إيليا » فى حدّة :

– هذا كلام سقيم .. إننا بذلك ننكر ملحمة شعب عظيم .. اختاره الرب ليكون هو شعبه ، شعب رفع راية التوحيد بين شعوب كلها تعبد الأوثان .. هذا الشعب جميعه هم أبناء نبى الله يعقوب ، والله لا ينسى الشعب فهو يرسل إليه أنبياء فى كل زمان .. ومن يد مبغضيه هو دائماً ينجيه .. نحن أول شعب يؤمن بالله الإله الواحد ، إن فكرة الإله الواحد قد سبق بها « موسى » قبل أن يصل إليها فلاسفة الإغريق بأكثر من ألف عام .. لقد ظلّت « أورشليم » رغم ما أصابها .. عاصمةً للعبرانيين ورمزاً للتوحيد ، وهيكلها المقدس منارة لعبادة الله الإله الواحد ، وبيتاً للرب على هذه الأرض .. ومهما بعد هذا الشعب عن طريق الرب ، ومهما لاقت « أورشليم » من هوان وخراب على يد أعدائها ، فستظل هى الأرض المقدسة التى اختارها الله من قديم الزمان ، وأن ما يحدث لنا اليوم إنما هو لأن الرجال قد ضعفت عزيمتهم ، وقلّ إيمانهم بماضيهم وبأمجاد آبائهم .

... ساد الوجوم على وجوه الأصحاب ، وحتى « إيليا » ذهبت ابتسامته ، فقد أحسوا أن « بنيامين » يأخذ الأمر مأخذ الجد ، وهو لايعدو أن يكون مزاحاً .. وتململ « داود » على مقعده . وقال مغيّراً مجرى الحديث :

– لم تقرروا شيئاً بالنسبة لرحلة « المعمدان » .. إذا كان هناك سفر فيجب أن تقرر ذلك من الآن ؛ حتى يتم ترتيب كل شيء .. على كل حال أبلغونى بما تتفقون عليه .. فأنا على موعد مع « زكا » رئيس العشارين فقد جاء إلى « أورشليم » صباحاً .

... بعد فترة انصرف « داود » ، ثم تبعه « إيليا » ، و« يوشع » .. وبقى « بنيامين » وحيداً يفكر فيما دار بينه وبين أصدقائه .. وحينما تذكر كلمات « إيليا » شعر بغيظ شديد ؛ لأنه لم يحسن الدفاع عن « أورشليم » الحبيبة .. ليته بصق فى وجه « إيليا » ذلك المخنث الساقط .

.. حقاً « أورشليم » لم تقدم للعالم إمبراطورية عسكرية كمصر ، أو الإغريق ، أو الرومان !! ولكنها رفعت راية الشريعة وحفظت وصايا الرب .. فقدمت للعقل الإنسانى طريق نضجه وازدهاره .. فالعلم والمعرفة فى « أورشليم » ليسا حكراً على الكهنة ، أو السحرة ، أو الحكام .. ولكن فيك يا « أورشليم » – ولأول مرة فى التاريخ – شعبا كاملا ، يعرف الشريعة ويتكلم عنها ، ويتباحث حولها ، كل فرد يعرف الله الإله وحده دون وساطة ، كل فرد فيه يعرف أنه ابن أنبياء ، وأن الله قد اختصه واختاره .. شعباً يتكلم عن الأنبياء وقصصهم وعن وصايا الرب ، وحول بدء الخليقة ونهايتها ، وحكمة الحياة ، وفلسفة الموت . شعبا كاملا يبتهل إلى الله ؛ لكى يثمر الزرع .. ويصلى لكى يهبط المطر من السماء ، والرب ينظر إليه دائماً ؛ ليحاسبه ويقرعه أن خرج عن طريقه ، شعبا يحمل للعالم مصباح النور ، ويقدّم مثالاً لما يجب أن تكون عليه الشعوب ، نموذجاً لاحترام الشريعة ، بينما شعوب العالم يحكمها آلهة

الكذب ، منك يا « أورشليم » انتقلت إلى أثينا ثم إلى روما معرفة الشرائع وحب العلم والمعرفة .. منك يا « أورشليم » تعلم العالم كيف يحترم الشعب الناموس ، وكيف تكون المثل العليا والتضحية بالنفس والمال والأبناء . لا أدرى لماذا يحقد العالم عليك يا « أورشليم » !! كل جبار لايشعر باكتمال نصره إلاّ إذا أذلّك يا « أورشليم » !! ، كأنما يعز عليهم أن يروا شعبا لاينحنى لجبروتهم !! شعبا يمجد الله وشرائعه أكثر مما يمجدهم ويمجد عظمتهم الزائلة ، لكننى أقسم أننا لن ننكسر مهما طال بنا الزمان .. لقد استطاع « يهوذا المكابى » أن يكسر شوكة « السلوقيين » الذين حاولوا أن يفرضوا آدابهم وآلهتهم على شعبنا ، وأن يقيم دولة« المكابيين » ، وأن يطهر « أورشليم » والهيكل من كل أرجاسهم ، وأن يصمد مائة عام ، حتى كان الاحتلال الرومانى ، ولكن سوف يأتى ـم قريب نطرد فيه الرومان ، ونكسر نسرهم ، يوم يعود فيه مجدك يا « أورشليم » ..

...وأحس « بنيامين » بالتعب والشقاء وبرأسه ينسحق أمام هذه الأفكار ، وساقته قدماه إلى حانة « ديموبستيس » ، فهنالك على الأقل يتخلص من أفكار قلبه المزعجة ، وينسى متاعبه وشقاءه .. وحينما وصل إلى الحانة ذهب مباشرة إلى حجرة « سيمون » واستقبلته « سيمون » كعادتها بفرح كبير .. ورآها « بنيامين » تحت ردائها الشفاف كإحدى آلهة الجمال كما يتصورها الأغريق .. احتضنها بقوة وهى تتمتم فى أذنيه :

– مشتاقة .. مشتاقة .. مشتاقة إليك جداً .. أحبك .. أحبك أكثر من أى شىء فى الوجود .

– وأنا أحبك ومشتاق إليك .

- أنت كذاب . أنت لاتعرف الحب .. أنت لاتعرف الشوق .. أنا بالنسبة إليك إمراة تشتهيها أحيانا ، فتأتى لتأخذ ماتريد ، ثم تنساها بعد ذلك .

..أبعدها « بنيامين » برفق ، ثم جلس بجانبها وهو يقول فى تودد :

- أنت تعرفين أننى أحبك

- قلها مرة ثانية .. قلها باستمرار .. قلها لى دائما .. أنا لاأريد منك غير أن تحبنى ، لاأريد منك أى شيء إلا الحب ، أن أشعر بحنانك ، إن أسعد لحظات حياتى هى التى أكون فيها بين يديك .. آه : لو تعرف كم أحبك !! أنا لاأعرف السعادة الحقيقية إلا معك .. أنت الحب الذى ظللت أحلم به طول حياتى ، وددت لو أغلق عليك حجرة لايراك فيها أحد أبدا سواى ..

..ثم قالت مبتسمة :

- أذهب إلى عملى ثم أعود لأجدك فى انتظارى .. أريد أن أمتلكك ، أن تكون لى وحدى .. هل تفهم هذا يا « بنيامين » حقا ؟

- « سيمون » .. تعرفين أننى أحبك وأننى أشتاق إليك .. ولكن أنا رجل له روابط وعليه أعباء نحو أهله وأولاده ، وعمله وأصدقائه ، ومشاغل أخرى كثيرة ..

- دعك من هذه الأعذار .. فأنا على استعداد لأن أترك العالم كله لأعيش معك وفى أى مكان .. فلماذا لاتكون أنت كذلك ؟ .. إن هذا حظى أن أحب إنسانا ميت القلب .

- آه لو تعرفين مافى قلبى .. قلبى أتون نار .. هناك أشياء كثيرة

تعذبنى وتشغلنى .. ولكن ماذا أقول لك ؟ !

– تكلم ماالذى يعذبك ؟ أتعتقد أننى لن أفهم ماتقول .. تكلم .

– ماذا أقول لك ؟ .. هل تصدقين أن مايعذبنى هو أن أرى أقدام الرومان تذل « أورشليم » وتستعبدها ؟ .

– أهذا مايعذبك ؟ ! إن الرومان يحكمون العالم كله .. فمصر كذلك يحكمها الرومان .. وماذا يمكن أن نفعل نحن .. ثم إن الرومان ليسوا بهذه السوء .. فالأحوال فى « مصر » وفى « أورشليم » لم تكن أحسن حالا قبل مجيئهم .. بل يقولون : إن إرادتهم الحازمة جعلت المنطقة أكثر أمانا ، فأنت تسافر اليوم من الإسكندرية إلى أورشليم أو قبرص ، أو أنطاكية ، أو روما تحت حمايتهم .. لتعمل ، وتتاجر ، وتتعلم ، أو حتى للزيارة والمتعة دون خوف – أليس كذلك ؟ .. فلماذا ننظر للجانب السيئ من الرومان ولانرى الأشياء الحسنة التى فعلوها ؟ .

– ولكن « أورشليم » تختلف عن غيرها من البلاد ؛ إنها قلب إسرائيل ومدينة الهيكل المقدس .. إن الهيكل هو بيت الرب إله إسرائيل .. وكل يهودى هو آثم أمام الرب مادام النسر الرومانى معلقا على الهيكل ، فهو علامة على الذل والعبودية .

– لاإذلال ولا عبودية ، أنت تشعل نار الغضب بأفكارك هذه ، كل منتصر لابد أن يرفع راياته على البلاد التى فتحها ، ثم قل لى ماذا بيدك أن تصنع .. ؟ .. هل يمكنك أن تقف أمام الرومان ؟ دعك من هذا ودعنا ننعم بأجمل أيام شبابنا ، ألا يكفى أنى أحبك كل هذا الحب .. لماذا لانعيش سعداء ، وننثر هذه السعادة على كل ما حولنا ؟ .. إنى أحبك وأنت تحبينى ، ألا يكفى هذا لتكون سعيدا ؟

ـ هذا حسن « ياسيمون » ، ولكن ...

ـ ولكن ماذا ؟ إن ألف رجل يتمنى أن أقول له فقط إننى أحبه . ألف رجل يتمنى أن أكون راضية عنه .. دعنى أصارحك أنكم يارجال « أورشليم » تحملون كل كآبة العالم .. أنت تبدو احيانا تمثالا للكآبة ، لست أدرى على أى شيءأحبك ..

.. تنهد « بنيامين » وقد أثارته هذه الكلمات ؛ لما فيها من حقيقة يدركها هو قبل أى شخص آخر ، ثم قال فى محاولة لإرضائها :

ـ معك حق .. الحق معك يا « سيمون » .. نحن نحمل هموم العالم كله .. كأنما نولد شيوخا عجائز .. أنا أحس أحيانا أن عمرى مائة عام ، مثلى توفرت له كل أسباب السعادة ، وهو شقى بأفكاره .. أفكر كثيرا فى الحياة والموت وفيما بعد الموت ؛ .. كأنما شد على جسدى رداء ضيق من مثاليات لاأطيقها ولاأستطيع منها فكاكا ، ولكن دعك من هذا ؛ إن أجمل أيامى معك لم تأت بعد .. سأنعم معك يوما بسعادة صافية .. ولكن إن لم أشك لك فلمن أشكو ؟

.. واحتضنها « بنيامين » فى شوق وحنان ، وهى تكاد تذوب من فرط السعادة بين يديه .. وخرج « بنيامين » ليجلس بين رواد الحانة ، فى انتظار « سيمون » الغانية الفاتنة .. وعلت نغمات القيثارة والدفوف ، وظهرت «سيمون » .وتابعتها أعين السكارى متلهفة ، تنهش جسدها العارى البض .. وقاوم « بنيامين » فكرة أن يغار عليها ، حتى تغلب عليها تماما ــ وكانت عينا «سيمون » لاتريان فى الحانة إلا « بنيامين » كأنما هى ترقص له وحده ، وأشعل ذلك فى قلب « بنيامين » اللهفة والرغبة والشوق إليها ، وعاوده داؤه القديم لقد فقد السيطرة على

نفسه ، فصمم على نيل رضاها هذه الليلة مهما كلفه ذلك من ثمن ، واستعان على ذلك بمزيد من الكئوس يتناولها فى نشوة ، كانت «سيمون » تدور ولا تكاد تبتعد عنه حتى تقترب منه ثانية ، إنه يعلم أنها ترغب بل تتمنى أن يقف ليرقص أمامها ..أن تفخر به أمام الجميع ، وأن تصرخ قائلة : هذا هو الرجل الذى أحبه ؛ إنها تريد أن تخرجه من عالمه إلى عالمها هى .. وبدأ الصراع الرهيب داخل « بنيامين » .. فكم من مرة أرادت منه ذلك وهو يقاوم فى عناد .. ولكنه مصمم هذه الليلة على أن ينطلق إليها أن ينطلق إلى عالم الحب واللذة والمرح ، إنه لايريد لعقله أن ينتصر ، بل يريد أن يذهب عقله إلى الجحيم ، لكم تمنى وراودته الأحلام أن يقوم ويرقص ويرقص ؛ حتى ينتصر على « سيمون » بالرقص .. نعم سيستمر فى الرقص أمامها وبقوة ؛ حتى يرى نظراتها المستسلمة ترجوه أن يكف .. حينئذ سيعود إلى مقعده كالقائد المنتصر يملؤه الفخر . واشتد العذاب فى قلب « بنيامين » لماذا لايفعل ؟ ، أليس قهرها بالرقص هو متعة أكبر ، وأقل إثماً من أن يقهرها فى الفراش ؟ وتعجب « بنيامين » من نفسه !! لماذا لا يطلق هذا الشيطان الرابض فى أعماقه يعذبه ويضنيه ؟ ماالذى يخشاه ؟ .. ألسنة الناس . إن يقال أنه تدله فى حب غانية ؟ كلا فالناس فى « أورشليم » أبناء عاهرات ، إنهم يقدسون الرجل القوى الفاجر الماجن . الذى يحقق أمامهم كل أحلامهم المكبوته ، إن امرأة مثل «سيمون »يتمناها كل رجل فى « أورشليم » .

..وعقد « بنيامين » العزم على أن يقوم ويفاجىء «سيمون » بالرقص أمامها .. أى فرحة حلوة ستعلو وجهها !! ، ولكن مابالـه قد تسمر على مقعده ؟ . أى قوة خفيه تقبض على قلبه فتمنعه ؟ ! إنه يحس كأنما شلت ساقاه .. كاد أن يصرخ صرخة شيطان مارد يريد أن ينطلق

من قمقمة .. وأحس « بنيامين » برغبة شديدة فى أن يجهش بالبكاء وفجأة تسلل « بنيامين » خارجا تتبعه نظرات «سيمون » المتسائلة المتوسلة العاتبة .. وما إن ترك « بنيامين » الحانة حتى أسرع إلى بيته ؛ ليرتمى فى الفراش .

..قضى بنيامين ليلته وحيدا مسهدا ضيق الصدر ، يكاد يختنق من ثقل الهموم والأفكار . وفى الصباح اصطحب خادمه « يوسف » وتوجه إلى مزرعته الجنوبية على طريق « بيت لحم » .. وحينما كان يجتاز بوابة « أورشليم » عند خروجه ، رأى جند الرومان يقفون فى كبرياء يحملقون فى الداخل والخارج من أورشليم ، وألقى عليهم بنيامين التحية فى شيء من الانكسار والمداهنة ، وأحس كعادته بجرح فى قلبه لهذا الذل الذى أبداه لهم . وهبطا إلى الطريق .. ورأى « بنيامين » البساتين الخضراء على الجانبين ، وجبل الزيتون يمتد أمامه وقد بدت السماء خلفه رائعة مشرقة حزينة .. وتمنى بنيامين لو تصفو نفسه ليسعد بجمال الطبيعة ويمتزج به ، ولكن كيف ذلك ونفسه كئيبة ، وقلبه ملىء بالأحزان .. وأخذ بنيامين يستعيد حديث الأمس عن « المعمدان » فهو يظن أن الذاهبين إليه يتوبون على يديه حقا ، ولكن هل يمكن أن يتوب هو الآخر ؟ .. هل يمكن أن يترك السكر وهو الذى ينقذه من شقائه ؟ .. هل يمكن أن يبتعد عن سيمون ؟ .. وهل يصبح للحياة معنى إذا ترك السكر وحياة الأحلام ؟

..إنه من الممكن أن يتوب ويعيش حياة الفضيلة ، لو عادت أمجاد إسرائيل ويهوذا ، لو وجد بيئة صالحة يتنفس فيها الخير ، أما أن يتوب وهو يرى كل هذه النفوس الدنيئة والقلوب المريضة من حوله !! ، أما أن يتوب وأقدام الرومان تطأ « أورشليم » وتدنس الهيكل !! ، أما أن

يتوب وأرجاس الكهنة تنجّس بيت الرب فهذا هو المستحيل ، مستحيل أن يتوب وأن ينعم بالتوبة والسلام ، وهو يرى كل ذلك حوله . إن هؤلاء الذين يذهبون ويعودون تائبين مرتاحى الضمير ، إنما هم يهربون من واجباتهم نحو « أورشليم » ونحو الشعب والناموس .. إنهم فقط يريدون أن ينعموا بحياتهم فى ظل راحة الضمير .. إنهم على أفضل الحالات سيكونون كالأسينيين الذين يتركون فساد الدنيا ويتقوقعون على أنفسهم ، ولكن هل هذا يعفيهم من واجباتهم نحو الشعب ونحو « أورشليم » وهيكلها المقدس الذى دنس بالنسر الرومانى فوقه ؟ مثل هؤلاء التائبين لم يؤرقهم يوما آلام وآمال شعبهم ! إن هذه هى تقوى الجنباء .. نعم هذا سبيل الجنباء .. فما أسهل أن يترك المرء كل شىء خلف ظهره ، وينعم هو بالسكينة والسلام !

... كانت هذه الأفكار تجعل « بنيامين » لايحسّ بمشقة الطريق ؛ فهو يستغرق فيها تماما ذاهلا عما حوله ، فلا يحس بمرور الساعات ، وحينما وصلا إل البستان ، اتجها إلى اليمين عبر ممر صغير بين الحقول حتى وصلا إلى بيت صغير ، خرجت منه امرأة فى الخمسين من عمرها ، حيّت « بنيامين » فى احترام ، ثم أقبلت على « يوسف » تقبله فى حنان وشوق بالغ ، والدموع تترقرق فى عينيها ، وتأمل « بنيامين » « يوسف » وهو يبدو فى أحضان أمه أليفا مستكينا وادعا ، يرتشف فى دفء من بحر حب وحنان زاخر ، فغبطه « بنيامين » وتمنى لو يجد ابنه « شاول » مثل هذا الحنان ، ولكن أنّى « لإيزابيل » مثل هذه العواطف الجياشة الصافية ؟ !

..سألها « بنيامين » عن زوجها « جلعاد » ، فأخبرته أنه فى البستان مع بعض التجار الذين جاءوا لفحص المحصول .. كانت المزرعة

تتكون من بستان زرع نصفه كروم ، والآخر زيتون ، وأرض تزرع بمحصولات آخرى .. وحينما جاء « جلعاد » تكلم كثيرا مع « بنيامين » ، ثم دار الحديث حول السنة المقبلة وهى سنة « سبوت » .. وقد تعود « بنيامين » أن يحافظ على الناموس ، فهو يزرع أرضه ست سنوات أما السنة السابعة فتترك الأرض بدون زرع ولا حصاد ، حيث تستريح الأرض كما يستريح الإنسان يوم السبت من كل أسبوع ..
لذلك فقد طلب « جلعاد » أن يعود هو وزوجته بعد بيع المحصول إلى بلدته . حيث لاعمل يذكر له فى العام المقبل ، ولكن « بنيامين » رفض رفضا قاطعا ، ولامه على فكره هذا وأشعره بأنه لاغناء عنه دائما ، وأن ما بينهما أصبح أكثر من صلة العمل وأنه فى مزرعته وهذه هى بمثابة أرضه .. فشكره « جلعاد » ودعا له ، ثم طلب « جلعاد » أخيرا أن يسمح لهم « بنيامين » بالسفر إلى « المعمدان » ، وطلب فى استحياء أن يصحبهم « يوسف » ، حتى لايحرم من بركات هذا النبى الكريم ، ولكى يحفظه ذلك من أن يسلك طريق الشر ..

..تأثر « بنيامين » من صدق مشاعر « جلعاد » وأسرته ، وأصر على أن يترك لهم « يوسف » ؛ لكى يقضى معهم هذه الأيام ، حتى يحين موعد سفرهم إلى برية الأردن فيسافر معهم ..

..وعاد « بنيامين » وحيدا ومنظر السعادة على وجهى الأم والأب ، وهما يحتضنان وليدهما ويلهجان بالشكر والدعاء له لايفارقه . كم يشتاق إلى مثل هذه السعادة الصافية وكم يحن إلى مثل هذه الحياة البسيطة الوادعة ! بعد أيام تذهب الأسرة البسيطة السعيدة الفقيرة إلى المعمدان ؛ لتغسل الذنوب وتجدد التوبة .. وأى ذنوب أرتكبها هؤلاء ؟ ! لاشيء .. لاشك أن توبة هؤلاء ستكون صادقة ، وأنهم سيعدون من عنده كالأبرار .

...وإنهال « بنيامين » على نفسه تبكيتا وتقريعا ، فحتى متى يا « بنيامين » ترتكب الكبائر وتخالف الوصايا ؟ ! حتى متى تجلب الهموم والشقاء على نفسك وعلى أسرتك ؟ ! حتى متى تأكل النار أحشائك ولن تتركك إلا حطاما ؟ إنك تعطى بيتك المال ، ولكنك تحرمه مثل هذه السعادة ! لماذا لاتذهب مع « إيزابيل » وولديك : « شاول » و« دينا » إلى « المعمدان » ، ثم تجعل من هذه الرحلة بداية حياة جديدة وطريقا جديدا ؟ ألا تفكر فى ولديك ؟ ! فمن أجلهما غير حياتك .. كم تقصر فى حقهما ، وحق زوجتك ، وحق نفسك !! ألا ترى أسرة « جلعاد » وما هى فيه من سعادة لاتشترى بمال الدنيا ؟ ! .. أليس من المؤسف حقا أن يسبقك « جلعاد » بأسرته إلى رحمات السماء ؟ .. أفى كل يوم يقوم نبى « كالمعمدان » ؟ وماذا تريد أنت أكثر من هذا ؟ نبى من السماء تعرف أنه صادق ، وتحس بأنه من عند الرب أتى ، ثم ها أنت ذا تتكاسل فى أن تذهب إليه !

ظل الصراع يشتد فى نفس « بنيامين » ، وهو يقطع الطريق مسرعا فى العودة إلى « أورشليم » ، وحينما لاحت له مقابر المدينة ، تذكر أباه وحياته الطويلة بينهم ، وكيف جرؤ على أن يواريه التراب بين هذه المقابر الصامته الموحشة ! ، كم أتى بعد ذلك إلى هذه المقابر ، وفى كل مرة يحملون أحد الأهل أو الجيران إلى هذا المكان ، ثم يتركونه وحيداً ويعودون إلى بيوتهم .. هل ستأتى ساعة يحملونه هو إلى هذا المكان ثم يتركونه لهوام الأرض تنهش فى جسده ، ويعود الأهل والأصدقاء إلى حياتهم ثم ينسونه بعد حين .. أهكذا تنتهى كل هذه الحياة ؟ ! والتهبت مشاعر « بنيامين » ورق قلبه ، فقرر الذهاب إلى المعمدان ..

* * *

اللوحة الثانية

زوبولون الأبرص







..أورشليم مدينة مقدسة منذ أزمان بعيدة .. ففى أيام « إبراهيم الخليل » ، كانت « أورشليم » هى مدينة اليبوسيين ، لذلك أطلق عليها أسم مدينة « يبوس » نسبة إليهم .. ولكنها كانت تسمى كذلك « أورساليم » ، وكلمة « أور » باللغة السومرية تعنى مدينة فهى مدينة « ساليم » ، أو مدينة « السلام » .. وفى ذلك الزمان كان يحكمها ملك يبوسى عظيم هو « ملكى صادق » .. ولابد من أنه كان رجلا صالحا موحدا بالله ؛ ذلك أن « إبراهيم » كان صديقا له . كذلك يبدو أن المدينة كان بها بيت للرب لأن إبراهيم أطلق على « ملكى صادق » كاهن الله العلى ، وكان يرسل إليه زكاة أمواله ، وهى ماكانت تعرف بالعشور ، حيث يعطى الكهنة عشراً من كل مال يأتيه حتى يطهر المال .. وقد صورت أسفار العهد القديم لقاء أبينا إبراهيم بملكى صادق بهذه العبارات « ..وملكى صادق ملك شاليم أخرج خبزا وخمرا ، وكان كاهنا لله العلى ، وباركه وقال : مبارك إبرام « إبراهيم » من الله العلى مالك السموات والأرض .. فأعطاه أى (إبراهيم) عشرا من كل شيء » .

ولاندرى هل ظل أبناء إبراهيم يعطون العشور لكهنة شاليم أم لا ؟ ، ولكن الأرجح أن هذا الأمر انتهى بوفاة « ملكى صادق » لأنه كان رجلا صالحا ، أما من أتوا بعده ، فلم يكن لهم ذكر فى الصالحين .

..وعندما بعث موسى وخرج ببنى إسرائيل من مصر إلى سيناء ، جعل الكهانة عند أخيه هارون يرثها أبناؤه من بعده ، وأصبحت العشور

تعطى لهم ، ولما كان بنو إسرائيل دائمى التنقل فى ذلك العهد ، فلم يكن هناك بيت ثابت للرب ، بل كان بيت الرب عبارة عن خيمة تتنقل معهم أينما ذهبوا وسميت بخيمة الاجتماع ، حيث كان الوحى يهبط على موسى فيها .. وكانت الخيمة كبيرة تحتوى المذبح ، حيث تقدم الذبائح للرب ، وكذلك المائدة المقدسة حيث توضع عليها التقدمة (مايقدم للرب من نذور وتقدمات) ، والمسكن وهو المحراب الذى يتعبد فيه ، والتابوت المقدس الذى يحوى صحائف موسى ، وسمى التابوت بالمقدس ، لأنه يحوى عهد الرب لبنى إسرائيل ، لذلك كان هذا التابوت دائما مصدر الإلهام والتأثير فى قلوب بنى إسرائيل ، وكان وجوده بينهم علامة النصر ورضا الرب ، وكم بث فى قلوب الرجال الشجاعة والرغبة فى الشهادة فى حروبهم مع أعدائهم ؛ فهم يدافعون عنه بأرواحهم ، لأنه علامة على المواثيق التى أخذها الله مع شعب إسرائيل ..

..وحينما انتزع « داود » الملك « ساليم » من يد اليبوسيين ، سميت « بمدينة داود » ثم عرفت بأورشاليم ، وقد اتخذها « داود» مركزا لملكه ، فهو يعلم مالهذه المدينة من قداسة منذ أيام أبيه « إبراهيم » ؛ لذلك أراد أن يعيد بناء بيت الرب بها ؛ فأوصى ابنه الملك « سليمان » أن يبنى فيها من جديد بيتاً للرب ، لتعود للمدينة قداستها .. وحينما ورث سليمان ملك « داود » أنفق أموالا طائلة ، قدرت بخمسمائة ألف ألف قطعة من الذهب ؛ لبناء بيت الله ، وهو ماسمى بالهيكل المثدس .

..كان الهيكل طوله ستون ذراعا ، وعرضه عشرون ، وارتفاعه ثلاثون ، وقد كسيت حجارته كلها بذهب خالص ، وقسم من الداخل بخشب الأرز المنقوش بالذهب ، وفى أقصى الداخل يقع المحراب أوقدس الأقداس ، عليه باب ذو مصراعين من خشب الزيتون ، ومحلى بالنقوش الذهبية ، وقد إمتدّ بعرض المحراب سلاسل من ذهب خالص .. وفى وسط

الهيكل وضع التابوت المقدس ، الذى صنع من خشب السنط بطول ذراعين ونصف ، وعرض ذراع ونصف ، وارتفاع ذراع ونصف ، وغطى بالذهب من الداخل والخارج ، كما زين بأكاليل الذهب وعلى كلا جانبيه ا' صقت حلقتان ذهبيتان ، توضع فيها عصوان من خشب السنط المغطى بالذهب ، ليحمل التابوت بهما ، وكان غطاء التابوت لايقل روعة عنه بل يزيد بنقوشه وأكاليله الذهبية .. والتابوت فوق مائدة من خشب السنط أيضا ، ومغطاة بالذهب لها أربع حلقات بعصوين مثل التابوت .. فإذا نظرت إلى التابوت على مائدته ، بهرت عينيك روعة المنظر وبهاؤه ، وخطف بصرك لمعان الذهب الخاص . الذى حرص خدام الهيكل على العناية بنظافته ، ونظافة المكان كله دائماً .. وقد امتلأ المكان بشمعدانات الذهب ، وزخارف الذهب ، ومخازن الذهب الذى جمعه الكهنة من النذور ، ومن العشور التى يدفعها كل يهودى - فخليق بأن يسمى الهيكل بمعبد الذهب ..

أما خارج الهيكل فقد أمتدت الأورقة بين أعمدة خشبية ، وقد اتخذت مع الزمن أشكالا مختلفة حسب استعمالاتها .. فعلى اليمين بهو المجلس الأعظم (السنهدرين) ، حيث يلتقى رؤساء الهيكل ، وهم سبعون رجلا من كبار الكهنة والفريسيين والشيوخ ، يرأسهم رئيس الكهنة .. كذلك اتخذ العلماء لهم أماكن مختلفة خصصت لحلقات العلم ، وكان بيت « سليمان » قديما مجاورا للهيكل ، ولكن فى العصر الذى تدور فيه أحداث هذه الرواية ، كانت المنطقة المحيطة بالهيكل أقل نظافة ، وأكثر فوضى ، فقد انتشر التجار والصيارفة ، حيث تمتلىء بهم أروقة الهيكل أثناء النهار ، يبيعون ويشترون تحت مظلاتهم ، وتعلو صيحاتهم لتحيل المكان إلى سوق مزدحم .. أما فى الليل وبعد أن ينصرف التجار إلى بيوتهم ، فقد يبقى

بين هذه الأورقة بعض المتسكعين و الفقراء والمتسولين من ذوى العاهات ، حيث يفترشون الأرض قرب أسوار الهيكل الخارجية .

..وفى ليلتنا هذه ، وحول أحد الأعمدة جلس أربعة رجال من فقراء « أورشليم » هم : « حيلون ، وشمشون ، زوبولون ، وعكرون » ، وقد جلس « عكرون » ماداً رجليه مسنداً ظهره إلى قاعدة العمود ، عريض الصدر قوى الأكتاف والذراعين ، حيث يستعملها فى تنقلاته منذ أصيب بشلل فى ساقيه أعجزه عن المشى .. وجلس بجواره « حيلون » نحيلا كأنه هيكل عظمى ، غطى بغلالة جلدية رقيقة ، وقد برزت عروقه فوق سطح بشرته .. وفى مواجهتهما جلس « شمشون » الأعور ، و« زوبولون » الأبرص ، وقد كانت هذه صفات حقيقية غلبت على اسميهما فاشتهرابها .

... جلس الرجال الأربعة ، وهم نمط غريب من البشر ، سحقتهم الحياة ، ونبذهم المجتمع ، لكل منهم قصة – ولابد أليمة طويلة – دفعت به إلى ماهو عليه الآن .. فهؤلاء الرجال ! ألم يكونوا يوما ما أطفالا صغارا لايقلون نضارة وبراءة عن كل الأطفال ؟ ، ولكن تصاريف الحياة أخلقت وجوههم وشوّهتهم ،وتعلموا من قسوة الناس حولهم ، أن الحياة غابة يحكمها القوى ، ومن يملك شواقل الذهب والفضة فإنما يملك الأظافر والأنياب .

..وكان حديثهم عادة أشبه مايكون بالشجار ، فترتفع أصواتهم وتحتد ، وتسمع منهم كثيرا من الألفاظ البذيئة ، ثم فجأة تسمع ضحكة عالية ، أو ترى أحدهم يضرب الآخر بالنعال وهو يسبه سبا قبيحا ، وقد ضج الآخرون بالضحك .. وحديثهم لايخرج عن أحاديث المال والطعام ، وأحيانا الخمر والنساء ، أو يروى أحدهم حادثة سمعها أو

شاهدها ، ولكن كانت هذه الساعات التى يقضونها معا هى لحظات الأمن والسلام التى ينعمون بها ، فهم معاً ينسون متاعبهم ، ويستمد كل منهم من صحبة الآخرين قوة وشجاعة ، كما يرى فى مشاكلهم وآلامهم عزاء لما يعانيه هو فى حياته .

..ونظر « عكرون » إلى أصحابه ، ثم قال فى أسى :

– ألا ينوى أحدكم ياأشباه الرجال ، أن يذهب إلى هذا النبى الجديد ؛ ليحكى لنا عما يراه ؟ .. آه لو أن ساقىّ سليمتان ! ، إن كل من رآه يقول : إنه نبى عظيم .. اليوم سمعت أناساً ممن ذهبوا إليه يتكلمون – إنهم أناس من السادة ، وكان أحدهم من الكهنة – ولكن كانوا يتكلمون عنه برهبة واحترام شديد .. أحدهم قال : إنه مثل « إيليا ، وأشعياء » ، وآخر قال : إنه يقف ضد الأغنياء والكهنة .. ويقولون : إنه لا يلبس إلا خشن الثياب ولا يأكل إلا جراداً وعسلاً من الجبال وهو يقول : بأن من عنده ثوبان فعليه أن يعطى الفقراء ثوبا ، ويحتفظ بالآخر .. وهو سليط اللسان ، لقد سب الرؤساء والكهنة والفريسيين ، قائلا لهم : يا أولاد الأفاعى .. ولم يجرؤ أحد على معارضته .

.. كان « عكرون » يتحدث بجدية وحماس ، فساد الاهتمام وجوه أصحابه ، ورغم أنهم سمعوا من قبل عن « يوحنا المعمدان » من كثيرين .. ولكن حديث « عكرون » جعلهم ينصتون فى اهتمام ، فقد أحسوا أن « المعمدان » يقف معهم ضد الرؤساء والسادة .. ولكن « شمشون » الذى كان قد أعد حديثا ليفضى به إلى أصحابه . أراد أن يذهب بأثر حديث « عكرون » حتى يستطيع هو أن ينجح فى مسعاه الذى يسعى إليه ، لذلك قطع صمت أصحابه قائلا فى سخرية :

– ولماذا لم تذهب أنت .. مادمت فى هذا الحماس ؟

..أجاب « عكرون » وهوينظر إليه شزرا فى غيظ مصطنع :

– وكيف أذهب ياابن اللئيمة ؟ أأذهب زحفاً ، أم أركب الفرس التى تركها لى أبى ؟ .. وكيف يأكل الأولاد ؟ ! من القمامة ؟ ! ..إن أعبائى ثقيلة : زوجة ، وخمسة أطفال .. ولكن أنتم والحمد للرب ، لايحمل أحدكم سوى همَّ بطنه فقط ، فلا زوجة ولا أولاد !! لمست هذه الكلمات جرحا فى قلب « زوبولون » فنكأته ، وظل يردد فى نفسه : لازوجة ولا أولاد !! ، لازوجة ولا أولاد !! ، وانفجر فى قلبه بركان من المرارة ، لو تحققت أحلامه التى رسمها لنفسه لكان له اليوم زوجة وأولاد ! ، لولا أن فاجأة هذا البرص اللعين لكان اليوم ينعم بحياة صالحة !! ولكن لأنه أبرص فإن الناموس قد حكم عليه بأنه أصبح نجسا لايقربه أحد .. فإذا ماشفى فعليه أن يذهب للكهنة ليعلنوا طهارته ؛ حتى يسمح له بعد ذلك بمخالطة الناس ..

وهكذا فقد ابنة عمة التى التى رغب فيها من صغره ، وكانت مخطوبة له ، وفقد كل الأحلام والأصدقاء ، وألقى به فى مستنقع البؤس والعذاب ! – تنهد « زوبولون » وقأل فى حقد شديد :

– فليذهب جميع الأنبياء إلى الجحيم .. هل تصدقون حقا أنهم يهتمون بأمثالنا ؟ .. إنهم يهتمون بالكهنة والأغنياء ، ليكونوا عظماء بينهم .. وهذا « المعمدان » أكثرهم حقدا ، إنه يريد أن ينتقم من كل الكهنة بل من « أورشليم » كلها ؛ لأنهم قتلوا أباه...قاطعه « عكرون » بتهكم :

– ومن أين لك كل هذا العلم ؟ !

ـ لقد سمعت عنه كل شيء ، إننى أعرف حكايته منذ البداية ، هذا « المعمدان » كان نذيرا منذ طفولته ، فقد رزق به أبوه بعد أن أدركته الشيخوخة ويئس من أن يكون له ولد . ويقال بأن أباه كان رجلا صالحا قتله الكهنة ، بعد أن قالوا : إنه يجدف ، وقد نذره أبواه للرب ، فهو منذ ولادته حتى اليوم لم يقص له شعر ، ولم يلمس ميتا ، إنسانا كان أو حيوانا ، لذلك فهو قد عاش حياة حرمان منذ صغره ، وقد نشأ حاقدا على الكهّنة ؛ لأنهم هم الذين قتلوا أباه ؛ فهو يريد أن ينتقم منهم ؛ إنه يجمع حوله الشباب ؛ لكى يزحف بهم على « أورشليم » ، فيقتل كل رؤساء الهيكل ، لقد أعمى الحقد قلبه ، فقد كان الطريق أمامه ممهداً ليصبح من الكهنة أو الرؤساء ، ولكنه يسعى للانتقام إنه لن يهدأ حتى يرى دماء الكهنة تسيل على أرض الهيكل ، أما أن يظن الحمقى من أمثالنا أنه حقا يعمل من أجلنا فهذا كذب وباطل ..

..يقولون : إنه قوى كالثور ، فهل يحس بما نحن فيه ؟ ! هل عرف مانعانيه من حرمان ؟ ! إنما هو المجد يتقاتلون من أجله .. أما نحن فمن يفكر فينا ! ، ثم إننى لو ذهبت إليه فسيهرب منى ؛ لأننى نجس .

..فقال « حيلون » فى مجون :

ـ أنتِ تذهب إليه وقد أخفيت برصك بالثياب ، ثم إذا ماقرب منك ليلمسك كشفت عنه ، فإذا هرب منك تجرى وراءه وتلاحقه ؛ حتى تحتضنه ..

.. وتعالت ضحكاتهم ، ثم قال « عكرون » بخبث :

ـ وحياة الرب إنها لفكرة جيدة .. تذهب إليه لتجربه . فما أظنه سيمتنع عن تعميدك .. حينئذ نقول للكهنة فيفرحون ؛ لأنه يخالف الناموس .

– فلتذهب أنت والكهنة إلى المزابل .. أنا لن أذهب إلى أى مكان ، ولو كان الرب هو الذى يعمد هناك .. فأنا سأظل هنا ومن أراد أن يعمدنى فليأت هو إلى .. أين الخمر ! أليس مع أحدكم جرعة خمر ؟ !

..كانت كل عوامل المرارة والحقد تظهر على وجه « زوبولون » ، فبدا وجهه كريها بغيضا وتأمل شمشون منظره وهو على هذه الحالة ، فقهقه ضاحكا فى سعادة حيوانية ، وهويظهر العطف على « زوبولون » :

– هاك الخمر .. اشرب .. مالنا نحن والأنبياء نحن أنجاس « أورشليم » .. انظر هذا الهيكل إنه ملىء بالذهب ، وكل هؤلاء الرؤساء ذئاب ولصوص .. إنهم يبدون كخنازير سمينة ، هؤلاء يبتون كل يوم وقد ملئت بطونهم بأطايب الطعام ! ، إنهم لم يعرفوا الجوع أبداً ، وهم يستكبرون أن يلتفتوا إلى أمثالنا ، كأنما هم أبناء الرب ونحن أبناء كلاب ! . اشرب يا « زوبولون » .. اشرب يا مسكين .. دعنى أحدثكم عمن هو خير من « المعمدان » ، سأحدثكم عن رجل سيملأ بطونكم بالطعام والخمر ، عن رجل يحمينا ، ويسهر علينا ، وينقذنا من كل مأزق ، ويفتح لنا أبواب الرزق والسعادة ، وسكت « شمشون » ؛ ليرى أثر حديثه ، فوجدهم ينصتون إليه فى اهتمام ، وقال « حيلون » بتشوق :

– لماذا تسكت .. أكمل .. من هو الرجل الذى تتكلم عنه ؟

– استمعوا إلى .. سأتكلم معكم همسا ؛ لكى لايسمعنا أحد ، وإياكم أن يسمع أحد ماأقوله لكم .. يجب أن يظل هذا سرا بيننا .. أتسمعون ؟

.. فقال « عكرون » باستياء :

–تكلم ياأخى أزعجتنا ، كأنك تتحدث عن « بيلاطس » ..

–صه لاترفع صوتك .. استمعوا إلى . لقد أصبحت أعمل مع السيد « باراباس » وفى إمكانى أن آخذكم جميعا لتعملوا عنده .

..وسكت « شمشون » الأعور ، وأخذ يحرك عينيه يمنة ويسرة ، يتأمل وجوه أصحابه ؛ ليرى أثر كلماته عليهم ، ولكن « زوبولون » قال فى استخفاف :

– السيد « باراباس » !! ، لماذا لم تقل مولاى ؟ أهذا اللص تقول عنه بكل هذا الاحترام والخوف .. السيد باراباس ؟ !

– لاترفع صوتك السيد « باراباس » ليس لصاً إنه لايسرق كما يفعل اللصوص ، بل هو رئيس يهاجم بيوت الأغنياء الذين سرقوا أموال الناس ؛ لكى ينفقها على أمثالنا .. إن له قلب أسد لايهاب أحداً – أسمعتم عن أحد تجرأ وسرق من الرومان غيره ؟ ، لقد فتشوا عنه فى كل مكان ، وفى كل حجر فى « أورشليم » ولكن ولم يعثروا عليه ، ولن يعثروا عليه ابدا ؛ لأن الناس تحبه وتخافه ، ولايجرؤ أحد أن يشى به . إنه رجل –فعلا–وكريم مع الجميع ؛ كما أنه يحب الرجال الذين يساعدونه ويعطف عليه ، ولكنه لايتسامح مع أعدائه أبدا ..

.. وسكت « شمشون » لحظة ثم أكمل فى افتخار :

– لقد رأيته .. نعم رأيته مرتين .. أتعرفون ماذا قال لى ؟ .. لقد نظر إلىّ بعين كالصقر ، ولم أستطع أن أنظر فى وجهه ، ثم وضع يده على كتفى وقال : « شمشون » .. آه أنت « شمشون » الأعور الجبار .. فوجدت نفسى أنكفىء أقبّل يده ، فابتسم فى حنان وأوصى بى خيراً . إنه يعطى المال بسخاء ، وماذا تظنونه سيطلب منكم ؟ ، إنه يريد ولاءكم

له ، وأن تنقلوا له أخبار الهيكل والناس ، إنه — فقط — يريد أن يكون على علم بما يجرى فى « أورشليم » ، إنه يحب أن يعرف كل الأسرار ، ولكن الأعمال الكبيرة يقوم بها وحده ومعه أصحابه الأشداء — هذا شرف لايناله إلاّ من يثبت شجاعته وقوته ..

.. قال « عكرون » فى استفسار لايخلو من تهكّم :

— وأنت واحد منهم طبعاً .

— أنا ؟ . لا .. أنا عرفتهم منذ وقت قصير .. ولكننى أرجو أن أكون منهم ، فأنا لست جباناً ، بل لى قلب كالصخر .. أريد أن أعيش كما يعيش الرجال : خمر ، ونساء ، وطعام وفير ، حتى لو كان ثمن ذلك أن أقتل ، فلقد سئمت حياة الذل ، أريد حياةً عزيزة .. والحياة خلقت للأقوياء .

.. فقال « حيلون » :

— وهل يعطونك أموالاً كثيرة ؟

— نعم يعطوننى الكثير والحمد للرب .. خذ هذا الشاقل وأحضر لنا خمراً ..

.. قال ذلك وهو يخرج شاقلاً من الفضة ، فلمعت عينا « حيلون » ، وكانت أنظار الجميع تتابع يد « شمشون » وهى تدخل وتخرج من جيبه ، وابتسم « شمشون » ثم أخرج شاقلاً آخر ، ورماه « لحيلون » قائلاً :

— وهذا لك

.. أمسك « حيلون » بشاقل الفضة وتحسسه برفق . ثم قال منكسراً :

— إيه .. لم أره منذ زمان .. سأقوم لأحضر الخمر .. ولعلّى أجد بعض الخبز ..

.. فقال « زوبولون » :

ـ حاول أن تحضر شيء نأكله ، أكاد أموت جوعاً ..

.. وأسرع « حيلون » واحضر الخمر ، وقد حمل معه بعض الخبز ، وجاء مسرعاً وهو يبتسم ويقول :

ـ لقد أحضرت لكم خبزاً جيداً ، إنه مصنوع بالعسل والزبد .. لقد تركه بعض زائرى الهيكل .. إنه عشاء جاهز جاهز دون ثمن .

.. فقال « شمشون » باستنكار :

ـ ما هذا الخبز ؟ إنه متسخ وردىء

.. فقال « زوبولون » الذى يبدو أنه كان يعانى من جوع شديد :

ـ هذا طيب .. هات .. فالخمر على معدة خاوية لا يفيد .

ـ مع « باراباس » لن تعرف مثل هذا الجوع يا « زوبولون » أبداً .. ستأكل حتى تنفجر بطنك ..

ـ لا يا « شمشون » يا أخى ، أنا هكذا بخير ، أجوع وأشبع ، فهذا خير لى من أن أقع فى قبضة الجند ، وجلدى كما تعلم لايتحمل سياطهم ولا ركلاتهم .. ثم إننى لا أطيق أن يلقى بى فى السجن ، حيث الظلام والفئران والبرد القارس ..

ـ لاتكن جباناً هكذا .. ألا تريد أن تصبح رجلاً وتأخذ من الحياة ماتريد ؟ ، أنت تعيش الآن كالكلب .. بل أقل من الكلب ، أراهن أنك لم تحصل على امرأة أبداً ، ولكنك حينما يكون فى جيبك شاقل ستجد امرأة لاترى برصك ، بل ترتمى لتقبل قدميك .

.. ثم قهقه « شمشون » ضاحكاً وأكمل وهو يضحك :

ـ .. وأنت يا « حيلون » ستصبح سميناً كالكهنة ، وستأكل اللحم وتشرب الخمر ، وتبيت فى أحضان امرأة كلّ ليلة .. وسيتوب الرب عليك من هذه المياه التى تحملها على ظهرك من الصباح للمساء ،

بل يمكنك أن تستيقظ ظهراً ، بدلاً من قيامك كل يوم مع الشروق .. أنا أعرف أنك أنت الرجل ، وحين توافق سأعطيك شاقلاً آخر .. هيّا ولا تكن جباناً مثلهما

.. لم يكن « شمشون » يطمع فى أن يوافق « عكرون » فهو قابع فى مكانه ، كما أن عنده عائلة هو مسئول عنها ، وهو قانع بحياته ، أمّا « حيلون » فهو واثق من أنه سيوافق ، وهو مفيد لأنه يدخل بيوتاً كثيرة ، ولكن لو وافق « زوبولون » فإنه سيفرح كثيراً ؛ لأن « باراباس » يحب أمثاله ، « فزوبولون » ذكى ويعرف الكتابة ، وله أقارب من علية القوم والسادة فى بيت لحم ، وإن كان لايذهب إليهم ، فإنه يفعل ذلك لبرصه ، ولكنه ذو قلب لايهاب أحداً حتى الرؤساء ؛ لذلك حاول إغراءه قائلاً له :

– صدّقنى إن « باراباس » سيفرح برجل مثلك .. وحينما يرضى عنك ، فلن يتخلّى عنك أبداً .. بل سيعطيك الكثير .. وقل لى بربك من الذى يدافع عنك الآن لو أخذك الجند بسبب أو بلا سبب ، أولو ضربك أحدهم ؟ ، وهل نحن فى حاجة إلى أسباب كى نجلد أو نساق إلى السجن .. حتى متى نعيش جبناء ؟

.. وأخرج « شمشون » شاقلاً آخر من الفضة ، ورمى به إلى « حيلون » ، فالتقطه فى فرح ونهم قائلاً :

– شاقلين من الفضة في يوم واحد !! ، أنا معك حتى لو كنا سنعمل عند الشيطان نفسه ، المجد لباراباس ، قل له : صاحبى هذا ذابل الجسد ، ولكنه قوى كالثور ، وقلبه كالصخر .. أنا يمكن أن أسرق وأن أقتل أيضاً .. فقط عليه ألا ينسانى من هذه الشواقل .. أنا أريد أن أعيش مرةً كسيّد محترم .. سأفعل أى شىء ، ولكن هل يمكن أن أحصل على شواقل من الذهب فى المرّة القادمة ؟

.. قهقه « شمشون » ضاحكاً وهو يقول :

– لقد فجرت مرةً واحدة يا « حيلون » .. اصبر ستحصل على كل ماتريد .

– لقد صبرت طويلاً ! ، أما وقد جاءت الفرصة فلننتهزها .. لو جئت معنا يا « زوبولون » فسنكون قوةً لا يستهان بها ، تعالى معنا يا رجل . ودعنا نودّع حياة الذل ، ونجرّب حياة السادة .. لا يفوز بهذه الحياة إلاّ الأقوياء ، الأقوياء ، هم من يملكون الذهب ، أعطنى كيساً مملوءاً بشواقل الذهب ، وترانى غداً أسير وورائى الخدم ، وأجلس مع الرؤساء والسادة ، وحينما أمشى ينحنى لى أمثالكم . أعطنى الذهب وأنا أتزوج أجمل امرأة فى أورشليم ، بل أتزوج بنت « قيافا » نفسه وأصبح معه من رؤساء الهيكل ..

ابتسم الجميع ، وقال « عكرون » فى وداعة وهو يداعب « حيلون » :

– من يسمعك الآن يظن أنك قد أصبحت غنياً والذهب يتقاطر من ثيابك ! ، أفق هذه أحلام ، وهل « باراباس » يملك كل هذا الذهب .. وحتى لو كان عنده فهل هو ينثره على السفهاء أمثالك بلا حساب ؟ ، إن هؤلاء لايدفعون إلاّ مقابل خدمات أكبر .

– سأقدم له كل الخدمات التى يطلبها .. مادمت سأعمل معه ، فسأعمل بكل إخلاص وجدّ .

.. فقال « زوبولون » ساخراً :

– بإخلاص وجدّ ؟ . أتظن أن الأمر هو قرب من الماء ستحملها ؟ !

.. وأحسّ « شمشون » بأنه لن يكسب هذه الليلة من أصحابه

إلاّ « حيلون » ، فحرص أن ينصرف معه ؛ ليكمل حديثه معه ؛ وكان قلبه مليئاً بالغيظ من « زوبولون » ، فقد كانت رغبته فيه كبيرة ، وأراد أن يلقى بآخر سهم فى جبعته فقال وهو ينصرف :

– أنت يا « عكرون » لك عذر ؛ لأنك قعيد ، كما أن لك أولاداً كثيرين .. أمّا زوبولون فما يقعده إلاّ الجبن .. الرجل الحقيقى هو « حيلون » .

.. وبينما « شمشون » و « حيلون » ينصرفان لاحقتهما شتائم « زوبولون » :

– لعنة الله عليك . أنا أكثر رجولة منك ومن أبيك وأمك وأهلك جميعاً ، لعنة الرب عليكم ، فلتذهبا إلى الجحيم ، فسوف نزوركما فى السجن قريباً ، أو نراكم معلقين على الصليب .

.. والتفت « عكرون » نحو « زوبولون » متحسراً وهو يقول :

– أنا لا أجد ماأسد به أفواه الصغار .. وأحياناً أبيت جائعاً مع المرأة ، وهذا الحيوان يملأ جيوبه بالشواقل ! .. هذا شىء يذهب العقل !

– لاعليك .. إنهم حيوانات جميعاً ، ولا أدرى لماذا لايحرق الله « أورشليم » ؛ حتى نستريح جميعاً ؟ أتصدق أننى لاأستطيع أن أسرق وأقتل وأفعل أى شىء ؟ .. أقسم لك إننى قادر على هذا ، وطالما راودتنى نفسى أن أفعل .. ولكن لم أفعل هذا ؟ ! لماذا أعلن الحرب على الرب ؟ ، ألا يكفى مابيننا من عداء ؟ ، وأنا لاأحتاج لهذا فأنا أعيش حرّاً متسكعاً فى كل مكان .. أنام حيث أريد ، وأجوع ، ولكن فى النهاية أجد ما أمسك به رمقى .. ليس لأحد سلطان علىّ .. لقد أصبح الكسل هو متعتى الأولى فى الحياة . أحياناً لاأستيقظ حتى تلهبنى شمس الظهيرة .. حتى الخمر نرزق بها بين حين وحين .. ولكن الأهم عندى

ألا أحد له سلطان علىّ ، ولا أقبل ذلك لا من « باراباس » ولا حتى من « بيلاطس » نفسه .. لقد غلبت أنا الجميع ؛ لأننى لا أملك شيئاً يحتاجه أحد .. أنا خير من كل هذه الحيوانات : الكهنة والرؤساء والجند ، والكتبة ، وبيلاطس » و « باراباس » . كلهم لصوص ..

.. كان « زوبولون » يتكلم ووجهه يتغيّر ويتلون فى اضطراب ثم تنهّد وأكمل :

ـ هذا الأحمق ابن العوراء يظن أننى جبان .. ولكنه لايعرفنى ؛ إنه جاهل غبى ! .. أنا ! .. أنا « زوبولون » ! ، لقد كنت أجلس مع الصبيان هنا فى الهيكل وأنا صبى ، نتلقى العلم ونلعب .. كنت مثلهم نظيفاً ألبس ملابس غالية الثمن ! ، إن أصحابى أولئك قد أصبحوا اليوم من الكهنة ومن السادة ! ، أتذكر السيد « بنيامين » الذى حكيت لك عنه ؟ ، لقد كنا نأتى سوياً ونحن صغار إلى الهيكل ونعود سوياً ، لقد كنّا صديقين ، الكثير من الكتبة والكهنة والحراس ، مازلت أذكرهم صغاراً ، أمّا هم فإنهم قد نسُوا ذلك أوهم يتناسونه ! ، لعلّ البرص قد غيّر شكلى ؟ ، أو لعلّه الفقر !! ، وأنا كذلك لاأحب أن أعرفهم بنفسى ، فأنا أتجاهلهم كما يتجاهلوننى .. الوحيد الذى أحمل له ودّاً هو « بنيامين » ، إنه يعطينى أحياناً شاقلاً أو شاقلين من الفضة .. أمّا الباقون فهم حشرات نجسة ، والرب ماكنت لأتنازل فأصاحب واحداً منهم فى صباى ! ، ماذا يظنون ؟ ! أنا خير من كل هذه الخنازير ، أنا أعيش بلا كذب ولا نفاق ولا خداع ! . أنا أفضل من كل رجال « أورشليم » الزانية الفاجرة ، كلهم شياطين وذئاب خبيثة .. كلهم ...

.. وتقلّص وجه « زوبولون » وبرزت عروقه على وجهه ورقبته ، وبدت نظراته شاردة مخيفة ، فقال « عكرون » مغيّراً مجرى الحديث :

– ولكن مارأيك فى « المعمدان » . يقولون : إنه رجل صالح وإنه نبى حقاً ؟

– فليذهب « المعمدان » هو الآخر إلى الجحيم .. كلهم مراءون .. إنه يتمتع بحياة البرية .. لابد أنه قوى كالثور ، وهو يحسّ بين الجموع التى تذهب إليه ، بأنه عظيم وذو سلطان ، ولكن هل يحسّ هو بما نحن فيه ؟ ! ، هل يمكن أن يتحمل هو أن يعيش أبرص مثلى ؟ ! ، أنا أتحداه أن يفعل ، إنه سوف يكفر بالرب لو حدث له هذا .. أنا أعرف أنه لن يستطيع أن يحاسبنا على ذهابنا للمعمدان أم لا ؟ أنا أعرف أنه لن يستطيع أن يحاسبنا أبداً .

– عمّن تتكلم ؟

– عن الرب ، إلٰه إسرائيل ، إنه يعرف أننى أتحمل مالا يستطيع « المعمدان » ولا حتى أبانا « إبراهيم » أن يتحمله .. أنا خير من كل الأنبياء هو يعرف ذلك ..

– لاترفع صوتك بهذا التجديف يا مجنون .. وإلاّ رجموك .

– هل بقى شىء من الخمر ؟ هات هذا الخبز ، صب لى خمراً ، أنت غبى مثلهم ، أنت لن تفهم ما أقول ..

.. ابتسم عكرون وقدّم له خبزاً وخمراً وقال فى عطف :

– لاتتحدث بهذا أمام أحد وإلاّ قتلوك .

– فليذهب الجميع إلى الجحيم .

* * *

.. فى الصباح بينما كان « زوبولون » يسير خارج « أورشليم » .. كانت هناك عربة تحمل « بنيامين » وأسرته تقطع الطريق إلى جبل الزيتون ، وتوقفت العربة وأمره السيد « بنيامين » بأن يتعلق خلف

العربة .. وأطاع « زوبولون » أمر « بنيامين » فى صمت ، وقد أقنع « زوبولون » نفسه بأن السيد « بنيامين » محق فى أن جعله يتعلق خلف العربة هكذا ، فهو لا يمكن أن يركب فى العربة حيث زوجته وأولاده .. ولكنه رغم ذلك شعر بالخزى والعار ، وضاق صدره وهو معلق كالقرد خلف العربة .. وكلما تعثرت العربة على أحجار الطريق ، أوجعه اصطدام عظامه بالقضيب الحديدى الذى يجلس عليه .. وقد حدّثته نفسه أن يقفز من العربة ويعود أدراجه ، وليذهب « بنيامين » إلى الجحيم ، ولكن رغبة عميقة فى نفسه إلى أن يرى زوجة « بنيامين » ، وكذلك لأن يعرف سر هذه الدعوة المفاجئة من « بنيامين » جعلته يتحمل هذا الموقف .

.. وما هى إلاّ برهة حتى وصلت العربة إلى بستان « بنيامين » .. فتوقفت العربة بين أشجار الزيتون ، وهبط « بنيامين » أولاً ، وأشار إلى « زوبولون » أن يستريح تحت إحدى الأشجار ، بينما نزلت « إيزابيل ، وشاول ، ودينا » ليستقبلهم بعض الأجراء بالبستان ، حيث أسرعوا بحمل السلال من العربة إلى البيت ..

.. جلس زوبولون بعيداً ، وقد تسمّرت عيناه على « إيزابيل » ، فقد رآها آية فى الجمال والبهاء ، ومثلاً للنعمة والرفاهية ، وصوتها الآتى من بعيد يحمل كل معانى النعومة والأنوثة والدلال ، ولمحت « إيزابيل زوبولون » ، وأدركت مافى نظراته من استكانة وتقديس ، ولكنها أدركت كذلك بغريزتها أن هذه النظرة الذليلة تخفى رغبةً عارمة ، فلم يغضبها ذلك ، بل شعرت بشىء من الرضا والسرور ، وزادت حركتها دلالاً وصوتها نعومةً ، وتعمدت – أو هكذا خيّل « لزوبولون » – أن تطيل وقوفها حيث تعرف أنه يراها ، وتلكأت كثيراً قبل أن تدخل إلى البيت .. وألهب هذا الخاطر خيال « زوبولون » ، وتمنى أن يحصل يوما

على مثل هذه المرأة ، إذاً لعرف كيف يسعدها ويكون لها عبداً مدى الحياة ..

.. وأحسّ « زوبولون » ببنيامين متوجهاً إليه ، فضاعت كل هذه النشوة من رأسه فهبّ واقفاً فى مهانة ؛ لعلّ سببها أنه اشتهى زوجته فاراد أن يكفر عن ذلك ، وأشار إليه « بنيامين » أن يجلس ، ثم جلس فى مواجهته على بعد أمتار قليلة تحت الشجرة المقابلة .. لقد كانت نجاسة الأبرص شيء لا يمكن تجاوزه بسهولة فى « أورشليم » .. وبدأ « بنيامين » حديثه قائلاً :

– كيف حالك يا « زوبولون » ؟

– نحمد الرب .. ياسيد « بنيامين » .

– أليس هناك أمل فى الشفاء .. يقال : إن هناك عقاقير جديدة .

– جرّبت كل شيء ! : الأطباء ، والعرافين ، والسحرة ! ، الشافى هو الرب ..

– إيه !! كم هى عجيبة تصاريف الحياة ؟ كان لحياتك أن تسلك طريقاً آخر ، لولا هذا البرص اللعين !

– كل شيء يستوى الآن ! ، هذه إرادة الرب ..

– نعم هذه إرادة الرب .. استرح هنا وسأرسل إليك بالطعام والخمر ، وسأرسل لك قارورة أخرى تأخذها معك .

– يجزيك الرب خيراً – .

– وفى الصباح انتظرنى فى نفس المكان الذى رأيتك فيه اليوم .. فسوف أحضر لك بعض الملابس .

– ليكافئك الرب .

.. ترك « بنيامين » « زوبولون » وهو متحيّر من تصرفه ويتسائل

ماالذى جرى للسيد « بنيامين » حتى يأتى بى إلى بستانه ، ويجعلنى أركب عربته ؟ هل أصابته لوثة ؟ ! إنه يعرّض نفسه للاستهجان من الآخرين – لابد أنه أفرط فى الشراب ، ولكن حديثه لم يكن يدلّ على ذلك ! ، وحينما مرّت « إيزابيل » أمام « زوبولون » من بعيد ، نسى « بنيامين » وكرمه معه ، وامتلأ قلبه بالحسد أن يكون « لبنيامين » مثل هذا البستان ومثل هذه الزوجة ، تبيت فى أحضانه كل ليلة ، وعلى فراش وثير .. يالها من نعمة كبيرة يعيش فيها « بنيامين » ! ، ولكن أين العدالة أيها الرب ؟ . هو يعطى كل شىء وأنا أحرم من كل شىء ؟ ! ولم ؟ أسيذهب هو إلى الجحيم وأنا سأذهب إلى الفردوس ؟ ! ومن قال ذلك ؟ حتى الأنبياء كانوا يعيشون فى نعمة فى هذا العالم ، فلماذا كل المصائب على رأس « زوبولون » ؟ .. هل أنا أعظم من كل هؤلاء حتى أتحمل كل هذا العذاب ؟ ! ، حتى أيوب لم يطل عذابه هكذا ؟ فلماذا ؟ وماذا تريد منى أيها الرب ؟

.. وبينما زوبولون منشغل بأفكاره ، توقفت عربة ثانية ونزل منها شيخ كبير وبعض النساء .. وانكمش « زوبولون » وتساءل ، ترى من يكون هذا الرجل المهيب ؟ . لابد أنه قريب حميم « لبنيامين » لأنه يتصرف كأنما هو فى بستانه .. لابد أنه أبوه ، أو عمّه ، أو حموه – وحانت التفاتة من الشيخ ناحية « زوبولون » ، فتفرس فيه وعرف أنه أبرص ، فتعكّر وجهه وامتلأ تقززاً ، وصاح فى قسوة كمن يطرد كلباً أجرب ، وهو يتوعد :

– اذهب .. لعنة الرب عليك .. كيف جرؤت على دخول هذا المكان ؟ .. ورفع عصاه مهدداً وهو يقترب من « زوبولون » .. وأكمل : لعنة الرب عليك أيها النجس .

.. اذهب أيها الشيطان اللعين .

.. وأسرع « زوبولون » بالفرار ، ولعنات الشيخ تطارده .. وقد غاظ « زوبولون » موقف « بنيامين » الذى ظل صامتاً فى خنوع ، ولم يهب إلى نجدته أو الدفاع عنه ، وكل ماقاله معتذراً هو أنه كان يعرفه منذ الطفولة ، فياله من جبان ! . كلهم جبناء .

.. وقد شعر « زوبولون » ببعض العزاء إذ تمكّن من أن يلتقط عند فراره الخبز والخمر اللذين أرسلهما له « بنيامين » .. فما إن ابتعد عن البستان حتى جلس على حافة الطريق ، وأكل بنهم ماكان أمامه من طعام وشرب قليلاً من الخمر .. وبدأ يلتمس الأعذار « لبنيامين » ، فلربما كان هذا الشيخ أباه ، فهو لايجرؤ أن يعارضه .. وحمل معه قارورة الخمر وقد شعر بالرضا بعد هذا الطعام الشهى ، وقرر أن يعود إلى بيته لينام ، ويحتس هذه القارورة من الخمر ..

.. وفى الحقيقة لم يكن « لزوبولون » أى بيت ، إلاّ إذا اعتبرنا هذا الكهف الذى يقع أسفل السور القديم خارج « أورشليم » بيتاً .. فلم يكن هذا الكهف سوى بقايا بناء قديم ، لعلّه منذ أيام الملك « سليمان » ، فقد قيل : إن مساحة أورشليم وقتئذ كانت ثلاثة أضعاف مساحتها الآن ، وأن سور المدينة القديم كان يمتد بعيداً عن سورها الحالى .. وكان « زوبولون » يبيت أحيانا فى « أورشليم » تحت أسوار الهيكل ، أو فى أى زقاق مهجور ، ولكنه عادةً مايخرج إلى هذا الكهف الذى أطلق عليه فى سخرية لفظ البيت ، فهو يقول : ذاهب إلى البيت .. أو جئت من البيت ، كما كانت السخرية اللاذعة تتمكلكه أحياناً فيقول لنفسه : هذا معبد « زوبولون » الحقير .. فلم يكن بالكهف سوى جلد خروف متسخ ملقى على الأرض ، يتخذ منه فراشاً ، وآخر مثله مطوّى

يضعه تحت رأسه ، وبقايا فراش صوفى ممزق يلتف به فى الليالى الباردة .

ولكن أثمن مايمتلك « زوبولون » فى هذه الحياة كان أيضاً فى هذا الكهف .. ولم يكن ذلك سوى تمثال لامرأة عارية ، كاد قد عشق هذا التمثال منذ رآه فى أحد متاجر « أورشليم » حيث يباع لـ سادة يزينه ب به قصورهم ،وصمم على أن يمتلكه .. لقد كان يمّر كل يوم ويتسمّر أمام التمثال ينظر إليه فى انبهار ، حتى يطردوه بعيداً ، ولكنه يعود من جديد .. وحينما سنحت الفرصة له ليسرق لم يتردد – وقد كانت هذه هى المرّة الأولى والأخيرة – حيث سرق كيساً به شواقل ذهبية من امرأة تزور الهيكل ، وأسرع ليشترى التمثال ولكنه أدرك أن صاحب المتجر لابد أن يسلمّه للشرطة .. فهذا التمثال لابد أنه لأحد آلهة الرومان أو اليونان ، فلماذا يشتريه هو ؟ ، ثم إنه ليس من أغنياء اليهود ؛ حتى يظن أنه يفعل ذلك ليقلّد الرومان فى عظمتهم .. ولكن « زوبولون » أصرّ رغم مخاوفه على شراء هذا التمثال ؛ إنه رمز للأنوثة والفتنة والجمال .. لو كان هناك آلهة للجمال لم تكن أجمل منه .. ولمّا كان يملك بعض شواقل ذهبية فقد وجد من يعاونه على شراء حمار ، لكى يحمل عليه التمثال ، ثم وجد من يشترى له التمثال وحمله على حماره حتى بيته ، ثم عاد بالحمار ليبيعه ثانية فى أورشليم ..

.. ومنذ أن أحضر هذا التمثال إلى كهفه ، تملكه شعور بأن له بيت وله عائلة ، وكان أحياناً يطلق عليه زوجتى العزيزة ، أو معبودتى الفاتنة ، أو إلٰهى المحبوب .. وكان حينما تطأ قدماه أرض الكهف بعد غياب ، يخرّ راكعاً أمام التمثال على ركبتيه ، ثم يقبّل قدميه ، ثم ينتقل بقبلاته حتى شعر الرأس ، ثم يلقى بنفسه بجانبه ويضمه فى حنان ، وتمتد أطراف أصابه لتتحسس كل جزء فيه ، وقد تمتلكه حالة من الهيام والنشوة ، ويظلّ فى حالة الهيام هذه حتى يصيبه الإعياء فيسقط نائماً

بجواره ، وقد ألصق جسده به ووضع راحته على صدره ، ويظلّ محتضناً له ، وقد يستيقظ أحياناً فيعود لممارسة طقوسه هذه من جديد ، ثم يرتمى فى سبات عميق ؛ وكثيراً ماكان يأتى ببعض الشموع ليوقدها ليلاً فيبدو التمثال أمامه كأنه امرأة حقيقية ، يكلّمها ويبثها شوقه وعواطفه الحبيسة ..

.. وفى هذا اليوم ، حينما وصل « زوبولون » إلى الكهف لم يجد التمثال .. وأخذ يتحسس أرض الكهف المظلم وجدرانه فى جنون ، فلم يعثر له على أثر ، وبحث عن شمعة ليوقدها فلم يجد ، واصطدمت رأسه ببعض الجدران ، وسال الدم على وجهه ولكنه لم يهتم ، وأيقن فى النهاية أن أحدهم لابد قد سرقه ، فأصابه الذهول ، وخرج يبحث عن شريكة الأحزان ، عن منقذته من الضياع ، عن لذّته الوحيدة فى الحياة ، عن الشيء الذى تعلّقت به نفسه ووجد فيه بعض السلوى ، وعاش معه فى الأحلام ، لقد كان يأتى إليه ليستريح إذا ضاق صدره ، وأظلمت أمامه الدنيا ، أو نهشته الذكريات والأحزان .. وأى أحزان سوداء تلك ؟ .. فكل مافى « أورشليم » يهيج فى قلبه ذكريات الآلام المتراكمة عبر الأيام ، لقد كتب عليه الحرمان ، الحرمان من كل شيء ، فأى مرارة يمتلىء بها قلبه !!

.. ورفع « زوبولون » رأسه نحو السماء ، وقد امتلأت عيناه بالحقد والغضب وصرخ بصوت عال :

– أنت .. أنت يا إلٰه إسرائيل .. أنا أعرفك جيداً .. أنت فعلت هذا .. أنت غضوب حاقد .. أنت لا تريد أن أحب سواك .. ولكن كيف أحبك وأنت شرير قاس هكذا ؟ ! ، أنت تقول : إسرائيل شعبى .. ولكنك ملأت حياتنا بالمرارة .. بينما الآخرون يجدون النعمة

عند آلهتهم .. أين هى رحمتك ؟ ، أنت تغار ؛ لأن قلبى تعلّق بها .. نعم أحبها أكثر منك .. أحبها لأننى أجد عندها الراحة والنشوة والسكينة التى حرمتنى منها .. أنت الذى حرمتنى من كل شىء . نعم سأظل أحبها أكثر منك .. سأفعل كل ما يغضبك . سأبحث عمّا يغضبك لأفعله .. أنت إله عنيد وأنا أكثر منك عناداً .. سترى أيها الرب .. سوف ترى ..

.. كان « زوبولون » يسير عائداً نحو « أورشليم » ومازال يهذى بهذه الكلمات ، وتجمع الناس حوله .. كان وجهه متصلباً وحركاته متشنجة وعيناه زائغتان .. وذهل الناس إذ سمعوا هذا الأبرص يقف متحدياً الرب هكذا .. وصاح أحدهم :

– لقد جن الأبرص !

– يجب أن نقيّده بالحبال حتى لايؤذى أحداً .

– نعم إن مجنوناً مثله يمكن أن يفتك بالصغار .

– لا .. فليأت الحرس ليمسكوا به ويذهبوا به إلى الكهنة ، إنه يجدّف ..

– دعكم من هذه المخاوف .. دعونا نسمع .. إن مايقوله شىء مضحك ..

.. وتركهم « زوبولون » وانصرف دون أن يجرؤ أحد على الإمساك به .. وهام على وجهه ، وقرر أن يعود إلى الكهف لعلّه كان واهماً ، وأن التمثال مازال موجوداً هناك ، أو لعلّ أحداً قد خبأه فى مكان ما هناك .. ولكنه لم يجده أبداً ، فامتلأ قلبه يأساً ، وأحسّ بأن الشيطان يملأ صدره ويعطيه قوة لكى ينتقم من الجميع ، وقادته قدماه إلى القبور ، وأحسّ براحة وهو يرتمى بينها ، فقد كانت وحشة نفسه أشد قسوة من وحشة القبور .. وتمنى لو كان يعيش فى عالمهم حيث السكينة والراحة .

حيث لاتوجد آلام ومنغصات .. ولكن لماذا يموت ؟ ! ، إن عليه أن ينتقم أولا .. سوف يقتل ويسرق ويفعل كل شيء ؛ ليكسر وصايا الرب .. نعم سوف يرى من يرجع أولاً عن شرّه هو أم الرب ؟

.. وسمع « زوبولون » أصواتاً تقترب ، وأدرك أن هذه جنازة ، وأنهم جاءوا ليدفنوا أحدهم .. فانزوى مختفياً ، وانتشر الناس بين المقابر ، لحين إتمام طقوس الدفن .. وسمع أحدهم يقول لصاحبه : — مسكين أبوها لقد فقدها وهى لم تزل عروسا لم تكمل عاماً فى بيت زوجها .

— لقد ماتت أثناء الوضع أليس كذلك ؟

— نعم .. لم ينفعها ثراء أبيها ولا شبابها .

.. وأحسّ « زوبولون » أن الشيطان معه يقف ليؤيده ولينصره ، ويبتسم له فى دهاء .. نعم لابد أن يفعل ماطرأ على باله .. لابد أن يفعل .. وما إن اطمئن إلى انصراف الجمع ، حتى اقترب من القبر ، وظلّ ينبشه بيده بحركة حيوانية ، كأنه ثعلب يحفر جحراً ، ورفع الحجر الذى يغلق باب القبر ، وانسلّ إلى داخل القبر ، وتحسس الجثة ، ثم نزع أكفانها فى قسوة ، ثم تحسس جسد المرأة ، وقد انسل خيط رفيع من الضوء فرأى امرأة رائعة الجمال ! ، إنها تمثاله الذى فقده قد عاد إليه ولكن من لحم ودم ، وتملكته نشوة غامرة ، لقد كانت هذه هى أول امرأة حقيقية يحصل عليها « زوبولون » .. شكراً لك رغم أنفك يا إله إسرائيل ..

* * *

اللوحة الثالثة

قيافا عند هيرودس





.. من سنن الكون التى تحدّث عنها الأنبياء ، أن الهلاك والعذاب ، يحيقان بالأمم عندما ينغمس مترفوها فى الفساد ، وأن الله لا يأخذ قرية بالعذاب إلاّ بعد أن يبعث إليهم من ينصحهم ويعظهم ، ويدلّهم على طريق الخير .. فقد بلغت « أورشليم » ذروة مجدها فى عهد أعظم ملوكها « سليمان الحكيم » ، ولما توفّى سنة (٩٢٣ ق . م) بدأت أحوال « أورشليم » فى تغيّر ، فتارة يحكمها ملك صالح وأخرى ملك فاسد ، ومع بداية القرن السادس قبل الميلاد ، كان قد حكمها عشرون ملكاً يهودياً خلفاً « لداود وسليمان » ، وكان الترف والفساد يتغلغلان جيلاً بعد جيل فى دماء الشعب . حتى ضعفت الروح الدينية ، وساء حال الجميع حكاماً ورعية ، وعمّ الجميع روح الفسق والضلال .. وحق على هذه المدينة أن يأتيها العذاب .. ولكن كما جرت سنّة الله كان لابد أن يأتى للشعب من ينذره ويحذّره من مغبّة ما هو فيه حتى إذا وقع العذاب لم يكن لهم عذر ولا محيص ..

.. وفى تلك الأيام جاء « أرمياء » النبى ليحذّر بنى إسرائيل من غضب الله الآتى إذا هم استمروا فى فسادهم ، وبين لهم أن الله أورثهم هذه الأرض التى كانت من قبل لغيرهم ؛ لكى يحافظوا على الناموس « .. إن لم تظلموا الغريب واليتيم والأرملة ، ولم تسفكوا دماً زكياً فى هذا الموضع ، ولم تسيروا وراء آلهة أخرى .. فإنى أسكنكم فى هذا الموضع .. » .. ولكن بنى إسرائيل قد استقر فى عقولهم أنهم شعب الله ، وأن عين الرب ترعاهم دائماً ، ومهما زاغوا وفسدوا ، فإن ملكوت الله لهم دون جميع الأمم ، فهم أصحاب هيكل الرب وبيته ، ولن يرضى

الرب أن يترك بيته فريسةً للأعداء .. ولكن .. « .. أتسرقون وتقتلون وتزنون وتحلفون كذباً .. وتسيرون وراء آلهة أخرى .. ثم تأتون وتقفون أمامى فى هذا البيت الذى دعى باسمى .. لاتتكلوا على كلام الكذب قائلين : هيكل الرب . هيكل الرب . هيكل الرب هو .. »

.. وقد صرخ فيهم « أرمياء » كثيراً محذراً لهم لكى يعودوا إلى طريق الرب ، ولكنهم استهزءوا به وسخروا منه .. وجاء الإنذار النهائى من الرب على لسان « أرمياء » « .. هكذا قال الرب أجْرُوا حقاً وعدلاً ، وأنقذوا المغصوب من يد الظالم ، والغريب واليتيم والأرملة لاتضطهدوا ، ولا تظلموا ولا تسفكوا دماً زكياً فى هذا الموضع .. إن لم تسمعوا لهذه الكلمات فبنفسى أقسمت يقول الرب : إن هذا البيت يكون خراباً .. »

.. ولمّا كذّبوه وأهانوه وزجوا به فى السجن ، ضاقت نفس « أرمياء » ، وتمنى الموت بل تمنى لو لم يولد « .. لماذا خرجت من الرّحم ؟ لأرى تعباً وحزناً ؟ .. ملعون اليوم الذى ولدت فيه .. » .. لقد أحسّ « أرمياء » أنه مجبر على التنبؤ بالبلايا ، وعلى أن يقف أمام الملوك والكهنة والأنبياء بل والشعب أيضاً .. ولكن هاهى ذى يد الرب تضرب بقوة .. وهاهى ذى جيوش نبوخذ نصر تحاصر « أورشليم » .. ويتضرع « أرمياء » فى سجنه إلى الله أن يكون رحيماً بشعبه ، فمازال بين الشعب رجال ونساء يعرفون الرب ، وأطفال ليس لهم بعد ذنب .. ويستمر « أرمياء » فى صلاته ، ويستجيب الرب لتوسلاته فيقول له : « .. تقول لهذا الشعب . هكذا قال الرب . هأنذا أجعل أمامكم طريق الحياة وطريق الموت ، الذى يقيم فى هذه المدينة يموت بالسيف والجوع والوباء . والذى يخرج ويسقط إلى « الكلدانيين » الذين يحاصرونكم يحيا وتصير نفسه له غنيمة ؛ لأنى قد جعلت وجهى على هذه المدينة للشرّ

لا للخير يقول الرب . ليد ملك بابل تدفع فيحرقها بالنار .. لا يترأف عليهم ولا يشفق ولا يرحم .. » .. وما إن سمع الكهنة بما يقوله « أرمياء » وهو فى سجنه حتى اتهموه بالخيانة ، وأنه لابد يعمل ضد « أورشليم » ومع أعدائها الذين يحاصرونها .. فهل يعقل أن يكون « أرمياء » نبياً للرب ، ثم هو يأمرهم أن يستسلموا لأعدائهم ؟ ! ولمّا هيجوا عليه الشعب وأرادوا أن يقتلوه ، شغلهم عن ذلك عذاب الرب الذى حلّ بهم ، فقد دخلت جحافل نبوخذ نصر المدينة تقتل وتأسر وتسحق كل مقاومة ، وتدمر الهيكل وتتركه خراباً ، وتمتلىء شوارع « أورشليم » بجثث القتلى ، ويخرج النساء والأطفال يصرخون وليس لهم من مغيث ، فالأب والأخ يقتل أمامهم ويمثل به ، وانتهكت أعراض العذارى ، ونهبت كلّ كنوز « أورشليم » وتركت خراباً ، وحمل من بقى فيها أسرى إلى بابل ، فى إحدى ملاحم البشرية الأليمة ..

.. وتنكسر فى بنى إسرائيل شهوة الفسق ، ويؤدبهم الذّل الذى لا قوه على أرض بابل عبيداً لأمم أخرى ، وتذكروا ما قاله لهم « أرمياء » « .. اسمعى أيتها الأرض هأنذا جالب شرّاً على هذا الشعب ثمر أفكارهم ، لأنهم لم يصغو إلى كلامى وشريعتى رفضوها .. هو ذا شعب قادم من أرض الشمال ، وأمّة عظيمة تقوم من أقاصى الأرض .. قاسية لا ترحم ، صوتها كالبحر يعج ، وعلى خيل تركب مصطفة . لمحاربتك ياابنة صهيون .. » وها قد تحققت كل النبوءات ، وحاق بهم ما كانوا به يكذبون ، فعلموا أنهم إلى الكتاب وإلى الشريعة إن لم يعودوا فليس لهم فجر– كما قال لهم من قبل « أشعياء » – فسرت روح الندم والتوبة فى الشعب .. وتحنن الرب عليهم فأعادهم إلى « أورشليم » على يد الملك الفارسى « قورش » بعد أن طالت غيبتهم عن أرضهم .. ورجع نبو

اسرائيل بقيادة « زرّ » بابل إلى « أورشليم » ، ليعمروها من جديد ، ويعيدوا بناء الهيكل ..

.. ولكن « أورشليم » ظلّت تحت الحكم الفارسى قرنين من الزمان ، حتى جاء الحكم اليونانى ؛ ليستمر هو الآخر قرابة قرنين آخرين .. ولما ضعف حكم الإغريق ، ظهرت « الأسرة المكابية » ؛ لتنتزع حكم البلاد من أيدى الغرباء ، وتعيد لشعب إسرائيل استقلاله ، ولم يستمر حكم هذه الأسرة إلاّ أقل من مائة عام ، حيث دخلت هذه المنطقة من جديد ، فى نطاق الصراع بين النفوذ الفارسى ، ونفوذ الإمبراطورية الرومانية الفتية . وفى هذه الفترة قامر « هيرود الأكبر » على نجاح الرومان ، فكافئوه بتعيينه ملكاً على فلسطين (من ٣٧ – ٤ قبل الميلاد) .. فكان « هيرودس الأكبر » هو آخر الملوك الكبار من بنى إسرائيل ، ولم يكن محبوباً من الشعب ولا محترماً من كهنة الهيكل ؛ لأنه رغم اعتناقه لليهودية إلاّ أنه لم يكن من أسباط بنى إسرائيل ، فضلاً على أنه نشر الثقافة اليونانية بما فيها من مسارح وتماثيل وقصور ، واحتفالات وأعياد ومراقص ومهرجانات ؛ لذلك حينما أراد – إرضاء للشعب – هدم الهيكل وتوسعته ، شعر الأتقياء أن الهيكل الجديد رغم بهائه ، أقل قداسة لأنه لم يُبن على تقوى ، بل تشاءموا من ذلك .

.. وبعد وفاة « هيرود الأكبر » ، قسمت المملكة بين أبنائه الثلاثة ، فأخذ « فيليب » مشارف الشام ، وأخذ « هيرودس » الثانى منطقة الجليل ، أما « أركلوس » فقد حكم اليهودية التى تضم مدينة « أورشليم » المقدّسة .

.. وفى ذاك الوقت الذى تدور فيه أحداث قصتنا هذه ، كان « هيرودس » الابن يحكم الجليل : ويتخذ من مدينة « طبرية »

عاصمة له ، أمّا « أورشليم » فلم يستمر حكم « أركلوس » عليها سوى عشر سنوات (من ٤ قبل الميلاد حتى ٦ ميلادية) ، ثم ثار عليه الشعب ، وذهب وفد الهيكل إلى روما مطالباً الإمبراطور – فى نفاق – أن يضع عليهم حاكماً رومانياً ، ومنذ هذا الوقت توالى على « أورشليم » ولاة رومانيون ، وفى ذات الوقت كان الوالى الرومانى هو « بيلاطس البنطى » (من ٢٦ – ٣٦ بعد الميلاد) وقد أراد « بيلاطس » أن يبتعد عن كهنة الهيكل وألاعيبهم فترك « أورشليم » واتخذ « قيسارية » عاصمة له ..

.. كانت مدينة « طبرية » عاصمة « هيرودس » الابن ، مدينة جميلة ، بناها هو وسمّاها بهذا الاسم تملّقاً للإمبراطور الرومانى آنذاك « طيباروس » ، وقد شيّدت المدينة على النمط الرومانى .. حيث يتوسطها ميدان واسع ، تمتد منه أربعة شوارع طويلة حتى أسوار المدينة ، حيث ينتهى كل شارع بباب من أبواب المدينة الأربعة الضخمة ، وتطلّ على الميدان بين هذه الشوارع الأربعة ، أربع منشآت كبيرة : الأولى هى مدرجات الملعب الواسعة ، والثانية دار المسرح الكبير ، الذى يحظى بتشريف الملك له أحياناً ، والثالثة هى قصر الوزارة والجند ، أمّا الرابعة فهى قصر الملك الذى أبدع المهندسون والفنانون فى بنائه وتزيينه .. وكان الميدان فسيحاً ، يبدو كحديقة كبيرة مستديرة ، تتخللها طرقات حجرية بديعة ، وتتوسطها نافورة كبيرة من الرخام ، وتملؤها أزهار مختلفة الأنواع والأشكال والألوان ..

.. وعلى بوابة القصر الملكى الكبيرة ، علّق نسر رومانى من فضة خالصة ، تنعكس عليه نهاراً أشعة الشمس فتبهر الناظر إليه .. وقد وقف الجند أمامه ممشوق القوام ، يبدون للناظر كأنهم تماثيل برونزية .

.. لذلك فحينما داخل « قيافا » رئيس كهنة الهيكل ومعه اثنان من مساعديه إلى المدينة ، أحسّوا بمدى الفرق الكبير بين « أورشليم » مدينتهم القديمة ، بطرقها الضيقة المتعرجة وبيوتها المتواضعة ، وبين هذه المدينة الجديدة الواسعة النظيفة المليئة بالقصور والمزينة بالحدائق .. وقد توجهوا فور وصولهم إلى القصر الملكى ، وفى أثناء وقوفهم فى ردهة القصر فى انتظار أن يؤذن لهم بمقابلة الملك ، بهرهم منظر البناء الشامخ وجمال تنسيقه ، فالأرض والعمد كلها من رخام « نوميديا » الأسود والأصفر ، ورخام روما الأبيض ، فى تناسق بديع مذهل .. وقد تخللت الاعمدة أقواس وقباب من الاجر المصنوع من الرمل وتراب الرخام والجير ، ووضعوا فيه قطعاً صغيرة من الآجر والفخار والحجارة والرخام ، فأخرجوا منه ملاطاً له متانة الصخور ويمكن صبّه فى أى قالب ، وبفضله استطاعوا بناء هذا السقف الكبير بلا عمد .. أمّا الجدران فقد بنى بعضها بحجر « مصر » الرمادى والأحمر ، وبعضها بالرخام ، وبعضها بحجر « عوبيه » ذى اللون الأخضر ..

.. ونظر « قيافا » إلى صاحبيه فوجدهما يتأملان ما حولهما فى ذهول فقال فى استخفاف :

– مهما فعلوا ، فليس هناك بناء أكثر ثراءً من الهيكل .

.. ولم تجد كلمات « قيافا » قبولاً لدى صاحبيه المبهورين بما حولهما ، فاستطرد قائلاً :

– حينما نقابل الملك ، لا تنبسا بكلمة واحدة ، أنا فقط الذى سأتكلم معه .. لاتنسيا ذلك أبداً .. وإلاّ أفسدتما كل شيء .

.. ولم يجب صاحباه ، فقد شغلا بمظر الجوارى الفاتنات ، وهنّ شبه عرايا ، يلقين بأنفسهن فى حوض السباحة الرابض بين أشجار

الحديقة ، وقد علت ضحكاتهن العابثة المجلجلة ، والتى تعكس مدى ما فى هذا القصر من حياة ناعمة مترفة ، تدغدغ المشاعر .. وبينما هما فى نشوتهما ، أفاقا على صوت جلبة خلفهما ، حيث اعتدل الجند فى وقفة عسكرية منتصبة ، وهم يؤدون التحية لامرأة جميلة تدخل إلى البهو وحولها بعض الفتيات .. كانت المرأة قد جاوزت الخامسة والثلاثين من عمرها تمشى فى تيه الملكات وفى وقارهن ، والفتيات يحملن بعض الملابس والمناشف وصندوق عاجى به عطور وصابون ، ملأت رائحته أنف « قيافا » وزميليه بشذى مسكر ، فتعلّقت عيونهم بهذا الجمال الساحر المقبل نحوهم ، وقد أدركوا أن هذه المرأة لابد أنها هى « هيروديا » التى جاء بها الملك معه من روما بعد أن انتزعها من زوجها أخيه « فيليبس » .

.. فالتفت « قيافا » إلى صاحبيه قائلاً فى مجون :

ــ مسكين « هيرودس » ، فمثل هذه المرأة تخلب لب أقوى الرجال .

.. وبعد أن مرّت « هيروديا » مبتعدة عنهم ، توقفت والتفتت ناحيتهم ، فغاضت الابتسامة من وجوههم ، وبدا عليهم القلق .. ولكن هيروديا التى أدركت أنهم الكهنة الذين استدعاهم الملك ، قالت متسائلة وهى تبتسم فى ود :

ــ من هؤلاء السادة ؟

.. فأجاب أحد رجال البلاط الذى كان واقفاً قريباً منها :

ــ إنه رئيس الكهنة ومرافقاه .

.. فتهلل وجهها واصطنعت ابتسامة واسعة على فمها ، وأقبلت عليهم فى ترحاب ، ثم مدت يدها إليهم .. وتسمّر الثلاثة برهة ، ثم تقدم « قيافا » وانحنى قليلاً وهو يسلّم عليها ، ثم قدم مساعداه وزاد انحناؤهما ، حتى أوشكا أن يقبّلا يدها ، ولكنهما تذكرا سلطتهما الدينية الكبيرة فلم

يفعلا .. والتفتت « هيروديا » إلى رجل البلاط قائلة فى تأنيب لا يخلو من مجاملة واضحة للكهنة :

– كيف يقف رئيس الكهنة هكذا ؟ لماذا لم تخبر الملك ؟ لا يليق أن ينتظروا هكذا! ، أبلغ الملك فوراً لكى يستقبلهم الآن .

– ولكن الملك يا مولاتى مشغول الآن .. ولم يأذن حاجبه بعد .

– إذن هيىء لهم مكانا لائقاً لراحتهم .. وأنا سأدخل بنفسى إلى الملك لأستأذن لهم ..

.. ونظرت « هيروديا » إلى الكهنة ، فرأت نظرات الشكر والامتنان فى عيونهم ، فودعتهم بابتسامة ودودة مرحبة ، وانصرفت عنهم لتدخل مسرعة إلى الملك ، فوجدته واقفاً وحده يداعب ببغاء داخل قفص ذهبى فى سعادة لاهية ، فاغتاظت لهذه البلاهة على وجهه ، ولكنها تمالكت نفسها ، وقالت وهى تنهره فى عتاب مغلّف بالدلال :

– كيف تترك « قيافا » هكذا ينتظرك ؟ .. لقد قطع كل هذه الرحلة ليلبى طلبك .. ألا تذكر مدى حاجتنا إليه الآن ؟ ! ، استمع إلى لابد أن يتم زواجنا الليلة على يديه .. أسمعت ؟ الليلة ، وسأستعد لذلك ، سآمر بدخولهم عليك الآن .. أرجو أن تلاطفه وتتودد إليه .. نريد أن نكسبه فى صفنا .. هيه .. سأدخله عليك الآن .. مالى أراك غير مهتم ؟ .. هل فقد حماسك الآن ؟

.. فنظر إليها « هيرودس » نظرة باردة . وأجاب فى هدوء وتكاسل :

– هوّنى عليك يا عزيزتى .. أنا أعرف كيف أتعامل مع أمثال هؤلاء .. لقد تعمّدت أن يقفوا على بابى فترة تملأ الرهبة قلوبهم .. صدقينى سيكون كل شىء على مايرام .

ـ أدخلهم الآن .. أريد أن أطمئن إلى نتيجة المقابلة .. أريد أن أسمع موافقتهم الآن قلبي غير مرتاح .. أريد أن أكون زوجتك أمام الناس وأمام الله وأمام الجميع ؛ لكي تخرس كل الألسنة .. فبعد أن يوافق الكهنة على الزواج ، لن يجرؤ أي كلب أن يقول كلمةً فى حق زواجنا .. ومن يفعل يكن مستحقاً العقاب ـ إن كلمة « قيافا » بالذات كما أعلم لها الاحترام كله ، ليس فى اليهودية والجليل فحسب ، ولكن عند كل اليهود فى مختلف مدن العالم .

ـ هونى عليك .. قلت سيكون كل شيء على ما نحب .. هيّا اذهبى الآن ، وقد أذنت لهم ، فدعيهم يدخلون ، وسترين وتسمعين مايسرّك .

.. وهرولت « هيروديا » مسرعة مستبشرة ، حتى إذا ما دنت من البهو الذى تركت به الكهنة ، اعتدلت فى مشيتها وأظهرت الكبرياء .. ولكنها لم تجد الكهنة حيث تركتهم ، فتلفتت تبحث عنهم ، فأشار رجل البلاط إلى مكانهم حيث أجلسهم .. فأمرته الملكة أن يأتى بهم ، وأن يدخلهم على الملك ، فقد أمر الملك بذلك فوراً ، ثم أسرعت « هيروديا » إلى حيث تختفى فى مكان تسمع فيه مايدور بين « هيرودس » والكهنة .

.. ولقد كانت « هيروديا » أكثر إدراكاً من الملك لأهمية موافقة الكهنة على زواجهما ، فهذا أحفظ لكرامتها ، وأكثر تثبيتاً لنفوذها ، وقد ملأ قلبها القلق مخافة عدم موافقتهم ؛ لأنه حينئذ ستكون الكارثة ، وأى كارثة ! ، إن الشعب يصدقون الكهنة ويتبعونهم ، وأحنقها اطمئنان « هيرودس » وعدم مبالاته ، فهؤلاء الكهنة لايؤمن جانبهم ، إنهم يمكنهم أن يعارضوا روما نفسها لو سلكوا طريق العناد .. لذلك ظلّت « هيروديا » يتملكها القلق ، تريد أن تعرف ما تسفر عنه هذه المقابلة الهامة .

.. حينما دخل « قيافا » وصاحباه ، كان الملك يجلس على عرشه متكئاً فى كسل وخمول ، وعلى وجهه ابتسامة واهنة مستسلمة ، فلما أحسّ بهم ، اعتدل فى جلسته وأظهر الاهتمام والجديّة ، وردّ على تحيتهم فى وقار ، وأذن لهم بالجلوس قريباً منه ، وتكلم « قيافا » قائلاً :

– نحمد الله على سلامة وصول ملكنا العظيم من روما .. لقد صلينا كثيراً للرب لكى يحفظك ويوفق خطاك .. ولعلّ الملك يكون قد تمتع برحلة طيبة .

.. فأجاب « هيرودس » فى فخر :

– نشكركم على صلواتكم .. والحق أنها كانت رحلة شاقة مضنية .. لقد كان علىّ كثير من المهام لأقضيها فى روما ، فبجانب الصفقات والمعاهدات والعلاقات التى كان يجب القيام بها من أجل سلامة وطمأنينة الشعب ، كانت هناك المهمة الشاقة التى عملت جاهداً على حلّها ، ألا وهى عودة العلاقات الطبيعية بين شعبنا والإمبراطور الرومانى .. فأنتم تعلمون أن عظمة الإمبراطور « طيباروس » يحمل أفكاراً سيئة عن اليهود ، وتذكرون كيف قضى على شباب الجالية اليهودية فى روما ، حينما أمر بتجنيدهم فى حرب سردينية الطاحنة ، حتى أنه لم يرجع منهم أحد .. ثم كيف طرد الجالية اليهودية من روما ، وكل هذا بتأثير صديقه ومستشاره « سيجانوس » الذى يكره اليهود كراهية عمياء .. وأنتم تعلمون أن عظمة الإمبراطور « طيباروس » هو أقوى رجل فى العالم الآن ، ولابد لنا إذا كنّا نريد أن نعيش فى سلام ، أن نحصل على رضائه ، وحتى نجنب أنفسنا كثيراً من المتاعب والمضايقات .. لذلك فقد حرصت على لقاء الإمبراطور عدّة مرات فى « كابرى » ، حيث يقيم بعيداً عن روما .. وقد أزالت هذه المقابلات الودية كل الأفكار السيئة فى عقل

الإمبراطور ، وقد فهم أننا شعب يحب روما ، ويحب السلام ، شعب له ناموس قديم ، وأفهمته أننا نعترف لروما بالسيادة على العالم ، بل ونقف معها ضد أعدائها .. لقد تركته راضياً تماماً ، ولم يكن ذلك بالأمر السهل كما تعرفون .

أجاب قيافا باهتمام :

– سيدى الملك .. إن ماقمتم به عمل عظيم ، عظيم جداً ، فليكافئك الرب عليه ، ولكن هل رأى سيدى أن هناك أملاً أن يعفو الإمبراطور عن يهود روما ، وأن يعيدهم إلى ديارهم ؟ ، فأبناؤنا هناك كان لهم أموال كثيرة ، ومصالح متعددة ، ثم هم فى موقعهم فى روما يقرّبون بيننا وبين الإمبراطور ، ويشاركون فى صنع كثير من الأحداث .

– آمل أن يحدث ذلك قريباً .. قريباً جداً .. لاأستطيع أن أقول أكثر من ذلك الآن ..

– ليبارك الرب خطاك ياسيدى الملك ، ويكلّل مسعاك دائماً بالفلاح .

– آه .. ما حيلتى وقلبى ينبض بحب شعبى ، ولكم أحزن وأتحسّر لتمزق مملكة أبى ، لقد كانت كلّ هذه الأرض مملكة واحدة ، عليها ملك يهودى قوى يهابه كل الأعداء .. فماذا حدث الآن ؟ ، أصبحت ممالك متفرقة ، والشعب أصبح فى تباغض وكثيرون يخدعونه ويضللونه .. وأنا الذى أسهر على راحة شعبى ، لا أجد عنده ما يليق من الحب والاحترام الذى يليق بى .

– الجميع يحبونك أيها الملك ، ويعرفون فضلك على جميع إخوتك .

– آه .. ذكّرتنى بإخوتى .. لكم تمنيت أن يكونوا مثلى أقوياء . إذاً لأصبح الأمر مختلفاً ، ولكانت كل هذه المدن يداً واحدة تحت حكم أبناء « هيرودس » !! ولكن ! ، ماذا أقول ؟ .. لعلّكم الآن مستريحون تحت حكم هذا الرومانى ؟

.. كان « قيافا » يعلم ، كما يعلم الجميع ، أن « هيرودس » ليس على علاقة طيبة بالوالى الرومانى « بيلاطس البنطى » ، لذلك أجاب فى نفاق وذكاء :

– وكيف نستريح يا سيدى ونحن تحت حكم رجل وثنى يعلّق النسر الرومانى على هيكلنا المقدس ! ، لكم تمنينا وحلمنا أن يحكمنا ملك يهودى مثلنا ، يعرف للمقدّسات حقها ، ويدين بشريعتنا .. ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ .. إنها ملحمة كتبها الله علينا ، ونحن نصبر حتى يشاء الرب أن يرفع هذا الغضب عنا .

– ومن فعل ذلك ؟ ألستم أنتم الذين ذهبتم إلى الإمبراطور « أغسطس » تطلبون عزل أخى « أركلوس » ، وأن يولّى عليكم حاكماً رومانياً ؟

– لقد فعلوا ذلك يامولاى منذ أكثر من عشرين عاماً .. وقد أخطئوا كثيراً وماكان لنا أن نشترك فى شىء كهذا أبداً – أنا أفضل أن يحكمنى يهودى مهما كانت نقائصه ، على أن يحكمنى إمبراطور روما نفسه ، أو حتى أحد آلهتهم .. نحن يامولاى نحب شريعتنا ونحافظ عليها .. وشريعتنا ترفض أن يحكمنا هؤلاء الوثنيون ولكن يا سيدى يبدو أن تلك كانت رغبة الإمبراطور ، ورأى مشيريه وحاشيته ، فما كان لجماعة مهما عظم شأنها أن تسافر إلى روما ، فيستجيب لها الإمبراطور بسرعة هكذا ، ويتّخذ مثل هذا القرار ، فهم لايريدون لأمتنا أن تصبح يداً واحدة .

— ولكن ألا ترى غريباً يا « قيافا » ، أنه رغم مرور كلّ هذه السنين ، فإن الشعب عندكم قد خضع تماماً ، ولم يعد إلى الشغب الذى كان يقوم به تحت حكم « أركلوس » ، رغم أن « أركلوس » يهودى مثلهم ؟ ، ولكن يبدو أن عصا الغريب تخيف أكثر !!

— وماذا يفعل الشعب يامولاى .. لقد شاءت إرادة الرب أن تسحق أقدام الغرباء الشعب جيلاً بعد جيل .. وروما اليوم فى مجدها وعظمتها .. إن مانحن فيه لم يترك أملاً إلاّ أن يرسل الرب مسيحه بقوة من السماء ؛ لكى يعيد لشعب إسرائيل مجده ، وينصره على الأمم التى لاتعرف طريق الرب .

.. وأحسّ الملك وكذلك « قيافا » ، بأن الحديث قد شطّ بهم بعيداً عن أهدافهما ، فأحبا أن يتخذ الحديث مساراً آخر .. وأسرع الملك قائلاً :

— وما رأيكم فى « يوحنا » هذا المسمّى « بالمعمدان » ، الذى تذهب إليه الجموع فى البرية ليعمدها هناك فى نهر الأردن .. لقد شاع أمره بين اليهود ؟

— هذا ياسيدى الملك رجل به مس شياطين وجنون .. إنه ليس على شيء من العلم .. لقد أرسلنا إليه من يعرف حاله ، وقد نقلوا لنا أنه ينشر بين الناس أفكاراً تهيج الشعب ، وقد تؤدى يوماً إلى شغب .. فهو يملأ قلوب الفقراء حقداً على الأغنياء ، كأن هذه ليست مشيئة الرب أن يجعل بعض الناس أغنياء وبعضهم فقراء ، بل هو أيضاً لايحترم الهيكل ولا يؤمن بقداسته ، ويتنبأ بأكاذيب ، فيقول : إن الهيكل سيدمر كما حدث من قبل أيام بابل .. وقد لاتصدق يامولاى أنه رغم مايخدع به

الناس من تقوى إلاّ أنه يجّدف على الرب وعلى أبينا إبراهيم .. وينكر وعد الرب ليعقوب بأن هذه الأرض ستكون ميراثه إلى الأبد ، فهو يرى أن كل شيء حتى الناموس سينتزع من بنى إسرائيل .. الملك والمجد والهيكل وكل شيء .. إنه يجدّف يا سيدى الملك وينعق كالبوم بالخراب .. وهذا يفكك الأمة ويخرّبها .

– ولكن الناس تقول : إنه نبى حقاً ، ويتكلم من عند الرب :

– سيدى الملك . الشعب فى ضيق .. والسفهاء كثيرون .. وهم يحبون أن يأملوا فى التغيير ، أى تغيير ! ، إنهم لاعقل لهم ، والفقراء يحبون من يعدهم بثروات الأغنياء ، ومن يسب أمامهم الكهنة والعظماء ، وهو يحمل لساناً بذيئاً ، فهو يسب الجميع .. وللأسف هو لا يخشى أحداً ، وأخاف أيها الملك إن تركتموه هكذا ، أن تزداد جرأته ، وتقوى شوكته .. حينئذ يصبح خطراً على الشعب .

فابتسم « هيرودس » فى استخفاف .. لقد كان يمتعه أن يسمع ما يقوله « المعمدان » عن الكهنة والفريسيين والأغنياء، ويشعر بصدق مايقوله ؛ لذلك تكلم قائلاً :

– مادام يعتزل الناس فى البرية فلا خوف منه .

– ولكن الناس تذهب إليه فى جموع كبيرة يتزايد عددها يوماً بعد يوم .

– لقد أحضرته هنا أكثر من مرّة ، وقد تكلم أمامى بمواعظ حسنة ، و لم أجد عليه شيئاً أنكره ، ولكن اطمئنوا فهو فى قبضتنا دائماً ، ولن نسمح له بأن يتعدى حدوده ، أو أن يتطاول على الكهنة أو على الهيكل ، أقصد عليكم أنتم الرؤساء المبجّلون ، فأنتم رمز لقداسة الهيكل .

.. ثم أضاف هيرودس فى خبث :

– وهل طلبتم من « بيلاطس » أن يعاقب « المعمدان » ! فيوحنا هو أصلاً مواطن من اليهودية ، وهو يتبع « بيلاطس » .

– ياسيدى الملك إن « المعمدان » اليوم أحد رعاياكم .. ثم إن « بيلاطس » لن يفهم أمرنا كما تفهمه أنت أيها الملك ، فنحن لا نستطيع أن نفتح أمامه قلوبنا ، ولا أن نشكو إليه همومنا ، ونكشف أمامه عوراتنا ، فهو غريب عنا .. وأنت بالحق أيها الملك أمل اليهود فى كل مكان فهذا شعبك أولا وآخرا ، وقلبك مشغول دائما بحبه والمعمدان يفسد الشعب ، ويقيم فقراء على أغنياء وجهالا على حكماء ! ، ويملأ قلوب الناس يأساً وظلاماً .. وخطورته أيها الملك فى أن الناس تعتقد أنه نبى الرب الصادق، لذلك فهى تتبعه ، ولو طرأ له يوماً أن يجمع حوله جيشاً من هؤلاء المخدوعين لساروا خلفه بلا تردد ..

– فلتطمئنوا تماماً .. فأعيننا لا تغفل عنه ، وجواسيسنا معه ليل نهار ، وكل ما يفعل وما يقول نعرفه فى ساعتها .. ولمثل هذا الحديث بقية .. أمّا اليوم فقد أرسلت لكم ، لأننى منشغل بأمر يؤرقنى ، وأرجو أن أجد عندكم حلاً وعلاجاً له ، فأنتم حفظة الشريعة ، وأعلم أهل الأرض بكلمات الرب كلها .

– تكلّم أيها الملك .. ستجد عندنا يا سيدى مايسرّ قلبك ويذهب همومك .

– أنتم تعلمون أن أخى « فيلبس » يعيش فى روما .. وحينما كنت هناك ساءنى كثيراً أن أراه فى صورة تسىء إلى شعبنا وإلى شريعتنا وإلى كل عظمة الآباء ، فالناس تعرفه وتعرف أنه يهودى ، وابن الملك « هيرود » العظيم .. ولكنه ملتاث العقل .. ويصنع فضائح ومخازى ..

ولقد وجدت زوجته « هيروديا » وابنتها « سالومى » يعانيان معه من الضياع ، وتحوم حولهما ذئاب روما ، ولولا استقامتهما وحفظهما للوصايا والفضيلة ، لكان هناك ما يسيء إلينا جميعا .. و « فيلبس » لايهتم بكل هذا ، بل هو بسلوكه وعلاقاته المشبوهة ، يدفعهما إلى كل شر ، لذلك فقد رأيت أن آتى بهما معى .. حفاظاً على كل الوصايا والعهود .

– فى الحكمة سلكت أيها الملك ! ، فكل شيء نتسامح فيه إلاّ أن تكشف عوراتنا أمام الأمم ، وأن تنقض عهودنا أمام الرب .

– ولكننى اليوم فى حيرة من أمرى .. فأنا أدرك مدى ما عانياه طوال سنوات مع أخى « فيلبس » ، وأنا أريد أن أعوضهما عن ذلك ، وأن أرفع مكانتهما إلى ما يستحقانه من تشريف ؛ لذلك .. فقد رغبت فى أن أتزوج من « هيروديا » وأجعلها ملكة على مملكتى .. وأردت أن أعرف الرأى عندكم ، فأنتم أهل العلم وكهنة الرب العلى .. وتعرفون الناموس .

.. سكت الجميع برهة قصيرة ، كان عقل « قيافا » يعمل بسرعة خلالها ، ثم قال :

– أرى ياسيدى أن نطلقها أولاً من زوجها ، ثم نعلن ذلك على الشعب .. وبعد أن تنتهى أيام طلاقها ، تتزوجها على بركة الرب ويعلن ذلك على الشعب فى احتفال عظيم .

– حسن ماتقول يا « قيافا » .. لقد أردت أن تباركوا هذا الزواج .. فأنتم عظماء الشعب وقادته ..

– أنت تفعل خيراً كثيراً أيها الملك .. فالزواج هو مشيئة الرب ، وهو وصية الشريعة .. وأنت إنما تفعل ذلك لمجد الشعب أمام الأمم .

– كلامك يا « قيافا » يدخل السرور إلى قلبى .. ويرفع عن كتفى أثقالاً كثيرة ، ويسرنى الزواج بحضوركم ؛ لذلك سآمر بعقد الزواج الليلة . واطمئنوا فقد تم الطلاق منذ فترة ، بعد أن تحقق لنا خبل أخى « فيلبس » وذهاب عقله ، وسيكون معكم رئيس مجمع طبرية وكهنته . سنحتفل بذلك معاً ، وستكونون ضيوفى فى قصرى حتى ينتهى كل شىء .

.. كان « هيرودس » يتكلم بلهجة آمرة ، تعنى أن هذا أمر قد قضى ولا تراجع فيه ، وبحث « قيافا » بسرعة كذلك عن الإجابة المناسبة لمثل هذا الموقف ، فما دام هو فى حاجة الان لموافقتهم على هذا الزواج ؛ لكى يعلن ذلك للشعب ، ويصبح الكهنة هم المسئولون عن هذا .. فلابد من أن يدفع الثمن المناسب .. نعم لابد أن يدفع أى شىء ، بل أكثر ما يمكن .. نعم فى مثل هذه اللحظات يمكن أن ينتزعوا منه أكبر قدر ممكن من المال ، فهو الآن فى موقف ضعيف ، وإن كان يتظاهر بالقوة ؛ لذلك قال « قيافا » :

– زواج مبارك باسم الرب .. وحياة صالحة هانئة .

– بوركتم أنتم يا كهنة الهيكل المقدس .. ويا حفظة الشريعة ، ومعلمى الشعب .

– وبهذه المناسبة التى تجلب السرور للجميع ، نحب ياسيدى أن تمتد أياديكم الكريمة السخية بالنعمة إلى بيت الرب ، وإلى خدام بيت الرب .

– كل ماتريدونه ويحتاجه بيت الرب هو عندى مجاب .

– رجالنا يا سيدى يعانون كثيراً فى جمع العشور ، فالناس تتهرّب من آداء حق الرب عليها .. ولا يصلنا من مملكتكم إلاّ القليل .. وأنتم

يا سيدى تعرفون أن نفقات الهيكل كثيرة ، فهو يشرف على كل المجامع فى أنحاء العالم .. فلو أمرتم بمساعدة الجند لجامعى العشور ، لكى يخاف الناس فيدفعوا حق البيت لديهم .. فالناس تخاف السيف أكثر مما تخاف الرب.. ولنا مطلب اخر دفعنا إليه الطمع فى تقواكم وصلاحكم ، وما عرفتم به أنتم ووالدكم العظيم من قبل من حب للرب وهيكله ، « فهيرودس الأكبر » لا ننسى ولا ينسى الشعب له أنه قد أنفق أموالاً عظيمة على إصلاح الهيكل ، ونحن اليوم نحاول أن نصلح الأروقة المحيطة بالهيكل ، لكى تكون فى مستوى عظمة الهيكل وبهائه .. وقد تبرع بعض أغنياء اليهودية ويهود المدن البعيدة ، ولكن مازلنا نحتاج الكثير .. فكنا يا سيدى نريد أن نجمع بعض التبرعات من مملكتكم .. ومن أجل أن يكون بيت الرب فى أبهى وأجمل صورة تقع عليها العين .. كما أراد ذلك والدكم العظيم من قبل .. و .. و .. وكنت يا سيدى أريد أن أطمئن ؛ لكى نعلن ذلك على الملأ فى السنهدرين وأمام الشعب .. كنت أريد أن أعرف كيف تم الطلاق ، ومن قام بذلك ؟

– بالنسبة لما طلبت . فلن أتأخر أنا شخصياً ولا أهل « طبرية » ولا كل عظماء المملكة عن أى شيء يحتاجه الهيكل ، فهو هيكلنا ، بل هو رمز إسرائيل وقدس أقداسها ، وسترى ما تقرّ به عينك الليلة .. أما ما سألت عنه من أمر الطلاق ، فأرجو أن تعلن للجميع .. أننا لم نفعل ذلك إلاّ بعد أن حكم الأطباء والشهود أن « فيلبس » مجنون فعلاً ، وقد قام كهنة المجمع عندنا ، بعد أن عاينوا حكم الأطباء وشهادة الشهود بإعطاء زوجته كتاب طلاق .. لذلك فلتطمئنوا ولتشهدوا بذلك أمام الجميع – والآن قد طال حديثنا .. وقد جئتم من سفر طويل ، .. وأنتم فى حاجة للراحة .. فقوموا الآن .. واستعدوا فموعدنا الليلة ..

... خرج الكهنة ، ودخلت « هيروديا » مسرعة فى فرح مجنون ، وأخذت تقبل « هيرودس » من رأسه حتى قدميه ، وهو يبتسم فى نشوة ، وهى تحاول أن تدغدغ حواسه وتشعل رغبته فى حركات فاضحة .. فأبعدها فى رفق ، وهو يقول منتشياً :

– كفى .. كفى يا مجنونة .. أرأيت كيف كان الأمر سهلاً ؟

– لم يكن سهلاً إلا لأن أعظم الملوك هو الذى يطلب منهم ذلك .

– والآن أريد أن تذهبى الآن لتعدى كل شىء .

– كل شىء سيكون معداً .. ولكن الوقت لا يسمح بأن نرتب الأمر .. كنت أتمنى أن يكون الاحتفال عيداً للشعب كلّه لم ير ولم يسمع له مثيلاً من قبل .. ولكن بمثل هذه السرعة لن يكون سوى وليمة كبيرة فقط .

– أنت التى طلبت أن يتم ذلك الليلة .. لا تنسى ذلك .. ثم إن « طبرية » ليست بالمكان المناسب لذلك .. فعيون الشعب هنا تراقبنا .. وهى عيون كلها حسد وضغينة .. كما أننا لابد أن نبدو فى هذه المناسبة أمام الكهنة وعظماء الدولة فى مهابة ووقار .. ولكننى أعدك أن ننتقل من الغد إلى قلعة « ماكيروس » ، لنقيم هناك ليالى متواصلة من الأفراح ، ومعنا كل الأصدقاء من يونان ، ورومان ، ويهود ، وكلّ من تحبين .. سنقضى هناك أياماً وليالى لم تشهدى لها مثيلاً من قبل .. إن هذه القلعة فى موقعها الفريد لهى الفردوس كما سترين ، وسترين هناك ما ينسيك كل حياتك السابقة .

وانكفأت عليه « هيروديا » تقبله قبلات نهمة فرحة ، وهو ثمل بنشوة الظفر والانتصار .. انتصار على أخيه « فيلبس » الذى لم يحبّه

يوماً ، وعلى الشريعة التى لم يحترمها أبداً .. وعلى الكهنة الذين هم فى عينه دائماً شرذمة من اللصوص والأفاقين ، وعلى الشعب الذى هو رمز للأحقاد والضغائن والحسد والخوف ، والذى لايصلحه إلاّ السوط .. وقهقه « هيرودس » ضاحكاً فى مجون .

.. ونادى على حاجبه وأمره بدعوة جميع الأمراء ورجال الدولة ، والعظماء ، ونبلاء الرومان وقوّادهم ، وأثرياء المدينة : من يهود ويونان .. وأن يعلّق النسر الرومانى فى كل مكان ، وأن يهيأ القصر للاحتفال بالزواج .. ثم أوصاه أن تتم العناية الكاملة « بقيافا » وصاحبيه فى مكان أمين حيث لا يتصلون بأحد قبل الاحتفال ، وخاصة بكهنة مجمع طبرية .. وسار كل شىء كما أرادت هيروديا التى لم تنس أن ترسل بأجمل جواريها لخدمة « قيافا » وصاحبيه ، كما أرسلت لهما بعض الهدايا المناسبة .

.. حينما اختلى « قيافا » بصاحبيه ، وتمددوا على الفرش الوثيرة .. سأله أحدهم وهم يتناولون أطايب الطعام ومعتق الخمر :

– ولكن ألا ترى أننا سنتعرض لهجوم شديد من بعض أعضاء السنهدرين عند عودتنا إلى « أورشليم » ؟

– هناك من تعرفهم سيعترضون على أى شىء مثل « نيقوديموس ، ويوسف الرامى » وأمثالهما .. هؤلاء يحبون أن يتحببوا إلى الشعب بالنفاق والرياء .. ولكن هؤلاء لا صوت لهم ، ! ويكفى أن تظهر لهم عين الشرّ حتى يصبحوا مثل كلب خائف ..

– ولكنهم سيقولون : إن هيرودس يخالف الناموس ، وقد يثيرون بعض الأعضاء الآخرين معهم .

– أى ناموس هذا ؟ أى ناموس ونحن تحت أقدام الرومان ؟ .. فى هذا الزمان علينا أن نكون حكماء ، إننا نعطى الجزية « لقيصر » .. ونخضع لناموس آلهتهم شئناً أما أبينا .. ثم هذا « فيلبس » قد حكم عليه بأنه مجنون .. فهو كرجل ميت الأن .. و « هيرودس » هو الملك اليهودى الوحيد الآن فى هذا العالم ، وعلينا أن نسانده ونقف إلى جواره .. أمّا أولئك المراءون فهم لايفهمون الحياة ولا تاريخ الآباء ، لقد أنكر أبونا إبراهيم أمام الملك أن سارة زوجته ، وقال : إنها أخته ؛ حتى لايقتله الملك ، ألم يحدث ذلك ؟ ، هذه هى الحكمة والتصرّف الرشيد .. فدعك من أولئك الحمقى .

– .. نعم .. ولكن أى نعيم يعيش فيه هيرودس ؟

– .. طبعاً ؟ . أليس ملكاً ؟ ، هذه هى حياة الملوك ، لقد كان « سليمان » يعيش فى أطيب من هذا .. هذه هى مشيئة الرب .

– .. لو كان « هيرودس » يعطينى هذه الجارية التى جاءت إلينا بالخمر ؟

فقهقه « قيافا » ضاحكا ، وقال :

– .. ما أهون هذا ! ، ستأخذها الليلة ، ولن نطلبها من « هيرودس » بل من « هيروديا » .. إنها فى فرحتها تمنح أى شىء ..

* * *

اللوحة الرابعة

الرحلة إلى العمران





.. بريّة اليهودية ، صحراء فسيحة مروعة مقفرة ، مجردة من كل ذى حياة ، سوى الجوارح والثعالب فى قليل من الأحيان ، وأرضها رملية فى أكثر أجزائها ، تكتسحها الرياح الشديدة ، ولكنها لاتخلو من مناطق تنمو فيها بعض الأعشاب ، ومناطق عليها هضاب صخرية ، ينمو فى شقوقها خلايا النحل البرى .. ويمتد نهر الأردن من الجنوب حيث بحر الملح (البحر الميت) إلى الشمال حيث « بحر الجليل » ، كما تمتد روافده شرقاً وغرباً .. وعند نهاية أحد روافده ، شمال « عين نون » ، كانت مياه النهر كثيرة ، تفيض على أرض واسعة ؛ لذلك كانت غير عميقة ، وهناك كان يقف « يوحنا المعمدان » ليعمّد الجموع التى جاءت إليه .

.. فى هذه البرية الموحشة ، عاش « المعمدان » ، يأكل الجراد الميت الذى يكثر على أرض الصحراء ، حيث يجفف على الصخور وكذلك ما تصل إليه يداه من عسل برى ، ويلبس قميصاً من وبر الإبل ، وعلى حقويه منطقة من جلد .. و« يوحنا » شخصية فريدة فى نوعها ، قال عنه المسيح عليه السلام : « .. لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من « يوحناالمعمدان » .. كان المعمدان ربعةً بين الرجال ، عريض الصدر ، عظيم الرأس ، كث اللحية ، مستدير الوجه ، ضخم العظام ، ضامر البطن ، إذا مشى فكأنما ينحط من جبل ، وإذا التفت التفت بكل جسده ، خافض الطرف فكأنه ينظر إلى الأرض ، له شرود الفلاسفة ، ولكن عينيه يصعب أن يتفحصهما الناظر ، فكأنّهما لهيب نار ، واسع الكفين والقدمين ، إذا رآه الناظر عن بعد حسبه شيخاً طاعناً ، فإذا ما اقترب منه أدرك شبابه وفتوّته ..

.. ولقد ساعد يوحنا على هذه الحياة الشاقة طبيعة نشأته ، فهو ابن نبى الله زكريا ، وأمه اليصابات العابدة الزاهدة ، وقد رزق به أبوه وهو شيخ كبير ، قد تمنّى على الله أن يرزقه ولداً صالحاً ، يحمل من بعده أمانة الناموس والتوراة ، والعلم الذى ورثه بنو إسرائيل عن الآباء ؛ لذلك فحينما رزقا بيوحنا أرادا له أن يصبح نذيراً من طفولته ، والنذير عند بنى إسرائيل ، لا يأكل شهى الطعام ، ولا يشرب الخمر ، ولا يحلق رأسه ، ولا يمسّ ميتاً إنساناً كان أو حيواناً ميتاً أو عظم ميت – يستثنى من ذلك الجراد – ولا يخالط الخطاة ولا الأشرار « .. قدّوس بلا شرّ ولا دنس قد انفصل عن الخُطَاة .. » .

.. كان « المعمدان » يختلف عن باقى الأنبياء الذين عرفهم شعب إسرائيل ، فهو أشبه بالفلاسفة فى شرودهم وانعزالهم ، وبعدهم عن مخالطة الناس ، فقدكان يصعب على أحد غير تلاميذه أن يتحدث معه ، أو يناقشه أو يجادله ، وقد جعل من تلاميذه حاجزاً يصدّ عنه تيار الجموع المتعلقة به ، وهذه المسافة التى جعلها بينه وبين عامة الناس زادته مهابة فى نظرهم ، لذلك كانت تخافه وتؤمن بأنه نبى الرب الحق .. أما خاصة الناس وعظماؤهم ، فكانوا بين مؤمن به معظّم له ، وحاقد عليه محقّر له ، يعتقد أنه مخبول أو طموح حاقد أو شرير ..

.. ولم يكن « المعمدان » مجرّد فيلسوف يحمل أفكاراً ، بل كان صاحب دعوة وحركة ، وكان يهدف لإيقاظ العقول وتنبيهها ، عن طريق الضمير والوجدان .. وكان مع تلاميذه يقرأ الشريعة ويناقش أحكامها وغاياتها ، لينبههم إلى جوهر الحقيقة ومقتضيات الإيمان ، وكان كثير الصوم كثير العبادة ، ولكنه كان حنوناً محباً متعلقاً بتلاميذه ، يبدى الاهتمام بأمورهم ومشاكلهم ، يحاول دائماً أن يبث فيهم روح الطموح والشجاعة ، مهوّناً من أمر الدنيا وقيمتها .

وقد حّدد وقتاً يقف فيه على شاطىء النهر ؛ ليأتى إليه التلاميذ بطالبى التعميد حيث يعمّدهم بالماء ، فيكون هذا الاغتسال بالماء رمزاً للتوبة إلى الله ، والإقلاع عن محرّماته والإقبال على حياة الطهر والفضيلة .. وكذلك كانت هناك أوقات يجلس المعمدان بين تلاميذه وزائريه ليلقى عليهم موعظته ، التى غالباً ماكانت تأتى على شكل درس يتخلله شرح لأمور توقظ العقول النائمة ، والنفوس المسلوبة الإرادة ، كان لكلماته الحادة ، وعباراته اللاذعة ، وقع أشبه بالمطرقة ، التى تنبه الغافل ، وتوقظ النائم .. وفى كل يوم كانت تثار قضايا فكرية جديدة ، ويثور الجدل بين التلاميذ ، ويرجعون إلى معلّمهم يستوضحونه فيما أشكل عليهم من أمور .. فإذا كان المعمدان لم يوقظ شعب إسرائيل كله ، فإنه نجح فى أن ينشأ فى هذه البرية جامعة فكرية ، تيقظت فيها عقول كثيرة .. عقول كانت تعيش فى ضيق الدنيا ، وتشغلها توافه الأمور ، أصبحت بين يدى المعمدان ، تناقش قضايا الكون والخلود ، والخَلْق والمصير ، وتناقش

أحداث الساعة ، ومشاكل الأمة ، وقضايا السياسة ، وأمور الدين .. فُتحت كل الأبواب المغلقة أمام العقل ، وتبددت الأوهام ، ونوقشت أخطر القضايا بلا خوف ولا حرج ، وزالت قداسة الكهنة ، وما أورثوه للشعب من مسلّمات بالية وأفكار خاطئة .. كل شىء وضع فى ميزان العقل ليجلو عن حقيقته وصدقه ، فالشريعة هى الحق ، والحق هو واجب الاتباع ، وهو غاية اليهودى المؤمن بالرب ومبتغاه .

* * *

.. بينما كان « المعمدان » يقضى نهاره صائماً ، وليله متعبداً ، يوقظ همم تلاميذه ، ويشعل ضياء النور فى عقولهم ، زاهداً فى لذائذ الحس ، مقبلاً على متع الروح الأسمى والأبقى ، والتى تليق بعظماء

الرجال . كان موكب « بنيامين » وصحبه يقترب من واحة الطهر هذه ، وهم فى أسوأ حال .. فقد نال منهم التعب ومشقة الطريق ، وهم الذين ألفوا الراحة والكسل والنعيم ، فإذا أضفنا إلى ذلك كثرة ما شربوه من خمور ، أدركنا مدى ما اعترى حالتهم النفسية من يأس وقنوط ، فقد بدت لهم الرحلة غير ممتعة ، وأن الأمر كلّه لم يكن ليستحق كل هذا العناء ، وقد ألهبتهم شمس الصحراء الحارة ، ولم يطفىء الماء الساخن الذى يحملونه معهم عطشهم ، وزادت الخمور من إحساسهم بحرارة الجو ، فتخففوا من ثيابهم ، ولكن عرقهم كان يسيل على وجوههم ، ويختلط فى أنوفهم برائحة الخمر ، فيبدو الأمر كلّه كريهاً .. وكم تاقت نفوسهم إلى ظلٍّ وماء بارد ، وأن يغتسلوا ويلبسوا لباساً نظيفاً ، ويناموا على فرش نظيفة وثيرة ، ويا حبذا لو دارت عليهم كأس باردة وفرشت أمامهم مائدة طعام ..

.. قال « إيليا » وهو يضحك كعادته فى انكسار ، ويتأمل وجوه أصحابه ، كأنما يبحث دائماً عن بسمة الرضا على وجوههم :

– أرجو أن يكون « يوحنا » هذا يستحق كل هذه المشقة .. كم أخشى ألا نرى إلا شيخاً أحمق ، يسبّنا ويقرعنا ، ويلعننا ويلعن آباءنا ، فنعود ملعونين أكثر ما جئنا .

.. ابتسم الجميع إلاّ « بنيامين » ، فقد كان متعكراً ضيق الصدر .. كما كان حانقاً على « إيليا » من بداية رحلتهم .. فقد فوجىء « بإيليا » يقترح استئجار عربة يذهبون بها إلى « المعمدان » ، والعربة رديئة مخصصة لنقل البضائع ، ولكن « إيليا » استطاع إقناعهم بأنها لو فرشت بحشوات من القش ؛ لأصبحت مكاناً مريحاً ، يتكئون فيه ، ويشربون ، ويتبادلون أطراف الحديث .. والذى غاظ « بنيامين » أنه

صدّق كلام « إيليا » ووافق على هذا الإقتراح ، وإلاّ فقد كان بإمكانه لو أراد أن يرفض ويمنع الأخذ بهذا الرأى .. ولكن هاهم أولاء يكتشفون فى الطريق أن مثل هذه العربة غير صالحة للسفر البعيد ، ولا الطرق التى يجتازونها ممهدة لسير مثل هذه العربة ، وكم من مرّة نزلوا ليدفعوها لتجتاز إحدى العقبات ، أو ليصلحو شيئاً بها .. وها هى ذى العربة قد وقفت بهم بعيداً عن مكان « المعمدان » وصحبه ، وعليهم أن يقطعوا هذهالمسافة سيراً على الأقدام .. وبطبيعة « بنيامين » المتشككة ، ولعقليته التى يحكمها المنطق دائماً ، فقد استنتج أن « إيليا » لم يفعل ذلك إلاّ ليظل بجوار « حزقيال » ؛ فلقد كان الإتفاق بين « بنيامين ، ويوشع ،

وداود ، وإيليا » على هذه الرحلة ، ولكن « إيليا » أخبرهم برغبة « حزقيال » فى صحبتهم ، ولم يكن هناك مبرر لكى يرفضوا ذلك .. و « حزقيال » شاب فى الخامسة والعشرين من عمره ، كان « إيليا » قد قدّمه لهم ذات مرّة على أنه زميل يعمل معه بالهيكل .. ولم يرحب « بنيامين » يومها بصحبه « حزقيال » ؛ فقد كان يراه صغيراً على صحبتهم ، ويجد حرجاً فى أن يتبسّط أمامه . كما يفعل عادةً مع أصحابه .. ولكن ذلك لم يمنع بنيامين أن يكون صادق الحكم عليه ، فقد رآه شاباً خلوقاً ، ذكياً ، ناضج العقل ، ومن الذين يعرفون كيف يشقون طريقهم فى الحياة ، فهو واسع الحيلة ، قليل الكلام ، يتأمل كلام محدّثه فى إمعان ، ينطوى على نفسه قليلاً ، ولكنه يبدو قوى النفس طموحاً .. وحدث ماأكدّ شكوك « بنيامين » ، فقد اختار « إيليا » موقعه ملاصقاً « حزقيال » فى العربة ، وراح يهمس فى أذنه وهو يضحك ضحكته المنكسرة التى كرهها « بنيامين » فى هذه الرحلة ، والإبتسامة لا تفارق شفتيه ، وهو لا يخفى اهتمامه « بحزقيال » ، وقد جعله يتناول

الخمر معهم ، رغم أن حزقيال لا يشرب عادةً ، ولكن هذه الكئوس التى شربها جعلته يخرج عن وقاره مما زاد « بنيامين » استياءً . ونظراً لتعكر صفو « بنيامين » ، فقد نظر إلى الجانب الأسود من كل شيء حوله . « فيوشع » هذا الشحيح لا يهمه إلاّ المال وهو لم يوافق على استئجار هذه العربة إلاّ لقلّة تكلفتها ، و « داود » لأنه لن يدفع شيئاً كعادته .. وحاول « بنيامين » أن يفرط فى الشراب ليخرج من كآبته ، ولكنه لم ينجح فى ذلك إلاّ قليلا .

سار « بنيامين » وصحبه على الأقدام وهم على هذه الحالة ، ولاح لهم عن بعد خيام كثيرة وجموع من الناس ، فعرفوا أنهم قد اقتربوا من مقصدهم ، وأحسّ « بنيامين » بتغيّر فى حالته ، فقد انشغل عمّا هو فيه ، وراح يتهيأ لهذا اللقاء ، فألقى ببعض الماء على رأسه ليزيل أثر الخمر والعرق من وجهه ، وعدّل من هيئته ، وانشغل فكره – وهذا هو الأهم – بهذا اللقاء المرتقب ومايحمل من إثارة . كان المنظر يشبه إلى حدّ ما ، ما يحدث عادةً فى أعياد « أورشليم » ، كعيد المظال ، أو عيد التجديد ، أو عيد الفصح ، حيث يأتى اليهود من أرجاء المعمورة إلى « أورشليم » ، ويضيق بهم المكان ، فيتخذون خياماً خارج أسوار « أورشليم » وحولها ، حيث يسكنون وينامون ويأكلون ويطبخون ويلعبون ، وترتكب كثير من الخطاياأحياناً . حيث يجد شباب « أورشليم » متعةً فى التجول بين هذه الخيام ، يبحثون عن فرص للهو والمجون مع الزائرين ..

.. ولكن حينما اقترب « بنيامين » من هذه الجموع ، رأى أن الأمر يختلف كثيراً عن الجموع التى تأتى للأعياد فى « أورشليم » .. فهنا الخيام متباعدة عن بعضها ، وقد نصبت لتستر من بداخلها ، والمكان

نظيف فيه طهارة الصحراء ، وقد لفت نظره أن يرى أكثر من مرّة ، البعض يمسك بصحائف يقرأ فيها ، والجميع فى سكون كبير ، فلم يسمع ضحكات عالية كالتى تجلجل عادةً فى مثل هذه التجمعات ، ولا ضجيجاً ولا باعةً يرفعون أصواتهم ، ولا صوت طبل ولا مزمار ، كأنما الجميع قد أثقلهم الهم والحزن ، أو شغلهم أمر هام .

.. واعترض طريقهم بعض الشباب ، حيث رحبوا بهم فى احترام — كأنهم هم أصحاب هذه الصحراء ، فهم يستقبلون الغرباء . وبعد أن عرفوا منهم أنهم جاءوا إلى زيارة « المعمدان » ، أخبروهم بأن هذا اللقاء لن يتم إلاّ مع الغد ، فالمعمدان يعمِّد فى وقت مبكر ، فعليهم الآن أن يستريحوا .. ويمكنهم بعد الغروب أن يجلسوا إلى « المعمدان » ليستمعوا إلى موعظته .. وقد اكتشف « بنيامين » وصحبه بأنهم قد غفلوا عن ترتيب مبيتهم فى الصحراء ، وقد ظنوا أنهم بالمال يستطيعون تدبير كل أمورهم ، ولكن الأمر لم يكن على هذه الصورة ، فلم يجدوا مايكون عادةً فى الأعياد ، حيث أصحاب الخيام يؤجرونها للزائرين ، و أصحاب الطعام يعرضونه للبيع ، ولكن تلاميذ « المعمدان » قد تكفلوا بأمر المبيت والمأكل دون أن يتقاضوا منهم شاقلاً واحداً ، ولما عرف « بنيامين » أن تعاليم « المعمدان » تقضى بأن من له ثوبان يعطى أخاه ثوباً ، أى أن يعطى من عنده من ليس عنده ، وأن يتقاسم الجميع المأكل والملبس ، أدرك أن ما نالهم من إكرام على يد التلاميذ ، هو من فائض أموالهم أو أموال القادرين ، ينفقونها على من ليس لهم مال ؛ لذلك ففى الصباح حرص على شراء بعض أغنام من أحد الرعاة وأعطاها التلاميذ ؛ لكى يطعموا الجموع الوافدة ..

.. وحينما حانت ساعة لقاء المعمدان ، تهيأ « بنيامين » قدر استطاعته ، وصار يحاول أن يتخيل شخصية « المعمدان » قبل أن يراه ؛ فقد أكسبه ما رآه من حال التلاميذ والناس فى هذا المكان احتراماً شديداً لشخصية « المعمدان » ، وراوده خاطر أن « المعمدان » ربّما كان القائد الذى ينتظره شعب إسرائيل ، فزاد شوقه لأن يراه .. وجاء أحد تلاميذ « المعمدان » ليصحب بنيامين وأصحابه ، وأجلسهم بين الجموع حيث كان المعمدان يتكلم « .. يقول الرب لأشعياء : لماذا كثرة ذبائح شعب إسرائيل ، لم يعد الرب يسرّ لدم العجول والخرفان والتيوس ، ولا للشحوم تقدّم للمحرقات .. كره الرب أعيادكم ، ولم يعد يستجيب لدعائكم ولا لصلواتكم وإن كثرت – يقول الرب : اغتسلوا وتنقّوا ولا تفعلوا الشرّ أمام عينيه ، وتعلّموا فعل الخير ، اطلبو الحق ، وأنصفوا المظلوم ، ودافعوا عن الأرملة واليتيم ، حينئذ فإن كانت خطاياكم كالقرمز تصير كالثلج الأبيض ، وإن اتبعتم وصاياى وحافظتم على شريعتى تأكلون خير الأرض ، أمّا إذا عصيتم وأبيتم وتمردتم فستؤكلون بالسيف .. » هذا كلام « أشعياء » نبى الرب للشعب منذ ثمانية قرون .. فماذا تغيّر فى شعب إسرائيل .. اليوم هو أكثر سوءاً ، لقد دب الفساد فى جسد الأمة ، ولم يعد يصلحها شىء إلاّ أن تحرق بالنار . قال أشعياء بأن الأرض قد تدنّست تحت سكانها ؛ لأنهم تعدّوا الشرائع وغيروا الفرائض ونكثوا العهود ، فماذا لو بعث اليوم « أشعياء » ؛ ليرى ما حلّ بشعب إسرائيل .. كان « أشعياء » يصرخ ويأمل أن يعود شعب إسرائيل إلى ربّه . أمّا أنا فأصرخ لأقول : إن الفأس قد وضعت على أصل الأشجار ، فكل شجرة لاتصنع ثماراً طيبة سوف تقطع وتقلع من جذورها وتلقى فى النار .. السفينة تغرق بمن فيها ، ولن ينجو من الهلاك إلاّ من عرف طريق الرب وحافظ على وصاياه . قال الرب « لأشعياء » : « .. ويل

للأمة الخاطئة ، الشعب الثقيل الإثم ، نسل فاعلى الشرّ ، أولاد المفسدين . تركوا الرب واستهانوا بقدوس إسرائيل ، أصبح الرأس مريضاً ، والقلب سقيماً ، والجسد كلّه عليلاً .. » واليوم الجسد لا شفاء له ؛ لأن العفن قد نهش كل أجزائه .. أنتم يامن جئتم من قرى ومدن إسرائيل ، هل رأيتم غير الشر يعلو سلطانه ؟ ! هل رأيتم غير الظلم يبسط جناحيه على الجميع ؟ ! .. الرجال كالقردة والخنازير والنساء كالعاهرات . ولا مكان لمن يصنع خيراً أو يتطهر .. وأنتم لماذا جئتم إلىّ اليوم ؟ هل جئتم حقاً للتوبة ؟ ألا فلتعلموا أنكم إن لم تتوبوا اليوم قبل الغد ، فإن غضب الله آت وسيحرقكم بنار لا تطفأ .. من يصنع الشر لن يجد غيره ، فتوبوا حقاً قبل ألا ينفع الندم .. »

.. كان صوت « المعمدان » يزداد حدّة ، ويبدو مخيفاً ، وقد ساد الجميع سكون رهيب ، ووجف قلب « بنيامين » ، وأحسّ بأن يوم الدينونة قريب ، وبأن غضباً جارفاً سيعم الكون ، ولم يكن يعتقد أن أحداً يجرؤ على أن يقاطع « المعمدان » فى هذا الموقف العصيب ، ولكنه فوجىء بأحدهم يقول فى صوت كأنه خارج من قبر مظلم :

– أنت تتكلم عمّا نحن فيه من شرّ ، ولكنك لا تقول أين الطريق . نريد أن يقوم الشعب ضد أعدائه ، وأن يسحق مبغضيه – أمّا أن نظلّ نتكلم عن الشرّ .. فالعالم كلّه ملىء بالشرّ ، فماذا نفعل ؟ .. هل نظلّ نلعن أنفسنا هكذا ؟

.. فانفجر المعمدان كبركان ثائر :

« ..يا أولاد الأفاعى !! ماذا تريدون ؟ .. تريدون مجداً .. تريدون أن يرفعكم الرب فوق شعوب العالم ؟ لماذا ؟ ، أى خير فعلتموه أمام عينى الرب ؟ هل حافظتم على شريعته ؟ هل التزمتم وصاياه ؟ ..

اعلموا أن الأرض كلها ملك للرب وهو يورثها من يشاء ، فلا تقولوا فى أنفسكم نحن أبناء إبراهيم ؛ لأن الله قادر على أن يخلق من هذه الحجارة أبناءً لإبراهيم – أبناء إبراهيم هم من يحملون كلمات الله ويسيرون فى طريقه ، أبناء إبراهيم هم من يعرفون الوصايا ويحافظون عليها – أمّا أنتم يا رجال الهزء ، فقد زغتم وضللتم وامتلأت نفوسكم بالشر .. أصبحتم كالذئاب الجائعة .. وبادت حكمتكم فصرتم كالقرده ، واستمرأتم الشرّ فصرتم كالخنازير ، ترتع فى المزابل والقاذورات .. أقول لكم : توبوا اليوم إلى الرب وارجعوا إليه ، فإن غضبه آت .. غضبه آت ليمحق كل الأشرار .. »

.. وصاح رجل آخر قائلاً :

– ياسيدى .. يا نبى الله الحق .. لقد تبت إلى الله . ولا أدرى ماذا أفعل بعد ؟

.. صمت « المعمدان » قليلاً لتهدأ ثائرة غضبه ثم قال :

– إذا تبت إلى الله حقاً ، فاصنع خيراً يليق بالتوبة ، فالشجرة الصالحة تؤتى ثماراً صالحة .. وانتظر ، سيأتى بعدى من هو أقوى منى ، من لست أهلاً أن أحلّ سيور حذائه – أنا أعمدكم بالماء ، أمّا هو فيعمدكم بالروح القدس ، فإذا رأيته فستعرفه وتتبعه ، وهو يخبرك ماذا تفعل ، وكل ما يقول لكم فاسمعوا له وأطيعوا ؛ لأنه من عند الله يتكلم ..

* * *

.. التفت « المغمدان » إلى تلاميذه ، فهبوا يأمرون الناس بالإنصراف ، ونظر « بنيامين » إلى أصحابه ، فرآهم قد علاهم الوجوم ، وقاموا معه إلى خيمتهم التى يشاركهم فيها أحد تلاميذ « المعمدان » وآخرون .. كان « بنيامين » مشدوهاً بشخصية

« المعمدان » ، فقد أحسّ فى مجلسه أنه يحلق فى آفاق فكرية بعيدة ، وأحسّ بأن عقله يضىء ليرى أشياء جديدة ، وعوالم كانت خافية عليه – ورغم أنه حينما حاول أن يستعيد كلمات « المعمدان » لم يجد فيها شيئاً جديداً ، ولكنهاكانت كالموت لا نحسّه إلاّ إذا واجهناه أو واجهه أحبائنا ، فقد كادت كلمات « المعمدان » أن تجعله يشم رائحة العفن من حوله فى كل شىء ، وجعلته يدرك معنى عذاب الجحيم فى العالم الآخر ، ويدرك مدى تفاهة الحياة فى هذا العالم وضآلتها ؛ لأنها سريعة الفناء .. ورغم كل هذا الانبهار والمشاعر الجياشة التى اعتملت فى صدر « بنيامين » ، إلاّ أنه شعر بشىء من الإحباط .. فكم تمنى أن يجد فى « المعمدان » ثائراً يحمل سيفه ويتبعه حتى الموت أو النصر ، وكم تمنى لو كانت نقمة « المعمدان » موجهةً ضد الرومان وعملائهم من الحكّام الظلمة والكهنة والخونة ..

.. فى اليوم التالى تمت معمودية « بنيامين » وأصحابه .. وحينما اقترب بنيامين من « المعمدان » فوجىء بأن « المعمدان » الذى يراه اليوم يختلف عمن رآه بالأمس ، فقد كان بالأمس كأسد ثائر ، ولكنه اليوم حنون باش ، يبدو عليه سلامة القلب ، والحلم وكرم الطباع ، فكأن صدره يتفجّر منه ينبوع عطف وشفقة ، وصار وهو يعمد الرجال فى ماء النهر كأم تغسل الأدران عن أطفالها فى حنان .. إن المرء لا يملك

عندما يقترب من « المعمدان » إلاّ أن يحبّه ، وتمنى « بنيامين » لو كان نحّاتاً ، ليصنع تمثالاً للمعْمدان ، تتجسد فيه كل معانى الرجولة ، والعفّة ، والفضيلة ، وعلو النفس .. تمثالاً لكل معانى العظمة التى يمكن أن تتحلى بها نفس رجل .

.. لقد تصاغر اليوم فى نفس « بنيامين » ، ما كان يعجب به من عظمة نبلاء الرومان وفروسيتهم ، وأحسّ بأن المعمدان هو فخر لكل بنى إسرائيل أمام العالم كلّه ، إنه أعظم من فلاسفة الإغريق ، ومن قادة الرومان وأباطرتهم .

ومما أعجب بنيامين كذلك أن تلميذ « المعمدان » الذى رافقه ، رفض أن يأكل معهم من الذبائح التى ذبحوها ليطعموا منها الجموع ، فهو لا يأكل كما فهم « بنيامين » مما يقدّمه الناس كعطايا مقلدّاً بذلك « المعمدان » .. وحاول « بنيامين »أن يزداد معرفةً « بالمعمدان » عن طريق محاورة تلميذه ، فسأل التلميذ :

– أنتم هنا تعيشون حقاً كما يعيش الزاهد الذى لايريدإلاّ الرب ، كما أن الناس يجيئون إليكم من كل مكان ليعتمدوا ويتوبوا ويرجعوا إلى الله .. ولكن ألا ترى أن هذا غير كاف ليحقق للشعب أمانيه ، ويرفع عنه الأثقال والقيود التى تكبّله ؟ ، أقصد ألم تفكروا فيما هو أبعد من ذلك ؟

– وأى شيء أبعد من ذلك ؟

– تغيير أحوال الناس . أنتم تعيشون فى وادٍ والناس فى مدنهم وقراهم فى وادٍ آخر .. إن الشرور والمظالم تملأ حياتهم ! ، ألا يحتاج ذلك إلى ثورة عارمة لتغيير ذلك الواقع ؟ .

– نثور على من ؟ .. ومن أجل من ؟

– نثور على الظلم ، وعلى الحكام الظلمة .. من أجل أن يستطيع شعب إسرائيل أن ينهض .. إنه لن ينهض وكل هذه القيود فى أعناقه .

– وإذا كان الظلم قد أصبح مختلطاً بقلوب وعقول الناس .. الناس هم أولا يتظالمون فيما بينهم ! ، الظلم أصبح قاعدة التعامل بينهم ؟ ، فهل نثور ضد الشعب أم نثور مع الشعب ؟

– ولكن الناس منسحقة ! ، هى لا تحب الظلم ، ولكنها مقهورة ومدفوعة لتقبله

– أنت تقول ذلك ، ولكن بربّك لو خيّرتهم بين « هيرودس ، والمعمدان » فمن سيختارون ؟ ، أؤكد لك أن « المعمدان » لو حكمهم لثاروا عليه بعد أيام قليلة ، لانه سيحملهم على الحق بسيفه ، والحق أشدّ مرارةً على نفوسهم من كل مخازى « هيرودس » ومظالمه فهم يصبرون عليها .. إنهم لايختلفون الآن على « هيرودس » بل يسيرون فى طاعته ، ولكن لو حكم « المعمدان » فسيختلفون عليه ، وسيظهر أهل الرياء والنفاق والشقاق ؛ليبثُّوا سمومهم ، وستتبعهم الجموع لأنها عمياء ، ولأن قلوبها تسير مع الشرّ .

.. أدرك « بنيامين » مدى ما فى أقوال التلميذ من صدق وحكمة فسكت ، أليس هو نفسه لا يطيق أن يعيش مثل هذه الحياة الشاقة التى يحياها « المعمدان » وتلاميذه ؟ إنها أشبه بحياة الجندية فى أشق صورها ومعانيها ، إنها حياة تخلو من أى متعة إطلاقاً .. حياة قد فطمت تماماً عن الشهوات واللذائذ ، اللهم إلاّ اللذات العقلية العالية ، التى يجدها التلاميذ فى مناقشاتهم ومطالعاتهم .. فإذا كان « المعمدان » سيأتى للشعب بمثل هذه الحياة الشاقة ، فلن يقبله أحد مهما كان وراء هذه الحياة من عظيم ونبل الغاية .. ولكن هل يمكن أن يكون هناك طريقاً آخر أمام هذا الشعب إذا أراد أن يعود له مجده ، غير هذا الطريق الشاق ؟ ! . ألا يترك الجندى الرومانى دياره على بهجتها وهو فى عنفوان شبابه ؛ ليقطع البحار والصحارى ، ويترك ربيع بلاده إلى بلاد موحشة ليقاتل ويموت من أجل روما ومجد روما ؟ ! وهل بنى مجد روما إلاّ على مثل هذه الروح التى تقبل على المشاق والمعاناة والتضحية ، بروح عالية

ونفس تبحث عن المعالى ؟ ! ، ولكن اليهودى يعتقد أنه أذكى من أن يموت فى سبيل مثل هذه الأوثان والأمجاد الباطلة ، وقد يكون محقاً فى ذلك ولكن ألا يوجد شىء يمكننا أن نضحى من أجله حتى بالحياة نفسها ؟ ! أليست كلمة الرب تستحق أن نعشقها ، وأن نضحى فى سبيلها ؟ ! .

.. ولكن « بنيامين » امتلأ قلبه باليأس .. فهو أدرى الناس بأن الشعب لا يمكن أن تحكمه مثل هذه الطموحات ، فمن الذى يؤمن بذلك هل عمه صموئيل ؟ أم حموه « نفثائيل » ؟ ! أم أصدقاؤه ؟ أم جيرانه ؟ ! . لم ير أحداً صادق فى رغبته فى أن يضحى حقيقة من أجل كلمة الرب !! . آه لو سار هذا الشعب خلف « المعمدان » ، وتحملوا مثل هذه الحياة الشاقة التى يعيشها مع تلاميذه ؟ .. لو فطموا النفس عن الشهوات فى ثورة شعبية جماعية ؟ .. لو تعلّقت نفوسهم بعظائم الأمور كما تعلّقت نفس المعمدان ؟ .. لو فعلوا ذلك لقل حرصهم على الدنيا وزخرفها ، ولهان عليهم الموت فى سبيل الرب ، بل ورأوه طريقة جيدة للخروج من هذا العالم ، ولأصبحوا أقوى جيش على وجه الأرض ، أقوى من كل جيوش الرومان ، بل أقوى من جيوش الإسكندر التى فتح بها الأرض كلها ! . نعم لأنهم سيكونون جيشاً من القديسين الذى يحرصون على الموت أكثر من حرصهم على الحياة .. أى حياة ! ، مهما تمرغت هذه الحياة فى المزابل والقاذورات ! ، وزحفت الكآبة على « بنيامين » لتغطيه من جديد ، فقد أحسّ أنه واحد من هذا الشعب ، وأن مافى نفسه من وهن لايقل عن الآخرين .

* * *

.. أمّا « إيليا » فقد كانت مشاعره تتبلور فى شعور بالخوف من « المعمدان » وفى نفس الوقت هناك شيء ما فى أعماقه يرفضه ، ويكرهه ! ، ولكن لا .. لا يمكن أن يكره هذا الرجل البار ، ولكن لا يدرى « إيليا » لماذا لا يطيقه ؟ لماذا يبحث عن مبرر لإدانته ..

ارتمى « إيليا » بعيداً بجوار إحدى الصخور ، وقد أحسّ بالتعب والإعياء ، وتملكه نوع من اليأس والقنوط ، شارداً ذاهلاً عمّا حوله .. فقد طفح إلى عقله وقلبه ذكريات قديمة مدفونة فى أعماقه .. لطالما عانى « إيليا » فى حياته .. ولطالما عاد على نفسه دائماً باللوم والتأنيب ، متهماً قلبه بالانحراف والخطيئة ، رافعاً أصحابه إلى مراتب الحكمة والفضيلة ، وعادت به الذكريات بعيداً ، بعيداً ، تحفر فى سراديب الماضى ، ليعيش مع طفولته وصباه . هناك فى مدينة الناصرة ، فى بيتهم القديم ، ووجه أبيه الصارم الذى تعكّر قسوته صفو الحياة ، وأمّه .. فليرحمها الرب .. أمه المستكينة المستضعفة التى لا تجرؤ أن ترفع عينيها أمام جبروت أبيه ! ، وكيف كان أبوه يعهد إليه وهو الفتى الغض الصغير بالأعمال الكثيرة ، ويعاقبه بأشد أنواع العذاب إذا شعر منه بتهاون أو تقصير ، وهل كان لمثله إلاّ أن يقصّر دائماً وقلبه ينزع إلى أن يتعلم كالصبيان ، وأن يمرح معهم ويلعب ؟ ! ولكن أنّى لأبيه أن يفهم هذا ؟ .. وكيف دفعه خوفه من أبيه ، أو بمعنى أدق كرهه الشديد له ، إلى أن يهرب من مدينته ومن أحضان أمه المحبّة له - إلى المجهول ، وهام على وجهه ليلتقطه اللصوص فيشفقون عليه ويأخذونه معهم إلى حيث يعيشون فى مغارتهم ، هناك فى « جبل تابور » .. آه ! هناك فى جبل تابور .. هناك بدأت مأساته ، لقد دلّله الرجال ، وكان هو متعطشاً إلى الحنان ، كان صبياً جميل الوجه لين الطباع . ويبدو أنه استعذب دلالهم له الذى ذهب بكثير من خوفه منهم .. ولكن ماذا جرّ عليه ذلك ؟ ..

شعر « إيليا » وهو يجتر هذه الذكريات ، بتسارع نبضات قلبه ، وبصدره يضيق كأنما هو يختنق ، لقد استعاد ذكريات سقوطه واستسلامه لغرام الرجال فى ظروف قاسية ، من الخوف والرعب الشديد .. مضت سنون طويلة على هذه الذكريات المضنية ، ولكن تلك الساعات الرهيبة هى التى لوّثت قلبه ، وعذّبته طوال هذه السنين .. إنه لا يستطيع أن ينكر أمام نفسه ، أنه رغم نيّته الطيبة ، وإخلاصه الشديد ، ورغبته الصادقة فى أن تكون علاقاته طيبة طاهرة ، إلاّ أنه يحسّ أحياناً بمشاعر ينكرها ويحاول أن يقتلها فى نفسه ولكنه لا يستطيع .. فآهٍ من هذا القلب الذى عذّبه كثيراً ! ، ماذا يمكن أن يفعل به سوى أن يمزقه بضربة خنجر ، قلبه الذى حرمه من الصداقة النظيفة ، ومن الحب الصافى ، قلبه الذى أزهده فى الزواج وفى الحياة الأسرية الهانئة مع أطفال يحبّهم ، وزوجة ترعاه ! ، قلبه الذى يعكّر عليه صفو كل عاطفة طيبة يحسّ بها ؛ لما فيه من فساد وخبث وأهواء رخيصة ، وضحكته المستكينة التى يستجلب بها رضا من حوله ، لكم يكرهها ويكره نفسه .. كم يقتله أن يرى أحياناً فى نظرة « بنيامين » إشفاقاً مملوءاً بالازدراء والرثاء ، وكم أدمى قلبه اليوم وهو يضع يده على كتف « حزقيال » بحب برىء ، أن يراه متأففاً ضجراً وهو يبعد يده عنه .. وتعالت صرخاته المكبوتة ! ، نعم لابد أن يمزق هذا القلب اللعين بضربة خنجر مسموم .. وهتف به صوت « المعمدان » « .. لقد استمرأتم الحياة الفاسدة الداعرة حيث تعيشون .. أى دم هذا الذى يجرى فى عروقكم ؟ أهو دم يعقوب ؟ .. أهو دم موسى ؟ .. لا إنه دم الأفاعى والثعالب والعقارب . ألا توجد فيكم نخوة أو رجولة تؤرّقكم ، أو تشعل نار الغضب فى قلوبكم ؟ ! . »

.. لم يكن « إيليا » بطبعه قادراً على أن يقتل نفسه كما أراد .. فقد كان يخاف عقاب الرب فى العالم الآخر ، ولم يكن يتحمل فكره أن يذهب إلى عالم الظلام وهو يحمل مثل هذه الخطيئة على كتفيه .. لذلك فقد صرخ فى أعماقه متألماً :

رباه ماذا أفعل ؟ ! لست رجلاً ! . إننى أفعى سامة كما قال « المعمدان » .. ولكن ما ذنبى ؟ ! ، لقد ملؤنى بالشرور وأنا صبى صغير لا أعى شيئاً .. ارحمنى يارب .. ارحمنى يارب ؛ لم أعد أطيق الحياة هكذا أبداً .. ليس فى مقدورى أن أتحمل المزيد ، لقد كرهت نفسى ، وكرهت الهيكل ، وكرهت أصدقائى ، والحياة كلها وكل شيء .. فمتى ترحمنى يارب ؟

.. وانفجر « إيليا » فى بكاء حار ، وسالت قطرات الدمع ساخنة على خديه ، وحاول أن يكتم صوت نشيجه فلم يفلح ، فأطلق لنفسه العنان ، واستمر فى بكائه بصورة لم يعرفها من قبل ، وسالت من عينيه دموع غزيرة ، وأحس بأن هذه الدموع قد فجّرت شيئاً ما فى أعماقه ، وبأنه يكاد يفقد قدرته على أن يفكر ، وجسده أصبح هشاً خفيفاً ؛ حتى أن الريح يمكن أن تحمله معها ، وشعر بدوار كمن هو مقبل على إغماء ، فامتلأ قلبه خوفاً أن يكون هذا هو الموت ..

.. وفيما هو على هذه الحالة ، إذا بيد تمسك كتفه بقوة وحنان ، فرفع رأسه وفتح عينيه فبدت أمامه صورة غير واضحة المعالم ، وحينما مسح الدمع من عينيه رأى وجه رجل بهى الطلعة ، باسم الوجه فى حزن ، عيناه تفيض بالحب والرحمة .. وظل « إيليا » يتفرس هذا الملاك الذى أمامه ، وأحس بأن هاتين العينين العميقتين اللتين تنظران إليه ، تعرفان كل شيء : ماضيه ، وحاضره ، وعذابه ، وفيما يفكر الآن ..

.. ثم بدا بعد قليل « لإيليا » أنه يعرف هذا الوجه ، إنه وجه مألوف لديه ، لقد رآه من قبل ، ولكن متى وأين ؟ هل رآه فى يقظة أم منام ؟ ! ، لا يدرى ..

.. وتكلم الرجل بصوت عميق ، هادىء ، دافىء ، بارد ، حلو ، قوى ، لين ، مبتسم ، أو هكذا أحسّ « إيليا » كلما استعاد ذكريات هذه الساعة ، قال الرجل :

– أنت « إيليا » .. أليس كذلك ؟ ، ومن الناصرة ؟ ، ألا ترى أنى أعرفك ، ولكنك لا تذكرنى ؟ ، إنها ذكريات بعيدة .. ذكريات الطفولة .. ألا تذكر « يسوع » .. يسوع ابن يوسف النجار .. أنا لم أنسك أبداً ، منذ أن ذهبت عنّا هكذا فجأة ، وملأ الحزن قلوبنا عليك ..

.. كان « إيليا » يستمع إليه فى شبه ذهول ، ولم يرفع نظره عن عينى « يسوع » ، وأحس بذكريات الطفولة السعيدة تطفو ؛ لتحلّ محل ما كان يعيش فيه من ذكريات سوداء .

وكأنما عاد إلى طفولته وبراءته ، إلى حيث كان القلب صافياً طاهراً سعيداً خالياً من كل إثم ، وكأن بحار الظلمات قد لفظته أخيراً إلى شاطىء النور ..

كانت كلمات « يسوع » برداً وسلاماً على نفسه المحترقة ، وقلبه السقيم ، كأنها قطرات ماء على لسان قد جفّ عطشاً .. هاهى ذى رحمة الله تتداركه ، فترسل له خير صديق .. ولم يتمالك « إيليا » نفسه فأجهش ثانية بالبكاء . واحتضنه « يسوع » فى عطف وقد رق قلبه له كثيراً ، ونظر إلى السماء يصلى ويستنجد برحمة الرب ، أن تتدارك هذا الإنسان الساقط فى بئر الألم والأحزان ، وذرفت من عينى « يسوع » دمعتان ..

.. وهدأ « إيليا » قليلاً فقال له « يسوع » :

ـ لابد أنك قد رأيت كثيراً فى أيام حياتك ! ، ولكن اعلم أن كل إنسان يمكن أن يبدأ من جديد ، فى أى لحظة ، فما عليه إلاّ أن يرفع رأسه إلى السماء .. هناك سيرى الرب منتظراً له أن يعود ..

.. منذ هذه اللحظات أصبح يسوع هو أحب إنسان إلى قلب « إيليا » ، وحينما طلب منه أن يرافقه ، ترك كل شىء وسار معه ، لقد دخل إلى عالم جديد ، أحب أن يبقى فيه إلى الأبد ..

* * *

.. ألحت على « بنيامين » خواطره وأزعجته ، فكان لابد له من أن يتكلم مع « المعمدان » ، وأن يسأله ، وأن يعرف منه الحقيقة التى يبحث عنها ، وفى جلسة المساء تجرأ وسأل فى حذر شديد :

ـ سيدى .. أنا أعلم أنك رجل الله ، عارف بأحكامه وشريعته ، ونبى صادق ؛ لذلك أرجو أن توضح لى أمراً يعذبنى كثيراً . هل ترى حقاً أنه لن يعود لشعب إسرائيل ما كان فيه من مجد ؟ ولماذا إذاً ننتظر المسيح ؟ لطالما حلمت وحلم الشعب كلّه بالمسيح يعيد لنا كل الأمجاد ، ويرفع شعب الرب على كل شعوب العالم ، التى تعبد آلهة أخرى وتعبد الأوثان .. فهل ما نحلم به وننتظره حق أم باطل ، وهل كل ما عشنا فيه كان وهماً كبيراً ؟

.. أدرك « المعمدان » صدق ما يعانيه بنيامين ، لذلك جاءت كلمة هادئة على خلاف ما توقع أغلب السامعين .. قال :

ـ .. منذ أن أكل آدم من الشجرة ، وعرف الخير والشرّ ، والصراع بين طريق الرب وطريق الشيطان لا ينتهى .. فى كل زمان كان هناك من يسير فى طريق الحق وآخرون يسيرون مع الباطل ، وكم من

أمم أهلكها الله فاندثرت ، وشاءت إرادة الرب أن تكون النعمة على نسل يعقوب ، وأخذ عليهم العهود أن يحافظوا على الناموس الذى أعطاهم إياه وقال لهم : إنهم إذا حفظوا شريعته فستظل نعمته تغمرهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، ومن حيث لا يعرفون ، ووقف الرب إلى جانبهم وأهلك أعداءهم .. ولكنه توّعدهم إذا خالفوا وصاياه أن يكون عقابهم كذلك أكثر مما يفعل بالأمم الأخرى التى لم تعرف طريق الرب مثلهم .. واليوم ماذا ترى ؟ .. إنهم لم يخالفوا الوصايا فقط ، بل زوّروها ! ، إنهم لم يتركوا طريق الرب فقط ، بل كرهوه ولعنوا من يسير فيه ! . إنهم لم يعرفوا طريق الشر فقط ، بل أحبوه ومدحوه !! أصبحت رقابهم غليظة ، إذا تكلمت معهم بالحق كادوا أن يرجموك ، وإذا تكلمت بالباطل اتبعوك وناصروك ! ، أصبح كبراؤهم شرارهم ، وأغنياؤهم عبيداً للذهب ..

.. هذه الأمة لم يعد لها صلاح ! ، الجسد دب فيه العفن ، وانسحق تحت أقدام الغرباء !! ، أمّا المسيح الذى ننتظره فهو الغضب الآتى الذى كلّمتكم عنه ، إنه جاء ليجمع السنابل الطيبة قبل أن يحترق الحقل ، كل من يحب الحق سيعرف صوته ، وأما الآخرون فسينكرونه ويلعنونه ! ، إذا رأيتموه فاتركوا كل شىء وسيروا خلفه – أنا أعمدكم بالماء وأدعوكم للتوبة وحفظ وصايا الرب ، أما هو فسيعمدكم بالروح ، لأنه ليس من عنده يتكلم ، بل هى كلمات الرب يحملها إليكم ، هو سيرشدكم إلى طريق الخلاص ، كل من يعرفه سيعرف طريق الرب ، ومن ينكره فقد وقع فى غضب الله الأزلى .. هو الحق ، وهو الطريق وهو النور – هو أقوى منى ولست أهلاً أن أحلّ سيور حذائه ..

.. استمع « بنيامين » إلى كلمات « المعمدان » .. لم يجرؤ على مقاطعته أو على طلب المزيد من الإيضاح .. ولكن ظلّت شكوكه بلا جواب قاطع .. إن كلام « المعمدان » يوحى بأن المسيح قد آن مجيئه ، وقد طلب من الجميع أن يتبعوه ، وهذا طَبَعِىٌّ . فاليهود جميعاً ينتظرون المسيح ليتبعوه ، ولكنه يقول بأن كثيرين سينكرونه فهل هذا يصدّق ؟ هل يمكن أن ينكر يهودى المسيح ؟ .. هذا غير مفهوم .. ثم على أى صورة سيأتى المسيح ؟ هل سيكون شيخاً كبيراً حكيماً ؟ ..

.. أم شاباً قائداً محارباً ؟ أم ملكاً قوياً بهياً ؟ .. وأين يعيش المسيح الآن ؟ هل يعيش مختفياً فى أحد الكهوف أو الجبال ؟ .. هل سيأتى من السماء ؟ هل سيخرج من باطن الأرض ؟ .. وإذا كان المسيح آت قريباً هكذا ، فلماذا غضب « المعمدان » وتشاؤمه ؟ ! لماذا لا يفرح « المعمدان » ويبشر بأن النصر قريب على يد المسيح ؟ ! ، ولماذا يقول : إن هذه الأمّة لم يعد لها صلاح .. ؟ !

.. نعم على « المعمدان » أن ينذر كل الأشرار والأغنياء ، ولصوص الكهنة وكل الخونة ، والذين يبيعون الشعب للرومان ، ولكن لماذا لا يبشّر الشعب بمجىء المسيح ليملأ قلوبهم بالأمل ونفوسهم بالحماس والقوة ؟ ! . لو أيقن الناس أن مسيحهم يوشك أن يأتى لتغيّر حالهم ، ولهانت عليهم الحياة ، بل هم على استعداد أن يظلّوا مع « المعمدان » فى الصحراء لا يأكلون سوى الجراد ، ولا يفترشون سوى الرمال ، ولا يلتحفون سوى السماء .. أيمكن أن يزفّ نبى إلى الشعب أجمل بشارة تنتظرها الأجيال ، وعلى وجهه كل هذا الغضب ، وفى صوته كل هذه الحدّة ؟ !

... كانت هذه هى ليلة « بنيامين » الأخيرة مع « المعمدان » حيث أزمعوا السفر فى الصباح الباكر ، وعلم « بنيامين » بقرار « حزقيال » بعدم العودة معهم ، حيث سيبقى مع تلاميذ المعمدان ، وحينما علم بعدها من « إيليا » أنه هو الآخر لن يذهب معه ، لم يكن عنده من شك فى أن تخلف « إيليا » مرجعه إلى رغبته فى مصاحبة « حزقيال » ، ولاحظ « إيليا » استياء « بنيامين » وأدرك ما جال بخاطره من شكوك ، فاعتصر الألم قلبه للحظات ، ولكنه شعر بعدها بالسلام يغمره ، فقد أيقن أنه برىء من كل اتهام ، وأن رأى الآخرين لم يعد يعنيه كثيراً .

.. فى رحلة العودة لم يكن سوى « بنيامين ، وداود ، ويوشع » .. قال يوشع :

– كم تمنيت أن أعيش فترة مع « المعمدان » .. ياله من مكان عظيم للعبادة والتأمل والاقتراب من الله .. ولكن كيف أترك الأولاد والعمل فترة طويلة هكذا ؟ إننى مضطر للعودة بأسرع ما يكون .

.. أما داود فقد قال :

– أنا لا أطيق هذه الحياة الشاقة ، ولا أعتقد أن الرب قد أمرنا بهذا ، إن حياتهم أشبه بحياة الأسينيين ، بل هى أشق ، فالأسينى يتزوج ويكون له أولاد يرعاهم ، ويعمل ويزرع الأرض ويأكل من ثمارها .. أمّا هؤلاء !! .. إن من تعوّد حياة المدينة لا يمكن أن يعيش مثل هذه الحياة .. أنا أتعجب كيف سيعيش « حزقيال » معهم ؟ ! ، والأعجب هو بقاء « إيليا » ! ، إنه لا يمكن أن يتحمل هذه الحياة بضعة أيام ..

.. أما « بنيامين » فقد ظل فى طريق العودة ، كثير الصمت ، يعيش مع أفكاره متأملاً ، وقد افتقد « إيليا » كثيراً ، فرغم عيوب

« إيليا » إلاّ أنه كان يضفى على المجلس بهجةً وسعادة ، وزهد « بنيامين » فى الحديث مع صاحبيه ، وحتى للاستماع إليهما ؛ لقد أدرك أن عليه أن يعيد النظر فى حياته وسلوكه ، لابد أن تكون هذه الرحلة انطلاقاً نحو التغيير ، عليه أن يعمل بجدّ لكى يحقق كل الأحلام ، أو على الأقل لكى يسير فى الطريق الصحيح ، الذى يرضى عنه الرب . لقد أدرك مدى ما كان فيه من ضياع ، ومدى ما كانت عليه حياته من تفاهة إذا قيست بحياة « المعمدان » وتلاميذه ، بل إذا قيست بكل ما يمكن أن يفعله ، فهو قادر على أن يفعل الكثير ، ولكن ماذا يمكن أن يفعل ؟ ..

إنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، أو قل هو لا يدرى ماذا يفعل ،

.. إذاً عليه أن يغيّر حياته ، وأن يسلك طريق الرب ويحافظ على الوصايا ، وأن ينتظر مجىء المسيح ..

* * *

اللوحة الخامسة

بنيامين وايزابيل





عاد بنيامين من رحلته « للمعمدان » عاقداً العزم على التوبة .. لقد أحسّ بجدّية الحياة وقسوتها ، وأنها لن ترحم العابثين .. انكسر شيء فى قلبه فجعله يخاف تقلّب الأيام وتغيّرها .. أصبح لا يأمن صروف الدهر وتحوّل الزمان . اشتعلت الغيرة فى قلبه من هذا الشباب الجاد الذى رآه يحيط « بالمعمدان » .. شباب كأنهم كهول ، قد عميت عن الشرّ أعينهم ، مصفرّة وجوههم ، ناحلة أجسامهم من كثرة الصيام والصلاة ، تسمع لهم بالليل بكاء وشهيقاً ، كأنهم يرون الجحيم أمام أعينهم ، ليس لهم من لذّة فى الحياة إلاّ أن يستمعوا إلى كلمات الرب وكلمات معلّمهم ، أو يتحاورون فيما بينهم ، كأن غايتهم فى الحياة أن يبحثوا عن الحقيقة والكمال ، يتسابقون إلى خدمة الجموع المقبلة عليهم ، كأن عملهم هذا شرف يتنافسون عليه ..

.. وقد كانت التوبة فى نظر « بنيامين » ، هى أن يكفّ عن شرب الخمر ، وعن حب « سيمون » ، وأن يعود إلى زوجته وبيته ، وأن يجد فيهما السكينة والسلام ؛ لذلك فقد قرّر أن يجعل من حياته الزوجية مصدراً للسعادة والحياة الفاضلة .

.. استقبلته « إيزابيل » بلهفة وشوق ، فقد كان نادراً ما يغيب عن البيت أياماً متتالية كهذه المرّة ، وتعجبت أن تراه يضمّها فى دفء وحنان ، فامتلأ قلبها بالسعادة ، واقترب من « بنيامين » صغيراه « شاول ، ودينا » ، فرفع « دينا » إليه يقبلها ويحتضنها ، ثم ضم « شاول » إليه طويلاً حتى تململ الصبى – وارتمى على إحدى الأرائك

وهو ينظر إلى الطفلين .. لكم أهمل بيته حتى كاد ينسى أن له إبنة بهذه الوداعة والجمال ! ؛ إنه يرى « شاول » كثيراً ، أما « دينا فنادراً مايراها .. ومتى يراها ؟ .. وهو لايمضى فى بيته إلاّ ساعات قليلة يقضيها عادةً فى الشراب ؟ ! ، وعاد يحتضن « شاول » إليه بقوّة تعّبر عن مدى حبه له ، وتمنى لوكان أحضر إليهما بعض الحلوى أو أى شيء يدخل السرور إلى قلبيهما .. « شاول » فى السادسة من عمره ، جميل الوجه ، نبيل القسمات . أمّا « دينا » فتصغره بأقل من سنتين ، حلوة الوجه ، دقيقة التقاطيع .. وقد أخذ « بنيامين » يجاذبها أطراف الحديث ، ويسأل عن أخبارهما .. ووقفت « إيزابيل » ترقبه بإمعان وتفكر فى نفسها عمّا دهاه !! ، هل كل هذا الشوق لأنه تغيّب عن البيت بضعة أيام ؟ ! .. لا : إنه يبدو مختلفاً بعض الشيء ، لعلّه أصبح أكثر شباباً ونضارة ، ولكنه أصبح أقل هيبة ووقاراً ، لقد أصبح أكثر مرحاً ، ولكنه أقل اتزاناً ! .

.. تعودت « إيزابيل » أن تراه صامتاً فى كبرياء ، قليل الكلام ، فإذا تكلم فإنما ليصدر توجيهاته وأوامره ، أو ليعلن غضبه واستياءه .. وفى ظل هذه الشخصية المسيطرة عاشت مستكينة ، ولكنها كانت تحسّ دائماً بالأمن والسعادة والدفء واللذة يسريان فى أوصالها .. ترى ماالذى غيّره هكذا ؟

.. ظلّت « إيزابيل » وهى تعدّ طعام العشاء تفكر فى « بنيامين » .. ولكن ما حدث بعد العشاء كان أغرب مما توقعت .. لقد أجلسها « بنيامين » بجانبه ، ثم وضع يده على كتفها وسألها بشفقة وحنان لمْ تتعوّدهما ، سألها سؤالاً لم يخطر ببالها أن تسمعه منه يوماً ما ، حتى خيّل إليها أن فى الأمر شيئاً مريباً أو مفجعاً .. قال :

– هل تحبينني يا إيزابيل ؟

.. احمّر وجهها ، وبدت كمن تكتم سيلاً دافقاً من انفعالات تجتاحها ، ولكنها أطرقت ولاذت بالصمت .. فضمها إليه « بنيامين » وهو يعيد سؤاله لها :

– هل تحبينى حقاً يا « إيزابيل » ؟

.. وعادت « إيزابيل » لتلوذ بالصمت ، فرفع « بنيامين » رأسها بيده الأخرى ، فخفضت طرفها ، ولكنها كانت تتابع حركاته بكل ذرّة فى كيانها ، وقد تملكّتها مشاعر كثيرة غامضة هى مزيج من الخوف والنشوة والتربّص والحيرة ، وأحست بأنه ينظر إليها ويتأملها وهى شبه مغمضة العينين ، فرفعت بصرها لتلتقى بعينيه الواسعتين المبتسمتين فى حب وحنان ، فلم تتمالك نفسها أن أجهشت باكية ، وانكفأت على يديه تقبلهما وهى تقول :

– أحبك أكثر من أى شىء فى الحياة ، لا حياة لنا بدونك ، نحن بغيرك لا نساوى شيئاً .

.. ضمّها بنيامين إليه بقوة .. وتاهت هى مع الدموع والأفكار والذكريات .. لقد تزوجته وهى فى الخامسة عشرة من عمرها . فتاة مليئة بالأحلام والأوهام .. قد داعب خيالها كل الرجال الذين رأتهم أو سمعت عنهم . وتخيلّت نفسها زوجة لكلّ منهم ، والحب يملأ الحياة والوجود .. والكلمات الرقيقة العذبة تنهال عليها من فارس الأحلام ، والقبلات الحارة المشتاقة تلتهمهما من رأسها حتى قدميها .. ولم تكن تحفظ من كلمات الأسفار غير مزمور واحد يقول : « .. فى الليل على فراشى طلبت من تحبّه نفسى . طلبته فما وجدته . إنى أقوم وأطوف فى المدينة . فى الأسواق وفى الشوارع ، أطلب من تحبّه نفسى . طلبته فما

وجدته . وجدنى الحرس الطائف فى المدينة ، فقلت : أرأيتم من تحبّه نفسى ؟ ، فما جاوزتهم إلاّ قليلاً حتى وجدت من تحبّه نفسى . فأمسكته ولم أدعه حتى أدخلته بيت أمى وحجرة من حبلت بى . أحلّفكن يابنات « أورشليم » بالظباء وبأيائل الحقل ألاّ تيقّظن ولا تنبهّن الحبيب حتى يشاء .. » .. وحينما أدخلوها عليه ، بهرت به ، تضاءلت أمامه ، فقد ملك عقلها وقلبها ، إنه أكبر من كل أحلامها

.. سلمّت له بكل شىء ، كانت كعابدة فى محراب ، وهو معبودها الذى يحلو لها أن تتذلل له وتستكين تحت قدميه .. أعطته كل ما تملك من حب ، فلم يكن لها خيار ، وذابت فى كيانه .. ولكنها لم تنل منه غير الجسد ، فقد بخل عليها بالحب ، بالكلمة الرقيقة الحانية ، فاكتفت بذلك زمناً طويلاً ، ورزقت منه الأولاد ، فازدادت به ارتباطاً ، حتى لم تعد تتصور لها حياةً بعيداً عنه .. وقد سمعت أن قلبه ملك للغانيات ، فكتمت السهم فى قلبها ، وظلّ الجرح مغلقاً على أحزان وآلام لا يعلم إلاّ الرب قسوتها .. وقد أقنعت نفسها بأنه حرّ فى أن يحب من يشاء ، ولكنها حينما بدأ يبتعد عنها بجسده ، شعرت بنار الوحدة والملل والتعاسة ، ولم تجد من تشكو إليه ، فالجميع وخاصة النساء يحسدنها على هذا الزوج الغنى المكتمل الرجولة ، الذى تتمناه كل امرأة ، هذا فضلاً عمّا رزقت به منه من أبناء ؛ لذلك فقد عوّدت نفسها أن تقنع ، وأن تنتظر مايجود به عليها من سعادة حين يرضى ..

.. ولكن ماباله اليوم ينكأ جرحاً قد اندمل ؟ ! ماذا دهاه ؟ ! إنها تخاف من سلوكه هذا ولا تطمئن إليه . وأحست بعواطف كثيرة متضاربة جياشة ، وبمزيج من الغضب ، والاستياء ، والخوف ، والحب ،والكره ! ، هل هى تحبه أم تحقد عليه ؟ ! لا تدرى ! ،

وتساءلت أين اختفى هذا الحنان طوال كل هذه السنوات ؟ .. إنهالا تذكر أنه دلّلها يوماً أو غازلها ، لقد فجّر حنانه اليوم إحساسها بالحرمان الطويل ، فاستمرت فى البكاء ، وزاد نشيجها .

.. واحتار « بنيامين » ، كيف يجعلها تكف عن هذا البكاء .. وبدأ يشعر بالضيق والتوتر إزاء هذا الموقف العاطفى الذى تورّط فيه ، وفكر فى أن يبتعد عنها ويذهب للفراش ، ولكنه لم يستطع ، فقد كان قد عقد العزم على أن يغيّر حياته ، وأهم شىء يجب أن ينجح فيه ، هو أن يقطع علاقته « بسيمون » ، وبكل علاقة تحرّمها الشريعة ، أو تمسّ قدسية الحياة الزوجية ، فلابد إذاً أن ينجح أولاً مع امرأته ، وأن يجد عندها كل ما يملأ حياته ويكفيه إنها تحبه ، بل هى تعبده ، وهو يعرف ذلك ، وهى راغبة فى إرضائه ، وسوف يستغل تأثيره هذا عليها ليجعل منها امرأة رائعة ، قد يحتاج الأمر إلى شىء من الجهد والصبر ، ولكنه سيفعل ذلك ، نعم لابد أن يفعل ذلك .

.. ووجد « بنيامين » نفسه يمسك بيدها ويذهب بها إلى الفراش ، وأحسّ كلاهما بطعم جديد للمتعة لم يعرفاه من قبل ، لقد التقت الأجساد وامتزجت بعاطفة صادقة من كليهما ، ولكن الغريب أن « بنيامين » شعر فى النهاية أن شيئاً ما يعكر صفو هذه العلاقة ، شىء ما لا يتبينه بوضوح ، كذلك « إيزابيل » أحست بأن متعتها الكاملة كانت وهى تراه ربّما تخشاه وتعبده ، ولكنها أبعدت هذه الأوهام عن رأسها ، وأسلمت عينيها للنوم فى سعادة .

.. استيقظ « بنيامين » فى الصباح ليجد « إيزابيل » قد تزيّنت وهيأت له إفطاراً شهياً ، فأحس بالرضا ، وأراد أن يتبسّط معها فى الحديث فقال لها :

- اجلسى حتى أحدّثك عن الرحلة التى قمت بها .. أنت تظنّين أننى ذهبت عند صديقى « يعقوب » فى « الرامة » ولكن الحقيقة أننى ذهبت إلى « المعمدان » .. أنا وبعض الرفاق : « إيليا » ، ويوشع ، وداود » ، وشاب يسمى « حزقيال » صديق « إيليا » . وفى الحقيقة المعمدان نبى عظيم ، صائم دائماً وزاهد فى الحياة ، ويعرف طريق الرب .. إنه نذير منذ ولادته ، وهو يدعو الناس إلى التوبة ! ، إن رؤيته تجعل المرء يشعر بثقل خطاياه ، وبالرغبة فى الحياة المستقيمة ! ، لقد عدت من عنده وأنا عازم على المحافظة على الوصايا ، إننى أريد أن أبتعد عن كل الخطايا التى تغضب الرب إله إسرائيل .. وأنا يا « إيزابيل » أريد منك أن تساعدينى على ذلك ، وأن تمنعينى أن أسلك طريق الشرّ .

.. نظرت إليه « إيزابيل » بشىء من البلاهة وقالت فى استغراب :

- أنا أمنعك !!

- نعم يا « إيزابيل » أنت لم تعودى صغيرة .. حقاً أنا أكبرك ، ولكنك زوجتى ، وأم أولادى وشريكتى فى الحياة ، فأنا مثلاً إذا أحسست يوماً أنك تفكرين فى الشر .. مجرّد تفكير .. سأمنعك بكل قوة ، ولكننى حينما أتّجه إلى الشرّ لا أشعر بك مطلقاً .. أنا أريد أن أشعر بوجودك فى حياتى دائماً . إننى أعرف إنك تحبيننى ، وحبك هذا يسعدنى ويدفئنى ويملؤنى بالثقة .. ولكنى أريدك يا « إيزابيل » أن تتحركى ، أن تخرجى من عزلتك هذه ، وأن تفرضى وجودك على حياتى ، وأن تمنعينى من البعد عنك ، أحب أن أشعر دائماً بأنك تغارين علىّ ، وأنك تقاتلين من أجل أن تمنعينى عن أية امرأة أخرى .. لا تترددى فى أن تعاتبينى أو حتى تؤنبينى أو تتشاجرى معى ، وتمنعينى بالقوة إن استطعت .. أتسمعين يا « إيزابيل » ؟ ! نعم هذا خير من أن تتركينى

للشيطان . أريد أن أحسّ بحرصك على حياتنا ومستقبلنا وسعادتنا – أنا أعلم أنك تحبينى ، وأنك كنت صغيرة حينما تزوجنا ، وقد تركتينى أفعل ما أشاء ، فلم أشعر أن لى زوجةً يمنعنى وجودها من أن أكون مع الأخريات .. قاتلى يا إيزابيل بكل قواك لتمنعينى من أن أسلك طريق الخطيئة .. لقد عاهدت الرب أن لا أعود إلى كسر الوصايا .. حتى الخمر لن أشربها لكى لا أسكر فأسلك طرق الشر .. لقد ندمت على كل ما فعلته .. أريدك أن تحاسبينى دائماً .. اسألينى أين كنت ؟ ومع من كنت ؟ ولماذا تأخرت ؟

.. كان « بنيامين » يدرك أن الحرية تؤخذ ولا تعطى ، وأن الإرادة تنبع من النفس ، وأنه لا يكفى أن يسمح لزوجته أن تحاسبه على تصرفاته ؛ لكى تتغيّر شخصيتها وتصبح قادرة فعلاً على أن تحاسبه ، وأن تمنعه من فعل ما يريد .. ولكن ماذا يمكنه أن يفعل غير ذلك ؟

.. لقد ألقى إليها بأفكار قلبه ، لعلّها تحرّك فيها إرادةً كامنة ، أو تستحث فيها غرائز مكبوتة

.. لم يشأ « بنيامين » أن يغادر البيت هذا الصباح ، فجلس فى صحن الدار يشاهد أولاده وهم يلعبون . كانت حجرات البيت الخمس تحيط بالفناء الذى غطيت أرضيته بقطع من حجر مصر الأحمر والرمادى ، وعلى يمين الداخل من الباب الخارجى ، غرفة للضيوف من الرجال ، وفى مواجهتها غرفة أخرى مخصصة للخدم عادةً .

.. وأحس « بنيامين » برغبة فى أن يعود للفراش ، ولكنه لم يستسلم للنوم ، بل إلى ذكرياته وأفكاره ، وعاد يزن الماضى والحاضر ، ويتفكر فى أحداث يومه وغده .. لقد كان فى شبابه المبكر يرى أن « يوليوس قيصر » هو المثل الأعلى للرجولة والعظمة ؛ فقد استطاع أن

يجمع شمل الإمبراطورية الرومانية ، بعد أن كادت تمزقها الحروب والفتن الداخلية ، كان رجلاً ساحراً أحبه أصحابه حتى العبادة ، وأحبه شعبه حتى الجنون ، قضى حياته كلها فى حروب وانتصارات وأمجاد ، ولم يمنعه هذا من الشغف بالنساء والسعى وراءهن دائماً ، وتذكر « بنيامين » كم تمنى دائماً أن يكون مثل « قيصر » ، وأن يعيش مثل حياته .. ولكنه يدرك الآن وهو يتأمل أحداث الماضى أنه عاش فى وهم كبير .. « فقيصر » صنعته ظروف وأحداث كثيرة ، ففى مثل سنه اليوم كان قيصراً حاكماً لولاية « غالة » وهى أكبر من فلسطين كلها ، وكانت حروبه وانتصاراته تملأ سمع الدنيا وبصرها ، كان شغوفاً بالنساء حقاً ، ولكنه لم يضعف أمامهن كما يضعف هو ، بل كنّ يرتمين تحت أقدامه مسحورات بجاذبيته ومجده ، وقد التف حول قيصر خيرة قواد « روما » وشبابها .. « قيصر » صنعته الأحداث ! ، صنعه التاريخ ! صنعته روما ! .. فلو كان « بنيامين » رومانيا لربما اختلف الأمر ، ولعل بصيصاً من أمل لمثل تلك الأحلام كان ممكناً .. ولكنه يهودى ، وقد ولّت أيام اليهود وذهب مجدهم ، ولم يعد بينهم رجال ، بل فقط أشباه رجال وحطام حياة .. اليوم تيقن « بنيامين » أن شخصية قيصر التى حلم بها كانت سراباً يتبعه خاليه .. ثم من الذى يؤكد أن شخصية « قيصر » التى تصورها وحلم بها لم تكن هى الأخرى شيئاً مبالغاً فيه ؟ .. ألم يقتله أصحابه وعلى رأسهم « بروتس » ؟ .. ومن قال إن الشعب قد أحبه حقاً .. إن الشعوب تحب القوة والعظمة ، تحب أن ترى أمامها آلهة تعبدها ، إنها شعوب غبية حمقاء ! .

.. إن العظمة الحقيقية هى ما فيه « يوحنا المعمدان » ، إنه يصنع مجده بنفسه ، وبلا جيوش ولا معارك ولا انتصارات .. بنفسه وفى

صحراء قاحلة ، صنع واحة للطهر هو سيّدها ، ومن حوله رجال يدينون له من قلوبهم بالحب والولاء ، لا طمعاً فى مال أو جاه ، ولكن تقديراً واعتزازاً وإعجاباً واقتناعاً ومحبة .. لو هيأت ظروف « قيصر » « للمعمدان » لكان أقوى وأعظم ألف مرّة من قيصر .. ولكن هل يستطيع قيصر هذا العربيد المغامر أن يكون مثل « المعمدان » ، أو أن يصنع بنفسه مجداً كمجد « المعمدان » ؟ .. هيهات ! ، أن يكون له مثل ما للمعمدان من تأثير على نفوس الناس .. لقاء واحد مع المعمدان جعله قادراً على التوبة وعلى حياة الإستقامة ، أيقظ فيه إرادة مسلوبة ، انتهى ذلك الصراع الذى كان يمزّقه .

* * *

.. ومرّت الأيام على « بنيامين » ، وهو يمارس الحياة الطيبة الهادئة ، التى طالما حسد بسطاء الناس عليها .. وصفت نفسه فأقبل على القراءة والتأمل ، وآلى على نفسه أن ينقل إلى امرأته كثيراً مما عرفه عن العالم وعن الحياة ؛ حتى تتسع مداركها .. فكان يقرأ لها أحياناً فى كتب الأنبياء ، ويؤلمه ألا يجد عندها الاهتمام الكافى ، أو الشغف للاستماع فكانت كمن يأكل طعاماً لا يستسيغه ، ولكنها تفعل ذلك فقط منعاً لغضبه .. ولكنه ثابر على الاهتمام بها ، واصطحبها للمسرح عدّة مرات ، وأصبح يدأب على اللعب مع طفليه ويتابع تعليمهم .. وكان لا يكاد يغادر البيت ، ولكنه أحسّ بحاجته لأن يفرّ من « أورشليم » ، فخيال « سيمون » يؤرقه ، وقد بلغه أنها تسأل عنه ، وهو يعلم أنها تحبه ، وأنها لن تتركه يفلت منها بهذه السهولة ، بل هى ستحارب لكى تستعيده حرب عاشقة مجنونة ، لذلك فقد قرر أن يذهب مع عائلته إلى مزرعته بعيداً عن « أورشليم » .

.. وهناك قضت هذه الأسرة المتعطشة إلى السعادة أياماً هانئة ، بين أشجار الكروم وتحت ظلال الزيتون ، وقد بدأ « بنيامين » يدرك مسئولياته نحو عائلته ، فأقبل على أطفاله يلاعبهم ويركض معهم بين الحقول ، ويعلّمهم كيف يمتطون الخيل ، ويحكى لهم عن المزرعة ، وكيف غرس جدّهم هذه الأشجار التى هى مصدر الخير لهم ، وأسعده أن يقول لهم بأن هذه هى مزرعتهم التى سيملكونها حينما يكبرون ، وقال « شاول » : إنه سيأخذ هذه المزرعة أمّا « دينا » فتأخذ المزرعة الأخرى فابتسم « بنيامين » ، وحدّثهم عن الحيوانات وكيف تلد وتتكاثر وتصبح قطيعاً كبيراً ، وكيف أن هناك بعض أشجار الزيتون قد زرعها أجداد قدماء جداً ، فهذه الأشجار تعيش كثيراً أكثر من الإنسان واكتشف « بنيامين » فى نفسه موهبة الحديث المبسّط مع الأطفال ؛ فقد استطاع أن يشدّ إنتباههم ، وأن يطلق لخيالهم العنان .

.. لم يكن « بنيامين » قد اقترب من الخمر منذ عودته من رحلة « المعمدان » ، ولكنه كذلك لم يستطع أن يتخذ قراراً بأن ابتعاده عن الخمر سيكون نهائياً ، لذلك ظلّت الخمور تملأ مخازنه سواءً فى بيته « بأورشليم » أو بالمزرعة ، ولكن هذه الفترة التى امتنع فيها عن الخمر أسعدته ، فقد أصبح قادراً على أن يعيش بروح الصبى الراغب فى المرح والحب والحياة ، وقد زال عنه كثيراً من وقاره المتكلّف الذى لازمه طويلاً .

.. واكتشف « بنيامين » مدى ما يمكن أن يجده المرء فى الطبيعة من سحر وجمال ، وتعجب كيف خلت نفوس الناس من الإحساس بهذا الجمال ! ، وكيف أعمتهم هموم الحياة ، وأفكار قلوبهم الشريرة . عن أن يحسّوا بروعة الوجود من حولهم !!

ولكن سواء عمى الناس أو أبصروا ، فالشمس لا تكف عن الشروق كل صباح ، والقمر لا يتأخر عن البزوغ فى موعده ، والسماء لا تبخل بمائها تبعثره على الأرض العطشى فتحيا وتنتعش وتلبس أجمل ثيابها ، وتتعطر بالزهور .. والطيور ، يا لهذه المخلوقات اللطيفة الوادعة ! ، ولعلها عرفت أكثر من الإنسان سر هذه الحياة لا تكف عن الغناء ، وتبدو كمن لا يعرف الشقاء ، إنها تأخذ من الدنيا أجمل ما فيها ، وحتى حينما تموت فإنها تموت فى سلام لأنها لم تفعل شراً فى الحياة .

.. وعرف « بنيامين » من « جلعاد » ، وزوجته ، أنهما قد عادا من رحلة « المعمدان » دون ابنهما « يوسف » ، الذى آثر البقاء هناك ورفض العودة معهما ، ودهش « بنيامين » أن وجدهما غير آسفين لترك ابنهما الوحيد هناك ، وهما لا يعلمان متى يلقياه ثانيةً .. ولكن أليس قرار يوسف هو قرار حكيم ؟ .. أليس الحياة مع « المعمدان » بالنسبة له شرف كبير ؟ وهو الذى حرم كل فرصة للكرامة والشرف فى هذا المجتمع .. فأنّى لمثله أن يحصل على مكانة فى هذا المجتمع الذى لا يبجّل غير أبناء من يملكون المال والجاه والسلطان ؟ ! إذاً فلماذا يحزن « جلعاد » وزوجته ؟ لعل ابنهما يشق طريقة فى الحياة عبر هذا النبى الذى يعيش فى الصحراء ..

.. وحينما كان « بنيامين » يستعيد أفكار المعمدان المتشائمه عن مستقبل « أورشليم » ، كان القلق يملأ قلبه خوفاً على أبنائه .. فهل حقاً يمكن أن يكون « المعمدان » « كأرمياء » مبشراً بعصر شتات جديد ، كما حدث أيام نبوخذ نصر ؟ .. وأى بشرى هذه ؟ ، إنها ليست بشرى بل نذير شؤم وضياع ! . هل يمكن أن يعيش اليهود أيام أسر بابل من

جديد ، ومراثى « أرمياء » .. يالمراثى « أرمياء » .. وياللوعتها .. « .. كيف جلست وحدها « أورشليم » ؟ . كيف صارت كالأرملة بين الأمم ؟ . السيدة فى البلدان صارت تحت الجزية تبكى الليل ودموعها على خدّيها . ليس لها معزٍّ من كل محبيّها . كل أصحابها غدروا بها ! ، صاروا لها أعداء ! . كل أبوابها صارت خربة ! . فى الأعياد لم يعد يأت أحد إلى المدينة ، والطرق كلها خالية ! ليس فيها إلاّ صوت النائحات ! . الرب قد أذلّها لأجل كثرة ذنوبها . ذهب أولادها إلى السّبى قدّام العدو .. » ! . وإذا كان هذا قد حدث « لأورشليم » فى أيام مجدها وما زال الخير فى أبنائها ، فماذا يمكن أن يحدث اليوم « لأورشليم » المنسحقة تحت أقدام الرومان ، لقد ضاع الحق بين أهلها ، وأرسى الشر جذوره فى نفوس أبنائها !! .

وأحسّ « بنيامين » بدمعتين تنسابان على خديه ، وهو الذى لا يعرف البكاء ولا يذكر متى بكى فى حياته آخر مرّة ، لقد دفن أباه الذى كان يحبّه ويبجّله ، ولم تسقط دمعة واحدة على خدّيه .. ولكنه يدرك الآن أن هذه الدموع التى تنساب من عينه المتحجرة ، إنما هى رحمة من السماء . لقد آن لقلبه أن يلين ويخشع ، نعم إنه يسير على الطريق .. الطريق الذى يقرّبه من الرب ومن رحمات السماء .

.. ولا يدرى « بنيامين » لماذا تذكّر أمه فى هذه اللحظات ، وأدرك مدى تقصيره نحوها ؛ فهى مريضة وكان عليه أن يكون بجانبها ، أو على الأقل أن يزورها كل يوم ليطمئن عليها .. بل كان عليه أن يرتمى تحت أقدامها يطلب رضاها قبل فوات الأوان .. فلربما تذهب عنه هى الأخرى .. ثم لماذا لا يصطحبها إلى « أنطاكية » ؟ إن بالمستشفى العسكرى الرومانى هناك طبيب ذاعت شهرته فى المسالك البولية ، فلعلّه

قادر على تخليصها مما تعانيه من آلام .. كان عليه أن يضغط ويلّح عليها ؛ لكى توافق على الذهاب .. لعلّه بذلك يكون قد أدّى لها بعض ما يريح ضميره بعد إحساسه الدائم بالتقصير نحوها . وإخوته البنات أليس من الواجب عليه أن يسأل عنهن دائماً ؟ ، ألا يدخل ذلك السرور فى قلب الأم ؟ . نعم لابد أن يفعل كل ذلك .. نعم لابد أن يفعل ، فمن هنا يبدأ طريق الصلاح .

.. و « إيزابيل » ، هذه الطفلة العزيزة ، إنها تتغيّر حقاً ، بل خيّل إليه أنها أصبحت أكثر رشاقة ، ولون عينيها ! كيف فاته أن يلاحظ ما فيه من جمال ؟ ! لقد غدت أكثر صفاءً وبريقاً ، وبدت له « إيزابيل » رقيقة عطوفة إلى حد كبير ، ولم لا وهى التى ولدت وتربّت فى عزّ أبيها وسطوته ؟ ، ولم تعرف من الحياة إلاّ أنها تأخذ منها ما تريد .. نعم لقد تغيّرت « إيزابيل » فى عينيه ، وهو أيضاً قد تغيّر ، فلم تعد حالات الصراع والتمزق التى كانت تنتابه فيهرب منها إلى الخمر تأتيه ، لقد أصبح قادراً على أن يواجه الحياة بلا سكر .. وتذكر كلمات « أشعياء » النبى « المحافظ على الشريعة لا يعرف الشقاء » .

* * *

.. لم يكن بنيامين بالنسبة « لإيزابيل » رجلها فحسب . بل هو كل حياتها بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، فإذا ابتسم فالدنيا كلها تبتسم ، وإذا غضب اكفهّر الجو وامتلأت السماء بالغيوم ، وها هو ذا قد تغيّر هذه الأيام فتغيّرت مشاعرها نحوه وحياتهامعه . ففيما مضى كانت قسوته وصرامته تجعلها تصاب بنوع من التبلّد والإعراض عن كل ما يشغل الفكر ، أو يسبب الهموم ، وجعلها تستغرق فيما أتيح لها من حياة دافئة بين يدى هذا الزوج المعشوق .. وعلّمها أن تشتهيه ، بل

كانت تعبده ، وتجد لذّتها وراحتها فى أن تتصوره عملاقاً لا يقهر ومارداً لا يهزم ، ونسيت كل ما كانت تحلم به فى صباها عن كلمات الحب والغزل ، واعتبرت ذلك لهواً وعبثاً لا يشغل إلاّ بال الفتيات الغريرات .. واليوم يعود « بنيامين » شاباً مشرقاً ودوداً ليناً ، يحاول أن يحرّك قلبها الساكن ، ويلهب عقلها الراكد ، بكلماته الجديدة ، وأفكاره ، واهتماماته ، وقصصه ، وآماله ، وآلامه . أيام قليلة هى التى مضت على هذه الحال ، ولكنها أحسّت بأنها قد كبرت سنوات كثيرة . لقد أصبحت تشاركه حياته بكل ما فيها من مشاكل وأفراح ، وآلام ، ومسرّات ، لقد خرجت من كهفها الذى عاشت فيه إلى عالم فسيح ! . لقد انتابتها فى البداية ومازلت تراودها مشاعر متباينة من الخوف والقلق ، فهى لم تتعود أن تأخذ الحياة بهذه الجدّية ، أو أن تشارك فى مسئولياتها .. ثم هل هى من ذلك النوع من النساء اللاتى يسعدهن ذلك ؟ إنها كانت راضية عن حياتها ، فهل ستستسيغ هذه الحياة ؟ .. ولكنها أصبحت تغار على زوجها ، بل ودّت لو حاسبته على ماضيه مع الأخريات ، لقد بدا اليوم أمامها رقيقاً ضعيفاً وأحست أنها قادرة على أن تتغلغل فى أعماقه بشجاعة ، ولكن هل حقاً يمكن أن تغفر له كل ماضيه ؟ .. وهل لو تمكنت منه ستعاقبه على ذلك ؟ .

.. جلس « بنيامين » وحوله « إيزابيل » ، وصغيراه : « شاول ، ودينا » ، وأراد بنيامين أن يبدأ تعليمه لإيزابيل ولأولاده ، فلم يجد هناك أنسب من أن يقص عليهم بعض حكايات الكتاب ، لعلّه بذلك يشوّقهم إلى قراءته ومعرفته .. قال :

– سأقص عليكم قصة الملك الشرير « آخاب » ونبى الله « إيليا » .. كان هناك فى قديم الزمان ملك شرير اسمه « آخاب » ، ورغم

أنه يهودى فقد تزوج من بنت ملك شرير آخر غير يهودى ، لا يعبد الله إله إسرائيل ، بل يعبد إلها شريراً آخر اسمه « البعل » ، وصنع « آخاب » الشرّ أمام عينى الرب .. فأرسل الرب للملك « آخاب » نبياً صالحاً اسمه « إيليا » .. وجاء نبى الله « إيليا » إلى « آخاب » وقال له : يا « آخاب » : إن الله غاضب عليه ؛ ولذلك فاسمع منى أيها الملك ، إن السماء لن تمطر أبداً حتى تترك أنت عبادة « البعل » وتتوب إلى الله ، وتعتذر وتبكى وتطلب منه أن يسامحك .

.. نظر بنيامين إلى « إيزابيل »فرأى عل وجهها ابتسامة حنونة ، ولكن هذه الابتسامة تعنى أن اهتمامها به هو وليس بما يحكى ، أما « دينا » فكانت تنظر إلى « شاول » فتراه مهتماً شغوفاً بما يسمع ، فتتظاهر هى الأخرى بأنها تفهم مايقوله أبوها وتنصت فى سكون ، ولكن نظراتها كانت شاردة فهى تنظر إلى أمها تارةً وإلى أخيها أخرى .. كان « بنيامين » مقتنعاً بما يفعل ؛ ولذلك أكمل قائلاً وهو ينظر إلى « شاول » :

ـ وبالطبع « يا شاول » حينما تتوقف السماء عن إنزال المطر إلينا ، فالشجر سوف يموت ، وكذلك كل الحيوانات : كالأغنام ، والأبقار والقطط ، والكلاب ، والعصافير ؛ لأنها تتغذى على الأشجار وغيرها ، وهى كذلك لن تجد ماءً لكى تشربه ، وكذلك الناس سوف تعطش وتجوع وتموت أيضاً ؛ لأن الماء ضرورى للشجر والحيوان وللناس كذلك .

.. وهزّ « شاول » رأسه موافقاً أبوه ، ثم انطلق قائلاً كمن تذكر شيئاً :

ـ ولكن لماذا لا يشربون من الآبار ؟

– طبعاً سيشربون من الآبار ولكن ماء الآبار لا يكفى .. ثم هى بعد سنوات إذا لم ينزل المطر من السماء ستجف هى أيضاً .

.. وهزّ « شاول » رأسه موافقاً وأكمل « بنيامين » :

– ولمّا سمع الملك « آخاب » ذلك من نبى الله « إيليا » غضب جداً ، وأراد أن يبطش « بإيليا » ، فهرب من أمامه لأنه خاف أن يضعه فى السجن ، وكان هذا الملك عنده سجن مظلم جداً ، قد بناه تحت الأرض ، أسفل القصر الذى يسكن فيه ؛ لذلك ذهب « إيليا » بعيداً واختبأ عند النهر بين الأشجار بعيداً عن الناس ؛ ولأن « إيليا » كان يحب الله ويفعل ما يأمره به ، ويحب الناس ويساعدهم ، ولا يكذب أبداً ، ويصلّى كل صباح وكل مساء ، لذلك فقد أمر الله بعض الغربان أن تقوم على خدمته ، فكانت تذهب إلى القرى وتحضر له الخبز واللحم فى الصباح وفى المساء ، وكان إذا عطش يشرب من ماء النهر .. وكانت زوجة الملك « آخاب » شريرة مثله ولا تعبد الله ، بل هى تعبد « البعل » ، وقد كان اسمها « إيزابيل » ، ولكن على قدر ما أمّكم طيبة وقلبها ملىء بالحب والخير والحنان ، كانت « إيزابيل » زوجة الملك « آخاب » شريرة ، وتكره كل الناس ، لذلك فقد جمعت كل أنبياء الله عندها فى القصر وقتلتهم جميعاً ، وجعلت مكانهم أنبياء البعل ليعلّموا الناسر الشرّ .. لذلك فقد غضب الله وأمر السماء ألا تمطر أبداً .. ومرّت ثلاث سنوات ولم يهبط مطر من السماء .

.. فقال « شاول » :

– والشجر مات والحيوانات ماتت .. الحصان .. والكلب ؟

– نعم مات الشجر والحصان والقطط والعصافير والحمام .. وجاع الناس وعطشوا جداً .. وبعد ذلك لما رأى الله أن الأمهات تبكى

لأنهن لا يجدن طعاماً لصغارهن أشفق عليهن .. فقال الله لنبيه « إيليا » : أن يذهب للملك ليقول له : أيها الملك : لقد صدق ما قلت لك ، فالآن اجمع كل الناس ، وهات أنبياء « البعل » كلهم ؛ حتى أثبت للجميع أنهم أنبياء كذبة . ولمّا جمعهم الملك ، وقف « إيليا » وقال للناس : حتى متى تعبدون إلٰهين ؟ إن كان الله هو الرب فاتبعوه ، وإن كان « البعل » هو الرب فاتبعوه .. فسكت الناس ولم يجبه أحد من الشعب بكلمة . فقال إيليا : انظروا ! لقد قتلت « إيزابيل » كل أنبياء الله ، وأنا بقيت وحدى نبياً لله . وهؤلاء جميعاً أنبياء « البعل » . وأنا أتحدّاهم جميعاً أن يأخذوا ثوراً ويذبحوه ويقطعوه ويضعوه على الحطب .

.. وقاطعه « شاول » :

ــ ولكن ألم تمت كل الثيران ؟

ــ لا .. كان هناك بعض ثيران قليلة لم تمت لأنها كانت قريبة من البئر فكان أصحابها يسقونها منه . المهم أن نبى الله « إيليا » تحدّاهم أن يضعوا لحم الثور على الحطب ، ثم ينادون إلٰههم « البعل » أن يرسل ناراً لتحرق الحطب . وقال إيليا : إنه سيأتى كذلك بثور آخر ويذبحه ويضع لحمه على الحطب ثم يدعو الله إله إسرائيل أن يرسل النار لتحرق الحطب .. ليرى الجميع أن الله هو الإله الوحيد الذى يملك السماء والأرض ، والقادر على أن يرسل ناراً من السماء لتحرق الحطب .

.. ولما سمع الناس هذا الكلام ، قالوا : نعم هذا كلام حسن ، إذا كان الله هو الإله القادر فستنزل النار على الحطب الذى وضعه « إيليا » ، وإذا كان البعل هو الإله القادر فستنزل النار على الحطب الذى وضعه أنبياء « البعل » .. وفعلوا كما طلب « إيليا » ، وظلت أنبياء « البعل »

ترقص حول مذبحهم ، ويصرخون إلى إلٰههم من الصباح حتى الظهر ، فلم يكن صوت ولا مجيب .. فسخر منهم النبى « إيليا »وقال لهم : لعلّ « البعل » إلٰهكم نائم فهو لايسمعكم ، أو لعلّه مسافر ، أمّا الله إلٰه إسرائيل فهو لا ينام أبداً ، وهو موجود فى كل مكان ، ويسمع جميع الناس وهم يتكلمون ، فكل من يقول يا رب يسمعه الله .. ثم تقدّم « إيليا » وجاء بأربع جرّات ماء وسكبها على المحرقةِ وعلى الحطب ، ونظر إلى السماء قائلاً :

« .. أيها الرب إلٰه إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ليعلم الجميع أنك أنت الله رب العالمين جميعاً ، ورب إسرائيل وشعب إسرائيل ، وأنا لا أعبد غيرك ، وباسمك فعلت كل هذه الأمور .. يارب استجب لى ليعلم الناس جميعاً أنك أنت الرب الإلٰه ، وأنك أنت القادر على كل شىء .. » . حينئذ سقطت نار عظيمة من السماء وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب والماء الذى صبّ فوق الحطب .. فصرخ الناس وقد سقطوا على وجوههم « الرب هو الله .. الرب هو الله » . فقال لهم « إيليا » : امسكوا الآن أنبياء « البعل » الكذابين ولا يفلت منهم أحد . وأخذهم « إيليا » وذبحهم جميعاً فى « نهر قيشون » .. حينئذ رضى الرب ونزل المطر ، بعد أن انقطع ثلاث سنوات . وعاد الشجر إلى النمو ، وفرحت الحيوانات ، وخرج الناس يصلون ويشكرون الله على هذا المطر الكثير .

أسعد « بنيامين » أن يرى امرأته قد شدّها الحديث ، وبدأت تتابع نهاية القصة فى اهتمام .. وقامت هى بالأطفال إلى مخدعهم ، وقد بدأ الأمل يدب فى صدر « بنيامين » أن طريقته ستفلح فى تغيير « إيزابيل » ،

فقرر قراراً مفاجئاً أن يذهب بأسرته إلى « المعمدان » ، إن رؤية « إيزابيل » للمعمدان ستساعد كثيراً على أن يسيرا معاً فى هذا الطريق ، ثم إن « بنيامين » هو الآخر فى حاجة إلى هذه الزيارة ، إنه يريد أن يحصل هذه المرة على إجابات قاطعة على تساؤلاته .. إنه يريد أن يعرف تفسير نبوءات « المعمدان » ، ماذا يقصد ؟ ومتى يحدث هذا ؟ .. إن المعمدان يبدو غامضاً ، كأنه يعرف الكثير ولكنه لايفصح عمّا يعرف . فمن هذا الذى سيأتى بعده ؟ هل يقصد المسيح ؟ ومتى سيأتى ؟ هل سيحدث هذا فى أثناء حياة « المعمدان » أم أن هذه مجرّد نبوءة قد تحدث بعد أجيال كثيرة ؟ .. وإذا كان الآتى هو المسيح ، فالجميع يعلم أن المسيح هو ملك إسرائيل الذى سيأتى إليها بالمجد والنصر ، وسيعيد إليها القوة والغلبة على أعدائها ، فلماذا صرخات « المعمدان » المحذّرة المتشائمة ؟ ! ألم يكن أجدر به أن يتكلم عن ذلك بفرح ؟ وإذا كان من المفهوم أن يؤنّب « المعمدان » الشعب على خطاياه ، وأن يطلب منه التوبة والرجوع إلى طريق الرب وفعل الخير ؛ حتى يكونوا أهلاً لمجى المسيح إليهم ، فإنه من غير المفهوم ، أن يهاجم المعمدان اعتزاز الشعب بأنهم أبناء إسرائيل ، وبأنهم شعب الله بين شعوب العالم التى تعبد الأوثان ولا تعرف طريق الرب ؟ .. وبدلاً من أن يبشر الشعب بمجىء المسيح الذى سينقذهم ويخلّصهم مما هم فيه من ذلّ وعبودية ، فإنه يحذرهم من مجيئه ، ويقول عنه : إنه الغضب الآتى الذى سيلعن الأشرار منهم ، ويقطع شجرتهم ويستأصلهم ؟

.. ورغم محاولة « بنيامين » لتذكر ما سمعه من « المعمدان » ومن تلاميذه عن هذا الأمر ، ولكنه لم يكن مستعداً لأن يقبل أو أن يفهم ،

فكل ما قيل بدا له غير واضح وغير منطقى ، ولا يمكن أن يقبله عقل ، ولا أن يُفْهَم على هذه الصورة أبداً .

.. فوجئت « إيزابيل » بقرار زوجها ، وكتمت ضيقها فهى لا تحب القرارات المفاجئة ، ولكنها وجدت فى الرحلة فرصة طيبة لأن تظلّ قريبة من « بنيامين » ، وانشغل تفكيرها بترتيبات السفر ، وطلبت من « بنيامين » العودة « لأوشليم » ؛ لتجهيز نفسها وأولادها ، ووافقها بنيامين رغم أنه كان يتمنى أن يسافر من مزرعته رأساً ولا يدخل « أورشليم ، وفى اليوم التالى عادوا إل منزلهم فى أورشليم ، وقد احتاج الأمر إلى يومين آخرين لبدء الرحلة إلى « المعمدان » .

* * *

.. كانت مشاعر « بنيامين »وهو يغادر مع أسرته « أورشليم » تلفّها خواطر سوداء ، فهو يرحل اليوم مع أسرته بإرادته بحثاً عن متعة العقل والروح .. ولكن هل يمكن أن تكون الأيام قد خبّأت لهم خروجاً آخر من « أورشليم » .. خروجاً يملؤه الخوف والذعر هرباً من الغضب والدمار الآتى ؟ ، وأين سيذهبون ساعتها ؟ .. وكيف سيحمل أمّه المريضة ؟ ! إنه بالطبع سيذهب إلى مزرعته الجنوبية ، ولكن هل سيكون آمناً فيها ؟ ، أم سيصبح هو وأسرته فريسةً سهلة للأعداء ؟ .. وإخوته البنات ، هل سيجمعهم معه وهل سيقبلون ذلك ؟ .. خواطر سوداء كثيرة اضطرب لها قلب « بنيامين » ، وأخذ يدعو الله بحرارة أن يجنّبه أن يرى يوماً كهذا فى حياته .

.. ولم تكن الرحلةسارة كما توقع « بنيامين » ، فزوجته مرّت على أبيها قبل سفرها لتودعه ، وقد عادت من عنده وهى أقل حماساً للرحلة ، وهو يعلم أن أباها لابّد قد أبدى استياءه لسفرهم إلى « المعمدان » ..

وكذلك آلم « بنيامين » أن « إيزابيل » لم تنبهر بشخصية « المعمدان » ، بل هو لم يعجبها ، وإن كانت لم تصرّح بذلك .. وقد مرضت ابنتهم « دينا » مما زاد من همّ « إيزابيل » وأعطاها مبرراً ؛ لكى تظهر حزنها وكآبتها وضيقها بالرحلة ، فهى فضلاً عن عدم رضاها عن « المعمدان » ، لم تتعود مثل هذه الرحلات الشاقة .. و « بنيامين » كذلك رأى المكان أكثر ازدحاماً عمّا كان عليه فى رحلته السابقة ، وهيىء « لبنيامين » أن تلاميذ « المعمدان » أكثر حدّة وضجراً من كثرة الجموع الزاحفة ومن سلوكها ، كما أن المكان أصبح أقل نظافة وأكثر ضجيجاً ، ولم يخل من بعض المشاجرات بين الأفراد على أشياء تافهة لا تليق بقدسية المكان .. وكم كانت دهشة « بنيامين » وسخطه حينما أبلغته زوجته بسرقة بعض المتاع ، ولم يكن سخطه من أجل قيمة ما ضاع منهم ، قدر ما كان سخطاً على انحطاط أخلاق الناس ، كذلك سخط على الناس الذين يتدافعون ، يحاول كل منهم أن يسبق الآخر فى الوقوف أمام « يوحنا » لينال المعمودية ، حقاً إن الرحلة شاقة والوقوف فى شمس البرية ليس شيئاً مريحاً ، ولكن المعودية ليست سلعة جاءوا لشرائها ، إنها توبة تستدعى الخشوع والانكسار .

.. عاد « بنيامين » إذاً من رحلته حزيناً آسفاً على غير ما كان يتوقع ، وفى أثناء الطريق كان يجترّ ذكريات الرحلة ، وكلمات تلاميذ « المعمدان » ، فهو لم يتمكن من أن يجلس مع « المعمدان » ؛ لكى يناقشه بكل أفكاره ، ولكن وجد إجابات كثيرة عند تلاميذه ، قال له أحدهم :

– ما الذى يجعلك تؤكد أن المسيح حينما يأتى سيقود شعب إسرائيل ليسود به على شعوب العالم ؟

– ذلك وعد الله لإبراهيم أن يرث نسله هذه الأرض .

– لو سلّمنا بهذا فمن هم نسل إبراهيم ؟ .. أليس أبناء إسماعيل الذين يملؤون بلاد العرب هم من نسل إبراهيم ؟ .. وأين أبناء « زمران ، ويشقان ، ومدان ، ومديان ، ويشباق ، وشوحا » ؟ أليس كل هؤلاء كانوا أبناء إبراهيم ؟ إنك لو تأمّلت ملياً لرأيت أن أغلب شعوب هذه المنطقة هم من نسل إبراهيم ، وبركة الله عليهم جميعاً . فمن نسل عيسو أخي يعقوب كان نبى الله أيوب ، ومن نسل « مديان » أخي إسحق كان نبى الله شعيب ، ثم دعنى أسألك أليس الناس جميعاً هم أبناء آدم وحواء ؟ أليس الله هو رب الجميع ورب جميع الأمم ؟

.. وقد بحث « بنيامين » عن صديقه « إيليا » فلم يجده ولكنه وجد « يوسف بن جلعاد » ، وقد أعجب بما رآه عليه من وسامة واعتداد بالنفس ، ولكن زوجته « إيزابيل » رأته متكبراً غير حافظ للجميل فهو لا يعاملهم كسادته السابقين ، وحينما كان « بنيامين » يتكلم مع أحد تلاميذ « المعمدان » عن يوسف قال « بنيامين » :

– من المؤسف أن اليهود أصبحوا أكثر انحطاطاً من الأمم الوثنية ، فلا يسود فيهم ولا يحصل على الرفعة والشرف ، إلاّ من كان ذا نفوذ أو مال ، أو من أبناء الكهنة والرؤساء ، وقد نسوا أنهم جميعاً إخوة أبيهم إسرائيل .

.. فقال له التلميذ :

– إذا كنت أنت ترى أن هذا ليس عدلاً .. فما بالك بإله إسرائيل الذى هو العدل المطلق ؟ . هل يمكن أن يميّز شعباً أنت تعرف مثلى مدى ما وصل إليه من فساد وظلم على كل الأمم ؟ ! ، فقط لأنهم

أبناء إسرائيل وإبراهيم ؟ ! ، ألم تقرأ فى الكتب أن الناس جميعاً هم أبناء الله .. والله لا ينظر إلى أنسابهم ولكن إلى أعمالهم ؟

.. احتد « بنيامين » فى غضب ضعيف وهو يقول له :

– ماذا تقصد ؟ هل الرومان أو اليونان أو المصريون والعرب هم الذى سيعرفون طريق الله ؟ .. ونحن شعب إسرائيل الذين نعبد إلٰهاً واحداً هو الرب ولا نشرك معه آلهة أخرى لمجرد أن ظهر فينا الفساد الذى يوجد فى كل الأمم لن نعرف طريق الله وسيغضب علينا ويلعننا ؟

– أنت تطرح قضايا كثيرة .. ولكن أنا أريد أن أطرح القضية التى نتكلم عنها كالآتى : نريد أولاً أن نتفق على أن من يعرف طريق الله ، ويؤمن به ، ويتبع شريعته ، ولا يعبد معه آلهة أخرى ، فقد عرف الطريق المستقيم ، واتبع سبيل الحق .. فإذا كان الله قد فضّل أبناء إسرائيل عل العالم ، بأن جعلهم شعبه الذى يرفع علم التوحيد بين الأمم ، فإن هذا الفضل يتبعه تكليف لهذا الشعب ، بأن يحافظ على الشريعة وعلى الوصايا ، فإذا لم يفعل فليس له حق أن يطالب بهذا الفضل . وأنت تعلم أنه كان قبل إبراهيم أنبياء ورسل لله أرسلو إلى أمم أخرى ، فكان الله ينجّى المؤمنين ويقضى على الكافرين .. ثم إن أبانا « إبراهيم » حينما جاء إلى « أورشليم » كان بها رجل الله الصالح « ملكى صادق » ، وكان إبراهيم يدفع إليه بالعشور ويسميه كاهن الله العى .

.. فالإيمان بالله والطمع فى نعمته ليس حكراً على أبناء يعقوب .. ثم أنا أسألك أتعتقد حقاً أن كل اليهود . الآن هم من نسل يعقوب ؟ .. ألا تعرف أن كثيرين قد اعتنقوا اليهودية سواء عن رغبة أو رهبة .. مصريين ، ويونان ، وعرب ؟ ، وبعقلك ! هل يمكن لشعب عانى سنوات طويلة من العبودية نساءً ورجالاً فى أسر « بابل » أن يدّعى أن

نسله نقى حقّاً ؟ . ألا ترى فى اختلاف البشرة ولون الشعر والعيون دليل على اختلاط الأنساب ؟ .. اسمع يا أخى أنا أقول لك : إن موسى قد أسس هذا الدين وظلّ شأن بنى إسرائيل يرتفع حتى بلغ قمة مجده فى عهد « دواد » و « سليمان » ، ثم بدأ البناء يتصدّع ، وكثرت الخطايا والآثام ، وكما قال « أشعيا » النبى : « .. لذلك يكون هذا الإثم لكم كصدعٍ منقضٍّ ناتىء فى جدار مرتفع ، يأتى هَدُّه بغتةً فى لحظة ، ويكسر ككسر إناء الخرافين مسحوقاً بلاشفقة .. » .. فهذه سنّة الله فى خلقه ، فكم من أمم سادت ثم فسقت وضلّت فانتهت كأن لم تكن من قبل .

.. أحسّ « بنيامين » وهو يجتّر هذه المناقشات بأنه منهزم أمامها ،ولكنه رغم منطق التلاميذ الذى يصعب مجادلته ، لم يستسلم ، وظلّ يأمل أن يجد حلاً آخر يتفق مع ما يأمن به ، من أن ملك إسرائيل ومسيحها المنتظر سيجىء ليعيد للشعب أمجاده ويرفع رايته ، فما زال هذا الشعب هو صاحب الشريعة وكلمات الله ووصاياه ، والشعوب الأخرى لا تعرف الله بل هى تعبد آلهة أخرى .. فحتى لو عاقب الله هذا الشعب ، فإنه سيعود لينصره من جديد .

* * *

اللوحة السادسة

مريم المجدلية





.. عاد « داود » من رحلة « المعمدان » وقد حسم أمره .. فهو لابد أن يتجاوز كلّ هؤلاء الأصدقاء الحمقى .. لابد أن يتطلع إلى الحياة التى حلم بها ، « بنيامين » هذا ! من يظن نفسه ؟ ! ألأنه ورث مرزعةً عن أبيه يعتقد بأنه من عِلْية القوم ؟ ! ، لا : إنه ورث مالاً ولكنه لم يرث عقلاً كعقل « داود » ، نعم « داود »قادر على أن يحصل على المال ، أمّا هو فغير قادر إلاّ على إضاعته ، و« إيليا » : ذلك التافه ! من يتصور أنه يبقى هناك فى تلك الصحراء الموحشة ؟ إنه بقى بلا شك من أجل أن يظلّ مع « حزقيال » .. إن أفضلهم هو يوشع ، ولكنه رغم نجاحه لا يصلح أن يكون من علية القوم ، إنه يفتقد الطموح ، ثم إن مثله لا يرجى أىَ نفع من ورائه ..

.. كان « داود » قد جمع ثروة خلال السنوات السابقة ، فقرر أن يعلن عن ثرائه ، وأن يعيش حياة السادة والوجهاء ، وتقدم « داود » لخطبة أبنة رئيسه « زكّا » فهو إن أصبح زوجاً لابنة رئيس العشارين ، فلابد أن يؤثره بعشور الأغنياء فيزداد ثراءً ، وتثبت أقدامه فى عمله ، ولكن « زكا » رفض أن يزوجه إبنته ، فحقد عليه حقداً شديداً .. ولكن من هذا « الزكا » ، إنه لا يساوى شيئاً إذا عرض فى سوق الرجال ، لكم ترتعد فرائصه وهو يخاطب قادة الرومان ، أو رؤساء الهيكل ، ولولا ما يقدّمه لهم دوماً من الهدايا ما إحتفظ بمنصبه .

.. ولكن « داود » كان مصرّاً على ألا ينهزم ، فاشترى داراً جميلة ، وتزوج بفتاة يونانية ابنة أحد التجار الأثرياء ، إنه يعرف كيف

يصل إلى ما يريد .. وفى هذه الليلة التى نتحدث عنها كان « داود » يعدّ حفلاً فى بيته ، دُعِىَ إليه لفيف من يونان ، ورومان ، وأثرياء التجار ، وقد شعر بسعادة ورضا ، وهو يتأمل بيته الجميل ، وقد زينت أركانه بتماثيل يونانية لآلهة لا يعرفها ، ولكنها أضفت على البيت أناقة وبهجة .. وهبطت زوجته من غرفتها بالطابق العلوى ، وخلفها جارية جميلة ، كانت قد أهديت إليه من بعض الأثرياء ، ونظر « داود » إلى زوجته كمن ينظر إلى تحفة غالية يقتنيها فى بيته ، وقام إليها يستقبلها ويطمئن منها على ترتيبات الحفل ، ويتملقها بكلمات معسولة ، فهو حريص جداً على رضائها ، ولكنها بادرته قائلة :

– لماذا لم تغيّر ثيابك ؟ ! ، هذه الملابس لا يليق أن تقابل بها ضيوف اليوم ..

.. ونظر « داود » إلى ملابسه ، ثم أراد أن يصعد لينفذ أوامر زوجته ، ولكن دق الباب : فنظر إلى زوجته متعجباً فموعد الحفل لم يحن بعد ، فمن هذا الذى يأتى مبكراً هكذا ؟ وأسرعت الجارية ففتحت الباب وأدخلت الضيف إلى حجرة الاستقبال ، ثم جاءت مسرعة وهى تقول :

– سيّدة تنتظرك فى غرفة الاستقبال يا سيدى . إنها سألت عنك

– من تكون ؟

– لا أعرفها . لم تحضر إلينا من قبل .

– ما شكلها ؟

– تبدو يا سيدى ذات مكانة رفيعة ، وهناك عربة فخمة تنتظرها عند الباب .

.. أدرك « داود » أنها ليست إحدى المدعوات إلى الحفل ، فلابد إذاً أن تكون إحدى العميلات تريد أن تتفاهم معه على أمر ما ، أو تهدى إليه هدية .. نظر إلى زوجته مرتبكاً كأنما يريد أن يعتذر عن عدم إمكانية تغيير ثيابه الآن ، وأسرع متلهفاً لمعرفة أمر هذه المرأة ، ولكى ينتهى من مقابلتها بسرعة قبل حضور المدعوّين للحفل .

.. دخل « داود »حجرة الاستقبال فوجد امرأةً فى ثياب أنيقة فاخرة ، قد اتكأت على إحدى الأرائك ، وقد أحسّت بدخوله فرفعت بصرها إليه ، والتقت عيناهما ، فعقدت الدهشة لسان « داود » وأصابه دوار كاد أن يسقطه مغشياً عليه ، ولولا موقفه الحرج وخوفه من زوجته ، لما استطاع أن يتمالك نفسه ويتغلب على إعياءه ، ثم ألقى بنفسه ليجلس أمامها وسألها باستنكار :

- من ؟ من أنت ؟

- ألا تعرفنى ؟ أنسيت أختك ؟ .. مالك تعتريك الدهشة هكذا .. ألا ترى الأيام تفرق وتجمع ؟ ! ، ولكنك لم تسلّم علىّ !!

.. علت وجه « داود » صفرة ومرارة شديدة ، ولعن فى نفسه أخته والظروف التى ألقت بها فى هذه الساعة الحرجة ، فالضيوف سوف يتقاطرون على البيت بعد قليل ، وزوجته التى ترصد ما يجرى ، وتريد أن تعرف من تكون هذه الزائرة ؟ ثم ما سرّ هذه الزيارة ؟ .. لقد عاش وحيداً سنوات طويلة لم يرها أو يسمع عنها ، فلماذا تظهر فى حياته الآن ؟ .. لذلك قرر « داود » أن يكون جافاً وقحاً معها ، وأن يدفعها للانصراف من البيت بسرعة مهما كلّفه ذلك .. فبادرها قائلاً :

- ما الذى جاء بك إلى هنا ؟ !

- جئت إلى « أورشليم » عند بعض الأصدقاء .. فرأيت أن أزور

أخى الذى لم أره منذ سنوات بعيدة !! ، ولكن يالسوء استقباله لى !!

.. زادت لهجتها المرحة الساخرة من غيظ « داود » ، واشتعلت فى نفسه نار الغضب الممزوج بالذعر والقهر . فقال مهاجماً :

– أنا أعرف ما صرت إليه . وأعرف حياة العهر والفساد التى تعيشينها . لقد جلبت لنا العار والفضيحة دائماً ! ، ولكن اعلمى أننى قد أخرجتك من حياتى تماماً ، ولن أسمح لك أن تدنِّسى شرفى أبداً . هل تفهمين ؟ . إن أختى قد ماتت .. وأنا اليوم لا أعرفك ، وأنت لا تعرفيننى ، وأنا لا أريد أن أراك ثانية .. لقد كانت لى أخت وماتت منذ زمن بعيد ! .

.. وبدا على « داود » التشنج والهياج ، فابتسمت أخته فى مرارة ، وحبست دموعها ، وهى تقول له مهدّئة من روعه :

– لا عليك يا « داود » .. أنت لم تتغير عمّا كنت عليه .. ولكن اطمئن ، فأنا لن أعود إلى رؤيتك ثانية ، ولست فى حاجة إليك ، بل أنت الذى قد تحتاج إلىّ . فقط جئت لأراك ، ولم أقل لأحد : إننى أختك ولن أقول . لأنه لا يشرفنى أن يكون لى أخ مثلك !

.. لا تغضب ، وتأكد أن هذه هى آخر مرّة نلتقى فيها ، اهدأ قليلاً وعد إلى صوابك ، حتى لا يلاحظ أحد ما بك . وأنا سأنصرف الآن .

.. وحينما همّت بالانصراف ، دخلت جارية تحمل شرابا فى أكواب فضية على صينية من الفضة المنقوشة الجميلة ، وشعر « داود » بالرضا ، فمنظر الجارية وما تحمله يوحى بما هو فيه من مكانة وعلو شأن ، فهدأت ثائرته قليلاً ، وبدا عليه بعض الارتباك وهو يطلب من أخته « مريم » أن تجلس حتى تتناول شرابها ، واشتد الصراع فى نفس

« داود » ، فأخته رغم كل هذه السنين لم ينسها ، ولم يفتأ يشعر بالحنين إليها ، إنها كل ما بقى له من أهل فى هذه الحياة ، ولقد كان يحبّها كثيراً فى صباه ، ولكن كرامته وحياته التى خطط لها لكى تبتعد به عن كل ما يذكره بالماضى وآلامه .. والتفت إلى « مريم » وسألها فى حزن :

– متى ماتت أمنا ؟

– بعد هروبك بأشهر .

.. وكأن شيئاً طعن « داود » ، فصرخ بانزعاج شديد وغضب :

– أنا لم أهرب .

– وبماذا تسمى تركك لنا . وأمك على فراش المرض . وأنت رجلنا الوحيد فى الحياة بعد وفاة أبيك . لقد تركتنا فجأة وبحثنا عنك فى كل مكان ولكنك تركت المجدل كلها ، ولم تخبر أحداً حتى أصدقائك عن وجهتك ؟

– وكيف كنت تريدين منى أن أعيش هناك ، بعد أن جلّلتينا بالعار بفعلتك الشنعاء ؟ والجميع ينظرون إلينا باحتقار ، وتتعالى همساتهم ، لماذا لا يقتلها أخوها ؟ هذا الجبان لو كان رجلاً لقتلها .. فآثرت أن أترك كل شيء خلفى وأذهب ، لأننى لست قاتلاً . ولو أنك كنت تستحقين ذلك .

– أنت تعلم أن ذلك الرجل قد خدعنى بعد أن وعدنى بالزواج . ولما كنت أنت غير قادر ، أو على الأصح غير راغب فى العمل لتكفلنى أنا وأمّى ، بل إنك قد أتيت على القليل الذى تركه أبونا ، ولم تبال بما نحن فيه من جوع وفقر مدقع . لقد كان ذلك الرجل غنياً ، ولم يبخل علينا بماله وهداياه .. وقد قبلنا منه ذلك ، وقد أغمضت أنت عينيك عن هذا .

.. قاطعها « داود » بحدّة حتى لا تكمل حديثها ، وقد أخذ الصراع بينهما يشتّد ، كلّ منهما يلقى اللوم والتهم على الآخر .. قال فى غضب :

– ليست هذه مبررات لتسلّمى إليه شرفك وتجلبى لنا العار !! ، وأمّا عن العمل الذى تتحدثين عنه ، فقد كنت جاداً فى البحث عن عمل مناسب ، وماذا كان يمكننى أن أعمل ؟ ، هل أحمل قرب الماء لأمرّ بها على البيوت ؟ .. أنا لم أخلق لمثل هذه الأعمال الوضيعة .. ولكنكم كنتم تستعجلون كل شىء ، وأنا لم أكف عن البحث عن العمل المناسب .

– وهل كان فى إمكاننا أن ننتظر ؟ . والبيت يخلو من كل شىء حتى الطعام ! ، ولكن لا عليك .. فنحن على شاكلة واحدة .. فأنت تبحث عن حياة عريضة ، وأنا لا أتّحمل ضراوة الفقر والحرمان .. وآثرت أنت أن تهرب ، أمّا أنا فقد اضطررت إلى التسليم . وماذا كان علىّ أنا الأخرى أن أفعل والناس لا يقدّمون المساعدة فى زماننا – هذا اللعين – إلاّ إذا أخذوا ثمنها فوراً .

– أغلقى فمك هذا .. أنت تجيدين طعنى بكلماتك المعسولة المسمومة .

– اسمع يا « داود » .. أتحسبنى راضيةً عما أنا فيه ؟! كلا ؟! كلا !، فآلامى لا يعرف مداها إلا الله .. ولكن ماذا يمكننى أن أفعل .. علينا أن نقبل الحياة كما هى ..

.. وامتلأ صدر « داود » بالضيق ، وأراد أن ينهى هذه المقابلة بأى ثمن ، فعليه بعدها أن يتدبّر ما سيقوله لزوجته عن هذا الأمر ، وذلك قبل أن يحضر الزائرون الذين اقترب موعدهم ، فقال محنقاً :

– وماذا بعد ؟ ! ، أى شىء تريدين منى الآن ؟

– لا شىء !! ، لا شىء مطلقاً .. فقط شعرت برغبة فى أن أراك بعد كل هذه السنين ، أردت أن أرى بيتك وزوجتك وأولادك !! ، هل عندك أولاد حقاً يا داود ؟

.. فقال ببرود

– لا .. لقد تزوجت هذا العام فقط .

– حسنٌ .. يرزقك الرب .. والآن الوداع يا « داود » .. أتمنى لك حظاً طيباً . هكذا تشاء الأقدار ! ، لكلّ منا طريقه فى الحياة ! ، ولكن أرجو أن تعرف شيئاً هاماً ، هو أنك لست بأفضل حالاً منى . فكلانا يريد أن يأخذ من الحياة كل مباهجها ، مهما كان الثمن الذى سيدفعه .. والآن وداعاً يا « داود » . لن ترانى ثانيةً . إلاّ إذا احتجت أنت إلىّ ، فستجدنى على استعداد لمعاونتك .

... تلعثم « داود » ، ولكنه أحسّ بالارتياح لطريقتها فى الحديث ، ولعزمها على الانصراف بسرعة ، وأنها لن تعود لزيارته ، وراوده إحساس بأن أخته أصبحت ذات شأن فى المجتمع ، فقال مجاملاً :

– لقد أسعدنى زيارتك : ولكنك تدركين حرج موقفى ، كنت أتمنى أن أرى معك زوجاً يرعاك ويحافظ عليك وتنتسبين إليه . زوجاً محترماً من علية القوم . وكم أنا آسف لعدم استقبالى لك كما يليق ، وأنت تعرفين الناس وألسنتهم ؟ ، أنا موقن بأنك ستقدرين مبلغ ما أنا فيه من حرج .

– بكلّ تأكيد .. يا داود .. بكل تأكيد .

.. وحينما ركبت مريم عربتها ، التفتت إلىٰ أخيها تودّعه ، فرأى فى عينيها دمعتين تنسابان على خديّها .. ياالوجهها الجميل الحزين ، إنه

لم ير فى حياته وجهاً هو أجمل من وجه أخته مريم .. ولكن عليه الآن أن يترك كل ذلك وراء ظهره ، وأن يهيىء نفسه للقاء زوجته وما سيقوله لها ، عليه أن يستعيد ابتسامته ومرحه ؛ فالضيوف قادمون الآن .. وحينما التقى بزوجته أخبرها أن الزائرة لم تكن سوى امرأة ثرية ممن يخضعون لنفوذه كعشار ، وقد جاءت لتتفاهم معه بشأن ما عليها أن تؤديه من عشور .

* * *

... نجح « داود » فى إخفاء مشاعره فى أثناء الحفل ، وأظهر دائماً المجاملة والابتسام ، ولكن ظلال هذه الزيارة كانت تخيّم على عقله بين الحين والحين . فقد نكأت جروحاً كانت قد أندملت بمرور الأيام . ولكن ما للحياة تأبى إلاّ أن تسقيه دائماً كأس الهوان ؟ ! أَلَمْ يكن يكفيه مالا قاه من ذلّ طوال شبابه فى المجدل مسقط رأسه ؟ ! ، ثم ما يلاقيه حتى الأن فى « أورشليم » ؟ ! ، فعلى الرغم من مكانته وغناه الآن إلاّ أنه لا يسلم من نظرات الكره والاحتقار التى يتحايل الناس فى إخفائها ! ، فما زال الناس يعتبرون العشّار خادماً للرومان ، وعدواً للشعب ، ولصاً يسرق مايستطيع من أموال الناس من خلال عمله فى جمع العشور ، حيث لا رقيب عليه غير ضميره .. ولكن مالك أنت يا « داود » وهذه الأفكار ؟ ! ، لقد آليت على نفسك ألاّ تبالى بسخط الناس ، أنت يا « داود » تعرف طريقك نحو قمة المجتمع ، وسوف تسعد كثيراً كما تسعد الآن ، وأنت ترى نظرات الاستعطاف فى وجوههم ؛ لكى لاتقسو عليهم وأنت تحاسبهم ، سوف يرضيك دائماً تملّقهم ونفاقهم وتذلّلهم لك ، فهذا شعب يخاف ولا يستحى ، شعب لابد أن تقهره دائماً ؛ حتى يستقيم لك ويحترمك ويهابك .. يجب أن تسعى دائماً نحو المال والسلطة ؛ لكى تذلّ لك رقاب الجميع ، حينئذ يمكنك أن تسقى

من تشاء كأس الذل الحقيقى والهوان ، إلى الأمام يا « داود » ، سيأتى يوم تنقطع جذورك من هذا الشعب الحقير ، هذا الشعب اليهودى العفن ، وستصبح مواطناً رومانياً ، نعم سوف تصبح مواطناً رومانياً مهما كلفك ذلك من عناء .. حينئذ ستشعر بالسعادة الكاملة والأمان ، وستعيش فى هذا العالم عزيزاً مرتاح الفؤاد ، لن يسألك أحد ابن من أنت ؟ ومن أهلك ؟ ، وسيكون أولادك روماناً وزوجتك إغريقية ، وليمت الحاقدون بغيظهم ، فهم لا يحترمون إلاّ الأقوياء ..

.. ها هى ذى مريم أختك تظهر فى حياتك من جديد ، فهل تسمح لها بأن تحطّم أحلامك ؟ لا .. من قال : إنها أختك ؟ ! ، أنت لا تعرفها .. وما رأيك فى أن تتخلص منها نهائياً ؟ ، نعم لم لا تقتلها ؟ ، نعم تدفع لأحدهم ليخلصك منها ، ولكن لا .. كيف ؟ .. إنها أصبحت اليوم ذات مكانة كبيرة ونفوذ ، بل لعلّها هى أقدر منك الآن على أن تقتلك هى لو أرادت .. لا دعك من هذه الفكرة ، ولكن لماذا تتفق معك سرّاً لكى تحصل هى معك على المواطنة الرومانية ؟ ، حينئذ لن يجرؤ أحد أن يمسّ سيرتها بسوء ، ستصبح هى وأنت فى برج عال لا يمسّه أحد .. هذه فكرة تستحق البحث .. إن جمال مريم قادر على أن يخضع لها أقوى الرجال ، وذكاؤها ! .. ياللذكائها وقوة حجّتها ؟ !

ماذا لو تزوجت هى برجل رومانى ؟ نعم عليه أن يقنعها بذلك ، وحتماً ستجد أكثر من رومانى يتمنّاها زوجة له ، وهل يستعصى على « مريم » شىء ؟ يالكلماتها التى تخترق القلب كالسهم فتدميه ! ، أليس حقاً أن كليكما يسير فى نفس الطريق ، ويسعى إلى غاية واحدة ! ، أنت تسرق ما تستطيع من أموال الناس لتحقق كل ما تتمناه ، وهى تبيع

جسدها للعشاق لتتمتع بنفس الحياة .. كلاكما يبيع ما عنده ، ولكن ماهو الشرف ؟ .. هذه كلمة ساذجة يضحكون بها على الدهماء ! ، لا شرف إلاّ فى القوة والمجد . فأين شرف رؤساء الهيكل والرومان ؟ .. الجميع يأخذون ما يريدون بقوة السماء أو بقوة السيف ، غير عابئين بأحقاد الناس ولا بحسدهم ، وهل يحسد الناس إلاّ الأقوياء الأغنياء ؟

* * *

.. وبينما كان « داود » يسهر مع زوجته وضيوفه ، وتدور بهم الكئوس وتتعالى الضحكات ، كانت عربة تسرع لتخرج من بوابة « أورشليم » قبل إغلاقها . ورغم إلحاح السائق فى أن ينتظروا فى « أورشليم » حتى الصباح ، إلاّ أن سيدته أمرته بالرحيل فوراً ومن فخامة العربة ورشاقة الجياد يدرك المرء أن صاحبها لابد أن يكون من ذوى الشأن .. وفى داخل العربة تحسّ رائحة الترف والثراء العريض .. وقد اتكأت « مريم » على بعض الوسائد الحريرية ، وشغلت بأفكارها عن ثرثرة جاريتها ، فهى لم تكن فى « أورشليم » عند بعض الأصدقاء كما زعمت لأخيها ، بل هى قطعت كل هذه الرحلة الشاقة لتراه ، فقد أملت أن يخفف ذلك من كآبتها وشقائها ، وما تتردى فيه من بحار اليأس والقنوط .. ولكن ها هى ذى تعود أشدّ معاناة مما جاءت ، لقد هاجت عليها ذكريات الماضى ، فأعادت إليها صورتها ، وهى طفلة صغيرة رقيقة ، محرومة من أب حنون يرعاها وتعيش على محبّته ! . لكم تمنّت أن يكون لها مثل هذا الأب ، إنها لا تذكر من أبيها إلاّ صورة رجل يتّسم بالقسوة ، وقد غذّت هذه الصورة ذكريات أمّها التى كانت تجتّرها فى ألم .. وحتى هذا الأب قد ذهب وتركها مع أمّ منكسرة عاجزة عن فعل الخير والشرّ معاً ، فقد تركت أخاها يبّدد ميراثهم الضئيل ، ولم تكن تجرؤ على أن تعاتبه أو تنهاه ، ثم هرب هذا الأخ الجبان ، وتركها

مع أمّها المريضة وهى عزلاء من كل سلاح ، تركها مع الفقر والمرض والحاجة .. لماذا ؟ ! .. لأنها جلبت الفضيحة ، وأى فضيحة أيها الوغد ؟ ! ، لقد كنت أكثر شجاعة فى مواجهة الواقع منك ، وهل لفتاة فى الرابعة عشرة من عمرها أن تقاوم ميلها الجارف لأن تجد الأمن مع رجل قوى يحميها ، هل كان بالإمكان لها وهى المعدمة المحرومة من كل شيء أن تقاوم عينى رجل مكتمل الرجولة ، غنى ، قوى ، وسيم ! ، وهما يتملقانها فى حنان وذلّ وانكسار ورغبة عارمة ؟ ! ، أو أن تقاوم سحر هداياه التى بدت لها حينذاك غالية رائعة ؛ لما كانت تعانيه من فقر وحرمان ؟ ! هل كان لفتاة مثلها فقدت الأمل فى أن تحصل على زوج بعد أن تزوج كل أترابها ، أن ترفض حب رجل كهذا ..

.. وامتلأ قلبها حزناً وألماً ، وهى تتذكر كيف كال لها القدر ضرباته تباعاً . ففضيحتها أولاً ، ولسان الحىّ ينهشها ليل نهار ، وهى تدرك أن ذلك إنما كان حسداً من نساء الحى ، وغيرة من رجالها ، لا غضباً للفضيلة كما يدّعون ، فما من رجل فى الحىّ إلاّ وكان يظهر رغبته فيها علناً أو خفية ، كلهم كانوا ينهشون جسدها بعيون ذئاب جائعة ، ثم فرار أخيها الوحيد ، ومرض أمها الذى اشتّد عليها ، ثم أراحها الموت مما تكابده من آلام وأحزان .. والجيران الناقمون عليها ، لم يرعوا حرمة الموت ، فلم يقدّموا لها واجب العزاء ولم يشاركوها الأحزان ، بل تركوها وحيدة منبوذة ، لا تجد عزاءً إلا عند ذلك العاشق الذى كان سبب فضيحتها ..

.. ورغم أن أمّها كانت مريضة عاجزة ، إلاّ أنها شعرت بعدها بالوحشة ، وبأنها وحيدة فى تيار الحياة الهائل المظلم الرهيب ، وتملّكها الرعب والخوف الشديد ، ليظلاّ رفيقين لها طوال رحلة الحياة التعسة .

لقد خافت النساء وابتعدت عنهنّ ، اللهم إلاّ أن يكنّ تابعات لها كخدم وجوارٍ ، وخافت الرجال ولكنها ارتمت فى أحضانهم بحثاً عن الأمن والدفء والحياة المترفة ، وخافت الحياة فسلّحت نفسها بما اعتقدت أنه درع ضد الحوادث ومصائب الأيام ! ، فجمعت ما استطاعت من الذهب والجواهر والأموال .. لقد جعلت من بيتها قبلة للعشاق ، وجعلت من نفسها بينهم ملكة يتنافسون على ودّها ورضاها .. ولكنها حصّنت قلبها بسور من الخوف والحذر وسوء الظن بالرجال ، جعلهم صيداً سهلاً لسهامها دون أن تسلّم قلبها لأحد . وهل لقلب مذعور أن يستسلم للحب ؟ ! ، إنها تحب من يتقرب إليها ، فأقرب الرجال إلى قلبها أكثرهم تعبداً فى محرابها .. ولكم تمنّت لهذا القلب المعذّب أن يستسلم للحب ليجد الراحة والهناء .. ولكن الحياة علّمتها أن الحكمة كلها فى ألا تستسلم لعاطفة أبداً مهما كان شأنها ؛ حتى لاتسقط عن عرشها الذى ملكته طويلاً ، فهى تعجب بهذا وتشفق على ذاك ، ولكن قلبها الذى امتلأ بالمخاوف دائماً لا يأمن أن يستسلم للحب ، وكيف تستسلم للحب وهى تعيش كآلهة الحب والسحر والجمال ؟ ، ويعكف على عبادتها والصراع على رضاها وتملّقها والخضوع لها زهرة الشباب وسادة الرجال ؟ ! . أيليق بها أن تطلق لعواطفها الحبيسة العنان فتسقط من عيون محبيّها ؟ ! إنها حينئذ سوف تصبح أضحوكة النساء قبل الرجال .. لا .. فالرجال جميعاً حيوانات فهى تدللهم وتلاعبهم ، ويسعدها أن هذه الحيوانات تبدو أمامها أليفة وادعة ، ولكنها فى أعماقها تخافها وتعرف أنه من الممكن أن تنقلب فى أية لحظة إلى وحوش كاسرة ؛ لذلك فقد تعلّمت كيف تعاملها بحرص وحذر وحكمة بالغة ؛ لتتمكن من السيطرة عليها دائماً .

.. كانت الكآبة قد رسمت خطوطها على وجه « مريم » ، فبدت أكبر سناً ، وانزعجت جاريتها لرؤية سيّدتها على هذه الهيئة ، فقالت لتسّرى عنها :

– ما الذى يعكّر صفو سيدتى ؟ .. أنا لا أعرف سرّ هذه الزيارة ، ولكن لا شيء فى هذه الحياة يستحق الحزن والتفكير ، وهل نسيت سيدتى حفلة ليلة السبت ؟ ، لابد أن البيت قد غصّ الآن بالهدايا من ضيوف الحفل ، وغداً يرتمون جميعاًتحت أقدامك يطلبون رضاك .. لقد أقاموا هذه الحفلة خصيصاً لإدخال السرور إلى قلبك يا سيدتى .

.. ولكن « مريم » ظلّت صامتة ، ولم تجب جاريتها ، واستمر شرودها ، ولم تعر حديث جاريتها اهتماماً ، ولكنها تعجبت كيف يجد الرجال سعادتهم بين يديها وهى فريسة لكل هذا الشقاء الذى يعتصر قلبها ؟ !! .. هذا الشقاء الذى تغلغل فى أعماقها فتركها فى وحدة قاتلة .. إنها رغم كلّ ما هى فيه من ترف ونعيم ، فهى فى الحقيقة تعيش على هامش المجتمع ، منبوذة من الناس ، وحتى هؤلاء الرجال الذين يرتمون تحت أقدامها ، هل يرضى حقاً أحدهم أن يتزوجها ويعلن ذلك على الجميع ؟ .. إنها تعرف أنهم ساعتها سيختلقون الأعذار ويتخلصون من وعودهم وعواطفهم الكاذبة .. ولكنها هى نفسها لا تشعر برغبة جادة فى الزواج ، وإلاّ لأحكمت شباكها حول أحدهم حتى لا يجد مناصاً من زواجها ، فهى فى الحقيقة لا تريد .. إنها لم تلتق بعد بالرجل الذى تحس أنها تستغنى به عن كل الرجال .. آه .. ليس هناك سوى رجل واحد حلمت به زوجاً ، ولكن لقد حلمت بالمستحيل ، وهل تجدى الأحلام ؟ !

.. حينما رأت « المعمدان » تمنّت أن تمتلك قلب هذا الرجل . إنه الرجل الوحيد الذى شعرب فيه بالإخلاص ، وأحست بجانبه بالأمان والسلام . نعم لو كان لها رجل مثله لتركت كل شيء وعاشت معه حيث يكون .. رجل مثله يصبح هو بيتها وحصنها ودنياها كلها ، رجل مثله تعيش فى كنفه يحميها من كل شرور الدنيا ومن كل ذئاب الأرض .. لقد مات شيطانها أمامه ، فلم تشعر إلاّ بأنها امرأة خاطئة تطلب التوبة وتتلمس رضاه .

.. هل حقاً ما زال فى الحياة رجال مثل « المعمدان » ؟ ! .. هذه هى حياة الطهر والفضيلة التى حلمت بها .. ولكن بعد عودتها من رحلة المعمدان ذابت إرادتها تدريجياً مع لقاء العشاق . وكم تمنّت فى البداية لو كان « المعمدان » قريباً منها ليمنعها مما هى مقبلة عليه ، ولكن لم تكن هذه سوى أحلام ، « فللمعمدان » طريق ، ولها طريق آخر .. لقد كتب الله عليها أن تعيش حياة الخطيئة ، فمالها هى وهذا النبى الصالح ؟ .

.. كانت العربة تقترب من إحدى القرى ، وقد رأت أنه من الحكمة أن تستمع إلى إلحاح الحوذى ومخاوفه ، وأن تميل لتبيت فى أقرب مكان ، ثم تستأنف رحلتها فى الصباح ، فسمحت للحوذى بذلك .. وبينما العربة تقترب من القرية ، سمعت صراخاً وضجة تنبعث باتجاه القرية ، فشعرت بالخوف ، وتوقفت العربة ، وصرخت الجارية :

– انظرى يا سيدتى .. أنظرى هذه المرأة !

.. كانت هناك امرأة تجرى بين الأشجار ، وقد تجسّد فى محيّاها الذى بدا شاحباً فى ضوء القمر الساطع ، كل معانى الرعب والخوف ، وخلفها تجرى وحوش آدمية تقذفها بالحجارة ، والمرأة تصرخ صراخ حيوان جريح ، ثم انكفأت على الأرض ولحق بها الناس ، وكل منهم

يبحث فى الأرض عن حجر يرميها به ، وصرخت « مريم » صرخة عظمة ، فتوقف الناس ، والتفتوا إلى العربة فى خوف ، فقد ظنوا أن بها أحد السادة أو الرومان .. ولكن الحوذى ضرب الخيل بسياطه وانطلق مسرعاً .. وصرخت « مريم » :

– لماذا تهرب أيها الجبان ؟

– يا سيدتى إنهم يرجمونها ، وقد ملأ الشرّ قلوبهم ، وهم فى ثورتهم سوف يبطشون بنا ، ولن نجد فى هذا الليل من يحمينا ، ولن يتورعوا عن سرقتنا ، بل ربّما يفعلون ما هو أكثر من ذلك .

.. وانخرطت « مريم » فى البكاء ، وجاريتهاتخفف عنها ، وهى تلعن الرجال وتصفهم بأنهم وحوش دنيئة ، وترثى لهذه المرأة المسكينة ، ثم انهمرت الجارية هى الأخرى فى البكاء ! . وأحسّت « مريم » بأن ما حدث لهذه المرأة كان يمكن أن يحدث لها ، وبأن هذه هى قيمتها الحقيقية فى المجتمع وبين الناس .. وهذا هو حكم الشريعة القاسى عليها .. وأنها مهما نالت من مجد بين الغانيات ، ومن ترف وأموال كثيرة ، فستظلّ امرأة خارجة على الشريعة ، ويمكن أن ينالها العقاب بعد يوم أو بعد سنوات .. حينئذ سيهرب كل من حولها من الرجال ، وينكرون معرفتها . فهكذا علمتها الحياة .

* * *

..عادت « مريم » إلى بيتها وهى فى أسوأ حال ، وأحست بأنها مريضة فلازمت الفراش ، وقد ظنّ جواريها أن مرضها كان نتيجة لسفرها ليلاً هذه الرحلة الطويلة ، ولكن مالها تمتنع عن مقابلة الأصدقاء الذين جاءوا لزيارتها حاملين لها أطيب الهدايا ؟ ، متمنين لها سرعة الشفاء ، وما هذه الكآبة وكثرة البكاء ؟ ! . لقد أدهشهم حالها ، وحينما

حكت لهم الجارية التى كانت ترافقها فى رحلتها عماّ رأته فى طريقها ، وعن منظر المرأة المروّع وهى ترجم صارخةً فى الظلام بين الحقول ، اقشعرّت أبدان المستمعات ، وقالت إحداهن :

– يالسيدتى المسكينة ، إنها امرأة رقيقة طيبة القلب ، لم تكن لتتحمل مثل هذه المأساة ؛ خاصة وأنتم تعملون مدى تديّنها ، إنها لا تترك مناسبةدون أن تكثر من تقديم النذور والتقدمات ! ، وكم تعطف على المساكين ، وترسل الصدقات للكهنة ولكل الأنبياء الصالحين ! ، حتى إنها سافرت إلى هذا المسمّى « بالمعمدان » رغم مشقة الرحلة إليه .

.. وقالت جارية أخرى :

– لقد سمعت برجل صالح جداً .. إنه يفعل معجزات .. لقد شفى كثيرين من المرضى . بل سمعت أنه شفى رجلاً أعمى منذ ولادته وقام الرجل بعدها مبصراً ، والناس أبصروا ذلك بأعينهم وتعجبوا .. والبعض يقولون : إنه لم يأت نبى مثله إلى بنى إسرائيل .. وآخرون يقولون : إنه يتصل « ببعل زبول » رئيس الشياطين ، وأن « بعل زبول » قد أعطاه سلطاناً على جميع الشياطين ، فهو قادر على أن يطردها وهى تطيعه .

.. فردت إحداهن ساخرةً :

– المهم أنه قادر على إخراج الشياطين ، وعلى شفاء المرضى ، سواءً أكان ذلك من عند « بعل زبول » أو من عند الرب .. هلّم نحكى لسيدتى عنه ، فهى لابد سترغب فى رؤيته ، ولعلّ هذا يخرجها مما هى فيه ، يكفى أن تخرج من البيت وأن تترك عزلتها هذه .

.. وصدق ظن الفتاة ، فحينما استمعت « مريم » إلى كلام جواريها ، أبدت رغبتها فى رؤية هذا الرجل الصالح ، وطلبت منهنَّ تتبع أخباره وتحركاته ؛ لكى تتمكن من لقائه إذا أصبح فى مكان قريب ، ولكنها لم تلبث أن صرفتهن لتخلو إلى نفسها من جديد .. وشغلها التفكير فى هذا النبى الجديد .. هل يشبه هذ النبى « المعمدان » ؟ .. ولكن « المعمدان » لا يخالط الناس ولا يدخل بيوتهم ، ثم إنه لم يشف أحداً و لم يكن له مثل هذه المعجزات .. لابد من أن هذا النبى يختلف كثيراً عن « المعمدان » .. وهل هناك مثل « المعمدان » ؟ .. إنها لن تنسى عينيه أبداً ، كم هى فى شوق لأن تذهب إليه مرّة ثانية .. لم تر فى عينى رجل ما رأت فى عينى « المعمدان » من حنان وحب صادق وإخلاص .. الرجال يريدون منها الجسد ، عيناها تلهب فيهم حمّى الرغبة الآثمة ، أما عينا « المعمدان » فقد نفذت إلى أعماقها بحثاً وراء روحها المعذّبة وقلبها الشقىّ ، كانت نظرته تنبىء عن فهمه لما هى فيه ، ورغبته الصادقة فى إنقاذها ، كانت عيناه تدعوانها لأن تتحرك ، لأن تلقى بحياتها السابقة بعيداً وتبدأ حياةً جديدةً ، كانت عيناه تستحثان فيها كل معانى الخير والتوبة .. ولكن واأسفاه لقد عجزت أن تفعل ذلك ، وأبى شيطانها أن يستسلم،شيطانها الذى يتملكّها ، فيجعلها تنجرف فى طريق الخطيئة ، وياله من شيطان عظيم ، شيطان يجعلها قادرة على أن تستعبد قلوب الرجال ! . إنها تعرف أن سرّها يكمن فى عينيها .. عيناها فيهما سحر شيطانى قاهر ، يكفى أن تصوّبها نحو رجل حتى تتمكن منه ، ولكنها للأسف لا تثير فى نفوس الرجال سوى نوازع الرغبة العارمة وجنون الشهوة الملتهبة .. أمّا أمام « المعمدان » فلم تجرؤ أن تنظر إليه بهذه العينين لقد أحست بأن سلطانها يذهب ، وشيطانها يتوارى خوفاً ، ووجدت نفسها تنظر إليه بعين منكسرة ، كجارية تنظر إلى سيّدها ..

هل يمكن أن تكون الجنّة أكثر من أن تنال رجلاً كالمعمدان تعيش معه وله وحده ، وهو لها بكل ما يملك من حب وحنان ؟ ، إن نظرته إليها كانت كنظرة زوج غيور ! كم تمنّت أن يكون فى حياتهامثله ! . لكم شعرت بالغيرة من نساء فقيرات ، لهن أزواج تمتلىء صدورهن بالغيرة عليهن ! . أليس هذا هو الحب الحقيقى ؟ ! . لماذا لم تلق الحياة والأقدار فى طريقها برجل كا « المعمدان » ؟!. بل لماذا لم تلق فى طريقها بالمعمدان نفسه ؟ ؛ فتعيش فى كنفه وترزق منه بالأبناء ، وتعمل ليل نهار على سعادتهم .. إذاً لكانت لهم أعظم أمّ وأوفى زوجة ! ، ولكن مالها ولكلّ هذه الأحلام ! ، أو بعد كل ما رأت فى حياتها ما زالت تحلم بأن تحب رجلاً ، ومن يكون ؟ هذا النذير الطاهر المسمّى « بالمعمدان » ؟ .. ياله من سراب يخدعها ويمنّيها بالسعادة الكاذبة .

.. لقد راودتها فى رحلة العودة من عند « المعمدان » رغبة فى التوبة ، وتخيّلت نفسها كزوجة « للمعمدان » .. نعم « المعمدان » سيصبح فى مخيّلتها هو الزوج الغائب الذى تحفظ له شرفه ، وتخشى غضبه ، سوف تتذكره كلما همّت بخطيئة ، ستعيش على ذكراه ، ويمكنها أن تذهب إليه لتراه بين الحين والحين .. ولكن تبخّرت كل هذه الأوهام أمام واقع حياتها ، وهل كان شيطانها ليتركها لمثل هذه الأوهام ؟

.. لقد عاشت مريم وحيدة لم يفهمها أحد . لم يقترب أحد من روحها أبداً . أحياناً كانت تخرج إلى صحن الدار فى الليل ، وبعد أن ينام الجميع ، وتشف روحها فتحسّ بسكون الليل الموحش ، وبالكون الواسع المخيف حولها ، وتتأمل نجوم السماء البعيدة فى انبهار ، وتتذكر الموت الذى سيعقب كل هذه الحياة ، فتشك فى أنها تعيش فى حلم طويل ، وأنها قادرة فعلاً أن تميّز بين الحقيقة والخيال !! ويصرخ قلبها

طالباً الرحمة من السماء .. وفى الصباح ترسل بالهبات والهدايا إلى الكهنة تكفيراً عمّا ترتكبه من آثام .. لم يكتشف هذا الجانب فيها إلاّ نظرات « المعمدان » الصادقة العطوفة ، لكم تمنّت أن يضع يده على رأسها وأن يجذبها إلى أحضانه . لتبكى كطفلة صغيرة على صدر أبيها ، تلتمس عنده الأمن والحماية . ولكنه لم يفعل . بل كانت نظرته تقول لها : عليك أنت أن تكونى قويّة ، وأن تتغلّبى على شروركِ ، لتصبحى امرأة صالحة ، قادرة على أن تسلك الطريق المستقيم .

.. ولكن أنّى لها وهى تعيش فى هذه الأوحال ؟ ! . لقد عجزت عن ذلك ، وهل كان لها إلا أن تعجز ؟ .. أنت يا « يوحنا » قد هربت إلى الصحراء لتعيش هناك حياة الطهر والفضيلة ، لأنك تعرف أن ذلك مستحيل بين هذه الثعالب والأفاعى .. إن خروجك إلى البريّة لهو اعتراف بعجز الفضيلة أن تعيش بين هذا الشعب وأن تخالطه ، ولكن هل يستطيع كل الناس أن يفعلوا مثلك ؟ .. وهل تستطيع امرأة ضعيفة مثلى أن تفعل ذلك ؟ .. نعم يا « يوحنا » نحن أبناء الأفاعى ، وقد كتب علينا أن نرتع فى الشقاء .

.. وأحست « مريم » أنها تسقط من جديد فى بئر اليأس والقنوط ، فهبّت تدافع عن نفسها أمام « المعمدان » وأمام السماء ، بل فى الحقيقة أمام ضميرها المعذّب .. هل يمكن أن أكون مثلك يا يوحنا ؟ .. أنت ولدت لأبوين صالحين يتكلمان مع السماء ويحرسهما الرب ، وملائكته ، ومنذ صغرك جعلوك نذيراً لله فتربيت على كل شىء صالح .. أمّا أنا فأنت لا تعرف كم عانيت ! ، وفى أى بيئة فاسدة نشأت ؟ ! .. أنت ورثت من أبيك النبوة والصلاح أما أنا ! أتعرف ماذا ورثت ؟ ! رقعة جلد وجدتها بين متاع أبى بعد وفاته فأحرقتها ،

أتعرف ماذا كتب فيها ؟ .. « سوداء وجميلة ! بيضاء وجميلة ! صغيرة وجميلة ! عجوز وجميلة ! هاأنت ذى جميلة يا حبيبتى ! هاأنت ذى جميلة ! لن أدعك تفلتى منى .. لن أدعك تفلتى منى .. لن أكف عن عشقكنّ جميعاً ! . خدّك !! عنقك !! ثدياك !! أنا عبد تحت أقدامكن ! . هيّأت نفسى للزنا .. وأنا فى انتظار من تأتى منكنّ .. » .. هذا هو تراث أبى الذى تركه لنا ! . نعم نحن أبناء الأفاعى ! . ولكن نحن أشجع منك ، لأننا نعيش فى هذا العالم ولا نهرب منه . لو كنت رجلاً فلربما هربت معك : ولكننى امرأة ، وماذا يطلب من امرأة مثلى أن تفعل ؟ ! ، سأعيش كما كتب لى أن أعيش ، ولو كنت يا « معمدان » قادراً حقاً على أن تهزم الشر ، فلتأت أنت لتخلّصنى مما أنا فيه ، ولا تتركنى فريسة للشيطان .

* * *

.. ظلّت هذه الخواطر تخيّم بظلالها على خيال « مريم » ، حتى فقدت رغبتها فى رؤية الرجل الصالح الذى تحدثت عنه الجوارى .. ولكنها فوجئت فى اليوم التالى بجارية تدخل عليها فرحة لتخبرها بأن الرجل الصالح فى المدينة ، والناس تتحدث عن معجزاته التى فعلها صباح اليوم ، ويقولون : إنه المسيح المنتظر .. لقد أخرج الشياطين من لسان الأخرس فنطق .. والناس تقول لم يظهر قط نبى مثل هذا فى إسرائيل ..

.. أسرعت « مريم » مع جاريتها لرؤية المسيح الذى يقولون عنه ، كانت الجموع كثيرة تَحْجُب عنها رؤيته ، فظلت تدفع نفسها بين الجموع لتقترب منه : إنها تريد أن ترى وجهه ، فهى ترى فى نفسها قدرةً على الحكم على الرجال من مجرد رؤيتهم وسماعهم .. وأخيراً وصلت إلى مقربة منه ، فحانت منه التفاتة إليها ، فيالله ماذا رأت ؟ !! . أى نور

يفيض من هذا الوجه وأى ودٍّ وأى محبّة !! ؟ .. لقد نظر إليها كأنه يعرفها ، نعم : إنه يعرفها ، نظراته تحكى ذلك ، كأنه أخ يرى أخته الغائبة عنه ، ولولا أنه يكلِّم الناس لجاء إليها يحدّثها .. ولكنها لم تره من قبل ، فكيف يعرفها ؟ .. كلّ مافى الأمر أنه من الرجال الذين لا تملك إلاّ أن تحبّهم وتألفهم .. وتنبّهت لكلماته ، فأحسّت كأنه يكلّمها هى .. يشاطرها الأحزان .. يقدم العزاء .. يبث البشرى ..

« .. أىُّ إنسان منكم له مئة خروف وأضاع واحداً منها ، ألا يترك التسعة وتسعين فى البريَّة ، ويذهب لأجل أن يبحث عن الخروف الضال حتى يجده ؟ وإذا وجده يضعه على منكبيه فرحاً ويأتى إلى بيته ، ويدعو الأصدقاء والجيران قائلاً : افرحوا معى لأنى وجدت خروفى الضال . الحق أقول لكم : إنه هكذا يكون فرح فى السماء بخاطىء واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة .. »

.. لقد أدركت « مريم » ما يقصده .. بل هى فهمت ووعت أكثر من كلّ السامعين ..

« .. وأى امرأة لها عشرة دراهم . إن أضاعت درهماً واحداً ألا توقد سراجاً وتكنس البيت ، وتفتش باجتهاد حتى تجده . وإذا وجدته تدعو الصديقات والجارات قائلةً : افرحنّ معى لأنى وجدت الدرهم الذى أضعته .. هكذا أقول لكم يكون فرحٌ قدّام ملائكة الله بخاطىء واحد يتوب .. » .

.. لماذا ينظر فى عينيها .. وأى نور هذا الذى يقذفه فى أعماقها ، إن روحها الآن عاريةٌ أمامه ، إنها لا تستطيع أن تخفى عنه شيئاً من أمرها ، وهى سعيدة بذلك سعيدة أن تجد شخصاً يعرفها على حقيقتها

بخيرها وشرّها ، ثم هو يقبلها وينظر إليها بكل هذا الحب والرحمة ..

« .. إنسان كان له إبنان .. فقال أصغرهما لأبيه : يا أبى أعطنى القسم الذى يخصنى من المال . فقسّم لهما معيشته . وبعد أيام ليست بكثيرة جمع الابن الأصغر كل ماله وسافر إلى بلد بعيد ، وهناك بذّر ماله بعيش مسرف . فلمّا أنفق كل شىء ، حدث جوع شديد فى تلك البلدة فابتدأ يحتاج . فمضى فالتصق بواحدٍ من أهل تلك البلدة فأرسله إلى حقوله ليرعى خنازيره . وكان من شدّة الجوع يشتهى أن يملأ بطنه من الخرنوب الذى كانت الخنازير تأكله ولكنه لم يستطع . فرجع إلى نفسه وقال : كم من أجير لأبى يفضل منه الخبز وأنا أهلك جوعاً . أقوم وأذهب إلى أبى وأقول : يا أبى أخطأت إلى السماء وإليك . ولست مستحقاً بعدُ أن أدعى لك إبناً . ولكن اجعلنى كأحد أجرائك . فقام وجاء إلى أبيه . وإذ كان لم يزل بعيداً رآه أبوه فتحنّن وركض ووقع على عنقه وقبّله . فقال له الابن : يا أبى أخطأت إلى السماء وقدّامك ولست مستحقاً بعد أن أدعى لك ابناً . فقال الأب لعبيده : أخرجوا أجمل حلّة وألبسوه ، واجعلوا خاتماً فى يده وحذاء فى رجليه . وقدّموا العجل المسمّن واذبحوه فلنأكل ونفرح ؛ لأن ابنى هذا كان ميتاً فعاش ، وكان ضالاً فوجد ! فإبتدؤا يفرحون . وكان ابنه الأكبر فى الحقل . فلمّا جاء وقرب من البيت سمع صوت آلات طرب ورقصاً . فدعا واحداً من الغلمان وسأله ماعسى أن يكون هذا ؟ . فقال له : قد قَدِمَ أخوك فذبح أبوك العجل المسمّن لأنه عاد سالماً . فغضب الابن الأكبر ولم يرد أن يدخل ، فخرج أبوه وطفق يتوسل إليه . فأجاب وقال لأبيه : كم لى من السنين أخدمك ، ولم أتجاوز وصيتك قط ، وأنت لم تعطنى قط جدياً لأفرح مع أصدقائى . ولكن لمّا جاء ابنك هذا الذى أضاع مالك مع الزانيات ذبحت له العجل المسمّن ! . فقال الأب : يابنى أنت معى فى

كلّ حين ، وكل ماهو لى فهو لك . ولكن كان ينبغى أن نفرح ونسرّ لأن أخاك هذا كان ميتاً فعاش ! وكان ضالاً فوجد ! . »

... أخيراً يا « مريم » وجدت من يعزف على أوتار قلبك أجمل ألحان الحب ! . أخيرا يا « مريم » !! أخيراً يا مريم ! . وجدت الحبيب الذى رافق خياله صباك وشبابك ! ، أخيراً استسلم القلب العنيد وهو يرشف من ينبوع السعادة الصافى ! . كلمات الحبيب تنفذ إلى القلب فتغمره بالنور .. ها هو ذا الحبيب ينظر إلىّ . إنه يقبلنى بكل خطاياى التى يعرفها ، وقلبه ملىء بالمحبة والغفران .. حبيبى يتكلم بسلطان أعظم من كل الرجال الذين عرفتهم من ذوى الجاه والسلطان .. حبيبى يتضاءل بجواره كل ملوك الأرض .. حبيبى سلطانه من السماء وهو يفعل ما يعجز عنه البشر ! . حبيبى هذا الذى تمنّته روحى وعشقته من زمن بعيد .. ها هو ذا حبيبى الآن ! ، وكلماته فى قلبى ! ، ونوره يملأ الكون والمكان ! .

.. لم ترغب « مريم » أن تزاحم الجموع لتسلّم على المسيح وتلمسه بيدها ، فانفلتت مع جاريتها عائدة إلى البيت .. وانشغلت عن جواريها وعن حديثهن فى غمرة من السعادة والنشوة ، وأخذت تقارن بين « المعمدان » ، و « يسوع الناصرى » .. لقد تمنّت « المعمدان » زوجاً لها ، وأنّى لها ذلك ؟ ! ولكنها وجدت فى « يسوع » حبيب القلب الذى تمنّته دائماً ، ولن تستطيع قوة فى العالم أن تمنع هذا الحب .. لقد عادت من عند « المعمدان » عازمة على التوبة فلم تنجح فى ذلك ، ولكنها فى هذه المرة مع « يسوع » ليست فى حاجة لأن تشحذ إرادتها .. لقد انجذب قلبها وأصبح معلقاً بهذا النور الذى رأته ، قلبها اليوم هو الذى سيمنعها من أن تعود إلى حياة الخطيئة ! . قلبها الذى حرم من السلام ،

قد عرف اليوم طريق سعادته ! ، فمن ذا الذى يستطيع أن يمنعه ! .

.. انفردت مريم بنفسها فى غرفتها ، ولكن النوم جفاها .. لابد أن تقترب من « يسوع » وأن تكلّمه ، إنها على استعداد أن تترك كل شىء وتتبعه ، هل يمكن أن يملك قلبها فجأة هكذا ؟ إنها لم تره إلاّ منذ ساعات ، ولكنها أحست كأنه يعرفها منذ زمن بعيد .. لايمكن أن تنسى نظرته الودودة إليها ، لقد نفذت هذه النظرة إلى أعماقها ، لقد صادفت عيناه قلباً خالياً فتمكنت منه .. وقضت « مريم » ليلتها تحلم بلقائها « بيسوع » ، وماذا يمكن أن تقول له ، وأن يقول لها ؟

.. فى الصباح أمرت جواريهابتتبع أخبار « يسوع » ، فعلمت أنه سيتناول طعامه عند رجل فريسىّ تعرفه ، وتعرف أنه رجل متعجرف لا يسرّها أن تراه ، وهو يعرفها ويقول عنها : إنها صاحبة وكر الشيطان ، ولكن شوقها لرؤية « يسوع » دفعها لأن تذهب إلى بيت الفريسىّ وليكن مايكون ، فهى لابد أن تراه . إنها تخاف على جذوة النور التى اشتعلت فى قلبها أن تنطفىء ، وأى شوق هذا الذى يدفعها ويعطيها كل هذه الجرأة ، لكى تقتحم بيت الفريسىّ ؟ ! .. وقبل أن تدخل من الباب وجدت نفسها تَخْلَع زينتها والإطار الذهبى الذى على رأسها تاركة شعرها ينسدل على كتفيها ، وخلعت نعليها ، وتقدمت ببطء ، وأحست أن العيون ترمقها من كل جانب ، ولكنها ما إن لمحت يسوع يجلس متكئاً . حتى أحست بالأمان ، وتاهت عمّا حولها ، ولم تر فى الوجود غيره ، كانت تبحث عن عينيه الحانيتين تريد أن تلتحف بهما ، قلبها يدّق بعنف ، تخشى أن ترى فى عينيه سخطاً على مجيئها وجرأتها ، أو أن ترى لا مبالاة تطردها من عالمه .. ولكن هاهى ذى

عيناه الحنونتان تجذبانها بقوة إليه ، هاهى ذى عيناه الحنونتان تفسح لها مكاناً فى مملكته

.. وتقدمت « مريم » وهى تحمل أغلى قارورة طيب وصلت إليها يداها ، ونظرات « يسوع » تشجعها وتطمئنها .. واقتربت « مريم » من « يسوع » حتى أصبح وجهه يملأ الكون أمامها ، فانهمرت الدموع من عينيها ، وانكفأت على قدميه فبللتهما بدموعها ثم أخذت شعرها تجففهما به ، وسكبت قارورة الطيب ودهنت بها قدميه ، وهى لا تستطيع أن تمنع نفسها عن البكاء ، وصعب عليها أن ترفع رأسها إشفاقاً على نفسها من نظرات الرجال حولها ، فظلّت منكفئة تبكى ، ولا تدرى ماذا تفعل ..

.. ولكن ها هو ذا الحبيب يسارع لنجدتها ، ويقف معها ضد الجميع .. ها هو ذا الحبيب بسلطانه ينتصر لها وتهرب من أمامه جميع الشياطين .. لقد جاءت كلماته عزاءً وسلاماً على قلبها الخائف المضطرب « .. عندى شى أقوله لكم .. كان لمداين مديونان . على أحدهما خمسمائه دينار ، وعلى الآخر خمسون ديناراً وإذ لم يكن لهما مايوفيّانه سامحهما جميعاً . فأيهما يكون أكثر حباً له ؟ . فقالوا الذى سامحه بالأكثر . فقال المسيح بالصواب حكمتم . انظروا إلى هذه المرأة . لقد دخلت البيت وبالماء لم تغسلوا قدمىّ ، أمّا هى فل تكفّ عن تقبيل رجلىّ . بزيت لم تدهنوا رأسى ، أمّا هى فبالطيب دهنت رجلىّ . من أجل ذلك أقول لكم : لقد غفرت خطاياها الكثيرة ؛ لأنهاأحبت كثيراً . والذى يغفر له كثيراً تكون محبّته كبيرة ، والذى يغفر له قليل يحب قليلاً .. قومى يا أختاه مغفورة لك خطاياك .. إيمانك قد خلّصك ! .. اذهبى بسلام . »

« مريم » التى دخلت هذا البيت مطأطأة الرأس ! . مريم التى خافت أن ترفع رأسها وهى منكفأة على قدمى « يسوع » حتى لاترى نظرات الرجال القاسية تنهشها وتزدريها ! . ها هى ذى مريم تقوم الآن مرفوعة الرأس ، تحمل صك الغفران تواجه به الجميع ..

لو جاءها صكٌ من قيصر نفسه يعلن براءتها ما أرضاها كما أرضتهاشهادة المسيح لقد حملت وسامها وخرجت مرفوعة الرأس تشعر بأنها قد تصالحت مع الناس ومع الكون كله .. لقد امتلأ قلبها بحب يغمرها ويغمر كل من حولها .. حب أزال كل خوف من الناس ومن الحياة ومن الوجود .. إنها لا تعبأ اليوم بالجميع ، ليس عن كبرياء – كما كانت تحصّن نفسها من قبل – ولكن لأنها أصبحت الآن قادرة على أن تغفر للجميع وتتجاوز عن خطاياهم نحوها .

فى نفس اليوم كان أمر « مريم » مع المسيح قد شاع فى المدينة كلّها ، وانقسم الناس بين مؤيد ومستنكر ، وتساءل البعض : لو كان هذا الرجل هو المسيح حقاً . ألم يكن ليعرف أى امرأةهى مريم ؟ .. وكيف يجرؤ أن يقول لها مغفورة لك خطاياك ، وهل يغفر الخطايا إلاّ الله ؟. وقضت « مريم » ليلتها فى سعادة من وجدت أهلها بعد حرمان طويل ، وهى تستعيد كلّ كلمة قالها لها« يسوع » ، لقد ناداها ياأختاه ! ، هو بكل تأكيد يعلم من هى ! بل هو يعلم كل شى عنها .. نعم هو يراها كصفحات كتاب يقرؤه .. نعم نظراته وكلماته وما يحكيه الناس عنه ، كل ذلك يؤكد لمريم أن هذا الرجل يعرف كل شىء .. نعم هو يعرفها أكثر مما تعرف هى نفسها . وهو يقبلها كما هى ، ويحبها ويدافع عنها ويحميها .

في الصباح ، دخلت عليها جواريها مذعورات غاضبات ، فقد قام بعضهم بكسر المصباح الذى يعلق خارج البيت ، كما أنهم ألقوا بكثير من القاذورات أمام الباب ، وهناك صبية ألقوا حجارة على البيت وهربوا ، وهدّأت « مريم » من روعهن وأمرتهن أن يعلّقن مصباحاً آخر وينظفوا المكان ! ، ورفضت « مريم » أن تدعو الجند كما طلب الجوارى ، وما أسهل هذا ! فقائد المئة المكلف بهذه المنطقة من أصدقائها .. ولكنها تعجّبت لهذا الشعب الشرير ! . لقد كان البيت قبلة العشاق سنوات طويلة ، والجيران يعلمون هذا ويبجّلونها ولا يتجرءون عليها ، واليوم وقد حملت وسام الغفران ، وصكّ التوبة من « يسوع » ، هم يفعلون بهاذلك !! .، وخطر لها بأن تدعو قائد المئة عندها الليلة ، حتى يراه الناس فتعود لها هيبتها ، ولكنهاكرهت ذلك ، وقررت شيئاً آخر .. نعم سوف تذهب « ليسوع » وتدعوه هو وتلاميذه إلى بيتها الليلة .. سوف تقطع الشك باليقين ، سترى هل يقبل ذلك « يسوع » ؟ .. هل حقاً هى عنده اليوم مغفورة الخطايا ؟ .. هل كان يعنى مايقول وهو يناديها يا أختاه ؟

.. وأمرت مريم بإعداد عربتها فوراً ، وذهبت لتدعو « يسوع » ، وهى تشك فى أن يقبل هذا منها ، وخطر لها أنه قد يعتذر فى أدب حتى لا يحرجها ، وحتى لايحرج نفسه أمام الشعب – وأقبلت عليه وهو بين تلاميذه ، فلمّا رآها أشرق وجهه بنور الرحمة والمودّة ، فتشجعت وقالت فى تذلّل وانكسار :

– هل يسمح سيدى لامرأة مثلى أن تدعوه إلى بيتها ليمتلىء ببركتك ، ويطهر بقدومك إليه ؟

.. وطار قلب « مريم » فرحاً وهى تسمع كلمات « يسوع » لتلاميذه ، بأن العشاء الليلة سيكون عندها ، وأسرعت إلى بيتها تغسله بالطيب ، وأمرت جواريها بأن يذبحن ما استطاعوا ، ويجهّزن أكبر وليمة يمكن أن تقام فى هذا البيت ، ونثرت بين أيديهم النقود ، وطلبت ألاّ يبخلوا بشىء ، وأن يحضروا أطيب ما يوجد من طعام وشراب .. وقامت بنفسها تشرف على كل شىء ، وأمرت ففرشت الأرض برمل أبيض نظيف ، وعلّقت سعف النخل ، ورشت الأرض بماء الورد ، واستأجرت خدماً وحمّالين ليساعدوا الجوارى فى عملهن .. ودعت بعض من اصطفت من قدامى الأصدقاء ، كأنما أرادت أن تعلن توبتها أمام الجميع .. وتعمدّت « مريم »أن تدعو رجالاً من ذوى النفوذ والمكانة ، ممّن يحضرون فى العربات الفاخرة ، أو على الجياد المسرّجة بالفضة والذهب ؛ لتعلن أنها مازالت هى « مريم » القوية ، ذات النفوذ والسطوة .

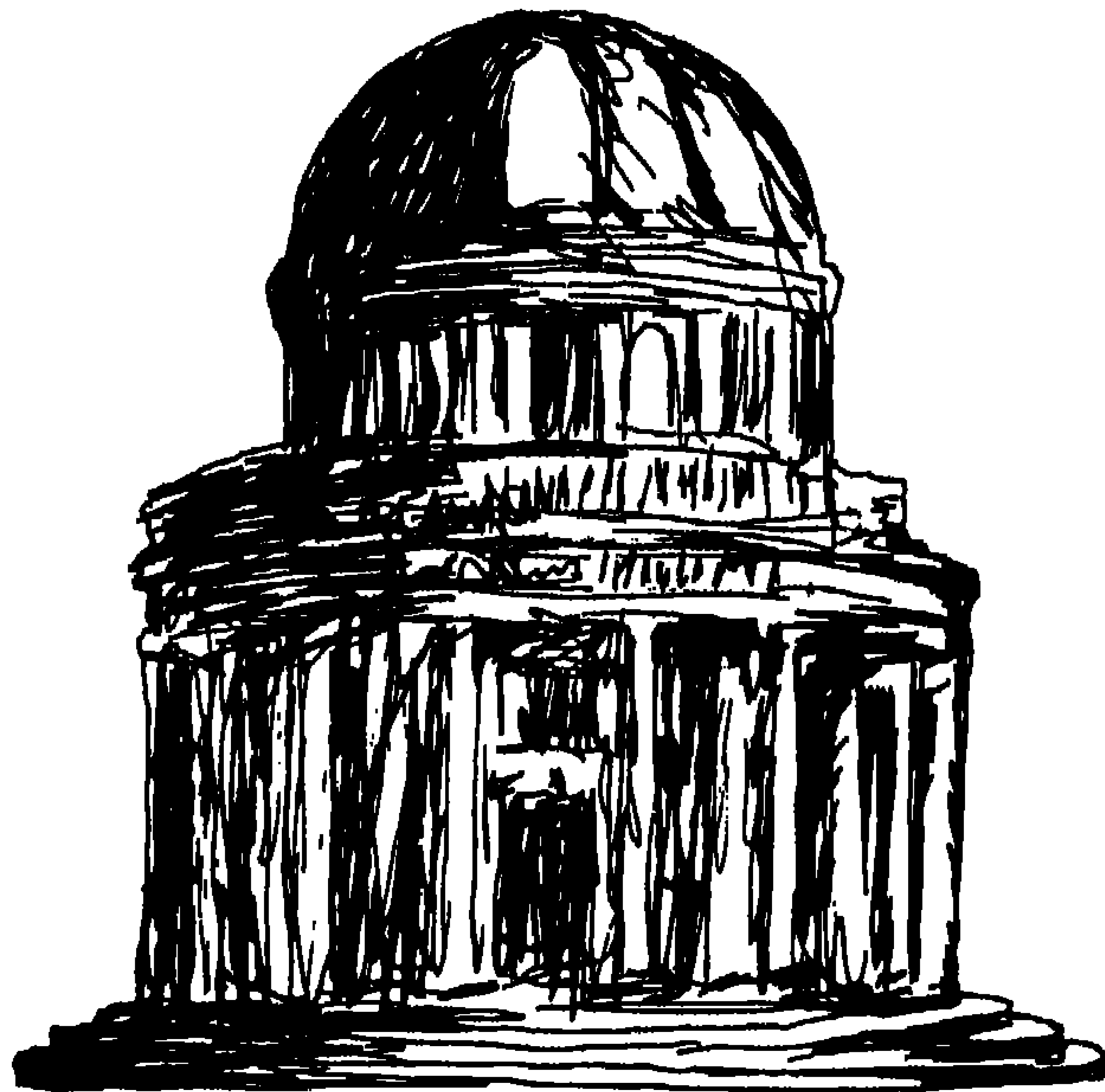
.. وأقبل موكب الحبيب وسجد قلب « مريم » لرؤياه ، واتكأ فى بيتها ، وتمنت لو كان حجرها وسادةً يتكىء عليها .. وأسعدها أنه مشرق ، ويتصرف ببساطة وود ، كأنه صاحب البيت .. نعم : إنه يملك الدار وصاحبة الدار .. زال كل شكٌ فى قلب « مريم » .. لقد أصبح المسيح حبيبها وسيّدها وأباها وأخاها وأهلها ودنياها كلها ، بل هو شىء أكبر من الدنيا ومن الحياة .. لم تكن مريم تحلم يوماً أن تتغير حياتها وتتبدل هكذاوخلال أيام .. لم يكن يخطر ببالها يوماً أنها ستعتق جواريها ، وتبيع بيتها ، وتترك مدينتها ، وتدور فى فلك المسيح حيث دار .. لم تكن حينما رأته وأحبته قد خطر لها أنها يمكن أن تصبح قريبة منه إلى هذا الحدّ .. لقد أصبحت جزءاً من أهله ، لقد أدخلها إلى

خاصته ، و« مريم » العذراء رمز الفضيلة والعفاف ، صارت لها أختاً وأماً ، وكل تلاميذ « يسوع » أصبحوا لها أكثر من أخوة .. فهل يمكن أن ترد « ليسوع » بعض فضله عليها ؟ ! إنها لو باعت كل ما تملك ، وتعذّبت وتألمت من أجله ، ما كافأته على صنيعه معها .

* * *

اللوحة السابعة

المعمدان وهيروديا







.. الشمس تميل نحو المغيب .. والسماء زرقاء صافية تزينها نتف من سحب بيضاء جميلة .. وأشعة الشمس تبدو وكخيوط ذهبية تنعكس على صفحة الماء وعلى الرمال الممتدة .. والمكان هادىء تعبره نسمات رقيقة .. وقد جلس « المعمدان » بين تلاميذه يقرأ عليهم الوصايا العشر ، ويسهب فى الشرح والتعقيب ، ويجيب على أسئلتهم ، شارحاً ماغمض عليهم ، مبدداً من عقولهم أوهاماً ورثوها وعاشوا عليها دهراً .. وكانت كلماته تحرك ساكنهم ، وتدفعهم نحو المعرفة والبحث والتفكير ، فكأنما هم قد استيقظوا بعد نوم طويل ؛ ليبحثوا عن طريقهم الذى تاهوا عنه ، وعن معالمه التى فقدوها .. وسأل أحدهم « المعمدان » ، عن موقفهم من فعلة « هيرودس » بزواجه من امرأة أخيه ، فامتزج الغضب بالاشمئزاز والاحتقار فى وجه « المعمدان » وهو يجيب محتداً :

– ولم لا يجرؤ على هذه الفعلة النكراء ، وهو لا يجد له معارضاً ؟.. بل هم يباركون عمله !! الجميع يخرسون أمام نزواته .. أين الكهنة ؟ أين حفظة الوصايا والناموس ؟ أين الفريسيين المتشدقين بطهارة الملابس والبيوت ؟. أين الكتبة والصدوقيين ؟ أين كل الغيورين على الشريعة ؟.. كلهم قد سكنتهم الشياطين فأخرستهم عن قول الحق !. هل هم رجال حقا ؟! ، لا .. والرب ماهم برجال .. ولكن فليعلم « هيرودس » أنه مازال فى هذا الشعب رجال يحملون ميراث إسرائيل ويموتون دونه .. أقسم بالرب لأزلزلن عليه عرشه ، ولأنغصن عليه حياته .

.. كان « حزقيال » يجلس بين التلاميذ ، وقد استمع إلى ماتكلم به « المعمدان » ، وأحس بخطورة هذه الكلمات ، وشعر بشيء من الخوف ، وقد شاركه فى ذلك كثير من التلاميذ .. لقد سبق « للمعمدان » أن ذهب إلى « هيرودس » أكثر من مرة ، وكان فى كل مرة يلقى موعظته أمامه ، ويأمره باتباع الحق والشريعة ، وينهاه عن مخالفة الناموس ، ويدعوه إلى أن يعدل بين الناس وينصر الخير ، ويمنع الشر والفساد .. وكان « هيرودس » يستمع إليه فى صبر ، وهو يعلم أن « المعمدان » لا يطلب على موعظته أجراً ، وأنه رجل الرب الذى يتبع الحق ؛ لذلك كان يحترمه ويبجله كثيراً ، وكان « المعمدان » يتحدث أحيانا حديثاً قاسياً ، ولكنه لم يكن يخرج عن تذكير الملك بواجباته نحو شعبه – أما أن يتكلم « المعمدان » عن « هيرودس » وحياته وسلوكه .. أما أن يتكلم عما يمس شرف الملك وكرامته ، فإن هذا لن يمر دون عقاب ؛ فهيرودس هو طاغيه أحمق ، وحوله بطانة فاسدة أعماها الظلم والشر ، وقد درجت على التملق والنفاق ، وهم لا يحملون « للمعمدان » إلا كل مشاعر الغيظ والكره .. وأشفق « حزقيال » على « المعمدان » ومايمكن أن يصيبه من شرورهم فتجرأ على الحديث قائلا :

– ولكن يانبى الله . هل ترى أن « هيرودس » يمكن أن يرجع عن فعلته هذه ؟ بل لعله يزداد عناداً وحنقاً ، وقد لا يتورع عن تصرفات حمقاء .

.. وأحس المعمدان بعاطفة « حزقيال » الصادقة فقال فى حزم :

– يابنى .. لا يمكن لرجل الرب أن يسكت عن الباطل .. نحن ورثة الشريعة ، نحمل على كواهلنا ميراثاً كبيراً من الوصايا والتعاليم .. وعلينا أن نعلن للناس كلمات الله .. وقد أهلك الله أمما لأنهم سكتوا

عن معصية الشريف ، ولم يدينوا إلا الضعفاء .. ولكن اعلم أن الجميع أمام الرب سواء ، بل قد يكون الضعيف أقرب إلى الله وأكرم عنده من كل الأقوياء .. فليس هناك عظيم أمام شرع الله .. الكبير فى عينى صغير حتى يمتثل إلى أمر الله ، والصغير كبير حتى ندافع عنه ، ونعطيه حقه الذى فرضه له الناموس . وأقسم بالرب أن لقاء « هيرودس » هو أهون عندى من لقاء مسكين أكون قد أسأت إليه .

.. أحس التلاميذ بأن « المعمدان » يريد أن يخلو إلى صلاته ، فإنصرفوا عنه وقد خيم عليهم القلق والهم .. قال أحدهم فى توتر :

– ترى ماذا ينوى « المعمدان » أن يفعل ؟! – أخشى أن تصل كلماته إلى هذا الأحمق « هيرودس » ، بل أراه يريد أن تصل إليه ، فهو يتحدث أمام تلاميذه اليوم ، ولاآمن أن يتكلم بهذا أمام الجموع غداً .

.. قال « حزقيال » :

– ولم لا ؟ .. لعل هذه الكلمات هى التى ستشعل نار الثورة ، وأقسم بالرب أنهم لن يصلوا إلى « المعمدان » أو يمسوه بسوء وفىّ عرق ينبض – أم ترانا نتركه ونهرب من حوله ، ونحن ننظر إليه من بعيد كالنعاج ؟! .

.. وتوالت كلمات التلاميذ معبرة عما يجيش فى صدورهم ويدور فى عقولهم .

– لا . والله لا نسلمه إلى ذلك الفاجر وعصابته أبداً .. ولكن علينا أن نتدبر أمرنا ، وأن نكون متهيئين لما يمكن أن يحدث .. لابد أن نخطط لذلك تخطيطاً محكماً .

– إن عددنا هنا ليس كبيراً ولكن لنا أتباع فى كل مكان .. فما نحن إلا طليعة جيش كبير يمتد داخل كل أرض يسكنها يهودى .. الجميع ينتظرون الثورة أن تشتعل .

– إذا كانت ستصبح ثورة ، فلابد أن نتسلح لها ، ولابد أن نتدرب كذلك ؛ لأن المعركة ستكون شرسة .

– لماذا لا نهرب جنوبا فنتحصن فى أرض العرب ، حيث يجتمع إلينا كل الأنصار والثوار .. وفى سنوات قليلة سنكون جيشاً كبيراً ، قادراً على غزو كل أرض إسرائيل وتحريرها .

– وهل يمكننا أن نفعل ذلك ، والرومان يحكمون البلاد ؟.. إننا لا نحارب « هيرودس » ولكن نحارب الرومان .. فهل يمكن أن نقف فى وجه الرومان ؟

– يمكننا أن نتحالف مع الفرس ، لنقف أمام الرومان
– وما الفائدة ونحن نستبدل سادةً بسادةٍ وأشراراً بأشرار ؟! .

– ربما أحس الرومان بقوة ثورتنا فحالفونا ضد « هيرودس » ، فهم لا يبحثون سوى عن حليف قوى لهم يقف أمام أطماع الفرس .

– أنتم تفكرون بطريقة خاطئة .. فنحن لا ينبغى أن نفكر فى النتائج ، فقط علينا أن نفكر فيما هو واجب علينا أن نفعله ، ففى سبيل الحق نعيش ونموت قانعين .
– ولماذا لا نخفى « المعمدان » فلا تصل إليه أيدى « هيرودس » ؟
– وهل يقبل « المعمدان » أن نخفيه هكذا ؟ بل هل يجرؤ أحدنا أن يقول له ذلك ؟ هل يمكن أن يهرب الأسد من المعركة ؟

.. وبينما التلاميذ فى حوارهم وحيرتهم ، أقبل فارسان مسرعان وهبطا من على جواديهما ، ورغم أن حديث « المعمدان » عن « هيرودس » لم يمض عليه إلا ساعة ، مما يجعل من المحال أن يكون قد بلغ « هيرودس » أمرهم ، إلا أن التلاميذ وجلوا لمرأى الفارسين وظنوا منهما سوءاً ، ولكن حينما اقتربا تبين لهم أنهما من أصحابهم – وقد كان « المعمدان » أرسلهما منذ أيام ليستوضحوا أمر ظهور المسيح الذى سرت أخباره بين الناس .. وعلى الفور توجه التلميذان يبحثان عن « المعمدان » ، وقد بدا عليهما أنهما يحملان أنباءً هامة ، وتبعهما التلاميذ . وحينما استأذنوا على « المعمدان » ، بادرهم قائلا فى شوق لمعرفة أخبارهم :

– كيف كانت رحلتكما ؟.. هل قابلتما « يسوع » ؟ .. ماذا رأيتما ؟ وماذا قال لكما ؟

.. إجلسا وقصا على كل مارأيتماه وسمعتماه .

.. قال أحدهما فى حماس شديد وانبهار :

– لقد رأينا عجباً يانبى الله .. حينما وصلنا كان « يسوع » يتكلم بين جموع كثيرة جاءت لتستمع إليه ، وقد سمعناه فوجدناه يتكلم بسلطان عظيم !، إنه لا يتكلم كما نتكلم نحن .. إنه يتكلم كمن يرى مالا نرى ، ويسمع مالا نسمع ، ويعرف مالا نعرف !، انه يتكلم فتأتى كلماته كأنها هابطة من السماء .

.. وقاطعه الآخر مكملاً فى حماس أشد :

– حينما قابلناه أخبرناه أننا رسولان من عندك . وسألناه : هل أنت المسيح الذى ننتظره وينتظره شعب إسرائيل ؟ أم ننتظر آخر ؟ ، فلم يجب على سؤالنا بل نظر إلينا فى هدوء ، وأشار إلينا أن نبقى معه

ونتبعه أينما ذهب .. فتبعناه يومين كاملين .. وياهول مارأينا !، فلولا أننا نظرنا بعيوننا ، وسمعنا بآذاننا ، ماصدقنا ماحدث ! .

.. وبدا الاهتمام على وجوه الجميع ، وقال « المعمدان » راضياً .

– أكملا ماذا رأيتما وسمعتما ؟

.. فقال الأول وهو ما زال فى شدة الانبهار :

– ماذا رأينا ؟ !.. رأينا عجباً !، العمى يبصرون !، والمرضى يشفون !، وسمعنا ماهو أعظم !، لقد قالوا بأنهم رأوه أحيا الموتى .. وأسمع الصم ، وأنطق البكم !، لم أكن أحلم أن أرى يوما شيئاً كهذا .. حينما اقتربنا من « أريحا » رأينا أعمى جالساً على الطريق يتسول . فلما سمع حركة الجموع التى تسير أمامه . سأل ماعسى أن يكون هذا ؟ فأخبره السامع بأن هذا موكب « يسوع الناصرى » . فصرخ قائلا :

– يا « يسوع » ياابن داود ارحمنى فانتهره الناس ليسكت . أما هو فصرخ أكثر كثيراً قائلاً : ياابن داود ارحمنى. فوقف يسوع وأمر أن يقدم إليه . ولما اقترب سأله : ماذا تريد أن أفعل بك ؟. فقال الرجل : ياسيدى أريد أن أبصر . فقال له « يسوع » : أبصر إيمانك قد شفاك ، وفى الحال أبصر الرجل وشهق باكيا وهو يسبح الله ويمجده !. أما الناس فما أعظم ما انتابهم من وجل ورهبة !، وصاروا يسجدون لله ضارعين أن يتوب عليهم ، وأن يغفر لهم ويقبلهم .. وما أكثر مايروى الناس عنه من حكايات !، يقولون : إنه يطرد الأرواح الشريرة والشياطين ، وأنه أحيا ابنة رئيس المجمع ، لقد كانت ميتة فعلاً والناس والأهل حولها ينوحون ويبكون ، ولكن « يسوع » أمسك بيد الصبية وقال لها : ياصبية لك أقول قومى . فقامت الصبية ومشت . ففزع الجميع وصاروا يمجدون الرب !. الجميع يقولون : إنه لم يحدث

مثل هذا فى شعب إسرائيل قط من قبل .

.. هنا تدخل الثانى بينما كان الأول يلتقط أنفاسه فقال :

– إنه يتحدث بسلطان عجيب ، ويتكلم بأمثال غريبة واضحة ، تصل إلى قلوب الناس جميعاً : صغيرهم وكبيرهم ، عالمهم وجاهلهم ، وقد تغيرت حياة كثيرين على يديه ، فهذه خاطئة تتوب لتتبعه !، وهذا يترك عمله ليسير خلفه !، وآخر يهرب من أهله ليكون معه !، وأغنياء تركوا ثرواتهم أو باعوها وجاءوا بالمال ينفقونه على الجموع التى تخرج للإستماع إليه ! .

.. وعاد الأول للحديث وهو أشد انفعالاً قائلاً :

– لا يمكن أن يكون « يسوع » هذا بشراً ... إنه يشبه ملاكا من عند الرب !. إنه يصنع عجائب !. وكلامه ليس ككلام البشر !. إن كلامه كالسحر !. إننى لا أعتقد أن فى مقدور بشر أن يفعل هذا !! .. إنه يحيى الموتى هذا شيء عجيب !! .. وحتى الناس يقولون : إنه لم يكن له أب .. بل جاءت به أمه من عند الرب .. نعم يقولون لم يكن له أب ، بل حملت به أمه من عند الرب !، فهذا ليس بشراً !، إنه ملاك من عند الرب !، لا يمكن أن يكون بشراً ويصنع كل هذه العجائب !!

.. وهنا ظهر الغضب فى وجه « المعمدان » وصرخ فى وجه التلميذ فى تأنيب شديد :

اصمت أيها الأحمق .. لقد أرسلت صبيا هلوعاً ، ولم أرسل رجلاً ليعرف كيف يقص على مارآه بعقل !. إن من رأيت هو المسيح .. و « يسوع » بشر كسائر البشر ، أنعم الله عليه وكرمه ، وأجرى على يديه مارأيت من معجزات ، كما حدث من قبل « لموسى وإبراهيم » ..

لقد أرسل الله مسيحه رحمةً لكم ، لكى يثبت إيمانكم به ، ولكن هاهو ذا أنت تريد أن تقلب الرحمة إلى نقمة .. أفق من ذهولك هذا أيها الغرير ، واعلم أن الله لا يرسل ملائكته إلى الناس ، بل يختار من الناس رسلاً له .. والكون كله يسير بإرادة الخالق القدير ، جبار السموات والأرض .. وما المسيح إلا عبد الله وكلمته ألقاها إلى أمه « مريم » العذراء ، وروح منه .. ونحن جميعاً عبيد القدوس المسخرين لإنفاذ مشيئته .. فتبارك العلى القدير .

.. وأحدثت كلمات « المعمدان » أثرها فى التلاميذ ، فأفاقوا من ذهولهم ، وثابوا إلى رشدهم ، وعادوا يزنون ماسمعوا بميزان العقل والتروى .. والتفت « المعمدان » إلى التلميذ الثانى قائلا :

– أكمل أنت .. وماذا بعد أن رأيتما وسمعتما ؟ .. ماذا قال لكم « يسوع » ؟

.. بعد أن مكثنا يومين وشاهدنا كل هذه المعجزات .. قال لنا « يسوع » : اذهبا الآن وأخبرا « المعمدان » بكل ماسمعتما ورأيتما . العمى يبصرون . والعرج يمشون . وذو البرص يطهرون . والصم يسمعون ، والموتى يقومون ، والمساكين يبشرون ، وطوبى لمن لم يعثر فى .

.. تنهد المعمدان فى رضا وإرتياح وصار يردد :

– نعم .. طوبى لمن لم يعثر فيه .. نعم .. طوبى لمن لم يعثر فيه .. طوبى لمن لم يعثر فيه .. طوبى لمن صدق بكلماته وآمن بالذى أرسله العلى القدير .. تذكرون أننى قلت لكن دائماً : إننى لست المسيح . بل أنا مرسل أمامه .. من له العروس فهو العريس . وأما صديق العريس فيفرح من أجله .. إذن فرحى اليوم قد اكتمل .. فهذا هو ابن خالتى

وصديقى « يسوع » صار هو المسيح المنتظر .. من الآن هو فى زيادة وأنا فى نقصان .. أنا حدثتكم بما فهمت ، وعرفت من أمور الشريعة والحياة ، أما هو فسيحدثكم بأخبار السماء ، ويحمل إليكم كلمات الرب .. فمن آمن به وبما يقول ، فقد آمن بالله وله حياة أبدية . وأما من كفر به بعد أن عرفه فقد كفر بالذى أرسله ، وعليه غضب الله ولعنته إلى يوم الدينونة .

.. وسأل أحد التلاميذ « يوحنا » :

– وماذا علينا نحن أن نفعل بعد أن عرفنا المسيح يانبى الله ؟

– ماكان الله ليرسل رسولاً يحمل كلماته إلا ليطاع .. فطاعته من طاعة الله ، وعصيانه كفر بالله . فكل ما يقول لكم فافعلوا كما يقول .

– وماذا عنك أنت يانبى الله ؟

– أنا أولكم تصديقاً به ، وأكثركم طاعة له .. ولو قدر لى أن أعيش ، وأمرنى أن أشق البحر أو أنحت الجبال لأطعت ماوسعنى ، ولقدمت حياتى رخيصة بين يديه ، ولكن لتكن مشيئة الرب ، فهذا عصر سلطان الشر والظلام .. ولن يكون لمسيحكم مملكة على الأرض ، بل مملكته وسلطانه على القلوب والأرواح ؛ لأن العالم ليس مستعداً بعد أن يقبله .

.. وتساءل أحد التلاميذ فى جرأة متشككاً :

– كيف يانبى الله ، وقد ظل بنو إسرائيل قرونا عديدة ينتظرون مجىء المسيح .. ملكاً يقودهم للنصر على كل أعدائهم ، الذين أذلوهم عبر القرون الطويلة ؟ .. قد يكون « يسوع الناصرى » رجلاً صالحاً ولكن أعتقد أن « المسيح » سيكون شيئاً آخر . .

فقال يوحنا فى أسى وغضب :

– قلوب شريرة تبحث عن الانتقام .. أنتم تريدون الدنيا ومتاعها الزائل والله يريد لكم الآخرة فهى خير وأبقى .. أتريدون الغنائم والأموال وكنوز الأرض ؟!، أم تريدون أن تعرفوا طريق الخلاص والنور والهداية ؟ .. إن كنتم تريدون الخلاص فها هو ذا مسيح الله يدلكم على طريق الحق ، من آمن به فسيخلص ، ومن لم يؤمن به ويرضى بما يقول عن صدق ومحبة ، فليذهب إلى الجحيم فلا خير فيه !. الآن قد عرفتكم الطريق ، وقد أكمل كل شىء ، فدعونى أستعد لما أنا مقبل عليه .

.. وأنفض التلاميذ شاردى الفكر والفؤاد ، متفكرين فى رحلة « المعمدان » التى يزمع القيام بها إلى هيرودس ، وفى أمر المسيح ودعوته ، والتفوا حول « إبلوس » تلميذ « المعمدان » المقرب إليه ؛ لعلهم يجدون عنده ما يريحهم ، ولكنه طلب منهم الانصراف للصلاة ، وانتظار ما يأتى به الغد .

★ ★ ★

.. وفى مدينة « طبرية » حيث قصر « هيرودس » العظيم .. كان « هيرودس » معتكفا داخل حجرة خاصة ، قد بنيت جدرانها من حجارة كبدوكيه التى تسمح بمرور الضوء من خلالها ، فبدت الحُجرة ونوافذها مغلقة ، تسبح فى ضوء خافت يشبه ضوء القمر الساطع فى ليلة التمام ، وكان هيرودس يختلى بنفسه فى هذه الحجرة إذا تكدرت خواطره أو أزعجه أمر ، فيجد فيها الهدوء والسكينة ، ولا يجرؤ أحد على إزعاجه مهما كان الأمر خطيراً ، حتى يخرج هو إليهم .. أما عن سبب انزعاج « هيرودس » اليوم فقد بلغه أن « المعمدان » قد أعلن

هجومه على زواجه من « هيروديا » ، وأنه آت ليعلن ذلك أمامه وأمام الشعب ، فأمر بمنعه من دخول القصر ، ودخل إلى غرفته حائراً لا يدرى ماهو فاعل فى أمر هذا النبى المتشدد . فمن ناحية « فهيروديا » تكرهه كراهة عميقة ، وكذلك كثير من الأمراء ، « وقيافا » والكهنة ، ومن ناحية أخرى هو يعلم أنه نبى صادق . متجرد من أطماع الدنيا ، محافظ على شريعة « موسى » ، له مكانته العظيمة فى نفوس كل اليهود ، بل حتى فى نفوس من رآه من الغرباء ، كما أن رأى مستشاريه هو محاولة كسب « المعمدان » ، وعدم إعلان عداوته ؛ لأن الناس لا تشك فى انه نبى ، وعامة الناس تخافه وتعتقد أنه رجل الرب ، فإذا كان « هيرودس » يقامر أمام الرومان بأنه أقدر على نيل احترام اليهود ومحبتهم واستجلاب طاعتهم وعدم تمردهم ، فليس عليه اليوم أن يفقد كل ذلك بمحاربة « المعمدان » .. ولكن حينما تصل جرأة هذا النبى إلى أن يهاجمه هو شخصياً ، فهل يمكن أن يصبر على ذلك ؟! وأين هيبة الملك التى يحرص عليها دائماً ؟ .. حقاً : إنه نبى ، ولكن حتى الأنبياء لهم حدود يلزمونها أمام الملوك ، فالنصيحة يجب أن تكون فى أدب ، وليس تشهيراً أمام الغوغاء .. حينما رأى عظماء الرومان « المعمدان » وهو يعظ فى حضرته ، حسدوه على أن فى مملكته فيلسوف عظيم كهذا الرجل ، وهو يعلم أنه غير قادر على إيذاء « المعمدان » ، ولكن ماذا يفعل الآن والمعمدان هو الذى يضطره إلى هذا ؟.. آهٍ لو علمت « هيروديا » بما يقوله عنها !. لقد أوصى ألا ينقل إليها أحد ماقاله « المعمدان » . إنها لو علمت لأشعلتها ناراً لا تنطفىء ، وهى حمقاء لا تعبأ بشىء !. كم تصبح هذه المرأة شرسة تحطم كل شىء إذا تملكها الغضب !، يالها من امرأة شيطانة كأنها خلقت من نار ، ولكن ما أحبها إلى قلبه ، لكم يجذبه هذا الغضب المشتعل المجنون !، ولكم يثير كوامن نفسه ، ويلهب

عواطفه الخامدة ! .

.. وبينما « هيرودس » مستغرق فى هواجسه وتأملاته فى هذا الهدوء الشامل ، فوجىء بصوت ارتطام شديد ، جعله ينتفض مذعوراً ، وأبصر « هيروديا » غاضبة صارخة كأنها أتون نار فتح بابه ، وكانت قد دفعت الباب بقوة ليرتطم بالحائط .

– ألم أقل لك : إن هذا الرجل لابد أن يقتل ؟ ألم أقل لك كم هو مجنون وقح ، وقد زادته ليونتك ورخاوتك معه غروراً وجرأة علينا ؟!

– ماذا دهاك ؟ لماذا هذا الغضب ؟ اهدئى وقولى ماذا حدث ؟

.. وحينما أحست « هيروديا » بجبروت زوجها وهو يصدها فى قوة ، انفجرت باكية ، وقالت وهى ترميه بنظرات حانقة مستنكرة :

–قم معى لتسمع ما يقول .. قم لتسمع بنفسك . لماذا تجلس هكذا ؟

.. وظل « هيرودس » ينظر إليها ، وفى عينيه نظرات ذاهلة من أثر هذا الضجيج المفاجىء الذى حدث ، بعد ماكان فيه من هدوء وعزلة ، ثم تساءل فى ضيق :

– عمن تتكلمين ؟.. لماذا تصرخين هكذا ؟ أفصحى .

– أتكلم عن « المعمدان » . هذا الشيطان المجنون . لقد جرؤ أن يأتى إلى هنا ليقذفنا ويسبنا . إنه يصرخ فى الناس متحدثا عنا بشناعة .. ليتك تسمع مايقول . ياإلهى ! أنا لا أحتمل ذلك !، أكاد أموت من الغيظ . عقلى يكاد ينفجر . إن لم تقم معى الآن فسأفعل ما تندم عليه .. نعم سأقتله . سأقتله مهما كلفنى ذلك . أنت لا تحس بالنار التى تشتعل

بين ضلوعى .. يجب أن تتصرف فوراً وإلا تصرفت أنا كما أريد . يجب أن تضع حداً لهذا . سيصيبنى الشلل إن لم أقتل هذا الشيطان .

– إهدئى يا « هيروديا » . ودعينى أتصرف أنا بحكمة . اهدئى قليلا أرجوك

– ألن تقوم لتسمع ما يقول ؟

– سأقوم .. سأقوم .. ولكن كيف دخل إلى ساحة القصر ؟ لقد أمرت بمنعه من ذلك . كيف سمحوا له ؟!

– إنه يقف فى الساحة التى خارج القصر . ولكن صوته يصل إلينا . إن صوته كالثور .

.. وقام « هيرودس » معها ، ووقفا خلف إحدى الستائر المسدلة ، ووقف حولهما بعض رجال البلاط والأمراء .. وفتاة صغيرة لعوب هى « سالومى » .. كان « المعمدان » يعتلى منصةً رخامية عند طرف النافورة التى تتوسط الميدان ، وقد اجتمع حوله كثير من الناس وتجمع بعض الجند تحسباً لما قد يحدث من شغب ، وكان الجميع منصتون لصوته الجهورى القوى :

– « .. حتى متى يافاعلى الإثم تغرقون فى الخطيئة ؟!، ألا تدركون عظمة الخالق وقدرته ، وهو بيده القوة ليجعلكم تراباً كما كنتم ، وأن يحرقكم بالنار ، وأن يسلط عليكم أعداءكم ، وأن يحيق بكم العذاب فتصرخون فلا يستجيب لكم ؟. إن بطش الرب شديد وعذابه أليم .. ولكن ليعلم الجميع أن صوت الحق سيصك الآذان ويقلق المضاجع . لأن لله رجالا يرثون شريعته ويدافعون عنها .. لقد أهلك الرب سدوم ، عموره لخطايا أقل من خطاياكم .. أقولها لكم فاسمعوها منى .. إلى الشريعة إن لم تعودوا فليس لكم فجر ، بل هى النهاية ، هو الغضب

الآتى ليمحقكم .. لا يغرنكم ماتسمعوه من كهنة كاذبين ، أو فريسيين مرائين ، أو رؤساء منافقين .. أنا أقولها وأشهد الرب ، الله إلٰه إسرائيل وإلٰه العالمين ، أقولها لكم وأقولها لك يا « هيرودس » أنت وزوجة أخيك ، لقد كسرتم الشريعة وخالفتم الوصايا ، وسرتم فى طريق الشيطان .. لا يحل للملك زوجة أخيه .. لقد بلغتكم حكم الشريعة ، وأقمت عليكم الحجة ، والآن كل رباط بينكم يا « هيرودس » وبين « هيروديا » باطل . باطل . باطل .. وكل لقاء بينكم بعد الآن زناً وخطيئة !! » .

.. أنهى يوحنا موعظته وانصرف مع تلاميذه ، والناس يتهامسون فيما بينهم وقد علتهم رهبة الموقف ، ونظر الجند بعضهم إلى بعض دون أن يتحركوا ، فلم يجرؤ أحدهم أن يفعل شيئاً دون أن تصدر اليه الأوامر من القصر . .

.. ووقف « هيرودس » متبلد الذهن ، مهموم القلب ، ولم تحرك صيحات يوحنا الملتهبة فيه ساكناً ، بل زادته برودا ، فلم يغضب بل ارتسمت على وجهه مرارة بلهاء .. فاشتعل غضب « هيروديا » ، والتفتت إلى من حولها من الرجال صارخة بعد أن يئست من « هيرودس » :

– مالى أراكم تقفون هكذا ؟ هل شلت أرجلكم ؟!، أليس فى عروقكم دماء تشتعل غيرةً على سيدكم وكرامته تهان أمامكم ؟!، أى رجال أنتم ؟! لماذا تقفون هكذا ؟! أو ستتركونه يفلت منكم ؟.. اقبضوا على هذا الشيطان وألقوا به فى السجن فى انتظار ما يأمر به الملك . أليس هذا أقل ما يجب عليكم أن تفعلوه ؟

.. واتجهت أنظار الرجال نحو الملك ، فوجدوه ساهماً لا ينم وجهه عن رفض أو قبول لكلام « هيروديا » ، كأنه حائر لا يدرى ماذا يفعل .. وصاحت « هيروديا » ثانية بصوت كفحيح الأفعى :

– أو يحتاج القبض على هذا المجنون أن تنتظروا أمر الملك ؟!، ألا ترون أن هذا واجبكم ؟ ألم تسمعوه وهو يهاجم سيدكم فى أهله وشرفه ؟.. كان الأحرى بكم ألا تسمحوا له بهذا . بل أن تبذلوا حياتكم رخيصة من أجل ملككم .. ولكنكم وأسفاه تسمعون مسبته بآذانكم وتقفون أمامى كالبلهاء .

.. وبدت الثورة على وجه « سالومى » ، وتلفتت غاضبة إلى من حوها ، ولكنها آثرت الصمت لرهبة الموقف .. وتلفت الأمراء إلى بعضهم ، ولكن أحدهم لم يستطع أن يصبر وقد رأى هذا الأسى على وجه « سالومى » ، فتحرك بسرعة ليصدر الأمر للحرس بالقبض على « المعمدان » .

... حينما هجم الحرس الملكى على « المعمدان » للقبض عليه ، تحفّز تلاميذه للمقاومة ، ولكنه نهاهم عن ذلك ، وأمسك أحد الحراس بذراع « المعمدان » ، فانتزع يده منه بقوة ، وقدحت عيناه بنظرات مخيفة ، وتحفز التلاميذ مرة ثانية للقتال .. ولكن قائد الحرس نهر جنده ، وطلب من « المعمدان » فى أدب أن يسير معهم ، فأشار « المعمدان » إلى تلاميذه بالانصراف ، وأفسح الحرس الطريق أمام « المعمدان » وقد أحسوا بهيبته ، وتقدم هو نحو القصر والجند تسير فى ركابه .

.. علم « هيرودس » باعتقال « المعمدان » وبوصوله إلى القصر فأمر بإحضاره اليه ، وانتقل إلى قاعة العرش ، حيث اعتلى كرسيه

وأحاط نفسه بجمع كبير من الحاشية والأمراء ، وجلست « هيروديا » بجواره ، بينما انتحت « سالومى » جانبا وقد اتكأت على بعض الوسائد ونظرات الأمير الشاب العاشق تلاحقها ، كأنما شدت إليها فى شغف واشتهاء وانبهار ، وكانت « سالومى » غير غافلة عن هذا الأمير الولهان ، ولم تكن سالومى قد رأت المعمدان من قبل ، ولم يكن فى نظرها سوى رجل من الشعب دفعه طموحه إلى منازعة الملك .. وماهى إلا لحظات حتى أقبل الحاجب يستأذن الملك فى أن يمثل « المعمدان » بين يديه .

.. وتعلقت الأنظار بالباب فى انتظار دخول « المعمدان » ، ودخل « المعمدان » بخطوات جريئة ثابتة متقدماً نحو العرش ، تقدم رجل مستعد للنزال ، فهو يقلب وجهه فى الحاضرين مشمئزاً ساخطاً ، ثم وقف فى مواجهة « هيرودس » وألقى السلام بقوة ، ثم رمق « هيروديا » بنظرة محتقرة غاضبة ، فصرخت فى وجهه :

– ألم تتعلم أدب مخاطبة الملوك ، فتنحنى إجلالاً لهم ؟

.. فاشتعل الغضب فى صدر « المعمدان » واحمر وجهه ، ورد عليها بجرأة :

– اسمعى أيتها المرأة . إن رجال الله لا ينظرون إلى صور الناس وأشكالهم ، فالجميع عبيد للرب . وإنما تتفاضل الناس بتقواها ومعرفتها طريق الرب .

.. ثم التفت إلى « هيرودس » قائلاً :

– ألا تعلم ياهيرودس أن الملك إذا لم يعظم أنبياء الله وينزلهم منازلهم فهو يعرض نفسه وعرشه لسخط الرب وغضبه ؟

.. ولمح « هيرودس » وجه هيروديا ، فوجدها تكاد تنفجر من الغيظ والحنق ، وخشى أن تلجأ إلى تصرف أحمق ينقص من هيبته ، فتمالك نفسه ، وتصنع الغضب وهو يقول « للمعمدان » :

– ماذا تريد يارجل ؟ ولماذا هذه الضجة التى تثيرها أمام القصر ؟ .. وكيف تجرؤ على أن تتحدث عن مليكك هكذا أمام عامة الشعب ؟ ألا تعلم أنك بذلك تنشر الفوضى وتثير الشغب والفتنة ؟! .

– نحن الأنبياء يا « هيرودس » ورثة الشريعة والمحافظين عليها .. وجميع اليهود أمام الشريعة سواء ، فالكبير صغير أمامها حتى يؤخذ منه الحق وحتى يرد إلى الصواب ، وأنت قد خالفت الشريعة بزواجك من امرأة أخيك ، فزواجك منها باطل ، وحياتك معها من اليوم هى حياة فى ظل الخطيئة . والملك أولى بإتباع الشريعة من رعيته .

.. أفقدت كلمات « المعمدان » القوية الجريئة « هيروديا » صوابها . فصرخت كالملتاثة وقد نسيت وقارها كملكة أمام الحاضرين :

– أو تجرؤ ؟ أو تجرؤ أيها الدعى المجنون ؟! أو تجرؤ أن تخاطب سيدك هكذا ؟! أنت تستحق الموت على جرأتك ووقاحتك . أنت مجنون . مجنون . لماذا لا تخرسون هذا الشيطان الكذاب ؟! هذا من السفلة لم يتعلم كيف يخاطب الملوك ، انه يملؤنى غيظاً ، ألقوا به خارجاً ، إنه لا يستحق هذا الشرف . أنا لا أحتمل أن أسمعه أو أن أراه . إنه يملؤنى كمداً . سيصيبنى هذا الرجل بالشلل .

.. كانت كلمات « هيروديا » تحمل كل معانى الشقاء والضياع ، فبدت كعاهرة مبتذلة ، وسالت من عينى « سالومى » دمعة حزناً على موقف أمها ، وأشفق الحاضرون على « هيروديا » أن يحدث لها مكروه ..

ولكن « هيرودس » لم يعبأ بما فيه « هيروديا » واحتفظ ببروده والتفت إليها قائلا وهو يتصنع الحكمة :

– هدئ من روعك ياعزيزتى .. سيكون كل شيء على مايرام . دعينا أولا نسمع مايقول .. ثم التفت إلى « المعمدان » الذى كان يقف منتصباً ، لم تحرك فيه ثورة « هيروديا » ساكناً ، بل زادت نظرته احتقاراً واشمئزازاً من كل ماحوله .. وقال « هيرودس » وهو يحاول أن يجعل كلماته هادئة وموضوعية ، كأنما ليقيم الحجة على « المعمدان » .

– أيها الرجل . فلتعلم أننا قد تزوجنا على يد رؤساء الكهنة ، وكان كل شيء مطابق للشريعة . فزوجتى قد طلقت من زوجها . وقد أجاز الكهنة زواجنا وباركوه ؛ لذلك فأنت قد جانبت الصواب . وأسرعت إلى العصيان بحماقة وجهل . فليس لمثلك أن يقول شيئاً بعد كلمة رؤساء الهيكل .

.. فأجاب يوحنا بتحد :

– الأحمق أيها الملك هو من يشترى شرف الكهنة ويخدع الشعب ، وقد غفل عن أن عين الرب ترى وتعرف كل شيء .. الأحمق أيها الملك هو من يبيع الآخرة الباقية بهذا العالم الفانى !، من يبيع الخير بالشر .. الأحمق هو من يظن أنه يخدع الرب والرب هو الذى يخدع الجميع .

.. وقاطعته « هيروديا » صارخة فى تشنج :

– أنت الأحمق الكذاب . أنت دعى محتال . أنت تخفى أطماعك بادعائك التقوى ! أتريد أن تصبح بطلاً أمام الشعب ؟، ولكن اعلم أنك ستكون هزأة أمام الجميع . لقد جرأك على هذا حلم سيدك ورأفته بك .

– لا تتكلمى أنت يا امرأة . فأنت تحالفين الشيطان ضد الملك وضد الشعب . لقد جئت لأقول كلمة الحق التى حجبها عنه بطانة السوء ، والكهنة الذين ماتت ضمائرهم . وهذا واجب الأنبياء نحو ملوكهم ، أن يدلوهم على طريق الرب المستقيم .. وأنا لا أريد مما أقول سوى إرضاء الرب . إنها كلمات حق لابد أن تقال ، والا أصبحنا آثمين أمام عينى الرب . والآن قد قامت الحجة عليكم . فإما أن ينظر الملك ويبصر الطريق المستقيم ، أو أن يتبع ضلال المحيطين به من الأشرار .

.. وهنا هب الأمير العاشق قائلاً فى غطرسة وقحة :

– اخرس أيها الكلب الحقير .. ما أنت إلا عبد عاق .. كيف تجرؤ على أن تتكلم عن سيدك وسيداتك هكذا ؟.. ليس لمثلك إلا الموت والعذاب الأليم .

التفت إليه « المعمدان » ونظر إليه ملياً فى احتقار ثم قال له :

– من أنت أيها الصبى الغرير ؟ .. ومن علمك آداب الحديث ؟ .. إنى لارى فيك خبث المنشأ ، وأرى الشهوات قد أعمت بصيرتك ، فبت لا تعى شيئاً ، وأسكرتك فأفقدتك الرجولة ، فأصبحت تجهل أقدار الرجال .. ألا فلتسمعوا يا أشباه الرجال ، يابطانة السوء ، يامن تحملون أعباء مملكة اليهود ، ولكنكم تضيعوها لأنكم ولدتم فى الترف والنعيم ، فحسبتم الحياة لهواً وعبثاً ، ولو أبصرتم لأدركتم أنكم على حافة الهاوية .

.. كانت كلمات « المعمدان » تزداد حدة ، وسكت الجميع مبهورين ، وقد تناسوا غضبهم وثورتهم ، يريدون أن يستمعوا إلى كلماته وإلى ما سيقول .. وأكمل المعمدان :

– لقد أخرج الله شعب إسرائيل من مصر وجاء به إلى أرض فلسطين ، وأورثه هذه الأرض ليحمل كلماته ، ويطبق شريعته ، ويحفظ وصاياه . ولم ينس الرب شعبه فأرسل أنبياءه واحداً بعد الآخر ليعلموه ، ويعرفوه بكلام الرب ، ويسلكوا به طريق الخير .. ولو قرأتم الكتب لعرفتم كيف غضب الله على أجدادكم حينما تركوا طريقه ، وكيف ألبسهم ثياب الجوع والخوف والذل ، وأسال دماءهم ودماء أبنائهم لتروى الأرض التى تدنست بخطاياهم ، وكتب على نسائهم الرق ، وعلى أولادهم ذل الغربة وهوان الأسر والعبودية وها أنتم أولاء قد زغتم عن طريق الرب أكثر مما فعل كل الآباء ، وعرضتم أنفسكم لغضب الله الذى صبر على فسادكم طويلاً .. فأبشروا بالتيه والشتات وضياع الملك .. نعم سيضيع منكم كل شىء ، وسيلعنكم أبناؤكم وأبناء الأبناء وعشرات الأجيال ؛ لأنكم ضيعتم عليهم فرصة الحياة الحرة الكريمة ؟. لقد حذركم الأنبياء طويلاً ولكنكم صُمٌّ لا تسمعون ، فهاهو ذا غضب الله آت ليحل عليكم .. والآن فلتستمرىء يا « هيرودس » حياة اللهو والغفلة ، ولتستمع إلى هذه المرأة التى يتكلم الشيطان بلسانها ! . » .

.. وهنا صرخت « هيروديا » ، ومال رأسها ، وأغشى عليها ، فأسرعت إليها « سالومى » وبعض الوصيفات .. ولكن « المعمدان » لم يتوقف بل استمر صارخاً :

« .. استمع ياهيرودس لهمسات الشيطان ، ولتظل فى تيهك وضلالك وحيرتك تتخطفك الشياطين يمينا ويساراً ، حتى تأتى النهايه ، ويسقط الهيكل على رؤوس أبنائه .. حينئذ لن ينفع ندم ولا أسف ولا توبة !، حينئذ سوف ترى الموت الذى تهرب منه ..»

.. كان « هيرودس » يستمع مصغياً باهتمام إلى كلمات « المعمدان » ، غير عائبى بما حدث لهيروديا ولكنه صرخ فجأة :

– اذهبوا بهذا الرجل إلى « قلعة » ماكيراً ، وألقوه هناك حتى أرى فيه أمراً . ضعوه فى مكان لا يصل إليه أحدا أبداً . اذهبوا به موثوقاً ، وإياكم أن يصل أحد تلاميذه إليه . هيا أغربوا عن وجهى .

.. وبينما يقتاد الجند « المعمدان » ، كانت عين « هيرودس » لا تفارق وجه « المعمدان » ، فرأى على وجهه بسمة استخفاف واستهزاء ، وأحس كأن شرراً يتطاير من عينيه كأنما هما بوابتا جحيم .. فصرخ يطلب ساقيه ، ليملأ بالخمر فراغاً أحس به فى عقله ، ومخاوف ملأت قلبه ، ولكى يستعيد رباطة جأشه ويهدىء من قلقه واضطرابه .. إنه يريد أن يستعيد حالة البلادة والكسل والبرود التى تعود عليها ، والتى تعود أيضاً أن ينشطها بفنون اللهو والعبث والمجون .

.. سيق « المعمدان » وحيداً إلى « قلعة ماكيرا » ، أو « البرج الأسود » وسط حراسة مشددة ، وتفرق تلاميذه بعد أن عرفوا ماحدث لمعلمهم ، فمنهم من عاد أدراجه من حيث أتى ، ومنهم من ذهب إلى المسيح ليسير فى ركابه تنفيذاً لوصية المعمدان ، وبقيت جماعة من تلاميذه المخلصين على ولائهم له ، واعتصموا بأحد الجبال يتتبعون أخبار « المعمدان » ، ويتحاورون حول مايجب عليهم أن يفعلوه ، وقد إنضم إليهم بعض الرجال الذين أزعجهم القبض على رجل الله ، وبلغ « هيرودس » نبأ هذا الاستعداد للثورة من أجل « المعمدان » ، فرأى من الحكمة أن يلين قليلاً ، فسمح لتلاميذ المعمدان بزيارته للتأكد من أن أحداً لم يمسه بسوء ، ولكى يأمن شر الثورة أن تشتعل .

.. وبينما يوحنا يقضى آخر أيامه فى « قلعة ماكيرا » سجينا .. كان المسيح ينتقل من مكان إلى آخر بين مدن اليهود ينشر دعوته .. وقد توقع تلاميذ « المعمدان » كما توقع تلاميذ المسيح أيضاً ، أن يفعل المسيح شيئا من معجزاته لإنقاذ « المعمدان » من سجنه .. ولكن الأمر كان أكبر من ذلك ، فقد زار المسيح « المعمدان » فى سجنه وتحدثا طويلاً ، وكأنهما قد اتفقا سويا على عدم مقاومة السلطات ، انتظاراً لما تأتى به الأيام ، ولتكن مشيئة الرب لكى يكتمل ماهو مكتوب ، ويتم ماسطر فى الصحف عن ملحمة بنى إسرائيل .

* * *

اللوحة الثامنة

الإرهاب في أورشليم





.. كان شارع السور فى « أورشليم » هو أطول الشوارع وأهدأها ، فعلى جانبيه يمتد سور المدينة ، وقد وزعت عليه أبراج المراقبة على مسافات متباعدة ، وعلى الجانب الآخر كانت منازل الأغنياء ، تتوسطها أحيانا بعض المبانى التى خصصت للمرافق العامة ، كمجمع الكتبة ، وبيت خدام الهيكل ، واستراحة رؤساء الجند ، كما كان هناك المسرح وبعض الحانات المنتشرة على طول الطريق . .

.. كانت الليلة مقمرة ، والنجوم ساطعة ، والضياء يملأ المكان ، والشارع يبدو هادئاً خالياً إلا من بعض المارة بين الحين والحين .. وكان « بنيامين » يسير مع « إيليا » ومعهما صديق جديد قد تعرف عليه يدعى « ديماس » .. كان إيليا قد جاء إلى أورشليم بعد غياب طويل ، وقد أخبر بنيامين أنه جاء ليصفى بعض متعلقاته بالمدينة ؛ لأنه كان قد ترك كل شىء وتبع « يسوع الناصرى » .. أما « ديماس » فقد التقى به « بنيامين » منذ أسابيع قليلة ، ولما كان أصدقاء « بنيامين » قد انفضوا من حوله ، فقد وجد نفسه يستسلم لهذه الصحبة الجديدة ، التى كان « ديماس » هو الذى يصر عليها وينميها .. وقد عرف « بنيامين » أن « ديماس » يسعى لكى يضمه إلى جماعته التى تعمل سرا ضد الرومان ، وضد كل من يتعاون معهم من خونة اليهود أو الإغريق .. وقد حدث بينهما جدل طويل حول الغايات والوسائل ، ومدى الواجب نحو الالتزام بالشريعة فى الكفاح ضد الأعداء ، وجدوى مثل هذه الأعمال ، وظل كل منهما على رأيه .

.. وقد رأى « بنيامين » فى وجود « إيليا » فرصة طيبة ليطرح مثل هذه القضايا معهما ليستمتع بالنقاش الذى يمكن أن يدور فى مثل هذه الجلسة .. فانتحى بهما جانبا فى إحدى الحانات الهادئة ، وطلبوا من الساقى نبيذاً خفيفاً وبدأ « بنيامين » الحديث قائلاً :

– ولكن كيف تقول يا « إيليا » أن « يسوع الناصرى » هو المسيح المنتظر ؟.. فحتى لو صح مايحكيه الناس ، وماتقول أنت عنه من أنه يأتى بمعجزات ، فقد يدل هذا على أنه رجل صالح ، ولكن لايدل على أنه هو المسيح .. « فالمعمدان » فى رأيى أقرب فى شخصيته إلى ماتتصوره عن المسيح المنتظر ، ولو قال عن نفسه أنه هو المسيح لاتبعه كثير من الناس ، ولاشتعلت الثورة من أجله فى كل مكان ، ولكنه لم يدع ذلك .. أما هذا الرجل الصالح الذى يتنقل بين مدن اليهود ويدعى إلى الولائم ، ويأتى ببعض المعجزات ، ويعيش حياة البسطاء مع المرضى والخطاة ، والذى كما تقول لا يقابل الشر بالشر ، بل يقول لأتباعه : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر أيضاً » .. لايمكن أن يكون مثل هذا الرجل هو المسيح القائد المنقذ الذى انتظره الآباء والأجداد ، وعقدت عليه كل آمال الشعب .

.. قال إيليا مدافعاً فى هدوء :

– أنت ترى القضية معكوسة يا « بنيامين » .. سأضرب لك مثالاً : لو أن هناك قبيلة عمها الفساد ، فكبيرها لا يرحم صغيرها ، والصغير لا يحترم الكبير ، والقوى يظلم الضعيف ، والجار يعتدى على حرمة جاره ، والجميع يعبدون المال ، ويسرق بعضهم بعضاً ، وكلّما تكلم فيهم عقلاؤهم استخفوا بهم ، وسبوهم ورجموهم ، ثم جاءت قبيلة أخرى مجاورة لهم فاحتلت أرضهم بقوتها وجبروتها وأحكمت قبضتها

عليهم ، واشترت بعضهم وجعلتهم أداة لها وصنيعة ضد قومهم .. فإذا كنت أنت من هذه القبيلة الفاسدة وأردت لها الخير ، فالإم تدعو ؟ هل تدعوها لأن تعلن الثورة على القبيلة الأخرى وأنت تعلم مافيه قومك من ضعف وفساد ونفاق وخيانة !، وتعلم أن من قومكم من سيكون عوناً عليك ومع أعدائك !، وتعلم كذلك أن من سيثور معك فإنما سيفعل ذلك ليس من أجل الشرف والحرية ، ولكن من أجل الطمع فى مال أو منصب أو جاه ؟.. بل وأنت تعلم كذلك لو حكمت العقل أن مثل هذه الثورة مقضى عليها بالفشل ؛ لأن القبيلة الأخرى أكثر عدداً وعدة ، ورجالها أكثر قوة وبأساً ؟ وأنه لم يقف أمامهم أحد قط . .

.. هنا تدخل « ديماس » قائلاً فى حدة :

– نعم نختار طريق الثورة ، لأن الثورة هى التى سيجتمع عليها قلوب الشعب ، وهى التى ستوحدهم ضد الرومان الطغاة .. إن أى عمل يقلق الأعداء ويشعرهم بعدم الأمان ، يرفع من شجاعة الشعب ويملأ قلبه بالأمل فى أن يتحرر وأن ينهض ليتخلص من كل أعدائه .. ان الشر لابد أن يقابل بالشر ، والخونة لابد أن يعرفوا أنهم ليسوا بعيدين عن انتقام الشعب .. أما أن نستسلم ونقابل الشر بالخير كما يقول صاحبكم ، فهذا هو الذل والهوان ، وهذا هو غاية مايتمناه السادة الأعداء .. ولا تستبعد أن يكون هذا الناصرى عميلا للرومان ، فعملاؤهم فى كل مكان ، ويلبسون مختلف الثياب حتى لا يعرفهم أحد ، فمنهم من يندس بين الثوار ، ومنهم من يدعى الغيرة على الشريعة ، بل منهم من هو عضو فى « السنهدريم » ، أو من رؤساء الهيكل .. ولقد سمعت أن هذا الناصرى يقول : دع مالقيصر لقيصر ومالله لله . فهل يريد الرومان أكثر من هذا ؟ أنا لا أعجب لو صنعوا له تمثالاً فى روما

كالذى يصنعونه لأبطالهم .. إن مثل هذه الكلمات المسمومة تقتل كل روح للنضال بين الرجال .

.. أراد « بنيامين » أن يدور الحوار أكثر هدوءاً ، فقاطع « ديماس » قائلاً :

– أنا أسألك يا « إيليا » ، لماذا انتظرت الأجيال المتعاقبة مجىء المسيح ؟

– لأنه هو المخلص والمنقذ للشعب .

– حسن .. من أى شىء سينقذ المسيح شعب إسرائيل . ان لم ينقذهم من الذين احتلوا أرضه ، ورفعوا نسرهم فوق هيكله ، ووضعوا تماثيل آلهتهم فى كل مكان ، وقسموا المدن إلى ولايات : هذه يحكمها رومانى ، وأخرى يحكمها يهودى عميل لهم ، ونشروا أفكارهم وعاداتهم ، واستهزءوا بكل ماهو يهودى ، فهل يمكن لهذا الشعب أن يجد طريقه قبل أن يتخلص من أقدام الرومان الثقيلة التى تطأ وتحطم كل شىء ؟! .

–أستحلفك بالله « يابنيامين » . ألم تقل أنت مراراً : إن الفساد والعفن فى كل مكان ، وإنك معجب بالرومان وبطريقتهم فى الحياة ؟ ، فهم لا يتظالمون مثلنا . بل إن كل يهودى يطمع فى أن ينال المواطنة الرومانية ليحقق لنفسه العدل والأمان ؟ .. ألم تقل : إنهم أحسن منّا أخلاقاً ، وأكثر كرامة ، كارهين للشّر ، غير متكاسلين ، يعشقون المجد ، وحياة الاجتهاد ؟

–ولكن هذا لايعنى أنهم ليسوا أعدائى ، فهم الذين يسقوننا كأس الذل والهوان صباح مساء . وهم مهما كان فضلهم إلاّ أنهم يعبدون آلهة أخرى غير إله إسرائيل . ولم يطق « ديماس » صبراً فتكلم فى استنكار شديد :

ـماذا أسمع ؟ أتريدنا أن نقنع بالرومان أسياداً لنا . وتُطَأْطِئَ رؤسنا إجلالاهم ؟

..فقال إيليا متراجعا :

ـأنا لم أقل هذا ؟

فواصل « ديماس »هجومه بشراسة :

ـوماذا تقول أنت غير هذا ؟ .. أنت تبجّل الرومان وتمنحهم كل الفضائل ، بل تصوّرهم كأنهم آلهة لا تقهر . فهل هناك دعوة للاستسلام والإنهزام أمام الأعداء أكثر من ذلك ؟

..رأى « بنيامين » أن حّدة « ديماس » ليس لها ما يبررها ، خاصة وهو لم ير « إيليا » قبل ذلك ، ثم إن « إيليا » صديق عزيز وقد جاء لوداعة ، وليس من اللائق أن يهاجم هكذا . فقال :

ـنريد أن يكون حوارنا ، كحوار الإغريق ، يعتمد على العقل والمنطق ، ولا داعى لمثل هذه الحّدة ؛ فنحن جميعا مخلصون فى حب شعبنا ، ونحن نحاول أن نصل إلى طريق الحق والصواب .. نريد أن نعرف الحقيقة ولو خالفت أهواءنا .

فقال « إيليا » وقد ساعدته كلمات « بنيامين » أن يستجمع شتات نفسه :

ـأنا لا أدافع عن الرومان .. ولكن فلنكن منصفين وطالبين للحق .. فمشكلتنا ليست فى احتلال الرومان لبلادنا ، فمنذ قرون عديدة ، منذ ثمانية قرون . من أيام سبى بابل ، ونحن نتعرض للإحتلال .. فالرومان قد سبقهم الفرس واليونان ، ومن قبل كان دمار «نبوخذ نصر » الذى ساق الشعب أسرى وهدم الهيكل .. ولو خرج الرومان اليوم ، فهل سنستطيع أن نمنع الفرس – وهم على الأبواب – من أن تطأ أقدامهم البلاد ؟ ! . واقرأوا

نبوءة « دانيال » ، لقد تكلّم عن كل هذا ، فهذا قدر وهذه هى مشيئة الرب .. إذاً القضية هى نحن ! ، وهل نحن أهل لأن نعيش أمة قَويّة لا يطمع فيها الآخرون ؟ ! . ألم تروا أن نبينا « موسى » لم يقف فى وجه فرعون ، بل خرج بالشعب هارباً من وجهه ، ذلك لأنه كان يعلم أن شعبه غير قادر على محاربة فرعون ، وهذه هى مشيئة الرب . ثم إن العالم قد تغيّر اليوم ، فالفرس والرومان يكادان يقتسمان العالم فيما بينهما ، ولم تعد الشعوب المقهورة قادرة على أن تخرج من قبضتهما .. وأنا أستحلفكم بكل ما هو مقدّس ، أن تجيبونى صادقين ، هل يعتقد أحدكما أن جيشاً يهوديا مهما كانت قوته ، قادر على مواجهة جيوش الرومان ؟

..فأجاب « ديماس » بسرعة :

ـ ولم لا ؟ ! إن رجلاً واحداً لا يحمل كتاباً وليس له إله كاسبارتكوس ، قد جمع حوله ثلّة من العبيد وأقضّ بهم مضجع السادة الرومان ، ولولا أن تكاتفت عليه جيوش الإمبراطورية كلها لنجح فى مسعاه .

شعر « إيليا » بقوة الحجة التى ساقها « ديماس » ، وأحس بعجزه عن إقناعهما فقال :

ـإذا أنت ترى أن سبب بلائنا هو وجود الرومان ، وأن علينا محاربتهم وطرهم من البلاد . حينئذ ستحّل كل المشاكل وسيتغيّر الناس ، ويعود الشعب إلى مجده القديم ؟

..أجاب ديماس بثقة وقوة :

ـنعم مشكلتنا الآن هى وجود الرومان ، وعملاء الرومان من اليهود ؛ لأنهم هم الذين يمنعون الشعب من أن يستيقظ وينهض ، وتعود

له كرامته وقوته ، وهم الذين ينشرون الخوف والعجز واليأس بين جميع اليهود .

..ورغم أن « بنيامين » كان يخالف « إيليا » فى رأيه ، إلا أنه لم يكن راضياً تماماً عن منطق « ديماس » . فتدخّل قائلاً :

–ليس معنى خروج الرومان من أرضنا ، أن كل مشاكلنا قد حلّت ، أو أننا سنصبح بين يوم وليلة شعبا من الأخيار .. ولكن طردهم من البلاد مطلب لا يختلف عليه يهوديان ، فلا يمكن أن ينهض الشعب من غفوته وهو تحت الاحتلال الرومانى . أو تحت أى إحتلال .

.. يأس « إيليا » من أن يصل هذا الحوار إلى نتيجة يرضاها ، فأراد أن يغيّر مجرى الحديث ، فقال « لبنيامين » :

–أتذكر المعلّم اليونانى الذى تحدّث عنه « يوشع » عندك ؟ ..لقد حدثنى عنه آخرون ، ترى هل ما زال فى أورشليم ؟ وهل مازال يعمل فى الهيكل ؟ لقد تشوّقت أن أراه .

..فقال « ديماس » ساخراً :

–معلّم يونانى فى الهيكل ؟ !!

..فقال « بنيامين » موضحا :

–إنه يهودى ، ولكنه عاش فى بلاد الإغريق ، ودرس علومهم ، وعرف فلاسفتهم ، ويقولون : إنه واسع المعرفة ، يتكلم بالمنطق والحكمة .. لقد سمعت عنه كثيراً أيضا .

..فقال إيليا وقد بدا عليه بعض الضجر :

لماذا لا نتمشى حتى نصل إلى الهيكل ، لعلنا نجده .. لقد مللت الجلوس فى هذه الحانة . كما أننى أحب أن أزور الهيكل قبل سفرى .

..وقام الرفاق الثلاثة إلى الهيكل ، وهناك سألوا عن هذا المعلّم فلم يجدوه ، ولكن أحد خُدَّام الهيكل تطوع أن يدّلهم على بيته ، ولرغبة « إيليا » فى أن يراه قبل سفره ، ذهب إليه ثلاثتهم .. كان المعلّم يجلس بين بعض الشباب ، وأشار إليهم بالجلوس فجلسوا ، واستمر المعلّم فى حديثه يشرح بعض القضايا ، ويجيب على أسئلتهم .. كان حديثه شيّقاً ، ولكن ما وعته ذاكرة « بنيامين » كان هذه الكلمات :

« .. إن ما يميّز الإنسان عن كل الحيوانات هو أن الرب أعطاه العقل .. والعقل هو أساس الدين ، فالله سيحاسب الناس على قدر ما أعطاهم من عقل .. ومن لا عقل له لا حساب عليه .. وليس من العقل أن نظن أن أمّة من الناس تتميز على باقى الأمم لمجرّد أنهم من نسل نبى عظيم .. إنما تتمايز الأمم بعقلها ، وعلومها ، وأخلاقها ، وعاداتها ، ونشاطها إن الأمم كالأفراد يصيبها المرض والشيخوخة والذبول .. وقد يخرج الله من نسلها أو من نسل غيرها أمما أخرى فتيَّة .. اليهود حقّا هم أول شعب يحمل شريعة ليعيش بها مئات السنين وتتعّهده السماء بالأنبياء فى كل جيل ، ولكن من الخطأ أن نعتقد أن أمَّة اليهود هى نهاية التاريخ .. فالعالم يتبدّل ويتغيّر ، والأمم تزول ، وتولد أمم أخرى جديدة لتحلّ مكانها وترث الأرض من بعدها .. فإذا كنا كيهود نريد أن يكون لنا مكان بين الأمم ، فعلينا أن نعلم أن سبيل ذلك هو العقل .. فبالعقل نكون موحّدين ونعرف الله وأنه هو الإله الواحد لا شريك له ...وبالعقل نسود بين الأمم . اليهوديّة ليست نسباً وقرابة ، ولكنها دين وشريعة ، فمن قبلها كان يهودياً ، ومن رفضها فقد ترك اليهودية .. بذلك يمكن أن نتحاور مع العالم ، وأن تكون لنا رسالة بين الأمم .. »

.. كان تعليق إيليا على ما سمعوه ، هو أن هذا الرجل فيلسوف عظيم .. أما « ديماس » فلم ير فيه سوى عميل للرومان ، لذلك فهم يؤيدونه ويفرضونه على الهيكل ، ليلقى بسمومه بين الشعب .. أمّا بنيامين فقد شعر بأنه قد أخذ جرعة كبيرة من الفكر هذه الليلة ، وقد ازدحمت الأفكار فى رأسه ، وأحسّ بأنه فى حاجة إلى أن يروّح عن نفسه ، فقرر أن يدعو صاحبيه إلى الحفل الذى تغنى فيه « دليلة » هذه الليلة .. وقد تمنّع « إيليا » فى بادىء الأمر ، ولكنه قرر قبول دعوة صاحبه ؛ فهذه هى ليلة وداع « أورشليم » ، وما عليه لو سهر مع « بنيامين » هذه الليلة ؟ فمن الغد سيكون له شأن آخر .. وحينما وصلوا إلى حانة دليلة علموا أنها لن تغني إلاّ بعد منتصف الليل ، لأنها تحيى عرساً عند بعض الأغنياء .. وكانت حانة دليلة بجوار المسرح ، فاستبدل « بنيامين » دعوته لدخولهم المسرح بسماع دليلة .

* * *

.. كان هذا هو المسرح الوحيد « بأورشليم » ، وقد افتتح بناءً على رغبة الحاكم الرومانى « بيلاطس » ، وضد رغبة الكهنة والفريسيين . وفى هذه الليلة كانت تعرض مسرحية ترنس اليونانى « المعذّب نفسه » ، والتى تدور حول قصة شاب أحب فتاة وأراد أن يتزوجها ، ولكن أباه رفض هذا الزواج ؛ للفارق الاجتماعى الكبير بينهما ، ولكن الشاب أصرّ على الزواج من محبوبته ، فتعرض لغضب الأب الذى حرمه من أن يرث ثروته الواسعة ، وأمره أن يغادر المدينة التى يعيش فيها هو وزوجته ، ولا يعود إليها ثانية حتى يتخلّص منها ويفارقها . وخرج الأبن مطروداً هو وفتاته وطالت غيبته ، وأحسّ الأب بوحشة لفراقه ، أعقبت ندماً على ما فعل به ، فبدأ يعيش حياة الزهد والتقشف ، حارماً نفسه من

مباهج الحياة ، ثم يتدخل أهل الخير للصلح بينهما والعمل على إعادة الفتى لأبيه .

.. قال « بنيامين » معقباً على المسرحية بعد خروجهم :

– مسرحيّة جميلة .. ولكن الحسرة تملؤنى على شعبنا الجاهل الغبى ، فتراثنا ملىء بالقصص الرائع الممتع ، الذى تتضاءل أمامه مثل هذه القصة البسيطة فى معانيها . ولكن للأسف ! نحن لا ندرك قيمة تراثنا ، ولا نحسّ به ، كما نحسّ الآن بروعة هذه المسرحية اليونانية ، ونتعاطف مع أبطالها .. فتصوروا مثلاً قصة كقصة يوسف الذى غاب عن أبيه سنوات طويلة ، وعاش صبياً صغيراً وحيداً فى مصر ، وقلبه معلّق بأبيه وأهله ، وما أصاب أباه من ألم وحسرة وبكاء متواصل أفقده بصره ، ثم ما حدث ليوسف فى بيت رئيس الشرطة ، وكيف راودته سيّدته عن نفسها ، ثم كيف أبى أن يقترف الخطيئة ويخون سيّده ، وفضل أن يلقى فى السجن على أن يعيش حياة الرذيلة ، ثم كيف دارت الأيام وأصبح سيّد مصر ! ، ثم صورة اللقاء بين يوسف وأبيه بعد كل هذه السنين الطويلة ، ولقائه مع إخوته الذين ظلموه وكيف عفا عنهم ، فسجدوا له واعترفوا له بالفضل عليهم .. إلى غير ذلك من الصور المؤثرة البديعة ! . آه لو صورت هذه الأحداث بقلم كاتب مسرحى! ،اذاً لسلبت المسرحية لب العالم كله : من أغريق ، إلى رومان ، إلى فرس ومصريين ولارتفع شأن اليهود بينهم .. ولكن لمن أقول هذا الكلام ، لو رفعت صوتى بمثل هذه الآراء ؟ فمن يخلّصنى من الفريسيين والكهنة ، ومن شرورهم وتعصبهم الأعمى ضد كل ما فيه خير وسعادة هذا الشعب ؟

.. وانتهز « إيليا » هذه الفرصة ليقول :

– ها أنت ذا تتفق معى يا « بنيامين » أن مشكلتنا ليست فى أعدائنا ، ولكن فى أنفسنا فنحن الذين نغمض أعيننا عن طريق الحق والخير والنور .

.. لم يرد « بنيامين » أن يدخل فى حوار جديد مع « إيليا » فلم يعقّب على حديثه .. واستأذن « ديماس » ليذهب ، وأراد « إيليا » أن يذهب كذلك ، ولكن « بنيامين » أصرّ على بقائه معه هذه الليلة ، فهى كما يقول ليلة الوداع ، ولا يدرى أحدهما متى يكون اللقاء ..

.. ودخل « بنيامين » مع « إيليا » إلى حانة دليلة التى تسهر حتى الصباح ،وفوجىء عند دخوله « بسيمون » تجلس مع رجل آخر وهى تضحك مشرقة ، والتقت عيناهما فحدّجته بنظرة قوية متحدّية .. كانت قد أرسلت إليه مع أكثر من شخص تسأل عنه وعن سرّ غيبته عنها ، ولكنه لم يكلف نفسه عناء أن يجيب عن تساؤلاتها ، وآثر أن يبتعد عن طريقها ، فهو يعلم من نفسه كم هو ضعيف أمامها ! . ولم يستطع « بنيامين » فى هذه اللحظة أن يصمد أمام تحدّيها ، فأشاح بوجهه عنها ، وقد تأجج فى صدره الغضب ، فها هى ذى العاهرة تجلس منشرحة مع رجل آخر !! ، اين حبها لى الذى تدّعيه ! . ولكن لم تظلمها يا « بنيامين » ؟ أليست هذه هى حياتها وهذا هو عملها ؟ لقد عرفتها منذ البداية وهى على هذه الحال .. ولكن ألا يطهرّها الحب ؟ .

.. وغمز « إيليا » « بنيامين » عند رؤية « سيمون » ، ولكنه رآه غاضبا ، فانتحى الاثنان جانبا ، وحضر الساقى ، فطلب « بنيامين » قارورة كبيرة من خمر معتقة ، فقال « إيليا » مستفسراً :

– ولكن ألم تقل : إنك قد أقلعت عن السكر ؟
– نعم .. نعم .. ولكننى أحتفل اليوم بوداعك .. وليلة واحدة لن تعيدنى للخمر ، فأنا قادر على أن أمتنع وقتما أشاء .

.. وأحسّ « بنيامين » برائحة الخمر والعرق والأنفاس المتزاحمة ، فشعر بالاختناق ، وندم على أن جاء « بإيليا » إلى هذا المكان ، بعد أن قطع شوطاً فى طريق التوبة .. ولكن جاء صوت « دليلة » قوياًحنوناًيبعث الأحلام والذكريات من مرقدها ، ويملأ القلب شوقاً للحب والعشق والغرام .. بل شوقاً إلى مزيد من السكر يزيل كل الحواجز التى تمنع النفس من الاستغراق فى الهيام والمتعة واللذة ، وارتفعت آهات الإعجاب من كل مكان ، بعد أن مست « دليلة » أوتار قلوب محرومة من السعادة ، قلوب مليئة بالأحزان والآلام ، وقلوب عذبها الشوق والحنين إلى اللذة الكاملة ، والحب الصافى الذى لاتكدره المنغصات ..

« .. يابنات أورشليم أين حبيبى ؟ .. حبيبى بين ثديى يبيت .. حبيبى يناجينى وعلى شفتيه بسمة حزينة ! كم أنت جميلة ! . كم أنت جميلة !؟ . كم أنت جميلة ! . ما أجملك ! ، ما أحلاك ! . أيتها الحبيبة باللذّات ... حبيبى يناجينى وعلى شفتيه بسمة حزينة : عيناك حمامتان .. أنفك كبرج لبنان .. خدّاك تفاحتان .. شعرك كأرجوان .. عنقك كشمعدان ... آه من الحب آه .. آه من الحب آه ..

.. حبيبى يهمس فى أذنى وعلى شفتيه بسمة خبيثة : سرّتك كأس مدورة لا يعوزها شراب .. خصرك تطوّقه يداى .. فخذاك ما أبرع الصناع ! . لهيبك يحرقنى ! . يسكرنى ! . يسحرنى . إلى الجنّة يأخذنى ! .

أنا لحبيبى وحبيبى لى .. يا بنات « أورشليم » .. أين حبيبى ؟ .. حبيبى بين ثديّى يبيت .. تعال .. تعال .. تعال .. تعال إلّى يا حبيبى .. أنا هيكل حب .. أنا بحر حنان ! تعال أنا لك وأنت لى .. تعال ننسى كل من حولنا ونعب من كل الملذات .. »

.. وانتاب الحاضرون هوس الإعجاب ، فألقوا عليها بالطيب وبالزهور ، وكسرت بين أقدامها قارورات عطر ثمين ، وأمطروها بكلمات الإعجاب والتبجيل ، والتف خدّام الحانة حول « دليلة » ليحافظوا على سلامتها من جنون عشّاقها ، وانصرفت « دليلة » ببطء وهى توزع البسمات والقبلات على الجميع ..

.. لم يستطع « بنيامين » أن يبث صديقه ما فى قلبه من حرارة العاطفة قبل الوداع ، فقد كان فى حالة من السكر والرغبة فى لقاء « سيمون » ، جعلته متبلد العواطف متعجلاً ، لذلك فقد ألح أن يمرّ عليه فى الصباح قبل مغادرته « أورشليم » .. وانصرف « إيليا » ، وبدأ بنيامين يتلّفت حوله باحثاً عن « سيمون » ، يريد أن يعرف إلى أين ، ومع من ستذهب فى هذه الساعة ، وهل ستكمل ليلتها مع ذلك الرجل الذى رآها معه ؟ .. وحينما أبصرها ، وجد عينيها تبحث عنه هى الأخرى ، ثم وجدها تصرف الرجل الذى كان يلّح على مصاحبتها وهى تتملص منه ، ثم ركبت عربتها وحيدة ، وانطلقت العربة ، ووقف « بنيامين » يرقب العربة وهى تبتعد ، فلاحظ أن العربة تهدئ من سيرها ثم تتوقف ، فأدرك أن « سيمون » تنتظره ، فأسرع نحوها ، وفتح باب العربة ، وارتمى بجوارها ، وانطلقا سوياً إلى بيت « سيمون » .

.. لم ينطق « بنيامين » بكلمة واحدة وهو فى العربة ، بل اكتفى بأن يلتصق بجسد « سيمون » الدافىء ، وأمسك بيدها ، ولكنها انتزعت يدها من يده وهى غاضبة ، فابتسم « بنيامين » وازداد التصاقاً بها .. ونزلت « سيمون » عند بيتها ، وأمرت السائق أن يوصّل السيّد إلى بيته ، ولكن بعد أن انطلقت العربة « ببنيامين » مسافة قصيرة ، أوقف العربة ونفح السائق بعض المال ، وأمره بالانصراف ، وأبدى له رغبته فى أن يعود إلى بيته سيراً على الأقدام .. ولمّا ابتعدت العربة ، عاد « بنيامين » متلصصاً إلى بيت سيمون .. وحينما فتحت له الباب ، أدرك أنها كانت فى انتظاره ، رغم أنها بادأته بقولها :

– ما الذى عاد بك ؟ .. لقد انتهى ما بيننا ! . أنا لم أعد أريد أن أراك ..

.. قالت ذلك وتركته يقف عند عتبة الباب ، ودخلت لتتكىء على إحدى الأرائك ، فدخل خلفها بنيامين بعد أن أغلق الباب ، ثم ارتمى تحت قدميها يقبل يديها فى شوق ، وهى تتمنع منه ، ثم قالت فى لهجة غضب ممزوجة بالانكسار :

– ماذا تظن فىّ ؟ .. هل أنا دمية تلعب بها حتى تملّ ثم ترمى بها دون رحمة ! . لو كان لإنسان كلب يحبُّه ، فإنه لا يجرؤ أن يتركه هكذا فجأة دون وداع ، وحتى دون أية مقدّمات ! . إنك حيوان متجرّد من المشاعر .. أنت بدون قلب ! . أنت شخص ميت ! . كيف طاوعك قلبك أن تهجرنى هكذا ؟ ماذا فعلت وأى ذنب اقترفت ؟ ! هل كنت عبئاً عليك ؟ ، أنا لا أكلفك شيئاً ! . إن ما يربطنى بك هو الحب ، والحب وحده .. ولكننى أحببت من لا يستحق ! ، لسوف تندم كثيراً على أنك أضعت كل هذا الحب .. لن تحبك امرأة مثل ما

أحببتك .. ولكنك ستدرك ذلك بعد فوات الأوان .. أنت رجل أنانى بشع .. ابتعد عنى .. أنا لا أريدك .

.. وانخرطت « سيمون » فى البكاء .. وشعر « بنيامين » أن فى قولها كثير من الحقيقة فقال محاولا التنصل والاعتذار :

– أقسم لك : إننى أحبك يا « سيمون » .. وكم اشتقت إلى رؤياك ، ولكننى كنت أقاوم نفسى دائماً .. أنت ! .. أنت تعرفين .. لابد أنك علمت أننى ذهبت إلى هذا الرجل المسمى « بالمعمدان » .. و .. وقد تبت على يديه ، وقررت أن ابتعد عن الخطيئة ..

.. قالت « سيمون » فى مرارة وسخرية :

– وها أنت ذا قد عدت .. إذاً فزيارتك « للمعمدان » جاءت فوق رأسى أنا .. أنا الذى أتألم وأعانى ! أليس كذلك ؟ ! . إن حبنا أطهر وأقدس من هذه الخطيئة التى تتحدث عنها .. إننى أعتقد أن الآلهة تبارك هذا الحب ، وهل فى الحياة أقدس أو أنبل من حب حقيقى يجمع بين قلبين ؟ ! . ثم لو كنت صادقاً فى حبك ، وتخاف من الخطيئة كما تقول فلماذا لا نتزوج ؟

اننى أعلم أن ناموسكم يسمح لك أن تتزوج ثانيةً ! . إن كل ما أطلبه هو أن أكون بجانبك ، أهذا كثير علىّ ؟ .. أنا لا أطالبك بشىء . أريد أن أكون معك فقط .. أن أراك فى كل وقت ! . أهذا كثير ؟ !

.. كان بنيامين مازال جالساً على الأرض عند قدميها ، فقال وهو يضم ساقيها بقوة إلى صدره :

– لا .. ليس كثيراً يا حبيبتى .. ليس كثيراً .. كم أتمنى أنا الآخر

أن أظلّ بجوارك دائما ..

- أنت كاذب .. وإلاّفما الذى يمنعك ؟ .. قلت لك : إننى لا أطلب شيئاً منك .. بل يمكنك ألا تعلن هذا الزواج إن أردت .. فقط نتزوج ليستريح ضميرك .

أحس بنيامين بصدق عواطفها ، فقام يقبلّها ويحتضنها فى شوق وهو يردد :

- أحبك .. أحبك .. أحبك يا « سيمون » .. أنت حبيبتى .. ولا يمكن أن أنساك أبداً ..

.. واستسلمت سيمون لقبلاته الحارة ، ثم بدأ بنيامين يحسّ بنشوتها ، فإزداد هياماً ، وحملها بين يديه إلى مخدعها .. وبعد ساعة قام « بنيامين » يطلب كأسا من الخمر ، ولكن « سيمون » أُعدّت له طعاماً خفيفاً وهى تخطو أمامه كغزال جميل ، غزال وحيد ، يشعّ الحب من عينيها الواسعتين الجميلتين ! . لكم يحسدك « يا بنيامين » كل رجال « أورشليم » على مثل هذه اللحظات .. أيمكن أن تظلّ الحياة هكذا متعة صافية بلا كدر ؟

.. واستسلم بنيامين لأحضان الحب من جديد .. ونسى أن يعود إلى بيته .. بل هو تناسى ذلك .. وكانت خيوط الشمس قد بدأت تتسلل إلى مخدعها .. فقامت « سيمون » ترخى الستائر على النافذة ، وهى تقول فى دلال :

- أوه .. إنه الصباح .. أريد أن أحتضنك فلا أتركك أبدا .. تعالى إلىّ ..

ولا يدرى بنيامين كيف مرّت ساعات المتعة والدفء والحب هكذا سريعاً ، فحينما دخل إلى بيته كان الوقت عصراً .. وقد قابله الجميع منذ فتح باب البيت بعيون قلقة ، وقد علم أن زوجة قد أشاعت نبأ غيابه ، فقد سألت عنه عند عمّه وعند أبيها ، وعند الأقارب والمعارف ، وأحسّ بأن « إيزابيل » إنما فعلت ذلك عن خبث وسوء نيّة .. فهى لابد تدرك اين ذهب ، ولكنها وقد كانت لا تجرؤ على مواجهته ، فقد أرادت أن تعلن سخطها وغيظها بهذه الطريقة المقيتة .. ولذلك فحينما رآها كان وجهه صارماً ، ولم يلق بالاً إليها وهى تقول له مظهره اللهفة والقلق :

– أين كنت ؟ لقد شغلنا كثيراً عليك .. خاصة بعد أن سألنا عليك عند الجميع فلم نجدك .

– وأين سأذهب ؟ .. هل أنا صبى صغير حتى يزعجكم غيابه هكذا ؟ .. لقد ذهبت إلى المزرعة .. فلماذا كل هذا الضجيج ؟ !

– نحن لم نعرف ذلك .. وأنت لم تقل إنك ذاهب إلى المزرعة .. وأنت عادة تذهب للمزرعة فى وقت مبكّر .. وقد غادرت البيت بالأمس فى وقت متأخر .

– هذا ما حدث .. أرسلى أحداً يطمئن من أزعجتيهم بالسؤال عنى .. أمّا أنا فمتعب وسأدخل لأنام .. يبدو أن البرد قد أمرضنى .

– لقد زاد انشغالنا عليك .. بعد أن حضر « إيليا » فى الصباح لوداعك ، وقد قال : إنه كان يسهر معك بالليل فى « أورشليم » .. وهو يبلّغك سلامه وأسفه لعدم رؤيتك قبل سفره .

– حسن .. لقد ذهبت للمزرعة فجراً .. أشعلى بعض النيران فأنا أحسّ بالبرد .. قال « بنيامين » ذلك ليبعدها عنه ، فشهادة « إيليا » قد

فضحت كذبه ، ولكن متى كان رأى « إيزابيل » مهماً ؟ إنها تعرف كل شيء ..

* * *

.. أمّا إيليا فإنه بعد أن مرّ على « بنيامين » فلم يجده .. أدرك أنه قد عاد إلى ما كان عليه من حماقة ، وأنه لابد قد ذهب إلى « سيمون » ، فلم يساوره قلق عليه ، ولكن تملّكه أسف حقيقى ؛ لأنه لم يتمكن من وداعه ، « فبنيامين » عنده هو جزء هام من « أورشليم » جزء كبير من ذكرياته الكثيرة فى هذه المدينة .. كم من مّرة سارا سوياً خارج « أورشليم » ساعات طويلة متواصلة ، وقد يصلان فى مسيرتهما إلى مدينة « جبع » القريبة من « أورشليم» ، وكم من مرّة تسلقا سوياً جبل الزيتون حتى يصلا إلى قمته ليملآ النظر من منظر « أورشليم » بسورها الحجرى العظيم ، وبواباتها الرائعة ، وهى تبدو كعروس وسط المروج الخضراء التى تحيط بها ، وتحت السماء الرائعة التى تحتضنها .. فما أجملها من ساعات ، وأبهاها من أيام !

.. وسار « إيليا » حزيناً ، فلا يعلم إلاّ الله متى يرى بنيامين ثانية .. ومرّ على الهيكل .. نعم هذا هو الهيكل الذى شهد ذكريات بغيضة إلى نفسه .. كم يرجو ألا يراه ثانية .. ثم مّر على حانة « ديموستيس » فزاد حنينه إلى رؤية بنيامين .. هنا كم قضى أمتع لياليه ! ، وشعر بقلبه يذوب حنيناً .. وتذكّر صوت دليلة الحنون .. لماذا يترك كل هذا ، ويلقى بنفسه فى حياة « يسوع » الباردة الجافة ! . إنه يخاف هذه الحياة الجديدة التى سيقبل عليها .. إنه أضعف من أن يعيش مع هؤلاء القدّيسين .. هل يمكن أن يتحمّل حياة ليس فيها من سلوى إلاّ الصلاة .. حياة يحمل فيها رأسه على كفّيه ، منتظرا أن يموت فى سبيل

الرب .. وليت الموت كان يأتى على حين بغتة ، ولكنه الخوف والانتظار .. بل لعلّ هناك ما هو أسوأ من الموت ! فماذا لو تعرّض للتعذيب أو للصلب .. ألم يقل المسيح لأحدهم : احمل صليبك واتبعنى .. فهل يمكن لمثله أن يتحمل مثل هذا المصير ؟ ..

اقشعرّ بدن « إيليا » حينما تذكر من يموتون على الصليب .. لا .. لا يمكن أن يتحمل أن يعّلق على الصليب ليلاق كل هذه الآلام .. وهل يمكن لبشر أن يتحمل مثل هذه الآلام ؟ !

إن المصلوب يظلّ أياماً فى عذاب قبل أن يموت .. وثارت عوامل الخوف والرعب فى قلب « إيليا » وكاد أن يرجع عن قراره ، ويبقى فى أورشليم ، شأنه شأن « بنيامين ، ودواد ، ويوشع » ، وشأن كل الناس هنا .. لماذا يدع ما يعرفه إلى مجهول لا يعلم إلاّ الرب إلى أين سيؤدى به هذا الطريق ؟ ، ولكنه تذكّر وجه « يسوع » القوى الهادىء وكلماته العميقة « .. من يحب نفسه يهلكها ، ومن يبغض نفسه فى هذا العالم يحفظها إلى حياة أبدية .. » .. نعم لكم يبغض نفسه وما يعتريها من ضعف ! ، لكم تعذّب فى « أورشليم » ، ولم يعرف معنى السلام الحقيقى إلاّ فى تلك الأيام التى قضاها مع « يسوع » ! ، إن الله قد فتح أمامه طريق السعادة ، فما باله يريد أن يعود إلى مرتع الرذيلة والشقاء ؟ ! ، وصرخت فى أعماقه كلمات من الأسفار « .. إيه يا أورشليم ! . يا مدينة الهيكل ! . يا مدينة الأنبياء ! . أين انبياؤك ؟ ! أين كهنتك ؟ ! ليردّوك إلى طريق الرب ؟ ! ، الكاهن والنبى ترنّحا بالمسكر . ابتلعتها الخمر . تاها من المسكر . ضلاّ فى الرؤيا . قلقا فى القضاء . فإن جميع الموائد امتلأت قيئاً وقذراً . لا مكان لمن يعلم معرفة

ولمن يفهم تعليماً .. آه يا رجال الهزء يا ولاة هذا الشعب . ويل لكم ! ويل لكم! ، وأنت أيها الشعب الغافل عن الوصايا . سوف تمحقك يد الرب الغاضب .. » .. وهدأت نفسى « إيليا » قليلاً وأطمأن قلبه .. واندفع فى طريقه وهو يردّد : إذا كان الموت سيأتى لا محالة ، فلماذا لا يأتى وأنا مرتاح الضمير ..

* * *

..ظل « بنيامين » نائما فى فراشه منذ أن وصل إلى بيته عصراً ، فلم يستيقظ إلاّ صباح اليوم التالى ، وقد حرصت « إيزابيل » أن تقدم له إفطاراً شهياًبنفسها ، ودخلت عليه وهى منكسرة ، ووضعت أمامه الطعام دون أن تفوه بكلمة إلاّ تحية الصباح ألقتها عليه .. وشعر « بنيامين » بالحنين إلى رؤية أولاده ، وأراد أن يسألها عنهما ، ولكنه آثر أن يستمر فى عناده جاهم الوجه ؛ حتى لا يعطى « لإيزابيل » فرصة لتحاسبه ولو بنظراتها عماّ فعل بالأمس .. وإمعانا فى العناد طلب « بنيامين » قارورة خمر ، فنظرت إليه « إيزابيل » نظرة عاتبة ، ولكنها لم تتكلم وأسرعت تحضر له ما يريد .. وما كادت تضع قارورة الخمر أمامه ، حتى سمعا دقاً عنيفاً على الباب ، فشعر « بنيامين » بالغضب ، فمن هذا الذى يجرؤ أن يدق بابه بكل هذه الوقاحة ، وجاءت الجارية مسرعة وهى تقول فى خوف :

– ثلّة من الجند يسألون عنك يا سيدى ؟

.. قام « بنيامين » قلقاً ليرى ماذا يريد هؤلاء ! ، وهو يؤكد لنفسه ، أنهم لابد قد أخطئوا مقصدهم ، وحينما واجههم سأله حدهم :

– أنت بنيامين ؟

– نعم

– أنت مقبوض عليك . هيا أسرع معنا .

– لابد أنكم مخطئون ! . أنا لا يمكن أن يقبض علىّ ! .

.. قال الجندى فى غلظة :

– نحن لا نخطىء .. هيّا أسرع ، والاّ أخذناك بثيابك هذه .

– دخل « بنيامين » ليرتدى ثيابه ، وقد حرص على أن يرتدى أفخر ما عنده من ثياب ؛ حتى لا يستهين به هؤلاء الجند .. واقتاده الجند معهم .. وقد تجمع بعض المارّة والجيران ينظرون ما يحدث ، فشعر « بنيامين » بالخزى والذلّ والعار ، ولكنه سار مع الجند حيث اقتادوه إلى الحبس .. وأدخل إلى قبو مظلم حيث كان هناك محقق يجلس على مقعد خشبى وأمامه منضدة قذرة . وأدّى الجندى الذى رافقه التحية قائلاً :

– هذا هو المدعو « بنيامين » يا سيّدى .

.. وابتسم المحقق ابتسامة خبيثة وهو يقول ساخراً :

– آه سيد « بنيامين » .. أخيرا وقعت وانكشفت .. حقاً لقد كنت بارعاً فلم يشك أحد فيك قط .. والآن نريد أن نعرف كل شىء .. منذ متى وأنت مشترك فى هذه العصابة ؟

– أية عصابة ؟

– آه .. استمع إلىّ جيداً .. أنت رجل محترم .. ولا أحب لك أن تتعرض للإهانة . فتكلّم وقل ما عندك ، فقد عرفنا كل شىء .

– أنا لا أعرف عن أى شىء تتحدث ؟

..فكشّر المحقق وأظهر أنيابه وهو يصرخ فى وجه « بنيامين » :

–قلت لك : إننا نعرف كل شىء .. لقد تكلم « ديماس » .. لقد اعترف بكل شىء ، تكلّم تنقذ نفسك من عذاب أليم .. نحن لا نتهاون

أبداً فيما يمس الأمن ! . أتفهم ؟

-أقسم بكل ما هو مقدس أننى لا أعرف عمّاً تتكلّم .

-حسن . قلّ لى : أين كنت فى الليل أول أمس ؟

-سهرت مع « ديماس » وصديق آخر يدعى « إيليا » فى إحدى الحانات . نعم دخلنا حانة .. حانة عش البلبل .. ثم ذهبنا إلى الهيكل ؛ لنستمع إلى معلم يونانى هناك ، فلم نجده بالهيكل ودلّنا أحدهم على بيته ، فذهبنا إليه ، ثم ..

- ما إسم هذا المعلّم ؟

- أعتقد أن اسمه المعلّم « أكيلا » وهو يهودى عاش فى أثينا .

- حسن ثم بعد ؟

- ثم ذهبنا إلى المسرح ، وشاهدنا مسرحية « المعذّب نفسه » .. ثم استأذن « ديماس » ليذهب .. وبقيت مع « إيليا » فذهبنا إلى حانة دليلة ، وظللنا هناك حتى انتهت من غنائها .. ثم .. ثم .. ثم رجعت إلى البيت .

- رجعت بعد ذلك للبيت ؟

- نعم . رجعت إلى البيت .

قالها « بنيامين » وهو يدعو الله أن تمرّ هذه الكذبة ، فلا يكتشفها هذا الوغد ، فهو لا يريد أن يقول أمامه : إنه قضى الليلة عند « سيمون » ، وإلا فسيحضرونها للشهادة ، وستكون فضيحة على كل لسان .

.. وسأله المحقق :

- ومنذ متى تعرفت على « ديماس » ؟

- منذ أسابيع قليلة .

- وكيف كان تعارفكما ؟ من الذى عرفّه بك ؟

.– لا .. لقد عرفته مصادفة فى حانة عش البلبل .. فقد كنت جالساً هناك ، وقد سعى هو للتعرف علىّ ، حيث تجاذبنا أطراف الحديث ، ثم طلب لقائى بعدها فإلتقينا .

– آه . لابد أنه كان يريد منك شيئا . لا بد أنك أحسست أن له غرضاً من هذا التعارف ، ولابد كذلك أنه أظهر لك ما يريد .

– لا .. أبداً .. كنّا نتجاذب أطراف الحديث فقط . حول اليهود وأحوالهم ، وحول « أورشليم »

– حسن .. وماذا كان يقول لك « ديماس » ؟

– كانت له آراء لا تعجبنى . فهو دائم السخط على كل شيء :

– كيف ؟

– هو ساخط على الكهنة والفريسيين والأغنياء وعلى الجميع .

– وعلى الرومان . بالطبع لابد أن يكون ساخطاً على الرومان فهم عنده أصل البلاء ، أليس كذلك ؟

– إنه ساخط على الحياة كلها . وعلى كل شيء .

– أجب على سؤالى .. ألم يكن ساخطاً على الرومان ؟

– بلى .

– وساخط كذلك بالتأكيد ، على كل من يتعاون مع الرومان ؟

– لم يتطرّق الحديث إلى ذلك .

.. وهنا صرخ المحقق فى وحشيّة :

– لا تراوغنى . حتى لا أسحقك هنا .. أتفهم .. أستطيع أن أجعل مصيرك الصلب أو السجن .. أنا لا أهزل .. لقد قتل هؤلاء الأوغاد أحد رجالنا . وقد أقسمت أن انتقم له .. فإياك أن تخدعنى

لأننى سأضع يدى على الحقيقة كلها ، ولن أرحم من يكذب علىّ أبداً . أتفهم ؟ .. وتأكد أنك لو تعاونت معى فسأعاونك وستذهب إلى بيتك معزّزاً ولن يمسّك سوء .. والآن ألم يحدّثك « ديماس » عن جماعته .. جماعة « القبضة السوداء » .. ها أنت ذا ترى أننا نعرف كل شيء . « القبضة السوداء » ! . يا له من اسم ؟ ! ، إنها فعلاً سوداء لأنها تعيش فى الظلام .. لقد قبضنا على أفرادها واعترفوا جميعا .. والآن أحب أن أسمع منك كل شيء .

– أقسم لك بأننى لا أعرف شيئاً عنها ، وإننى لا أرضى عن مثل هذه الأعمال .

– حسن وأين صاحبك « إيليا » ؟ أعطنا عنوان بيته وعمله ؟

– لقد كان يعمل بالهيكل ، ولكنه ترك عمله ليتبع « يسوع الناصرى » . لقد رحل اليوم عن « أورشليم » .

– آه . بعد أن عرف باتمام الجريمة ، والقبض على أصحابه فرّ هارباً . ولكن أين سيذهب ؟ سآتى به ولو كان فى آخر الدنيا .

– إنه لا يعرف شيئا . أقسم لك . لقد كانت المرّة الأولى التى يلتقى فيها مع « ديماس » هى أول أمس معى .. ولقد تشاجرا ولم يتّفقا على رأى .

– كيف ؟

– إن « إيليا » يتبع رجلاً صالحاً يدعى « يسوع الناصرى » وهو رجل يدعو إلى السلام .. وينادى دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله . وهو يصنع معجزات ويشفى المرضى ، ويدعو إلى المحبّة بين الناس .. أما « ديماس » فإنه – وأحس « بنيامين » أنه تورّط فى الحديث ولكنه أكمل – .. يرى أن على اليهود أن يتّحدوا ليكونوا دولة قويّة .

– .. هو إذن يدعو لأن يقف اليهود ضد الرومان ؟

– لا .. لا يمكن أن يفكر عاقل أن يقف ضد الرومان . إن الرومان هم سادة العالم . ومن الجنون أن يثور عليهم أو يتحدّاهم أحد .

– أنت تعرف إذاً أن الرومان هم سادة العالم .. لماذا إذاً تستمع إلى هذا الأحمق ؟

– أنا لم أستمع إليه .. أقسم لك بأننى كنت أخالفه فى كل مايقول . كنت أقول له : إن هذه أفكار حمقاء .. إننا إذا كنّا نأمل فى الوحدة ، فستكون بمباركة القيصر بالطبع فنحن حلفاؤه ، وهو يرغب فى أن يكون له حلفاء أقوياء .

– حلفاء أقوياء ؟ .. أتريد أن تخدعنى ؟ .. أتحسبنى غافلاً عن ما يدور فى رءوس اليهود ؟ . إن إلٰهكم يعتقد بأنه أفضل الآلهة ، ولا يرضى أن يشاركه أحد فى ملكوته أليس كذلك ؟ ! . إن إلٰهكم لا يتصالح مع أى آلهة أخرى . بل هو يحقد على كل الآلهة .

– لا .. ليس على هذه الصورة .. فليس هناك ما يمنع أن يكون لليهود حلفاء أقوياء كالرومان .. إن فى ذلك حماية لنا ولبلادنا من أطماع كل الأعداء الذين يتربصون بنا شرّاً .

.. ودخل أحد الجند يحمل ورقة صغيرة للمحقق ، قرأها ونظر إلى « بنيامين » ثم قام وخرج وبعد قليل جاء وجلس على مكتبه ، وكان « بنيامين » مازال واقفاً ينتظر وقد ملأ قلبه الخوف مما قد تسفر عنه هذه التحقيقات ، ونظر إليه المحقق ملياً ثم قال :

– استمع إلىّ جيداً . أنا لا أريد أن أراك هنا ثانية ، ولا أحب أن أسمع أنك التقيت بأمثال « ديماس » هذا ثانية .. فالواجب يقتضيك أن تبلّغنا عن أمثاله من المخرّبين .. أتفهم ؟ . وبالمناسبة أتعرف أين ذهب

« ديماس » بعد أن تركك أو أين يجلس عادة ، أو عند من تظن أنه مختبىء الآن ؟ .. هل تعرف بيته ؟

– أبداً . أنا لم أذهب إلى بيته أبداً . ولا أعرف أين يسكن . لقد إلتقيت به عدّة مرات فى الحانة ، أو فى بيتى .

.. فقال المحقق مستهزئاً فى احتقار :

– وتنصت إلى مثل هذا اللعين وتصاحبه . دون أن تعرف عنه شيئاً ؟ يا لك من أبله ! ، .. ثم نظر المحقق للجندى الواقف بجواره ، وأمره أن يأخذه للخارج ، فخرج « بنيامين » وهو لا يكاد يصدّق أن الأمر قد انتهى بهذه السرعة .. وفى الخارج وجد عمّه « صموئيل » وحماه « نفثائيل » ، ورجل آخر لا يعرفه ، يبدو أنه من أصحاب السلطان ، وقد سلّم عليه الرجل قائلا :

– لولا أن حماك نفثائيل ما خرجت من هذه الورطة . احمد الرب أن نجاّك من هذا ، وأرجو أن تبتعد عن مثل هؤلاء الأصدقاء .

.. أدرك « بنيامين » أن وساطة حماه ، كانت السبب فى سرعة الإفراج عنه .. وأدرك كذلك من حديثهم بعد ذلك ، أن جماعة « ديماس » قد قتلت أحد كبار أثرياء التجار من اليهود ، كان هو المورّد الرئيسى للخيول للجيش الرومانى ، حيث كان يجلبها من بلاد العرب لبيعها للرومان ، وقد تحدّث عنه عمّه وحموه كرجل طيب فاضل محبّ للفقراء ومحسن إليهم ..

.. وقد حكى لهم « بنيامين » قصته مع « ديماس » ، وأحسّ بأن عمّه متعاطف معه بعض الشيء أماّ حموه نفثائيل فقد بدا حانقاً مغيظاً ، فلم يخاطبه بكلمة واحدة .. ولكنه طلب منهم أن يذهبوا معه إلى بيته لأن عنده حديثا يريد أن يقوله . وأحسّ « بنيامين » بالشرّ وراء طلب

حميه هذا ، فهو يعلم منذ فترة أن علاقته بحميه ليست على ما يرام ، فكلاهما غير راض عن الآخر ولا عن طريقته فى الحياة ، ولكنهما يكتمان ذلك ، وها قد حانت الفرصة ليتكاشفا .

.. كان عم « بنيامين » وحموه كلاهما عضوين فى السنهدريم ، وعمّه هذا هو الذى كان قد أصبح منذ وفاة أبيه بمثابة الأب له ، وهو الذى خطب له « إيزابيل » ابنة صديقه « نفثائيل » العزيز .. ورغم أن « نفثائيل » كان معروفا بالبخل وضيق الأفق ، وحرصه الشديد على المال والجاه ، الاّ أن عمّه كان يراه رجلاً عاقلاً حكيماً ذا نفوذ ، ومحترماً من جميع الكهنة ، ويتمتع بصلات كبيرة مع الرؤساء ..

.. ودخل ثلاثتهم إلى غرفة الضيوف ، وهى غرفة كبيرة قد فرشت كلها بسجّاد فاخر ، ووزّعت الوسائد على الجدران ، وفى أركان الغرفة وضعت مزهريات كبيرة عليها نقوش لأزهار وبراعم بألوان جميلة متناسقة .. وجلس « نفثائيل » ممدّدا ساقيه ، وقد شبّك أصابع يديه ، وقطب جبينه فى غضب ، وأحسّ « صموئيل » بما يدور فى رأس « نفثائيل » فأحب أن يخفف من هذا التوتر الذى يسود المكان ، فبدأ هو الحديث مباشرة فى محاولة للإصلاح . قائلا :

– عمك « نفثانيل » يشكو منك يا « يا بنيامين » .

– لماذا ؟ أنا لم أفعل شيئا . ويسوءنى أن يكون غاضباً منى .

.. وهزّ « نفثائيل » رأسه بامتعاض . قائلا :

– دعك من هذا . إن أحوالك كلها لا تعجبنى . وأنت تعرف ذلك .

– أى شىء هو الذى يعجبك ؟ أنا لا أعرف شيئا !

– لا فائدة فى الحديث معك .. أنت لا تتغيّر ، ولا تنفع فيك

الموعظة ، وقد سئمت من إرشادك ، فأنت ستظل سادراً فى غيّك .

– ماذا حدث ؟ ! أخبرنى ماذا فعلت ؟ ! ، أنا لم أفعل شيئا .

– عن أى شيء أحدّثك .. إن أحاديثك لا تنتهى ! . أتذكر ذلك الأبرص الذى وجدته عندك فى المزرعة ؟ هل هناك عاقل يفعل ذلك ؟ أيوجد شاب فى مثل مركزك يصاحب مثل هذا الأبرص ؟ ! ، وذهابك للمعمدان ! . ذهبت مرّة ! ، فقلنا لعلّه يريد أن يشاهد هذا الرجل ، فإذا بك تعود إليه ومعك زوجتك وأولادك ! ، ماذا جرى لعقلك ؟ ! ، أتأخذ زوجتك كل هذه الرحلة ، لتتحمل هذه المشقّة ويمرض أولادك ؟

.. ثم سهرك كل ليلة ، وإتلافك للمال .. قل لعمّك أين كنت تبيت أول أمس ؟ هيّا تكلم ؟ .. أنت رجل تفعل كما تشاء ، لكن لكل شيء حدود يجب أن تقف عندها ماذا لو رآك أحد وأنت فى ذلك الماخور الذى كنت فيه ؟ ! ، إن الذى يفعل مثل هذه الأفعال فعليه أن يستتر ، ثم لماذا تختار أصحابك كلهم من سفلة الناس ورعاعهم ؟ .. انظر ماذا جنيت على نفسك اليوم ! ، لولا تدخّلنا لقضى عليك هؤلاء الجند ..

اتستهين بمقتل رجل من كبار أعوانهم ؟ .. ثم تقول لى لماذا أنا غاضب عليك ؟ .. وهل حياتك الفارغة هذه يرضى عنها أحد ؟ !

..أحسّ « بنيامين » بقسوة حجّة حميه ، فهو نفسه غير راض عن حياته ، لذلك ترك الإجابة عن كل ما قاله حموه ، إلاّ موضوع « المعمدان » ، فقد وجد أن حجتّه ستكون قويّة ، لو تكلم عنه .

قال :

– ولكن الجميع يقولون أن المعمدان نبى صادق .

– ألم أقل لك يا صموئيل أنه ولد أحمق ؟ ! لقد أصبحت رجلاً ،

وما زلت تخدع بما يخدع به الرعاع ، هذا رجل مجنون ، بل هو شيطان خبيث .

– ولكن كيف تحكم عليه . وأنت لم تره حتى الآن ؟ !

.. فصرخ حموه فى غيظ :

– أتريد من رجل مثلى أن يذهب مثلكم كالأحمق ليغسل هذا المجنون رأسه بالماء ، كما فعل ويفعل بجموع الحمقى الذين يذهبون إليه ؟ ! ، يا للجنون !! .. هذا الأفاق لن يرجعه عماً هو فيه إلاّ السجن فى قبو مظلم حتى تطير الشياطين من رأسه .. حسن فعل « هيرودس » ، حتى يقضى على هذه الأكذوبة .

– وهل سجن « هيرودس » « المعمدان » ؟

– نعم سجنه ، وليته فعل ذلك من قبل .. لقد شكّك هذا الملعون فى قدسيّة الهيكل والكهنة ، وكاد يضل الناس .. إنه يدعو إلى هدم الهيكل ، ويلعن كل حكمائه وعلمائه .. هل يمكن أن يكون رجلاً صالحاً ، محبّاً للشعب والناموس والهيكل ، ثم يستمع إلى هذا الملعون الذى يبث حقده وسمومه بين الناس .

.. أحسّ « بنيامين » بالرضا ، لأن الحديث إنصبّ على قضية « المعمدان » ، وفى الوقت نفسه هزّ خبر سجن « المعمدان » « بنيامين » من أعماقه ، وأحسّ بمخاوف كثيرة تموج فى قلبه ، خاصة بعد ما حدث له اليوم ، وأراد أن تنتهى هذه الجلسة ، وأن يكسب رضاء عمّه وحميه ، وأن يخلو بعدها إلى نفسه ، فوجد نفسه يقول :

– لن ترى منى بمشيئة الرب إلاّ خيراً .. ويسوءنى كثيراً أن أراك غاضبا علىّ فأنا حريص على رضاك يا عمّاه .

.. وأحس « صموئيل » بالارتياح لكلام ابن خيه لحميه « نفثائيل » فتدخّل قائلا :

– قم الآن لتقبل رأس عمّك « نفثائيل » .. قم .

.. وبينما « بنيامين » يفعل ما أمره به عمه ، أكمل « صموئيل » قائلا :

– ألم أقل لك يا نفثائيل : إن « بنيامين » ولد طيب ، ولا يمكن أن يقبل أن تكون غاضباً عليه ؟ فهو حريص على رضائك ، وعلى أن ينال بركتك دائما .

.. وخرج « بنيامين » من بيت عمّه ،.وقد شعر بأنه ذليل مهزوم ، تملأ قلبه الشكوك والمخاوف ، وقد اظلمت الدنيا فى وجهه .

* * *

اللوحة التاسعة

الجريمة الكبرى





..ترك « بنيامين » مزرعته عائدا إلى « أورشليم » ، وظلّ يستعرض فى طريقه تتابع الأحداث السريع من حوله .. فمن يصدّق بأن يحدث كل ذلك خلال هذا العام ! . « إيليا » يترك « أورشليم » ، وخادمه « يوسف » يتركه إلى« المعمدان » ، و « حزقيال » كذلك ، ثم هذا « ديماس » يتعرّف عليه ، فما تمضى أيام إلاّ ويكتشف من خلاله عالما جديدا ، عالم الثورة والاغتيال والعمل السّرى ، والهرب ومطاردة الجند ، وتحدى السلطان .. ثم ذلك العالم الذى اكتشفه وهو عند « المعمدان » ، شباب يعيشون بعيدين عن كل مباهج الحياة ، لا يشغلهم إلاّ أمر الشريعة والناموس .. شباب ترك كل شىء ليعيش فى الصحراء ، يعبدون الرب ، ويبحثون عن الحق ، وينتظرون المسيح ، ويتنبأون بخراب الهيكل وأورشليم .. حقاً : إنه يعيش زماناً مليئاً بالأحداث ، ولعلّه هو الزمان الذى تحدثت به الكتب والأنبياء .. فهل كتب عليه أن يشهد هذا الزمان ؟ هل كتب عليه أن يشهد أحداثاً رهيبة ستحيق باليهود وبأمتهم ؟ هل كتب عليه أن يشهد نهاية هذه الملحمة الطويلة لشعب إسرائيل ؟

.. وحينما دخل من بوابة « أورشليم » ، رأى النسر الرومانى معلّقاً عليها ، وجند الرومان يقفون عندها ، فلم يشعر بما كان يشعر به من قبل من عداوة ورهبة وإنكسار ، بَلْ مرّ بهم غير مبالٍ ، و لم يكلّف نفسه حتى مشقة الالتفات إليهم ، أو إلقاء التحية عليهم .. لقد تصاغر كل شىء فى عينيه .. حتى الرومان وجند الرومان .. يكفى أن تواجههم مرّة حتى تزول رهبتهم من نفسك .. هكذا كان « بنيامين » يحدّث نفسه .

.. كان عمّه « صموئيل » قد تحدث مع حميه « نفثائيل » ، وأقنعه بأنهما كليهما مقصّران فى حق « بنيامين » ، فكلاهما ليس له أبناء ذكور ، و« بنيامين » هو ابنهما معا ، وهو أملهما ، وهو شاب حدث غرير ، يمكن أن تنحرف به سبل الحياة يميناً أو يساراً ، وقد كان من واجبهما أن يتعهداه بالرعاية ؛ حتى يشق طريقه فى الحياة ، ويتبوأ المكانة التى تليق به فى المجتمع وأمام الشعب .. وانتهى حديثهما على اقتناع ، بأن عليهما أن يأخذا بيده نحو الطريق إلى الرفعة ، حتى يحسّ بقيمته ، وبالتالى بالواجبات الملقاة على عاتقه . ولماّ كان الهيكل ورؤساؤه بصدد تشكيل وفد رفيع المستوى لحضور احتفالات الملك « هيرودس » بمولده فى « قلعة ماكيرا » ، فلماذا لا يستخدمان نفوذهما فى أن يكون « بنيامين » عضواً فى هذا الوفد ؟ .. إنها فرصة للاحتكاك بالعظماء ؛ لكى يعرفهم ويعرفوه ، ولكى يجد لنفسه طريقاً بينهم ، وليس من الصعب عليهما تدبير ذلك .

.. وقد فرح بنيامين بهذا الترشيح للسفر إلى « قلعة ماكيرا » ، رغم ما راوده من إحساس بأنه يسير فى الطريق الخاطىء ، فسوف يصاحب أناساً طالما لعنهم وخالفهم .. ولكن لا بأس من مثل هذه الرحلة ، فهى فرصة ليتعرّف على مثل هذه المجتمعات ، وليرى كيف يعيشون ، وكيف يفكرون ، لذلك فقد نشط من فوره فى تجهيز نفسه بأفخر الثياب ، وحتى حصانه الذى يعتز به قد اشترى له سرجاً مطهماً بالفضة وبعض خيوط الذهب ، حسب ما ساعدته عليه إمكانياته الماديّة ، وقد اتخذ له تابعاً يخدمه ، وجهّزه كذلك ليبدو فى أحس حال ؛ ليظهر لمن معه ولمن سيلقاهم ما يتمتع به من مكانة وغنى .

* * *

.. تقع « قلعة ماكيرا » على الساحل الشرقى للبحر الميت فى منطقة مقفرة ، وكان يطلق عليها « البرج الأسود » ؛ لأنها بنيت على جبل مرتفع محاط من ثلاث جهات بهوّة سحيقة لا يمكن تسلّقها ، أمّا الجهة الرابعة فبها الطريق الموصّل إلى القلعة ، وقد انتشر فى هذه المنطقة أحجار حمراء وسوداء من مقذوفات البراكين القديمة ، وهى كتل ضخمة مبعثرة ، يقف بعضها عمودياً ، مما يوحى بالرهبة من عظمة الطبيعة ، ويجرى فى السهل نهر صغير تحف به أشجار النخيل ، وقصب الغاب العالى ، وأشجار أخرى متنوعة ، ويرى ضباب متصاعد ناشىء عن تدفق المياه الكبريتية من شقوق بعض الصخور .

.. وقد أقام « هيرودس » سوراً ضخما يحيط بقمة الجبل ، أقيمت عليه أبراج مرتفعة ، وبنى بداخل السور قصراً فخماً للملك ، غطيت جدرانه بالرخام الملوّن ، كما اقيمت به حمامات فخمة ، وزوّد القصر بصهاريج المياه الضخمة .. وبجانب القصر بنيت ثكنات الجند ، ومخازن كبيرة امتلأت بما يكفى القلعة مدّة طويلة تحسباً ليوم قد تحاصر فيه من الأعداء ، أو لاحتفالات كبيرة يفد عليها عدد كبير من الزوّار .. والناظر من القلعة يرى منظراً ساحراً للبحر الميت ، وكل مجرى نهر الأردن و « أورشليم ، وحبرون ، وبيت لحم » ، وغيرها من المدن على مرمى البصر .. وعلى مقربة من القصر ، كان هناك حصن قديم كئيب مظلم ، يوجد فى أسفله غرف قد نحتت فى الصخر ، وقد استخدمت كسجن لعتاة المجرمين .. وفى هذا السجن ألقى « بالمعمدان » منذ ما يقرب من عام أو يزيد ..

.. كان على « بنيامين » والوفد الذى سافر معه من « أورشليم » ، أو يصلوا إلى القلعة قبل وصول « هيرودس » ؛ حتى يكونوا فى

استقباله .. وقد كانت هذه هى المّرة الأولى « لبنيامين » التى يرى فيها « قلعة ماكيرا » ، وقد هاله عظمة تحصيناتها الطبيعية ، وتعجّب كيف يمكن اقتحام مثل هذه القلعة ؟ !! .. لابد أن الجيش المهاجم سيفقد معظم قوّاته قبل أن يصل إليها ..

.. وقد أحسن المشرفون على القلعة استقبال وفد الهيكل الآتى من « أورشليم » ، وأنزلوه فى منازل خاصة بنيت بعيداً عن القصر ، وقد أعدّت لإستقبال الضيوف فى مثل هذه الاحتفالات ، وزوّدت بكافة المرافق ، وقد انتشرت الحدائق أمامها .

وفى اليوم التالى شاهد « بنيامين » فى الصباح عن بعد موكبا جليلا مقبلاً على القلعة ، ولكن هذا الموكب لم يقترب من القلعة إلاّ بعد ساعات طويلة .. كان هذا الموكب العسكرى الرائع ، قد قطع مسافة كبيرة من مدينة طبرية ، مخترقاً منطقة الجليل عبر « الأردن » إلى واحة « أريحا » ثم منها إلى القلعة ، وكان هذا الموكب يضم يهوداً ، ورومانا ، وإغريقاً ، جاءوا مرافقين للملك ، وقد أحيط الموكب بوحدات عسكرية مجهّزة بكل الأسلحة والمهمات اللازمة ، كما يضم عربات فاخرة تحمل الملك « وهيروديا » و « سالومى » ، ورجال الحاشية والوصيفات ، وكبار الزوّار من العرب والإغريق ، والكهنة ، وكبار رجال الدولة وعائلاتهم ، هذا بالإضافة إلى الخدم والعبيد .

.. وحينما اقترب الموكب من القلعة ، كان « هيرودس » يمتطى جواداً عظيما عليه سرج ولجام ذهبى ، وكان صوت الموسيقى العسكرية يرتفع مع الأعلام التى يحملها الجند .. وعلى أطراف الموكب تجمّع بعض المزارعين والفقراء الذين يسكنون فى أكواخ منتشرة فى السهل حول النهر ، وهم يهتفون بحياة الملك .. وعندما توقف الموكب عند باب

القلعة ، أدّى جنود القلعة الذين كانوا فى الاستقبال التحية العسكرية .. ثم تعالت الهتافات من الجند ومن الناس الذين صعدوا مع الموكب ليتفرجوا عليه ، وعلى أمل أن يصيبهم أى إحسان من الملك ، وكذلك تعالت هتفات الضيوف الذين كانوا ينتظرون الملك فى القلعة .. وكلها هتافات تدعو للملك بطول العمر ودوام العزّ والملك ، وقبل أن يدخل الملك وموكبه إلى القصر ، أشار الملك إلى أحد رجاله ، فأحضر له كيساً كبيراً مملوءاً بالمال ، وصار الملك يملؤ كفّه ويلقى على جموع الشعب المحيطة به ، وتدافع الفقراء يلتقطون من الأرض عطايا سيّدهم الكريم .. وقد شاهد بنيامين متقززاً بعض أعضاء وفد الهيكل ينكفئون بحثاً عن الذهب الذى مرّغ فى التراب .. وقد برّر أحدهم ذلك له فيما بعد ، قائلا : إنه إنما فعل ذلك ليس طمعا فى الذهب ، ولكنه أراد أن يحتفظ بهذا الذهب كذكرى لهذه الزيارة الغالية .

.. كان على « بنيامين » أن يقضى أياماً فى أعياد واحتفالات متتابعة ، قبل أن تحلّ ليلة عيد الميلاد ، وقد أعدّت مسابقات رياضية وترفيهية وحفلات موسيقية غنائية راقصة .. وكان على « بنيامين » أن ينسى كثيراً من أفكاره ، وأن يعطل نشاط عقله ، حتى لا تفقد هذه الأيام والليالى الجميلة بهجتها فى عينيه ، لذلك لم يردّ يداً تقدّم له كأساً ، وتمنى لو كان ضمن وفد غير وفد الهيكل ، فقد قيّده هذا الأمر بسلوك معيّن ، فحيث إنه من وفد الهيكل فلا يليق أن يعبث مع العابثين ، ولكنه أحياناً كان لا يلقى بالاً إلى استنكار رفاقه ، ويشارك فى ما يجرى حوله من لهو ومجون .. وحاول « بنيامين » أن يشارك فى مسابقات الفروسية ، ولكن تبيّن له من المرّة الأولى والأخيرة التى قام بها ، أنه لا يمكن أن يجارى هؤلاء الفرسان الشبان ، وتعجّب كيف كان يعتقد دائماً فى نفسه

أنه فارس من الطراز الأول .. كذلك فقد أحسّ لأول مرّة فى حياته أنه من طبقة الفقراء ، فقد توّهم دائما أنه من طبقة الأغنياء ؛ ذلك لأنه كان يخالط دائما من هم أفقر منه ، ولكنه اليوم يدرك مدى البون الشاسع بينه وبين هذا الترف والغنى الفاحش ، وأحسّ أنه يعامل ووفد الهيكل المرافق له كما يعامل مرتزقة الفقراء ، وأن الآخرين ينظرون إليهم نظرة بين العطف والاحتقار والتقديس بصفتهم خدّام الهيكل .

ولكن ما عكّر على « بنيامين » صفوة بعض الوقت ، أنه علم أن المعمدان يقبع فى هذا المبنى القريب الواقع خلف القصر ، وقد ذهب مع بعض المدعّوين ليتفرجوا على « المعمدان » من بعيد .. كانت الحجرة التى سجن فيها « المعمدان » تنخفض عن سطح الأرض ، ولكن سقفها يرتفع عن الأرض بحوالى متر واحد ، حيث كانت نافذة عليها قضبان حديدية ، وينفذ منها الضوء إلى الحجرة ، فرأى « بنيامين » « المعمدان » يجلس على أرض الحجرة وتحته فراش رث قديم .. وأحسّ « بنيامين » بقلبه يتمزق وهو يرى رفقته رجال كالخنازير ونساء كالعاهرات ، يتهامسون ويتغامزون بعد رؤيتهم « للمعمدان » ، كما لو كانوا يشاهدون حيوانا حبيساً .. ولم يستطع « بنيامين » أن يقاوم نفسه ، فعاد بعد فترة وحيداً متلصصاً ليقف أمام نافذة « المعمدان » ، وقد أطبق كفّيه على بعضهما وضمّهما إلى صدره علامة التأييد ، وقد حاول أن يبث « المعمدان » بنظراته كل معانى الحب والاحترام والحنان والتقدير ، ونظر إليه « المعمدان » نظرة شكر لم ينسها « بنيامين » أبداً ، واحتار طويلاً فى معناها ، أهو يشكره على عواطفه ؟ أم هو يشفق عليه لما هو فيه ؟ .. هيىء إليه أحيانا أن « المعمدان » يقول له : انما انت يا « بنيامين » هو السجين ، أما أنا ففى كامل حريتى ، فالسجن هو سجن النفس ، أمّا

من تحرّرت نفسه ، فلا يمكن لكل قيود العالم أن تكبِّله .. وتعكّر صفو « بنيامين » سحابة النهار ، ولكن جمال إحدى السيدات الهاه عن كل شيء ، فظل يطاردها أينما ذهبت ، وهى تشجعّه على ما هو مقبل عليه ، ولكن كيف يصل إليها بين كل هذه العيون المحدّقة به ؟ لم يستطع أن يختلى بها ، فأكتفى بكلمات الغزل يمطرها بها كلما أقترب منها ، وتمنى لو تمكن من هذه المرأة ! ، إنه بهذا يكون قد ذاق طعماً جديداً فاخراً من المتعة ، إنه عالم جديد ساحر فاتن ..

.. حينما خلا « بنيامين » إلى نفسه فى المساء ، لم تفارقه صورة « المعمدان » فكانت نفسه تتمزق ألماً وحزناً ، وتمنى لو أحضر معه إلى فراشه قارورة خمر لعلّها تساعده على أن يهرب إلى النوم ، فها هى ذى الأيام تدور ليجد نفسه فى جانب « هيرودس » والكهنة والأثرياء ، بينما أصحابه فى صف « المعمدان » ، و « يسوع الناصرى » ، وهو اليوم مع كلّ الرموز التى كرهها وعرف فسادها ، وضد كلّ رموز الصلاح والإصلاح .. إنه يقف مع « آخاب » ، و « إيزابيل » ضد « إيليا » .. يقف مع الأوثان ضدّ الأنبياء ! ، ولعن عمّه وحماه إذ يجذبانه الى هذا الطريق .. ولعن « أورشليم » التى تدفع بأبنائها إلى طريق الزيف والغرور .. ولماّ أحسّ بنيامين أنه موشك على الانهيار تماماً أمام هذا التمزق الذى يعتريه ، قرر أن يبحث عن الخمر لكى تنقذه مما هو فيه ، وإلاّ حدث له مالا يحمد عقباه .. نعم سيقضى كل أيامه ولياليه هنا فى حالة سكر ، حتى يعود إلى « أورشليم » ، إلى حيث يستطيع أن يختلى بنفسه ؛ ليتعرّف على طريقه ، نعم سيذهب إلى مزرعته ويقضى فيها أياماً طويلة وحيداً يبحث عن الطريق الذى عليه أن يسلكه فى هذه الحياة .. نعم عليه أن يحدد لنفسه طريقاً يندفع فيه بكل طاقاته ليجد الخلاص ؛ لأن

هذا التمزق سيقتله .. ولكن اليوم خمر وغداً أمر .. وأقبل « بنيامين » على الشراب الذى أحضره له أحد الخدم ، و لم يشعر إلاّ برفيق له يوقظة ضحا .

* * *

.. قبل وصول « هيرودس » إلى القلعة ببضعة أيام منعت الزيارة تماماً عن « المعمدان » ، وشدّد الحرس على عدم تواجد أى تلاميذ « للمعمدان » فى المنطقة كلّها ، وحتى فى القرى الواقعة عند سفح الجبل .. وفى أثناء أيام الإحتفال داخل القلعة ، فوجىء قائد السجن برجل مهيب يطلب مقابلة « المعمدان » قال الرجل فى لهجة آمرة كتلك التى يستخدمها عادة أصحاب السلطة والنفوذ :

— أريد رؤية المعمدان الآن .

.. ووجد القائد نفسه يأذن للرجل بمقابلة « المعمدان » وقد ألقى فى روعه أن هذا الرجل لابد أن يكون من كبار الزوار الذين دعاهم الملك ؛ فهو بالتأكيد من الضيوف لأنه ليس بالقلعة اليوم إلاّ المقرّبين « لهيرودس » ، ثم إن لهجته الآمرة دليل على نفوذه الكبير ، فلا بأس من إرضائه ، ولا ضير من كسب صداقته .

.. كان « المعمدان » يجلس وحيداً يقرأ فى أحد الأسفار ، حينما فتح باب القبو ليدخل عليه « يسوع » ويغلق الباب خلفه ، وهب « المعمدان » فرحاً ليعانق « يسوع » فى شوق شديد ، وعانقه « يسوع » بشدّة كمن يعانق ابناً حبيباً غائباً ، أو سيغيب فى سفر بعيد .. ثم جلسا متقابلين .. قال « المعمدان » مازحاً فى مرارة :

– مرحباً بك فى قلعة الشيطان !

.. أجاب « يسوع » فى حزن :

– هذه مشيئة الرب .. اليوم هو سلطان الظلمة .

– ولكن كيف دخلت إلى هنا .. يقولون : إنهم قد منعوا أى أحد من زيارتى ؟ !

– دخلت مع رجل هام عندهم .. إن لله جنوداً يعملون له فى الخفاء .

.. سكت « المعمدان » ، ثم تنهّد وقال :

– انظر .. كيف سارت بنا الأيام ؟

أجاب « يسوع » بنفس اللهجة الهادئة الحزينة :

– الأيام هى أيام الرب .. ولن تسير بنا إلاّ إلى كل خير .

– .. هذا الفاجر يصنع ماخوراً للفساد ، غير عابىء بمصير هذه الأمّة .

– لو كانت الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة ما أعطاها لأمثاله ، ولكنها مَعْبَر نمرّ منه إلى عالم الخلود .

.. ساد الصمت بينهم برهة ، ثم قال « المعمدان » متحسراً :

–لكم تمنيت أن أموت وسيفى فى يدى أجاهد أعداء الرب .

– ألا تعلم أن أفضل نهاية لرحلة الحياة هذه ، أن يقوم الرجل إلى الظالم فينهاه عن شرّه فيقتله ، فيذهب للرب تحمله الملائكة كأنه يوم عيد ؟

.. قال « المعمدان » فى صلابة ، وهو يكتم ألمه :

– أترى يفعلها ذلك الفاجر ؟

– الله هو الذى يفعل ما يشاء .. فلتكن مشيئته لا مشيئتنا كما فى السماء كذلك على الأرض ؛ فنحن عبيده وخدّامه ، وكل ما تفعله بنا يداه فهو حسن وخير .. فقط نحن ندعوه أن يلهمنا الشجاعة

والصبر ، وأن يثبت قلوبنا .. وألا يدخلنا فى تجربة لا نحتملها .

– نعم لتكن مشيئة الرب .. لتكن مشيئة الرب .

.. وأحسّ « المعمدان » بنبرات الحزن والألم فى صوت « يسوع » ، فجاءت كلماته كأنها الرثاء .. ولكن « المعمدان » أحسّ فى نفس الوقت بهوان الحياة ، وهوان كل شيء فيها ، وحلقت روحه فى سماء المجد ، وهو يقول :

– ما أقل شأن هذه الحياة ! ؛ يعلم الله أننى كنت دائما زاهداً فيها حريصا على الآخرة ، ولقد أدّيت رسالتى نحو هذا الشعب ، وكنت له نذيراً بين يدى عذاب شديد ، ولم أدّخر جهداً فى أن أعلّم وأبصّر الناس بشريعتهم وبطريق الرب .. اللهم قد بلّغت ما استطعت، اللهم اشهد لى .

– لم تلد النساء من قبل شبيهاً لك يا « يوحنا » .. وأنا أشهد أمام الرب ، أنك أدّيت الأمانة ، وكنت ومازلت نعم النبى لأمّته ، علّمت وأرشدت ، ودعوت إلى التوبة وطريق الخلاص ، وتمسكت بالكتاب بقوة وعزم ، فجزاك الرب عن شعبك خير الجزاء .

نزلت كلمات « يسوع » على صاحبه برداً وسلاماً ، فقال المعمدان :

– لقد عرفت من قديم أنك مسيح الله وكلمته ، وكنت أرقب صامتاً روح القدس تؤيدك ، وتملؤك مجداً ، وعرفت أن أمرك فى زيادة وأمرى فى نقصان ، فشعرت بالراحة الكبرى ، راحة من أكمل رسالته وأدّى أمانته ، وجاء القوى المؤيد من السماء ليحمل عنه كلّ الأعباء ، وليجمع حوله خراف بنى إسرائيل الضالة ليهديها إلى طريق الحق والنور . ولو أحيانى الرب لكنت لك نعم المعين .

– سنصبح معاً مزموراً يتغنى به الأتقياء عبر الأيام .. ستزلزل كلمات الله كلّ عروش الطغيان .. وسيأتى النبى ، المعّزى ، روح الحق ، الذى يبكّت العالم ، ويقيم مملكة الرب على هذه الأرض .. حينئذ سينتصر النور ، وسيشهد لنا ، ويضع للعالم شريعة الرب التى ستبقى حتى يوم الدينونة .. هو الذى سيدين هذا العالم الشرير ، وبه يكتمل الحق كما هو مكتوب منذ الأزل .. أماّ وحتى يأتى النبى فطوبى لمن علم وعلّم .. طوبى لمن عرف طريق الرب واستمع إلى كلمات مسيحه .

.. كان « المعمدان » ينظر إلى وجه صديقه الحبيب ، ويسبح معه فى عالم علوى .. و « يوحنا » الذى لم يره أحد باكياً .. سالت على عينه دمعتان .. وأكمل المسيح :

– هناك فى السماء .. سيكون النعيم الخالد .. هناك سيلتقى الأبرار .. هناك ينتظر آدم ، ونوح ، وإبراهيم ، ويعقوب ، وكل الأنبياء والصحالين .. هناك السلام الأبدى والنعيم السرمدى .. هناك رضوان الرب .. والملائكة يسبحون له ليل نهار لا يفترون .. هناك يكون الفوز العظيم .. لمثل هذا يعمل العقلاء والحكماء .

.. ساد الصمت برهةً بين الصديقين ، ثم نظر يوحنا إلى «يسوع » قائلاً فى تساؤل المشفق :

– يّدعون بأنك تقول : إنك ابن الله

.. نظر إليه يسوع مليّاً ثم قال فى حزن :

– أليس مكتوباً .. أنكم جميعاً أبناء العلّى تُدْعَوْن ؟ .. ماذا أقول لك « يا يوحنا » ؟ .. أنت تعرف هؤلاء أعمياء القلب ! ، ألم أعلّمهم أن يصلّوا ؟ .. أبانا الذى فى السماوات ؟ .. لقد قلت لهم : أنتم تطلبون أن تقتلونى وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله .. لو كنتم

أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم . قالوا : إننا لم نولد من زنا لنا أب واحد هو الله .. وأنت تعلم أنهم يعرّضون بى وبأمّى .. فقلت لهم :.لو كان الله أباكم لكنتم تحبّوننى لأننى خرجت من قبل الله وأتيت .. لأننى لم آتى من نفسى بل الرب هو الذى أرسلنى إليكم ! . قلت لهم : أنتم لا تفهون كلامى ·لأن أباكم هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا .. لقد قلت لهم مراراً : إننى ابن الإنسان ولكن حينما أقول لهم : إننا يجب ألا نتّخذ الشيطان لنا أباً ، بل نكون أبناء الله الصالحين ، يقولون لشرّ قلوبهم : كيف تقول : إنك ابن الله ؟ .. أليس مكتوباً عندهم أنهم جميعاً أبناء العلىّ يدعون ؟ ، ولكن القلوب إذا عميت فكيف تهديها إلى طريق النور ؟ ! لقد قلت لهم : لا تدعو لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد الذى فى السماء .

.. أشفق « المعمدان » على صديقه وما يعانيه من حزن وآلام فقال :

– إذا كانوا فعلوا بى هذا الشرّ . فأى شرّ سيفعلون بك أنت ؟

– لقد كتب الله منذ أن خلق آدم .. أنه ما من رسول يحمل كلماته إلى الناس إلاّ كان عليه أن ينصره ويحميه .. أليس مكتوباً « عظم منه لا يكسر » .. إننى لا أشك فى أن الرب سينقذنى من أيديهم .. ولكن ليس هذا هو الأهم .. فكل أهوال الحياة تهون أمام أهوال القيامة ! . تلك هى الساعة التى ندعو الرب أن ينجينا منها . .

ساد الصمت بينهما لحظة ، وعين « المسيح » ترمق « يوحنا » فى حب .وحنان ، كأنما يحتفظ فى ذاكرته بصورة صديقه العزيز ، فقد لا يراه مرّة ثانية على هذه الأرض .. ربما كان هذا هو لقاء الوداع ، وامتلأ قلب « يسوع » بالرحمة ، وكادت تترقرق فى عينيه الدموع ، ولكنه

حبسهما حتى تهدأ حّدة جيشان العاطفة .. وكان يحيى قد أطرق مفكراً ، فرفع رأسه قائلاً :

– حقاً ستحكى قصّتنا الأجيال ! . لقد جئنا شهوداً على هذا الشعب .. أحدنا نذير منذ مولده ، حصوراً يستأنس بالصحراء .. ثم هذه العذراء تحبل وتلد أبناً .. وهذا ابن الإنسان ينمو فى نعمة الله ، ثم تجرى على يديه المعجزات ، فيحيى الموتى ، ويشفى المرضى ! . ياالها من ملحمة لم يشهد مثلها التاريخ من قبل !! ، ولم يحلم بها حتى الأنبياء .. إيه يا أبناء إسرائيل كم رعاكم الله وأيّدكم بالملوك والأنبياء .. ولكنكم كنتم قليلى الإيمان ، ففريقاً كذّبتم وفريقاً تقتلون .. وكم شهدتم من أمجاد وأنتم تسيرون فى طريق الرب .. أما وقد عمّ الفساد فلا مناص .. وإن تتركوا طريق الرب ، فسيترككم ويلعنكم ، وتنتقل النعمة إلى آخرين ، ثم لا يكونوا مثلكم .. وأنت يا « أورشليم » .. يا مدينة الأنبياء .. ماذا ينتظرك من دمار ؟ !

.. قال المسيح مكملاً ف نبرات هادئة ، عميقة ، فجاءت كلماته كأنها لحن يعزف من بعيد وتتردد أصداؤه فى الكون كلّه :

– السفينة تغرق .. وأنا حبل النجاة .. فطوبى لمن آمن بى وبالذى أرسلنى .. أنا الحق .. أنا الطريق .. أنا الحياة .. طوبى لمن سمع كلمات الله وآمن بها . أماّ الذى يكفرون فلعنة الله عليهم فى الدنيا .. ولعنة كبرى يوم الدينونة حيث يكون البكاء وصرير الأسنان .

.. فقال « المعمدان » بلهجة العابد الورع التقى :

– اللهم اشهد .. إننى آمنت بمسيحك الذى أرسلت ، وصدّقته ، ونصرته ما حييت .. اللهم اجمعنى معه ومع الصالحين فى ملكوتك ، يا جبّار السماوات والأرض ..

.. وتعانق الصديقان طويلاً .. فقد خطر لكلّ منهما ، أن هذا اللقاء ربما كان هو اللقاء الأخير فى هذا العالم .

* * *

..فى نفس الليلة ، بينما « المعمدان » وحيداً فى سجنه ، اقتربت أقدام غليظة من باب القبو ، وفتح الباب ، واقتيد « المعمدان » فى غلظة إلى حجرة أخرى فى آخر الممر بعيداً عن باقى المسجونين .. وفوجىء « المعمدان » بأن الحجرة الجديدة ، قد هيأت فيها كل أسباب الراحة ، حيث فرشت فرشاً وثيراً ، وأضيئت بالشموع ، وعلّقت على حوائطها وبابها الستائر ، ووضع إبريق فضىّ مملوء بالماء ، وصينية عليها أنواع كثيرة من الفاكهة .. واحتار « المعمدان » فى تفسير هذا التغيّر فى المعاملة ، وظنّ أن ذلك ربما يكون نزوة من سفه ذوى الأمر بمناسبة الاحتفالات بمولد « هيرودس » أو ربما تكون هذه أوامر « هيرودس » نفسه ، لعلّه يحاول بذلك استرضاءه ، أو شراءه .

.. ولكن الذى حدث لم يخطر ببال « المعمدان » فبعد ساعات أحسّ بحركة عند الباب ، ثم فتح الباب ، وبدلاً من أن يرى وجوه الجند الذين تعوّد رؤيتهم .. رأى فتاة تبدو كأميرة يحيط بها وصيفتان ، ثم رآها تأمرهما بالابتعاد ، ودخلت عليه وحدها وأغلقت الباب خلفها .. وقد عرف فيها المعمدان وجه الفتاة التى كانت مع « هيروديا » .. لابد إذاً أنها هى ابنتها .. ووقفت الأميرة وقد أسندت ظهرها للباب ، وظلت تنظر « للمعمدان » ، وقد إنتابتها رغبة شيطانية فى إغراء هذا الرجل الذى يشعّ وجهه بالعظمة وبالنور والحياة .. ياله ن رجل مكتمل الرجولة لم تر من قبل له مثيلاً ولا حتى بين الرومان ، إن كل شىء فى تكوين جسده يوحى برجولة متدفقة .. وبدا لها « المعمدان » كحيوان برى جميل ،

واشتعلت فى نفسها نار الرغبة الملتهبة نحوه .. وقررت أن تحصل عليها مهما كلّفها ذلك ، وحتى لو أدى الأمر لأن تستعطفه وترجوه وتقبل قدميه .. وهى متى استعصى عليها رجل أرادته ؟ .. بل هى معبودة كل الرجال .. ولكنها فى هذه اللحظة لا ترى فى العالم إلاّ هذا الرجل .. ولن تهدأ حتى ينتصر سحرها على تمنّعه .. نعم لابد لهذه الصخرة أن تلين !

.. نظر إليها المعمدان نظرة صلبة تخلو من المودّة ، ولكنها تماسكت فقد هيأت نفسها لمثل هذا الموقف .. وسألها المعمدان فى لهجة صارمة :

– أنت « سالومى » ؟

– نعم

.. قالتها « سالومى » بكلّ رقّة وإنكسار ، فياله من سيد نبيل ، وما أسعدها أن تكون جاريته هذه الليلة ! . بل كل الليالى لو أراد .

– ماذا تريدين ؟

– لقد ساءنى أن يسىء هؤلاء الجند الأوغاد معاملة سيّد كريم مثلك إلى هذا الحد .. فمثلك لابد أن تعرف له مكانته ، ويحترم قدره .

– وبعد ؟

– لا شيء ..أردت أن أطمئن على أنك أصبحت فى خير حال .. و .. وقد جئت لأتحدّث معك ، فأنا لم أر رجلاً له مثل علمك وعقلك .. وإنه لشرف لكل يهودىّ أن يكون بينهم يهودى مثلك ! . إننى شديدة الإعجاب بك منذ رأيتك للمرّة الأولى ! . بل أنا أوافقك على كل ما تقول ، ولكن ما حيلتى و « هيروديا » هى أمّى وهى أمرأة مسكينة تعذّبت كثيراً فى حياتها مع أبى .. ولكن مالنا نحن الآن وكل هذا ؟ ، إنما أردت أن اتحدث إليك .. أشعر بأننى أستريح لحديثك ..

كلماتك تنفذ إلى قلبى .. أحببت أن أعرف كل شىء عنك ! من أنت ؟ وماذا تريد ؟

– أنا ! . أنا صوت صارخ فى البريّة ، نذير إلى الناس بين يدى عذاب شديد .. فهذا الشعب الذى حمل شريعة « موسى » فتركها خلفه .. يقف اليوم على عتبة الهاوية ، وعقاب الرب آت لا محالة ، ولن ينجو من الغضب الآتى إلاّ من سلك طريق الرب .

– نعم .. أنت محق فى كل ما تقول ، ولكن هذه شئون الرجال أمثالك .. أمّا أنا فلا أحب أن أتكلّم فى مثل هذه الأمور ، ولكن أحب أن أسألك ، هل شريعتنا تحرّم الحب ؟ أعنى أن يكون للرجل امرأة يحبّها ويسكن إليها ، أليست هذه هى سنّة الحياة ؟

.. ألم يحب أبونا إسرائيل « راحيل » واستعبد نفسه أربعة عشرة عاماً ليتزوجها ؟ .. وموسى ألم يخدم كاهن مديان لكى يزوّجه صفّورة ابنته ؟ .. إذاً فالحب هو شريعة الأنبياء ؟

.

..قالت « سالومى » هذا ، وقد جلست فى مواجهة « المعمدان » ، وقد فاض وجهها بكل معانى التملّق والانكسار الذين يخفيان رغبة عارمة فى صدرها . وأحسّ المعمدان – رغم إعجابه بذكائها – بريح الفتنة تقترب ، وبأن شيطاناً مارداً يتقمص جسد هذه الفتاة اللعوب ، فقال فى حدّة وهو يحسّ كأنه مقبل على منزلق خطر يخاف منه :

– مـــاذا تريديـــن منـــى يـــا امـــرأة ؟

.. أسعد « سالومى » أن يراها امرأة .. فتغلبت على مخاوفها واستمرت فى فحيحها :

– أنت شاب عظيم يحترمك الجميع .. وشباب كثير يتبعك ، فهل تريد أن تحرّم عليهم الزواج وأن ينعموا بالحب ؟ . إن الحب هو نور الحياة وبهجتها ، فلماذا نحرّم على أنفسنا أجمل ما وهبه الله لنا ؟ .. إنه الحب ! . الحب الذى يجمع بين قلبين طاهرين . أننى أعترف لك . لقد أحببتك منذ رأيتك ، حباً ملك علىّ كل قلبى .. لقد وجدت فيك كلّ ما كنت أبحث عنه ! أنت هو من كنت أحلم به ! . أنت فى عينى أجمل وأعظم الرجال ! . أنا على استعداد أن أكون جاريتك إلى الأبد ، وأن أفعل كل ما يرضيك .. يمكننى أن أترك كل ما أنا فيه لأعيش معك .. ..

واقتربت سالومى وقد شجّعها صمت المعمدان وهى تردد :

– أحبك .. أحبك من كل قلبى .. ولا أتمنى سواك

.. وركعت وقد لمست بيدها ساق المعمدان ، فهبّ مذعوراً وهو يصرخ فى وجهها :

– ابتعدى عنى أيتها الشيطانة الخبيثة .. اغربى عن وجهى يا بنت الأفعى .. يا ربيبة السوء والفساد .. اذهبى عنى .. اذهبى ..

.. قفزت سالومى مذعورة نحو الباب ، وقد امتلأ قلبها بالخوف ، وطارت كل شياطين الرغبة المحمومة ، ثم حلّت محلّها شياطين السخط والحقد المرير ، لقد جرح قلبها جرحاً لن يندمل ، فهى لم تعرف مثل هذا الذلّ فى حياتها .. بل هى لا تعرف كيف أذلّت نفسها هكذا لهذا الشقى ، إنها المّرة الأولى التى تطلق لنفسها العنان فتتملق رجلا ترغبه وتريده .. ولكن هذا ليس رجلاً .. ليس إنساناً .. إنه وحش آدمى .. وحينما خرجت على عتبة الباب ، التفتت إليه وقد زال خوفها منه ، ولكن تملكها غضب شيطانى وثورة عارمة كذئب جريح ، فصرخت فى وجهه :

– أنت حيوان .. نعم حيوان وحشى لم يستأنس بعد .. لقد حاولت أن أرفع من قدرك أيها العبد الحقير ، ولكنك حيوان .. حيوان لا تستحق إلاّ ما أنت فيه .. بل لا تستحق أن تعيش .. حيوان شرس .. حقير .. حقير .

.. وجرت « سالومى » مسرعة باكية ، وظهرت الوصيفات ليتبعاها .. أماّ « المعمدان » فقد انكفأ ساجداً باكياً فى صلاة حارة .

* * *

.. إنصرفت أغلب الوفود بعد مراسم الاحتفال التى تقام نهاراً يوم ميلاد « هيرودس » ، ولكن « بنيامين » آثر أن يتخلف ، لكى يحضر حفل الليل الساهر الذى طالما سار ذكره بين الناس ، ويتحدث الناس عماّ يدور فيه كما يتحدثون عن أساطير الخيال .. فهذه فرصة لن يضيعّها « بنيامين » ، إنه يريد أن يرى كل ذلك بعينيه .. وأضىء القصر من الخارج فبدا كنجم ساطع فى ظلام الليل ، أماّ فى الداخل ، فقد كانت الإضاءة شديدة حتى بدا الليل كأنه نهار .. وزينت الموائد بالزهور ، ووزعت أطباق الفضة على الموائد ، واختصت بعض الموائد بالأطباق الذهبية .. وسادت القاعة الفسيحة أصوات الحديث الضاحك المرح ، وحركة الخدم يروحون ويجيئون حاملين ألوان الطعام والشراب ، وقد لبسوا زيّاً موحدًّا مزركشاً جميلاً .. وحملت الجوارى كئوس الخمر توزعها على من يريد مع ابتسامات الدلال المشاغبة ! . إن أى جاريّة منهن ، لو مشت فى « أورشليم » لتعلّقت بها عيون الرجال ، وسال لعابهم .. فياله من نعيم يعيش الليلة فيه « بنيامين » ! . وآه لو حدّثهم عن كثرة الأوانى الذهبية التى تملأ القصر ! . وهذا الخمر المعتق ! يا لمذاقة الفاخر !! إنه حقا خمر الملوك .. كل شىء موجود بوفرة كأنه النعيم ،

فما عليك إلاّ أن تطلب ، طعاما ، أو شرابا ، أو حتى جارية ، فيمكن أن تجد السبيل إلى نيلها ! . وماذا تطلب ؟ .. أنت تطلب أفخر أنواع الطعام والشراب ، وأجمل الجوارى المتراقصات المتغامزات .

.. وقد اصطفى « بنيامين » فى هذه الليلة ، صديقاً على شاكلته ، يميل إلى المتعة والمجون ، ولكنه يختلف عن « بنيامين » فى جرأته وانطلاق لسانه ، فهو يكثر من عبارات الغزل المكشوف ، ومن النكات ، والقفشات المرحة ، والضحكات المجلجلة .. ورغم أنه بدا لبنيامين سوقياً بعض الشيء ، خاصة فى مثل هذا المكان ، إلاّ أنه كان أفضل صاحب يمكن أن يرافقه هذه الليلة .

.. وأخيراً دخل الملك ، وتعالت له الهتافات ، وبدأت مراسم الحفل ، وتتابعت فى نشوة وسعادة تغمر الجميع . وبعد أن رفعت موائد الطعام ، ودارت الكئوس على الحاضرين ، وانقضت ساعات الليل سريعة ، وقد لعبت الخمر بالرءوس ، وانحلّ رباط الحشمة عند السيّدات والجوارى فتمايلن ، وأسندن ظهورهن على صدور الرجال ، وظهرت راقصات شبه عاريات ، تخصّصن فى إلهاب شهوة الرجال بحركات ذات إيحاءات مبتذلة رخيصة ، وصوت الطبول والدفوف والمزامير والمغنيّين ، كلها تزيد من حالة المجون التى سادت القاعة .. وترنح الجميع طرباً ، وهم شبه سكارى ، والتفتت « هيروديا » ناحية ابنتها ، فألفتها تبتسم فى اكتئاب ، فلكزتها عاتبة وهى تقول فى تأنيب :

– مالك تجلسين هكذا ؟ ألا تعرفين أنك محط أنظار كل الشباب ؟

.. كانت « سالومى » قد أخبرت أمّها عن زيارتها « للمعمدان » وما حدث بينهما .. وقد لامتها « هيروديا » على هذه الزيارة ، فكيف

تزور وحشاً آدميا جلفا من الرعاع ؟ رجل عاش كالذئب فى الصحراء ، لم يعرف حياة العزّ والنعيم والقصور ومصاحبة الملوك والأمراء ، وطيّبت خاطرها ووعدتها أن تنتقم من هذا « المعمدان »شر انتقام .. ولكن « سالومى » لم تعد إلى مرحها وانطلاقها منذ تلك الساعة الرهيبة التى قضتها عند المعمدان .. وأرادت هيروديا أن تخرج سالومى من حالتها هذه ، فقالت لها :

– لماذا لا ترقصين بدلا من هذه الجوارى ؟ .. إنك ستفتنين كل الرجال ، وحتى الملك نفسه ..

.. ترددت « سالومى » قليلاً .. ثم هبّت واقفة .. والتفتت الأنظار إليها .. ثم رمت بنعليها وتقدمت على أطراف أصابعها ، وهى ترمق الحاضرين بعينيها الواسعتين ، ذات اليمين وذات اليسار .. وفى رشاقة الجمال الصاخب ، تقدمت بإيقاع إلى وسط القاعة .. وتنحّت الراقصات ، وبقيت « سالومى » وحدها .. وتعالت النغمات مع أصوات المعجبين والمشجّعين .. وبدأت « سالومى » رقصتها الخليعة ، و « هيرودس » فى قمة النشوة ، وقد تعّمدت « سالومى » أن تشعره بأنها ترقص له ، فسلّطت عينيها عليه دائما فى دلال مثير ، وازدادات نشوة « هيرودس » ، فانعكس ذلك على المكان كلّه ، وزادت سرعة الإيقاع ، وزادت حركات « سالومى » عنفاً وإثارة ، وجنّ الحاضرون طرباً ومتعة ، وأكملت « سالومى » رقصتها ، وقد بلغ الهياج أشده ، ثم انسحبت إلى مقعدها بين صيحات تستعطفها أن تستّمر ولو قليلاً .. ونظر إليها « هيرودس » راغباً فى عودتها ، ولكنها كانت تحسّ بأنها قد أشبعت ولم تعد فى حاجة لأن ترقص ثانية ، وناداها « هيرودس » :

– سالومى .. أعيدى .. أعيدى وسأعطيك ما تطلبين .

.. وتمنعت « سالومى » قليلاً .. فأكمل « هيرودس » فى نشوة السكر أمام رفاقه :

– أعيدى يا « سالومى » .. أرقصى لى .. واطلبى ما تشاءين .. ماتشاءين حتى نصف مملكتى ..

.. ونظرت إليها « هيروديا » آمرة إياها أن تعود للرقص ، وكأنها تقول لها قومى فهذه فرصتك التى تنتظرينها .. وقامت « سالومى » ، وعاد الإيقاع الصاخب ، واللذة المحمومة ، تعم الحاضرين ، وقد شدّت إليها الأنظار ، وتعلقت بها النفوس والقلوب ، رغبة وإعجاباً ونشوة ..

.. وأحسّ « بنيامين » كأن سحر الأنثى قد تركز فى هذه الفتاة .. واعتقد بأنه لا يمكن لرجل أن يقاوم مثل هذا السحر ولو كان من الأنبياء .. ان الشهوة لو وضع لها تمثال لكانت « سالومى » .. إن من لا تحرّك رغبته « سالومى » فلا بد أن يكون خصياً أو عنيناً .. لقد أنصف الاغريق والرومان اذ تخيلّوا آلهة للحب والجمال ! . إن « سالومى » هى إلٰهة الشهوة والمتعة ..

.. وانتهت رقصة « سالومى » وانسحبت إلى مقعدها بجوار « هيروديا » .. وضج الجميع بالصياح والتصفيق .. وصاح « هيرودس » منتشياً ، صيحة الملك القادر ، صاحب الدار وصاحب الاحتفال ، وصاحب الليلة كلها :

– سالومى .. اطلبى ما تشائين يا سالومى .

.. ونظرت « سالومى » إلى أمّها فى حيرة ، فهمست « هيروديا » فى صوت خافت كالأفعى :

– رأس « المعمدان » .. فليحضره الآن على طبق ليراه الجميع .. الآن .

.. واستجمعت « سالومى » شجاعتها ، ووقفت منتصبة ، ورفعت صوتها قائلة .

– أريد أن تعطينى الآن رأس يوحنا « المعمدان » على طبق .. الآن .

.. وساد القاعة صمت رهيب ، واشتعل الموقف ، وظهر الضيق فى وجه « هيرودس » ، وعلته صفرة شديدة ، وأحسّ أنه خدع ، وزالت نشوة السكر العارمة ، فكان كمن ألقى عليه دلو ماء بارد ، وأخذت أصابعه تقبض على الوسائد فى تشنج .. وأشفق الحاضرون أن تنقلب ليلتهم المرحة إلى ليلة كئيبة .. وتجّرأ هذا الأمير الشاب العاشق « لسالومى » فرفع صوته ليقطع هذا الصمت المطبق على القاعة ، وهو يقول فى تذلّل :

– لقد وعدت أيها الملك .. فأمرنى أنفّذ مشيئتك .

.. وتجاهل الملك كلام الأمير الأحمق ، ونظر إلى « سالومى » فى شبه توّسل :

– اطلبى شيئاً آخر يا « سالومى » .. أى شىء مهما غلا أعطيه لك .

.. لمحت سالومى فى عينىّ أمها الرفض ، فقال فى تحدٍّ :

– لا أريد سوى رأس «المعمدان » .. والآن حالاً .

.. ونظر الملك فى حنق وحزن نحو الأمير الأحمق ، وأشار بيده ، وكانت إشارته تعنى الموافقة على إتمام هذا الأمر .. وأسرع الأمير خارجاً ، وظلّت « سالومى » واقفة منتصبة فى تحدٍّ تنتظر أن يعودوا اليها برأس المعمدان .. ومرّت اللحظات كئيبة بطيئة .. ورأى « بنيامين » سحنة « سالومى » تنقلب إلى سحنة شيطان خبيث يقف ساخراً من الجميع .. وأراد أن يصرخ فى الملك وفى الجميع ، أن إياكم وهذا الرجل البار .. إنكم بذلك تدمرون « أورشليم » ، بل تدمرون كل أمّة اليهود .. أنتم تستعجلون

غضب الله الآتى كما فعل قوم لوط ! . أنتم لا تعرفون حجم جريمتكم أيها الحمقى .. إنها أكبر جريمة تحدث فى التاريخ .. أنتم تقتلون نبيا . تقتلون رجل الله ، ووارث الشريعة والمدافع عنها ! . لعنة الله عليكم إذا فعلتم هذا ! . لعنة الله عليكم ! لعنة الله عليكم .

.. ولكن صوت « بنيامين » لم يخرج عن صدره .. وأحسّ بأنه مكبّل بقيد من حديد ، وبأن لسانه عاجز عن أن ينطق .. يا لهذا الجبن والضعف الذى تمكن من فؤاده ! . إنه لا يستطيع أن ينطلق فى الفجور مع « سيمون » ، ولا فى الخير مع الأخيار !! سيظل طوال عمره يعيش فى قوقعته ، لا يستطيع أن يشارك فى صنع الحياة من حوله ! . لا . لابد أن يصرخ ، وإلاّ عاش بقية حياته معذّب الضمير .

.. ودخل الأمير يحمل طبقاً من ذهب عليه رأس « المعمدان » بشعره الطويل وعنياه مفتوحتان ، وتقدم مزهواً يحمل إلى سيّدة قلبه « سالومى » رأس النبى .. ولكن « سالومى » أجفلت وتراجعت لتجلس بجوار أمهّا ، وأشارت إليه « هيروديا » أن يبتعد .. أماّ « هيرودس » فقد أشاح بوجهه .. وأحسّ « بنيامين » بقطرات دم المعمدان تسيل على وجهه هو ويديه ، فصرخ .. ولكنها كانت صرخة ضعيفة لم يسمعها إلاّ من حوله ، ووضع كفيّه على وجهه منهزماً كامرأة خائفة ..وساد الوجوم الجميع .. وأشار أصحاب الرأى ، على الأمير الأحمق ، أن ينصرف بما يحمل إلى خارج القاعة ، وفى حركة ذكيّة أمرت « هيروديا » بعودة الإيقاع الصاخب .. ودارت الكئوس على الحاضرين من جديد .. ولكن أى شيء يمكن أن يعيد للحفل بهجته ، وقد حفرت فى رءوس الحاضرين صورة وجه « المعمدان » ورأسه يقطر دماً ؟

.. وأحس « بنيامين » برأسه تدور ، وبجوفه كأنما اشتعلت فيه النار .. وانكفأ يتقيأ كل ما فى جوفه .. وأسرع أحدهم يمسك بكتفيه .. و لم يدر « بنيامين » ماذا حدث بعد ذلك .. وأفاق فى اليوم التالى صباحاً ، أو هكذا تصور « بنيامين » ، ولكنهم أخبروه أنه مغشىّ عليه منذ ثلاثة أيام ، وأنه لم يكف عن الهذيان .. و لم يدر بنيامين بما كان يهذى .. ولكنه أحسّ أن معاملة من حوله تتسم بشىء من الجفاء .. فأسرع بالسفر إلى « أورشليم » .

* * *

اللوحة العاشرة

المسيح فى أورشليم





.. عاد « بنيامين » إلى « أورشليم » مريضاً ، فلازم الفراش .. ولم يكن بنيامين يعانى من أى ألم جسدى ، ولكنه كان يحسّ بالإرهاق الشديد والإعياء ، عازفاً عن الطعام إلاّ ما يتناوله تحت إلحاح « إيزابيل » لكى يقيم أوده ، عازفا عن الخمر ، وزاهداً فى حب زوجته ، أو حب « سيمون » ، أو فى أى فكرة لمتاع الجسد .. وتملّكه إحساس عميق بأنه قد ارتكب ذنباً لا يمكن أن يغتفر أمام السماء ، ولا يمكن أن يرضى عنه ضميره ، فقد سكت وأكبر جرائم العصر ترتكب أمام عينيه ، بل شارك بصمته هذا فى إتمام هذه الجريمة على خير ما يرام ، ودون أدنى منغّصات للمجرمين .

.. وجاء عمه « صموئيل » وحموه « نفثائيل » لزيارته ، وللاطمئنان على أخبار رحلته إلى « هيرودس » ..ولم يستطع بنيامين أن يكتم آلامه عنهما .. فحينما سأله عمّه عن أخبار رحلته ، قال « بنيامين » فى حسرة :

– ليتنى لم أذهب يا عمّاه !

.. أجاب « صموئيل » متعجباً ، وفى لهجة إشفاق :

– ولماذا يا بنى !!

.. لقد علمتم بالطبع ، كيف قتلوا المعمدان ؟

– نعم بلغتنا هذه الأخبار .

– لقد قطعوا رأسه وجاءوا بها أمامنا على طبق .

– إنه منظر بشع ولاشك .. ولكن كثيراً ما يحدث هذا .. ألم تر من قبل شخصاً يرجم ؟

.. وامتلأ صدر « بنيامين » غيظاً لردود عمّه الباردة ، ولوجه حميه الذى يحمل معانى الاحتقار وعدم الإكتراث، بل كأنه فرح لما حدث ! ، فقال بشيء من الحدة :

– كيف تقول هذا يا عمى ؟ .. أكل يوم يقتل نبى ؟ ! . هل أصبح قتل رجل الله شيء غير ذى بال ؟ ! ، ألا تخاف أن يغضب الرب لأننا نقتل أنبياءه ؟ أليست هذه جريمة تستحق عقاب الله ؟

.. فقال « نفثائيل » فى سخرية :

– إن مدن اسرائيل مليئة بالأنبياء .. فما أكثرهم ! ، ولو صدّقنا كل نبى فلن يستقيم لنا أمر .. ولجاء عقاب الرب للشعب كل يوم على استهزائهم بهؤلاء الكذابين .

.. فأجاب « بنيامين » وهو يكتم غيظه فهو غير قادر على إغضاب حميه :

– ولكن الجميع يعرفون أن « المعمدان » ليس كباقى الأنبياء . إنه نبى الله الصادق .

.. ورغم تلطف « بنيامين » فى جوابه ، إلا إن نبرات « نفثائيل » بدأت تحتد ، غير مبال بمرضه :

– يا بنى .. أنت مازلت صغيراً .. وإياك أن تصيبك لوثة « المعمدان » . إن كلماته كلها ضد الناموس ! . إنه يريد أن نقاسم الفقراء أموالنا ! . يريد أن يحكمنا سفلة الناس .. لقد كان يحرّض الشعب على الثورة ! . ويثير حقد الفقراء فيزعم أن لهم حقوقاً فى أموالنا ؛ لكى يستبيحوا سرقتنا ونهب أموالنا وأموال الهيكل ؛ لذلك وجد من العامة آذاناً صاغية لما يقول ؛ لأنه منذ خلق الله هذا العالم ، والفقراء يحقدون على الأغنياء ، والعبيد يكرهون سادتهم ..

.. إنه يدعو إلى الفساد ويلبس رداء الأنبياء .. لذلك كان لابد « لهيرودس » أن يقتله ليقطع دابر هذه الفتنة ، ولو لم يفعل ذلك « هيرودس » لفعله « بيلاطس » ، أو فعله «السنهدريم » .. والآن لتعرف صدق كلامى .. انظر ما فعله تلاميذة ، لقد اعتصموا بأحد الجبال ، وأعلنوا الثورة . فماذا يفعل « هيرودس » أو « بيلاطس » أليس من الضرورى أن يخمد هذه الفتنة ، حتى لا يعمّ شرهّا كل أرض اسرائيل ! . أنت لا تذكر كم عانينا من مثل هذه الفتن والثورات ، إنها كلها حماقات لا يحصد الشعب من ورائها إلاّ الدماء والخراب ! . ان الفتنة إذا اشتعلت تأكل الجميع : شبابا ، ورجالاً ، ونساءاً ، وأطفالاً ! . انها تأخذ المحسن والمسىء .

.. وختم « نفثائيل » كلامه محذّراً :

– استمع يا « بنيامين » أناوعمك ليس لنا أبناء .. وأنت رجلنا الذى نأمل أن ينصلح حاله ، وأن نراك تتبوأ مكاننا فى « أورشليم » .. فدعك من أمثال هؤلاء .. فتلاميذ « المعمدان » سيلاحقون فى كل مكان ؛ لأنهم يحملون أفكار الفتنة .. وأنت أمامك مستقبل طيب ، فلا نحب أن تشوبك شائبة ، ويجب عليك أن تساعدنا فى ذلك ، وأن تهتم بذلك ، وأنت لست مسئولاً عن إصلاح العالم .. أنت يجب أن تهتم بنفسك وبأهلك ! . فمالك أنت وأمثال هؤلاء ؟ ! ، إنها زمرة تجمع كل حاقد وكل أفّاق طموح ، فاحرص أن تبتعد عنهم دائما .

... شعر بنيامين أنه منهزم أمام عمّه وحميه ، ولم يجرؤ على أن يثور فى وجهيهما ، ليقول لهما عمّا يعتمل فى قلبه من أفكار ، فلاينهما حتى انصرفا راضيين عنه .. وخلا هو إلى نفسه حانقاً ساخطاً على ضعفه ، ووجد نفسه يتخيل عمّه « نفثائيل » أمامه فيخاطبه :

– استمع إلىّ أنت أيها الشيطان المتجبّر القلب .. المملوء فساداً وغشاً .. استمع الىّ أيها الرجل الذى يتجرأ على أنبياء الرب ! . حتى متى أنتم يا رؤساء هذا الشعب تتمردون على مشيئة الرب ، وتكذبون أنبياءه ، بل وتقتلونهم .. لقد أعطاكم الله المال والسلطان ، وحمّلكم أمانة فلم تحملوها .. بل كنتم كذئاب جائعة ! . ماذا ستقول للرب أيها الغبى حينما تلقاه ! . بل ماذا ستأخذ معك من هذا العالم وأنت ستدفن وحيداً فى التراب ليس معك إلاّ عملك .. أتقول : إن « المعمدان » كان يسب الكهنة ؟ ! وهل يستحق أمثالكم إلاّ اللعنة ؟

وهل أتى نبى لم يلعنكم يا رؤساء الشعب ، يا أعمياء القلب ؟ .. أنتم ستكونون السبب فى غضب الرب وخراب « أورشليم » ! . أنتم السبب فى كل بلاء ورزايا تحيق بهذه الأمة ! ، أنتم حصون فساد لا يصلحها شىء إلاّ أن تحرق بالنار .. أى نفوس ملتوية تحملون ؟ !! ، وأى قلوب سوداء تملكون ؟ ! .

.. وزاد حديث النفس هذا بنيامين إعياء ، وتمنى أن يموت فى هذه اللحظة حتى يستريح ، وخطر له أن يهرب من « أورشليم » وينضم إلى تلاميذ المعمدان الثائرين ، ليواجه الموت معهم ، ولكنه عرف عن نفسه أنه ليس ذلك الرجل الذى يقبل على الموت بهذه الشجاعة ، إنه رجل سقيم النفس والجسد معاً .

.. فى اليوم التالى جاء إلى « بنيامين » عمّه « صموئيل » وحده ؛ لكى يطمئن على سلامته ، وقد حاول أن يزيل كل إثر سيىء لكلام حميه « نفشائيل » بالأمس ، وكان مما قاله « صموئيل » وعلق فى ذهن « بنيامين » وتعجّب له أيضاً ، قوله :

– يا بنى : إن الزمان قد فسد .. لقد تغيّر الناس وساءت أخلاقهم ، وأصحاب الحكم والسلطان معذورون ، فالرومان يحكمون العالم بالحديد والنار ، ولن يسمحوا أبداً لأمّة اليهود أن تتوحّد أو أن تسعى لنيل حريّتها ، فهم يعلمون أن خروجهم يعنى دخول الفرس مكانهم ، وعلينا نحن اليوم أن نصانعهم ؛ لكى نحافظ على مصالح الشعب .. إننى لم أر أحداً يكره الرومان كما يكرههم عّمك « نفثائيل »، وكذلك « قيافا » وكلّ « أعضاء السنهدريم » ، إلاّ قليلاً ممن لهم مصالح معهم ، ولكن ماذا يمكن أن نفعل سوى أن نظهر لهم المحبّة ! . فالثورة تعنى الفتنة والخراب ! . ومن يدرى ؟ فقد تتغيّر الأيام بعد أجيال ، ويأذن الرّب لشعبنا أن ينهض من جديد ، أماّ اليوم فمن الحماقة أن نتصدى لهذه القوة الجبّارة ، وكل من يقول بالثورة هو خائن مخرّب ؛ لأنه لا يريد خيراً لهذا الشعب .. فهذا الجيل لا ينتظر منه خيراً ، وعلينا أن نصبر ، وأن نحافظ على هيكلنا فهو قلب إسرائيل ، وإذا كان الرب هو الذى يريد هذا لشعبه فماذا يمكننا أن نفعل نحن ؟ ! هذه مشيئته ، وعلينا نحن أن نهتم بما يصلح لنا أمر معيشتنا وحياتنا ..

* * *

.. بينما كان « بنيامين » ينام طريح الفراش ، وتنهبه الوساوس فى بيته « بأورشليم » ، يعانى من التمزّق والضياع .. كانت ريح التغيير قد بدأت تهب على كل مدن إسرائيل ، هذه الريح التى ستشتد فيما بعد ، وتعبر إلى الإمبراطورية الرومانية نفسها ، بل وأجزاء أخرى من العالم .

.. ففى غفلة من المدن اليهودية التى أغلقت على الجهل والرياء والفساد ، وساد فيها الذئاب الذين يتسلطون على الناس ، أما بالمال والجاه ، أو بالتمسك بمظاهر جوفاء لشريعة لم يدركوا منها إلاّ القشور ،

وقد غفلوا عن روحها الخلاّق ، وفى غفلة من قوى الشرّ المتربصة بكل إصلاح .. بدأ المسيح دعوته .. رحلة قصيرة فى عمر الزمن ، طويلة فى عمر التاريخ ! ، ينتقل من قرية إلى قرية ، ومن مدينة إلى أخرى .. مدفوعاً بروح قويّة لا تفتر .. يجمع من حطام اليهود ، قلوب يشعل بها ناراً تضىء العالم .. ويجمع أطفال العائلة الأبرياء قبل أن يتحطم البيت فوقهم عماّ قريب ، لينقذهم من العقاب على جريمة هم برءاء منها .

.. بدأ المسيح ترحالاً لم يتوقف حتى أدركته منيّته ، يسيح فى الأرض شمالاً وجنوباً ، وشرقاً وغرباً ، حيثما كان يهود فهو يذهب إليهم .. رحلة بلا نهاية ، ومسافر بلا متاع ، وملك بلا مملكة ، إلاّ على القلوب والأرواح .. يعزف فى تجواله مزمزر الحب والنور والحياة ويبعث الأمل فى قلوب منكسرة ، حطمتها تصاريف الأيام وظلم الناس ، ويبشر المحزونين بملكوت الله ، الذى سيقوم فى هذا العالم ، ولن ينتزع حتى يوم الدينونة .

.. بدأ « المسيح » يؤسس دعوته ، التى سيكتب لها أن تدكّ عروشاً ، وتقلب العالم ، وتغيّر مجرى التاريخ الدافق .. وكان لابد لهذا العملاق الذى سيغيّر وجه الحياة بكلماته المشحونة بطاقات الحياة المتجددة ، من أن يختار له صفوة من التلاميذ ، ينفذ من خلالهم إلى العالم ، كما يتدفق ماء النهر العظيم إلى فروع أصغر ، فأصغر ، حتى تصل مياهه إلى الأرض العطشى فترويها .. وقد أدرك المسيح منذ البداية ، أنه لا يبحث عن رجال ذوى مواهب وكفايات متعددة ؛ لأن هؤلاء ترفعهم مواهبهم عن الالتحام بجماهير الناس ، وتنزع بهم إلى عوالم الفكر والمثالية والخيال .. ولا يبحث عن رجال تنشأ قواهم العقلية من اتساع العقل أو كثرة المعرفة .. ولكنه كان يبحث عن رجال ترجع قوتهم إلى نفاذ

البصيرة ، وقوة الشعور ، والإخلاص ، رجال قادرين على الالتحام بالحياة وتحمّل أعبائها وآلامها بقوة وشجاعة وواقعية ..

.. واختار « يسوع » ، يعقوب ، ويوحنا أولاد زبدى صديق العائلة القديم ، فعند بحر الجليل حيث كان يعقوب ويوحنا مع أبيهما يباشران أعمال الصيد ، أقبل عليهما « يسوع » ، فتركا شباكهما وأقبلا عليه مرّحبين فى شوق ، وقد لاحظا تغيّراً فى سمته ونظراته وحديثه ، فأدركا أن هناك أمراً هاماً وراء زيارته هذه ، وجاءت إليهما كلمات المسيح هادئة عميقة ، لتعلن لهما أن صفحة حياة قد انطوت ، وأن صفحة جديدة قد بدأت ، وأن أنواراً من مكان علوى قد هبطت لتنير لهما الطريق .. وأرهف الأخوان أسماعهما وتعلق قلباهما بشفتى المسيح ، صديقهم الحبيب ، وهو يعلن لهما أن روح القدس قد هبطت عليه ، وأنه قد أرسل رسولاً من قبل الله الى شعب إسرائيل .. وآمن الاخوان بلا تردد ، وصدقّاه فى كل ما قاله .. وحينما حضر صديقاه : « سمعان ، وأخاه « أندراوس » ، كلّمهما المسيح بما كلّم به أولاد زبدى فآمنا به وصدّقاه أيضا ، وجاء صيّاد آخر صديق لهم يدعى « فيليبس » فآمن كما آمنوا .. وجلس المسيح مع الذين آمنوا به أولاً ليعلمهم كيف يصطادون الرجال ليقودوهم إلى حظيرة الرب .. واختار المسيح سبعة آخرين هم : متى العشار ، وتوما ، ويهوذا الإسخريوطى ، وسمعان القانوى ، وبرثولماس ، ويعقوب بن حلفى ، وتدّاوس ، وقد أعلن المسيح لحوارييه ، بأنه قد هجر إلى غير رجعة الحياة الدافئة إلى حياة الجهاد ؛ لأنه يحمل اليوم رسالة السماء ، ورسالة السماء لابد أن تصل إلى أهل الأرض لتتحقق مشيئة الرب ، وأنه قد ترك كل شىء وراءه سائحاً بين البلدان فى رحلة لن تتوقف حتى تكون النهاية ، وهو يحتاج إلى أن يكونوا

معه حيثما يكون ، وأن يذهبوا معه أينما ذهب ، ليستمر بينهم الحوار ، وليعلّمهم ما علّم من حكمة ، حتى يكونوا أهلاً لقيادة هذه الدعوة ، فعلى أكتافهم ستقوم ، وبهم ستنتشر ، وعلى أيديهم ستنتصر

.. وبايع الجميع على السمع والطاعة والايمان .

.. كان هؤلاء الرجال ، هم الصفوة المختارة من أتباع المسيح ، وقد ملأ قلوبهم بالحكمة التى فاض بها قلبه ، فكانوا يتبعونه أينما سار ، ويناقشونه ويسألونه عماّ خفى عليهم ، وينقل هو إليهم تعاليمه بسلوكه ومعاملاته وتصرّفاته ، إزاء مشاكل الحياة اليومية صغيرها وكبيرها ، ويضرب لهم الأمثال ليوضّح لهم ما صعب فهمه .. ثم كان هناك بعد هؤلاء الاثنى عشر ، عشرات الأتباع المقرّبين الذين أطلق عليهم التلاميذ .. ومن بين هؤلاء التلاميذ كان « إيليا » صديق « بنيامين » .

.. كان إيليا قد ترك « أورشليم » ، وقطع ما يصله بها ، وذهب ليتبع المسيح .. ولقد راقب « إيليا » تغيّراً مستمراً فى داخله بنشوة وسعادة كبيرة ، فمنذ لقائه بالمسيح ، أحسّ بأنه قد انتقل إلى عالم رحب فسيح ، عالم تغمره السعادة الروحيّة الصافية .. لقد تخلّص من قصص الحب التى طالما عذّبت قلبه وأشعرته بالذل والهوان ! . لقد كان يبحث دائماً عن قلب كبير يغذّى قلبه بالأمل والطهر والحياة ! . إن قلوب من عرفهم جميعاً كانت دائما ضيقّة عكرة ، لم يستطع أن يفرغ فيها كل ما يجيش فى قلبه من عواطف نبيلة .. ولقد وجد فى كلمات المسيح حكمة الحياة ، وباب السعادة الحقيقية بمعينها الذى لا ينضب ! ، لقد كان كمن يدور فى ساقية وقد عميّت عيناه فهو عبد لشهواته ، ومخاوفه من الحاضر والمستقبل ، ولكنه اليوم قد تحرّر من كل قيود الأرض .. وظلّ يردّد كلمات « يسوع » :

« لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون ، ولا للجسد بما تلبسون .. فالحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس .. تأمّلوا الطيور لا تزرع ولا تحصد وليس لها مخدع ولا مخزن ، والله يرزقها بما يقيتها ! كم أنتم بالحرىّ أفضل من الطيور ، ومن منكم – إذا اهتمّ – يقدر أن يزيد قامته ذراعاً واحداً .. تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو ، لا تتعب ولا تغزل ، ولكن أقول لكم : إنه ولا « سليمان » فى كل مجده كان يلبس كواحدة منها .. فإذا كان العشب الذى يوجد اليوم فى الحقل ويطرح غداً فى التنور يلبسه الله هكذا ، فكم بالحرى يلبسكم أنتم يا قليلى الإيمان ! ، فلا تطلبوا أنتم ما تأكلون وما تشربون ، ولا تقلقوا ؛ فإن هذه كلها تطلبها أمم العالم .. وأماّ أنتم فأبوكم يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه فهو يرزقكم .. اطلبوا ملكوت الله وهذه كلها تزاد لكم .. »

.. ما أجملها من كلمات يا « إيليا » .. لقد فتّحت كلمات المسيح فى قلبه آفاقاً كانت مغلقة فيما مضى من حياته ، وأضاءت نوراً بدّد ظلاماً رتّعت فيه نفسه طويلاً .. وأحسّ بجمال الكون والحياة من حوله .. وتذكر كيف كان فى طفولته يجرى بين الحقول ليشاهد الفراشات الملوّنة ، فإذا أمسك بإحداها تأملها فى إعجاب شديد ، وكيف كانت تسعده ثمرات يلتقطها من تحت النخيل ، أو سمكة يصطادها مع رفاقه ويشوونها بالنار ليلتهموها فى لّذة مملوءة بالسعادة ! . وكيف كانت تفرحه الألوان الزاهية والطيور المغرّدة ! . لقد بدأ الآن يحسّ من جديد بما فى الطبيعة من جمال وروعة ، ويطرب لتغريد البلابل ، وشدو الكروان ، وزقزقة العصافير ، وهديل الحمام ، وحفيف الأشجار ، ورقة النسيم ، وجمال السماء بما فيها من سحب بيضاء وصفاء فى النهار ، أو بما يتلألأ فيها ليلاً من نجوم وكواكب .. وعرف لذّة الطعام

بعد يوم ملىء بالسعى بين القرى المترامية فى أحضان الطبيعة المشرقة ، ولذّة النوم بعد حياة مليئة بحركة دائبة طوال النهار ، وصلوات كثيرة طوال الليل ! .

... وكانت أكثر كلمات المسيح تأثيراً على قلب « إيليا » ، هى كلمة [أباكم] الذى فى السماوات ؛ فقد عرف « إيليا » الرب دائما كقوة جبّارة يذعن لها فى خضوع ، أو يعصاها فى خوف .. ولكنه أحسّ اليوم بالرب أباً شفيقاً رحيماً ، يعطف على آلامه وأحزانه ، ويسعد بأفراحه وانتصاراته على نفسه ، بل هو حقاً أرحم من أمّ على صغيرها .. وأحسّ بأن أباه يرعاه ليل نهار ، فكلمة [أباكم] جعلته يغرق فى محبّة الله ، فأحب الطبيعة ، وأحب الناس وأحب الحياة وأحب كل ما حوله ، وأحسّ بأن كل يوم جديد يشرق عليه هو عطية الرب الذى يستحق الشكر عليها ، وأصبح « لإيليا » نفس شاعرية مرهفة ، تحسّ الجمال فى كل شىء : وتملكه شعور بأنه يعيش فى كنف أبيه الذى بيده أمر كل شىء فى هذا الوجود ، فهو فى أمن ورضا وسعادة لم يشعر بها فى حياته من قبل .. لقد كانت سعادته الذليلة من قبل يستمدّها من نظرات الحب الممزوج بالشفة من أصحابه ؛ لذلك كان يحرص دائما على إرضائهم وإضحاكهم ، ولكنه اليوم لا يهتم كثيراً أن يحبه الناس أو يكرهوه ، فقد أصبح مكتفيا بحب الله وبحب مسيحه ، لقد أصبح اليوم كقلعة حصينة عندها ما يكفيها من كل شىء .

.. وها هى ذى الأيام تدور « بإيليا » ليعود إلى « أورشليم » ، لقد جاء اليوم ليعّد لاستقبال « يسوع » ، وحينما توجّه إلى بيت صديقه « بنيامين » وجده مريضاً طريح الفراش .. وكم كانت سعادة « بنيامين » برؤيته « إيليا » ، فأخيراً وجد شخصاً يمكن أن يبثّه همومه ،ويحكى له

عن خواطره وأفكاره ، فطفق يحكى له عن كل ما مرّ به منذ فراقهما . حكى له كيف قبض عليه بسبب « ديماس » ، وكيف تدخّل حموه لإنقاذه ، وحكى له عن زيارته « لهيرودس » ، وعماً رأى أمام عينيه من قتل « للمعمدان » ، وأطنب فى استفاضة وهو يقص عليه ما حدث ، وما شعر به وكيف مرض ؛ كأنما ليبرىء نفسه أمام « إيليا » ، مخافة أن يشك أنه راض عن هذه الجريمة . وتأثر « إيليا » كثيراً مما حكاه « بنيامين » ، وعندما أدرك ما يعانيه « بنيامين » من تأنيب للضمير ، قال له مهدئا :

– وما ذنبك أنت ؟ .. لقد أنكرت ذلك بقلبك .. وهذا حال المستضعفين ، وهل كان يمكن أن تفعل غير ذلك ؟ .. لقد بلغنا هذا النبأ فى ذلك الوقت فوقع علينا كالصاعقة .

.. فقال « بنيامين » فى اهتمام شديد :

– وماذا كان وقع الخبر على « يسوع » .. إنه ابن خالته أليس كذلك ؟

– نعم .. لقد حزن عليه حزناً شديداً . وبكى النساء كثيراً على يوحنا لماّ رأوا حزن « يسوع » عليه ، فقال لهم : إبكوا على من لم تلد النساء مثله .. ابكوا فعلى مثل هذا يبكى الرجال وتنوح النساء .

– وماذا يرى « يسوع » فى « المعمدان » ؟

– ماذا تقصد ؟

– أنتم تقولون عن « يسوع » إنه هو المسيح ، فمن يكون « المعمدان » ؟ أهو النبى أم إيليا ؟ أليس من المفروض كما تقول أن يأتى إيليا قبل مجىء المسيح ؟

– المعمدان هو إيليا الذى ننتظره .. فالنبوءات كالرؤيا ، تحتاج

إلى تفسير وإلى تأويل .. وحينما قالت النبوءات بمجيء « إيليا » فهذا لا يعنى أن « إيليا » سيقوم ثانيةً من الأموات ، ولكن تعنى بأن رجلاً كإيليا سيأتى ، رجلاً يشبهه ، فالمعمدان جاء بروح « إيليا » .. ولكن الناس لم يعرفوه لشرّهم ، كما هم لا يعرفون المسيح الآن وهو بينهم .

– إذا كان المعمدان هو « إيليا » ، وصاحبك هو « المسيح » .. أفلم يكن واجباً عليه أن ينتقم لمقتل « المعمدان » ، وأنت تقول : إنه يملك قدرات كبيرة ويفعل كل هذه المعجزات ، على الأقل كان يمكنه أن يصيب « هيرودس » بالعمى أو البرص أو الشلل .

– القضية يا « بنيامين » أكبر من الانتقام لمقتل « المعمدان » ؟

– كيف ؟ وهل هناك جريمة يمكن أن ترتكب أكبر من هذه الجريمة ؟ !

– القضية أن يوحنا كان آخر أنبياء بنى إسرائيل الذين توارثوا الكتب والناموس والشريعة ،فبقتله ، قد قتل الوارث ، فستتبدد التركة .. لقد حكم « هيرودس » ليس بقتل « المعمدان » فقط بل بنهاية هذه الأمّة .

– هل قال لكم يسوع ذلك ؟

– لقد ضرب لنا مثالاً .. عن انسان كان عنده مزرعة قد هيأها من كل شيء وأحاطها بسياج وغرس فيها كرماً ، ثم سلمها لكرّامين .. وحين الحصاد أرسل عبيده للكرّامين ، فكلّما جاءهم عبد يطلب ثمار سيّده ، جلدوه أو قتلوه ، فأرسل إليهم إبنه الحبيب لعلّهم يهابونه ، ولكنهم قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث ، فهلموا نقتله ونأخذ ميراثه .. فمتى جاء صاحب الكرم ترى ماذا يفعل بهم بعد أن فعلوا كل ذلك ؟ .. فقلنا للمسيح : حقّ له أن يهلكهم ويأخذ الكرم ويسلّمه إلى كرّامين

آخرين يعطونه الثمار فى أوقاتها .. فقال المسيح : لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله ينزع من هذه الأمّة ويعطى لأمّة أخرى تحفظ أثماره .

– أكان يعنى أن الناموس والشريعة ستنزع من أمتنا وتعطى لأمّة أخرى ؟ !

– نعم ستنزل شريعة جديدة على أمّة أخرى ، وتبقى فى العالم حتى يوم الدينونه .

– ماذا تقول ؟ ! هل هذا هو ما فهمته أنت ! . أم هذا ما قاله يسوع بوضوح ؟

– سأحاول أن أتذكر كلمات يسوع كما قالها .. وكلهاتؤكد ما أقول .. قال لنا يوماً « .. كان الناموس والأنبياء إلى « يوحنا » .. » . ففهمنا أن يوحنا هو آخر أنبيائنا .. وأنت تعلم كما سألتنى الآن ، أننا كنّا ننتظر « إيليا والمسيح والنبى » ، « فيوحنا » هو « إيليا » ، و« يسوع » هو « المسيح » ، فمن النبى ؟ .. لقد تحدّث عنه المسيح كثيرا وبشّر به ، قال مرّة « .. إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى . وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزياً آخر ، يمكث معكم إلى الأبد .. » .. وقال عنه أيضاً « وأماّ متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم .. »

– إن لم تكن أنت قد نسيت أو لم تفهم ما قال « يسوع » .. فإن صاحبك هذا يجدّف .. فالناموس إنما يحمل كلمات الله ،وكلمات الله لا يمكن أن تزول من هذا العالم .

– ومن قال ذلك ؟ ! . إن المسيح يقول « .. زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس .. لا يزول حرف واحد . حتى يكون الكلّ .. »

– فكيف تقول : إن النبى سيأتى بناموس آخر ؟

– ألم يكن قبل موسى أنبياء يحملون ناموساً لأممهم ؟ .. لعلّ النبى سيأتى بناموس أكمل وأشمل ويتضمن كذلك كل الوصايا .

– إن هذا تجديف .. كيف يأتى ناموس أكمل من ناموس ؟ ! أليست كلها كلمات الله ؟ !

– يا أخى .. ألم يكن فى شرائع من قبلنا أن الرجل يتزوج من أخته مثلاً .. ثم حرّم ذلك ! ، إن كل أمّة لها شريعة تناسبها .. والمسيح يقول « ماجئت لأنقص الناموس بل لأكمل ، فإنى الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد من الناموس حتى يكون الكلّ .. » فما الذى يمنع أن يكتمل الناموس ليناسب أحوال العالم ؟ ! .. لقد أحلّ لنا المسيح أشياء كانت قد حرّمت علينا ، وحرّم أشياء أخرى .

– والناموس الجديد الذى سيأتى به النبى هو الذى سيبقى إلى الأبد ؟

– نعم هذا ما فهمته .. ألم يقل المسيح حتىٰ يكون الكلّ ؟

– إذاً فأنت تناقض نفسك .. فكيف تقول : إن النعمة ستنتهى من هذه الأمة ، ثم تقول : إن النبى سيأتى لها بناموس يبقى معها إلى الأبد ؟

– ومن قال : إن النبى سيأتى لهذه الأمّة ؟

– ومن ينتظر النبى غيرنا .. ألم تقل النبوءات : أن المسيح سيأتى و « إيليا » والنبى ؟

– ألم يقل « موسى » لبنى إسرائيل : نبيّاً مثلى سيقيم لكم الرب إلٰهكم من إخوتكم له تسمعون .

– من إخوتكم !! .. ومن إخوتهم هؤلاء ؟ .. أليست هذه الأرض والناموس وكلمات الله كلها قد جعلت ميراثاً لأبناء إبراهيم .. أم تنكر هذا أيضا ؟

– ومن هم أبناء إبراهيم ؟

– نحن أبناء إبراهيم .. وهل هناك غيرنا ؟

– لقد غفلت عن أمور كثيرة .. ألم يكن « لوط » كأخ « لأبراهيم » ؟ وقد أعطى الله لأبنائه أرض «موآب » ميراثاً فلماذا لا يخرج منهم النبى ؟ .. بل دعك من لوط .. ألم يكن « إسماعيل » مثل « إسحق » إبنا « لإبراهيم » ، وقد قال الله لهاجر سأجعل ابنك أمّة عظيمة ، وقد جعل لهم بلاد العرب ميراثا ، فلماذا لا يكون منهم النبى ، لتتحقق كلمات الله وتصبح أمّتهم أمّة عظيمة ؟ .. ثم ألم يكن « عيسّو » أخاً لأبينا يعقوب ؟ وألم يقل الرب « .. لعيسّو قد أعطيت جبل سعير ميراثا .. » فلماذا لا يكون النبى من أبناء عيسّو ؟ لماذا تعتبر أنت أن أبناء يعقوب هم فقط أبناء إبراهيم ؟

... لأول مرّة يحسّ « بنيامين » فى نقاشه مع « إيليا » ، بأنه يقف موقف التلميذ ، والذى أدهش بنيامين من نفسه ، أنه لم يشعر بالضيق لذلك ، « فإيليا » أصبح اليوم شخصاً يختلف تماماً عمّا كان عليه فى الماضى ، و« بنيامين » سعيد بهذا .. ورغم أنه لم يقتنع تماماًبما قاله « إيليا » إلاّ أنه وجد فى كلامه شيئاً جديداً يستحق التفكير والتأمل ، وتشوّق « بنيامين » لرؤية « المسيح » وتمنّى أن يراه وأن يجلس ليستمع إليه ويناقشه .

* * *

.. فى الصباح مرّ إيليا على « بنيامين » ، الذى كان مازال نائماً ، ولكن « إيليا » طلب إيقاظه ، وأقنعه بأن يخرج معه ليكونا فى استقبال المسيح ، وخرجا سوياً سيراً على الأقدام ، حتى اجتازا بوابة « أورشليم » ، وبعد أن ابتعدا قليلاً فى اتجاه جبل الزيتون ، رأى « بنيامين » رجلاً يصيح ، وقد اجتمع حوله بعض الشباب ، وحينما اقترب منه وسمع صوته عرفه ، فلم يكن هذا الرجل الذى يصرخ فيمن حوله سوى « زوبولون الأبرص » .. اقترب « بنيامين » و « إيليا » أكثر من الرجل ليسمعا ما يقول ، ولكنهما لم يفهما تماماً ماذا يقصد بكلماته التى تشبه الهذيان ، وقد كان الشباب الواقف حوله يضحك ويسخر منه ! ، كان « زوبولون » يتكلم ويصيح وهو ينظر إلى السماء كأنه يحادث شخصاً مختفياً وراء السحاب :

– أنا « زوبولون » .. أنا وحيد الرب وفريده .. ليس لى مثيل فى هذا الكون .. أنا أعظم من كل الرسل والأنبياء والملائكة .. لم تصنع يد الرب أحداً ولا خلقاً مثلى أبداً .

.. قال له أحد الشباب مستفزاً :

– ولكن أبانا إبراهيم أليس هو أعظم منك ؟

.. فأجابه « زوبولون » وقد احمرّ وجهه وجحظت عيناه غضباً :

– أنت لست سوى حمار .. من إبراهيم هذا ؟ إبراهيم لم يكن سوى عبد يفعل ما يؤمر به ، فالرب يقول له افعل كذا يا إبراهيم ، فيفعل ، أولا تفعل كذا يا إبراهيم فلا يفعل .. ولكن أى فضل فى هذا له .. إنه فقط عبد مطيع .. ولكن هل عانى إبراهيم وتحمّل مثل ما تحمّلت أنا ؟ ! ، لقد كان إبراهيم متزوجا من زوجة جميلة ، وعنده جوارٍ ، وأغنام وأموال ! ،.. ثم ماذا ! ألأنه دخل النار ثم خرج منها ماشياً لم

يمسسه سوء ؟ ، وهل هذه هى العظمة ؟ إن أى حيوان يمكن أن يدخل النار ويخرج ماشياً بمشيئة الرب .

.. وهنا ضجّ الواقفون بالضحك من قلوبهم .. وابتسم « بنيامين » مجبراً وهو يكتم ضحكه ، أماّ « إيليا » فلأنه لم يعرف « زوبولون » من قبل ، فقد كانت ابتسامته حزينة .. ثم سأله نفس الشاب والذى يبدو أنه يعرفه من قبل ، وأنه يتعمد استفزازه ليضحك مع أصحابه :

– ولكن الجميع يعرفون أن « موسى » هو أعظم الأنبياء . فما رأيك فى هذا ؟

– ألم أقل لك إنك حمار .. موسى هذا ليس سوى ثور يرعى فى حقل الرب .. الرب يقول له : اضرب هذا أو إلكز هذا . خذ هذه العصا فاضرب بها البحر ، أو ألق بها تصبح حيّة . أعطنى مثل هذه العصا وأنا أقف فى وجه العالم كلّه . لو كانت معى مثل لهذه العصا ما هربت مثلة من أمام فرعون .. كل أنبياؤكم لا يساون قطعة من الصخر .

.. وصاح أحد الشباب ، وقد رأى أن ثورة « زوبولون » بدأت تفتر ، فأراد أن يشعلها من جديد :

– ألعلّك تريد أن تقول : إنك أعظم كذلك من « داود وسليمان » ؟ !

– داود من يا أحمق ؟ .. أليس هذا الذى كان عنده تسع وتسعون زوجة ولكنه طمع فى زوجة أحد الجند ؟ .. ومن «سليمان » هذا .. كان يأكل كل يوم خروفاً مشوياً ثم يتسكع بين زوجاته والجوارى .. أى حمار يمكنه أن يكون مثل « سليمان » .. كلّ هؤلاء لا يساوون التراب الذى أمشى عليه ! ، أنا وحيد الرب الذى سيأتى إلى هذا العالم

تحفّه الملائكة ، ويسير خلفه كل الأنبياء ، ويخدمه كل الملوك .. أنا « زوبولون » .. أنا « زوبولون الأبرص » الذى سيأتى ومعه المجد من السماء .. كل الأنبياء هم خدم « لزوبولون » لأنهم عبيد الرب ، أمّا أنا فإبنه الحبيب ، أنا الذى تحمّلت كل المآسى والآلام التى لا يستطيع

بشر أن يتحملها ! . هل يستطيع إبراهيم أو موسى هذا أن يتحمل مثل حياتى هذه يوماً واحداً ! .. هل يستطيع أن يبيت بين القبور ويأكل من المزابل مثلى ! كلهم لا يستحقون أكثر من أن يكونوا خدماً لى .

.. كان « زوبولون »قد ظهر عليه التشنج والهياج ، فغاضت الابتسامة من وجوه مستعميه ، وانقسموا بين لاعن له ومشفق عليه .. وأراد هذا الشاب أن يعيد البسمة إلى شفاه رفاقه ، فقال له مازحاً :

– لو كنت حقاً بهذه المكانة ، فلماذا لا تشفى نفسك من البرص ؟

.. وهاج « زوبولون » ، وانحنى يبحث عن حجر يضرب به هذا الشاب ، الذى فرّ من أمامه هارباً ، وانفض الشباب من حوله ضاحكين .. وأشفق « بنيامين » على « زوبولون » ، فاقترب منه وقال له محاولاً أن يهدئ من روعه :

– كيف حالك يا « زوبولون » ؟ .. ألا تعرفنى ؟ أنا « بنيامين » .

.. نظر إليه « زوبولون » ومازالت حالة العظمة التى هو فيها تتملكه ، واقترب منه ثم وضع يده على كتف « بنيامين » وقال بلهجة الكبراء وهو يربت على كتفه :

– نعم . نعم .. كيف حالك يا « بنيامين » ؟

.. كان « بنيامين » قد اعتاد أن يسمعه يناديه « يا سيد بنيامين .. » .. ولكنه قبل منه ذلك لاعتقاده بأنه قد أصابته لوثة ، وقال مجيباً « زوبولون » :

– نحمد الرب .. وأنت كيف حالك يا « زوبولون » ؟

– أنا .. أنا أسعد رجل فى هذا العالم .. كل هؤلاء الناس ليسوا سوى حيوانات ! .. أنا أعيش بين قطيع من الحيوانات !! .

.. لم يكن وجه « زوبولون » يحمل معانى السعادة التى يدّعيها ، بل كلّ معانى الشقاء ، ولكن « بنيامين » تجاهل ذلك وقال مجاملاً :

– حسن'' .. حسن'' .. أراك بصحة جيدة ، نشكر الرب .

– وماذا تعرف عن صحتى ؟ .. أنت تعيش فى النعيم .. أما أنا فلا تدرى .. بل أتحداك أن تفهم أو تدرك كيف أعيش .. الثعالب والثعابين لها بيوت تعيش فيها ، فهى تخرج تبحث عن طعامها ثم تعود إلى بيتها لتجد الراحة ، والزوجة والأولاد ، أماّ أنا فأعيش فى الخلاء .. أنت لا تصدّق .. أنا أنام تحت السماء .. لقد تحمّلت ما لايقدر أن يتحمله كل الأنبياء .. موسى هذا كان يذبح الثور ويأكله وحده أو مع أصدقائه ، ماذا عانى موسى ؟ لا شىء .. هل عرف الجوع مثلى ؟

كان « إيليا » ينظر اليه فى حزن ، أما « بنيامين » فقد أشفق أن يعاوده الهياج الشديد الذى انتابه منذ قليل ، لذلك فقد أسرع وأخرج من جيبه عدّة شواقل وأعطاها « لزوبولون » ، فلما أحسّ بها فى يده هدأت نفسه ، وأراد أن ينصرف ، ولكن « إيليا » قال له بتودّد :

– لماذا لا تبقى معنا قليلاً ، لكى نسعد بصحبتك ؟

.. ولكن « زوبولون » ذهب يبحث عن طعام يشتريه ، ووعد بأن يعود بعد قليل إليهما .. وعاد فعلاً بعد قليل فوجدهما مازالا واقفين ، فسألهما :

– لماذا تقفان هكذا؟ ! هل تنتظران أحداً ؟ !

.. فقال له « إيليا » :

– نعم .. نحن ننتظر المسيح .. هل تعرف المسيح الذى ينتظره اليهود ؟ .. إنه سيأتى الآن .. فهل تصدق هذا ؟ أعتقد أنك حينما ستراه ستؤمن به .

– المسيح ؟ .. ومن قال لكم : إنه هو المسيح ؟ أهو الذى يقول ذلك عن نفسه ؟

– كلاّ .. ولكنه يقوم بالمعجزات .. وأنت لابد قد سمعت عنه ، إنه يشفى الأبرص وقد أقام أمواتا وردّهم للحياة ، وجعل الأعمى يبصر ، وهو يعرف كل شيء عنك حينما يراك ، إنه يمكن أن يخبرك بكل ماتفعل ، أو بما تخبّئه فى بيتك .. إذا نظر إليك فهو يرى ماضيك ، وحاضرك ، ومستقبلك ، ويعرف فيما تفكر أيضا .

.. سكت « زوبولون » ، وفكر فى أن يتركهم ويذهب ،ولكنه خجل من « بنيامين » الذى كان كريماً معه ، فوقف يفكر فى أمر المسيح هذا .. لقد سمع عنه من قبل ولكنه لم يصدّق ما سمعه ، ولكن هل هو المسيح حقاً ، وماذا يعنيه هو ؟ هل يريد أن يشفيه من برصه ؟ .. أو بعد كل هذه السنين يكون كل عزاؤه أن يشفى من برصه ؟ وماذا يجديه الآن ذلك ، وقد فقد كل الأحبة والأصدقاء ، وقد عرفه الجميع أبرصاً نجساً مجنوناً ؟ .. لا : إنه يفضّل أن يعيش بقية حياته هكذا بعيداً عن هذه الوحوش الآدمية .. ثم هل يقبل أن يطّلع أحد على أسراره حتى ولو كان هو المسيح نفسه ؟ لا .. لقد اعتاد « زوبولون » أن يدفن

ذكرياته وأسراره فى كهف عميق لا يراه أحد ، فلماذا يأتى المسيح اليوم ليطّلع على خطاياه التى لا يعرفها إلاّ الرب .. لا ليس من حق أحد حتى لو كان المسيح أن يعرف ذلك . ليس من حق أحد إلاّ الرب أن يعرف خطاياه .

.. وبينما « زوبولون » ذاهل مع أفكاره ، كان موكب المسيح قد اقترب .. وسمع تحيات الناس ودعواتهم ، ورأى رجلاً عليه هالة من نور يضىء بها وجهه ، وأدرك أن هذا هو المسيح الذى يتكلمون عنه ، ونظر إليه « يسوع » ، فأحسّ « زوبولون » ، بأن هذا الرجل يكشف كل أفكاره وهواجس نفسه ، لقد سمع عن « يسوع الناصرى » هذا من قبل ، ورفض فكرة أن يطّلع « يسوع » على أسراره .. ولكن ها هو ذا « يسوع » قد عرف كل شىء .. وأحسّ « زوبولون » أن نظرة « يسوع » إليه كأنها طعنة فى فؤاده ، فصرخ بصوت عظيم فى ألم :

– مالى ولك يا يسوع ابن الله العلى .

.. وخرّ « زوبولون » على الأرض .. فتوقف « يسوع » ، واقترب منه ثم سأله :

– ما اسمك ؟

.. فأجاب « زوبولون » ، ومازال وجهه منكفئاً على الأرض :

– أنا المعذّب الذى تسكنه الشياطين .

.. وضع « يسوع » يده على كتف « زوبولون » ، وقال له بلهجة آمرة فى قوة :

– قم يا « زوبولون » .. اذهب .. إيمانك قد شفاك .

.. وللوقت قام « زوبولون » يمشى هادئاً ، والذين عرفوا برصه من قبل كبنيامين ، فغرت أفواههم دهشة لمّا أبصروا أن برصه قد زال تماماً .

* * *

.. كانت هذه هى المرّة الأولى التى يرى فيها « بنيامين » معجزة إلٰهية تقام أمامه .. وسار مع « إيليا » خلف موكب المسيح فى صمت وهو يحاول أن يجد تفسيراً لما رآه .. وظلّ يقارن بين « يوحنا » ويسوع » ، لقد كان « المعمدان » قائداً يمكن أن يتبعه ويحارب تحت قيادته واثقاً من النصر ، أمّا هذا الرجل البسيط – الواثق من نفسه جداً – فلا يبدو فى هيئة القواد ولا الثوار ، وأحسّ بأنه يريد أن يقترب أكثر من « يسوع » حتى يتبيّن أمره ، ويكون له حكم صادق عليه ، فظلّ يتبعه .

.. وسمع « بنيامين » « يسوع » يعلّم فى الهيكل ، وقد اجتمعت حوله جموع كثيرة .. قال يسوع :

« .. على كرسى « موسى » جلس الكتبة والفريسيون . فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه . ولكن حسب أعمالهم لا تعملون ؛ لأنهم يقولون ولا يفعلون . فإنهم يحزمون أحمالاً ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس . فيعرّضون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيابهم ويحبّون المتّكأ الأول فى الولائم ، والمجالس الأولى فى المجامع ، والتحيّات فى الأسواق ، وأن يدعوهم الناس : سيّدى ! ، وأمّا أنتم فلا تدعو سيّدى لأن معلّمكم واحد هو المسيح ، وأنتم جميعاً إخوة . ولا تدعوا لكم أباً على الأرض . لأن أباكم واحد الذى فى السماوات . ولا تدعو معلّمين لأن معلّمكم واحد هو « المسيح » . وأكبركم يكون

خادماً لكم . فمن يرفع نفسه يتّضع ، ومن يضع نفسه يرتفع .. »

.. هاجم يسوع الكتبة والفريسيين بقوة أثلجت صدر بنيامين ، فها هو ذا يقول لهم كلّ ما تمنى أن يقوله هو لعمّه وحميه « نفثائيل » فلم يستطع . إن « يسوع » بكلماته يعبّر عماّ يدور فى نفسه بقوة وسلطان عظيم ، سلطان أخرس جميع أعدائه ..إن هذا الرجل ليس سهلاً كما يبدو ! إنه يحمل روحاً قويّة لا تقهر ! ، إن ثورته هادئة ولكنها شديدة كموج البحر .. وقال « يسوع » :

« .. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ؛ لأنكم تغلقون ملكوت السماوات قدّام الناس فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ؛ لأنكم تأكلون بيوت الأرامل . ولعلّة تطيلون صلواتكم . لذلك تكون دينونتكم أعظم ! .. ويل لكم لأنكم تعشّرون النعنع والكمون وتركتم أثقل الناموس الحق والرحمة والإيمان .. أيها القادة العميان الذين يُصفُّون عن البعوضة ويبلعون الجمل .. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ؛ لأنكم تشبهون قبوراً مبيّضة تظهر من خارج جميلة ، وهى من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة ، هكذا أنتم أيضاً من خارج تظهرون للناس أبراراً ، ولكنكم من الداخل مشحونون رياءً وإثماً ! . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ؛ لأنكم تبنون قبور الأنبياء ! ، وتزيّنون مدافن الصدّيقين . وتقولون لو كناّ فى أيام آبائنا لما شاركناهم فى دماء الأنبياء .. فأنتم تشهدون على أنفسكم بأنكم أبناء قتلة الأنبياء .. والآن أسألكم : معمودية « يوحنا » من أين كانت . من السماء أم من الناس ؟ .. »

.. وهنا بهت الجميع ، « فيوحنا » كان عند عامة الناس نبى صادق .. وها هو قد قتل فلم يحرّك أحد منهم ساكناً .. كان « بنيامين » كغلام يشهد معركة بين رجلين ينتصر لأحدهما ، وقد كان بالطبع ينتصر « ليسوع » ويسعده أن يتغلّب على أعدائه .. وأقبل قوم من الصدّوقيين الذين كانوا لا يؤمنون بيوم القيامة ، وأرادوا أن يحرجوه فسألوه : « .. يا معلّم كتب لنا « موسى » : إن مات لأحد أخ وله امرأة . ومات بغير ولد . يأخذ أخوه المرأة ويقيم نسلاً لأخيه فكان سبعة أخوة . فأخذ الأول امرأة ومات بغير ولد . فأخذها الثانى ولكنه مات عنها أيضا بغير ولد . ثم أخذها الثالث والرابع حتى السابع ولم يتركوا ولداً وماتوا .. ففى القيامة لمن منهم تكون زوجة ؟ .. فقال لهم يسوع : إن أبناء القيامة لا يزوِّجون ولا يتزوجون ؛ لأنهم خالدون مثل الملائكة وهم أبناء الله .. »

.. وزادت سعادة بنيامين ، أن رأى عمه « صموئيل » وحميه « نفتائيل »وبعض رؤساء الهيكل يقفون فى زاوية يستمعون إلى كلمات « يسوع » ، وشعر بالرضا أن « يسوع » ينتصر عليهم ويسمعهم ما يؤذيهم ويوجعهم ، ورأى « بنيامين » جمع الرؤساء يرسلون بعض رجالهم ناحية « يسوع » فتوّجس شرّاً ، وظن أنهم جاءوا ليقبضوا عليه ويسجنوه كما فعلوا « بالمعمدان » ، وخاف أن تحدث كارثة فتلاميذ « يسوع » لن يسلموه لهم ، وهم كثير ومنتشرون حوله .. ولكن الرجال الذين جاءوا من قبل الهيكل ، اقتربوا من « يسوع » ثم وقفوا يستمعون ،

وصاح أحدهم مخاطباً « يسوع » :

– يا معلم .. نعلم أنك صادق وتعلّم طريق الله بالحق ولا تبالى بأحد لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس . فقل لنا ماذا تظن : أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا ؟

.. أدرك « بنيامين » خطورة هذا السؤال ، وعلم أن هذا خبث الرؤساء ، وأنهم أرادوا أن يوقعوا « يسوع » فى الحرج ليدينوه ، واضطرب قلبه فى انتظار أن يسمع إجابة « يسوع » ، وجاءت إجابة المسيح لتخرس الجميع :

« .. لماذا تجرّبونني يا مراءون ؟ أرونى معاملة الجزية . فقدموا له ديناراً . فقال لهم : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ قالوا له : لقيصر . فقال لهم : أعطوا اذاً مالقيصر لقيصر وما لله لله .. »

.. ورقص قلب « بنيامين » فرحاً . فها هو « يسوع » ينتصر عليهم ثانيةً .. ثم سأله أحد الفريسيين :

– يا معلّم أية وصية هى العظمى فى الناموس الذى أنزل على موسى ؟

.. فقال « يسوع » على الفور :

– « .. تحب الرب إلٰهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك ، ومن كل فكرك . هذه هى الوصية الأولى والعظمى . والثانية مثلها . تحب قريبك كنفسك . بهاتين الوصيتين يتعلّق الناموس كلّه والأنبياء .. »

.. ورغم أن « بنيامين » قد قرأ هذه الوصايا من قبل .. إلاّ أنه أحسّ أنه يسمعها لأول مرّة فى حياته .. فكيف غفل عنها ولم يدرك أى عظمة فى هذه الوصايا التى تكلّم بها موسى والأنبياء ! . وعاد أحد الرجال المبعوثين من الهيكل ليسأل المسيح ، وقد أمسك فى يده برجل أعمى ثم قال :

« .. يا سيدى هذا رجل أعمى . وقد سمعنا أنك تشفى المرضى . فلماذا لا تتحنّن عليه وتشفيه . ليرى ذلك الجميع . ويؤمنوا أنك أنت المسيح حقاً ؟ .

..فأجاب المسيح :

« يا مراءون .. أتريدون أن تجربوننى . ولكن أقول لكم : لا يشفى إلاّ من آمن بى حقاً . بالحق أقول لكم : إنه فى أيام « إيليا » حيث حدث جوع عظيم ، كانت هناك أرامل كثيرة ، ولكن « إيليا » لم يرسل إلاّ أرملة واحدة .. وبرص كثيرون كانوا فى إسرائيل فى زمان « اليشع » النبى ولم يُطَهَّر منهم إلاّ نعمان السريانى .. »

رغم وجاهة الحجّة التى ألقى بها المسيح فى وجوههم ، ألاّ أن بنيامين شعر بعدم الرضا ، فقد أحسّ بأن « يسوع » قد خسر هذه الجولة ؛ لأن جموع المستمعين قليلى الفهم ، وقد كانوا متشوقين لأن يروا أمامهم أى معجزة . وكما توقع « بنيامين » ، فقد شجّع هذا الموقف أحد الفريسيين أن يتجرأ ويسأله بوقاحة :

– إن كنت أنت المسيح فقل لنا جهراً ؟

.. فقال « يسوع » :

– « .. إنى قلت لكم ولست تؤمنون الأعمال التى أنا أعملها بإسم أبى هى تشهد لى . ولكنكم لستم تؤمنون . أنا هو الراعى الصالح ، وأعرف خاصتى وخاصتى تعرفنى . أنا الحق . أنا الطريق . أنا الحياة .. »

.. فتصايح الرجال الذين أرسلهم رؤساء الهيكل وكذلك آخرون . قائلين :

– ماذا تسمعون ؟ .. أرجموه .. أرجموه .

.. فقال المسيح بقّوة :

– أعمال كثيرة ومعجزات رأيتم فبأى عمل منها ترجموننى ؟

.. فقال أحدهم :

– نحن لا نرجمك من أجل أعمالك الحسنة ، ولكن لأنك تجدّف . فإنك وانت إنسان تتكلم ، وكأنك كما تقول ابن الله .

.. فقال « يسوع » :

– « .. أليس مكتوباً فى ناموسكم ؟ أنا قلت انكم آلهة ؟ فإن كان قد قال آلهة لأولئك الذين صارت إليهم كلمة الله. ولا يمكن أن ينقض المكتوب . فالذى قدّسه الأب وأرسله إلى العالم . أتقولون أنك تجدّف لأنى قلت : إنى ابن الله !! »

.. وحدث هياج مفتعل وأرادوا أن يمسكوا بالمسيح ، ولكن تلاميذه أحاطوا به من كل مكان .. وكادت الأمور تتطور إلى مصادمة .. ولكن صاح أحدهم : لقد ذهب .. لقد ذهب فعلام تتعاركون ؟ .. ابحثوا عنه أين اختفى ؟ .

.. وبحث « بنيامين » عن صديقه « إيليا » فلم يجده ، ولم يعرف كيف انفلت « يسوع » من بين الجموع دون أن يحسّ به أحد ! ، ولكن أليس هذا هو أقل ما رآه اليوم من عجائب ؟ .. وحينما عاد « بنيامين » إلى بيته كان يحسّ بجوع شديد على غير عادته ، فأكل كثيراً ، ثم نام نوماً عميقاً .

.. فى الصباح بدا له ما حدث بالأمس كأنه حلم طويل ، فبدأ يجتر ذكريات الأمس بتمهّل وإمعان .. فها هو ذا « إيليا » يدخل عليه فى شوق لرؤيته ليخرجه من عالمه إلى عالم جديد ، ثم هو يفتح قلبه ويحكى همومه ، وكم تغيّر « إيليا » فأصبح أكبر وأحكم وأحب كثيراً مما كان ، ثم ها هو ذا « يسوع الناصرى » يشفى « زوبولون » أمام عينيه .. آه لابد أن يقابل « زوبولون » ليرى هل حقاً قد شفى تماماً ،

وماذا حدث له ؟ ، وبم أحسّ ويد يسوع تلمسه ؟ .. وبعد ذلك ذهب إلى الهيكل وشاهد « يسوع » ينطق بكلمات الحق بقوة وينتصر على كلّ الأشرار . ولكن هل يمكن أن يكون هذا الناصرى الصالح هو المسيح حقاً ؟ .. لا شك أنه شخصية قوية واثقة من نفسها تماماً ، وأن « بنيامين » قد أحبه وأعجب به ، ولكن هل تنطبق مواصفات هذه الشخصية على صورة المسيح فى ذهن « بنيامين » ؟ .. هذا ما شغل باله ، وأرهق تفكيره .. فالمسيح ملك اليهود الذى انتظروه أجيالا بعد أجيال ؛ لكى ينقذهم ويعيد إليهم أمجادهم . هو هذا الرجل البسيط الذى لا يملك إلاّ علماً ولساناً قادراً على المحاورة وإفحام الخصوم ! هل يمكن أن يأتى ملك اليهود بعد كل هذه السنوات من الانتظار ، ليقول لهم : إنه ملك بلا مملكة وأن دولة اليهود لن تعود ، وأنهم لم يعودوا أمّة الله وشعبه المختار ؟ .. وهل مثل هذه النهاية لليهود كانت فى حاجة إلى المسيح ؟ .. لقد كانت كلمات « يوحنا » كافية لتؤدى هذا الغرض .. وسواء فهم الناس أم لم يفهموا فما الفارق ، مادام كل شىء إلى زوال ؟ ! ، ولماذا إذاً يحاور ويدعو ويصلح مادام كل شىء سينتهى إلى لا شىء ؟ ! . لا .. لا .. هذا شىء لا يقبله العقل .. فلو أن جماعة من الجند حوصروا فى مكان ما ، وأرسلو إلى مليكهم يطلبون مخلّص ، وطال انتظارهم ، ثم جاءهم البشير بأن المخلص قادم إليهم ، ثم أخيراً يجىء المخلص ليخلصهم مما هم فيه ، فإذا بالمخلص يقول لهم : إن الملك قد أرسلنى لأقول لكم استعدوا للموت فلا أمل فى إنقاذكم .. فهل هذا يسمّى مخلّصاً ؟ .. إن « يسوع الناصرى » رجل صالح ، ولكن لا يمكن أبداً أن يكون هو المسيح .. لا يمكن أبداً .. وهو لم يّدع ذلك .. الآخرون هم الذين يقولون من جهلهم : إنه هو كما قالوا من قبل للمعمدان . لا ليس هذا هو المسيح

اللوحة الحادية عشر

بنيامين بين المسيح وأورشليم





.. جلس « بنيامين » فى بيته يفكر فى أمر « يسوع الناصرى » ، وقد اقتنع بأنه رجل صالح ولكن لا يمكن أن يكون هو المسيح المنتظر الذى يحلم به شعب إسرائيل .. فالمسيح حينما يأتى فسوف يأتى من السماء ، ولن يعرف أحد من أين ولا كيف أتى ! ولكن « يسوع » من الناصرة وأهله واخوته وأمّه يعرفهم الجميع هناك ، والمسيح سيأتى ومعه مجد عظيم وملائكة ؛ ليعيد المجد لشعب إسرائيل كأيام « سليمان » وأكثر ، أما « يسوع » فهو مضطهد ومطارد ومخذول ومحتقر ، ويكاد أن يفتك به رؤساء الهيكل .. يمكن أن يقال عن « يسوع » أى شىء إلاّ أن يكون هو المسيح ، قد يكون نبيا أو كاهنا أو رجل الله ، نعم فما أتى به من معجزات دليل على أنه بقوة الله يفعل ذلك ، وليس بقوة الشياطين كما يفعل السحرة ، ولكن هل يكفى هذا ليكون هو المسيح ؟ ! وهل ينتظر الشعب مسيحاً يشفى المرضى ويحيى الموتى أم مسيحاً ينقذ الشعب من الذّل والعبودية ؟ .

.. فوجىء « بنيامين » بعودة « إيليا » ، وقد ظن أنه هرب مع « يسوع » ولن يعود ، ودخل عليه « إيليا » فى حالة نفسية طيبة ومزاج معتدل .. فسأله « بنيامين » متلهفاً :

– كيف اختفى « يسوع » هكذا فجأة من بين الجموع ؟

– لقد أحطنا به جميعاً فانفلت خارجاً ، وظللنا نحن ندفع الجموع حتى تأكدنا من خروجه فانصرفنا .

– وإلى أين ذهب ؟

– لا أدرى .. له بيوت كثيرة فى أورشليم ، تؤمن به وتفتح له

أبوابها سرّاً . ولكن رأيته بعد ذلك خارج « أورشليم » وقد لحق به التلاميذ .

.. سكت « بنيامين » برهة ثم قال :

– لقد أعجبت به كثيراً ، إن له شخصية ساحرة ، وقوةً فى المنطق ، وأعجبنى ثباته وهدوءه ، وطريقته فى ضرب الأمثال المفحمة لخصومه ! ، إن كلامه يخترق القلب مباشرةً

– انه يتحدث مؤيداً بروح القدس ، وكلمات الرب تجرى على لسانه .

– نعم : إنه حقاً رجل صالح ! . رجل قوى صالح ! ، ولكن هل تظن حقاً أنه هوالمسيح المنتظر ؟

– نعم أنا أومن بذلك .

.. فقال « بنيامين » معترضاً على ذلك فى هدوء :

– اسمع يا « إيليا » يمكن أن تقول عنه : إنه نبى ، أو كاهن الله العلى « كملكى صادق » ، وأنت تعلم مكانة « ملكى صادق » الذى كان أبونا ابراهيم يعظّمه ، أو قل فيه قولاً حسناً كما شئت ، ولكن أن نقول : إنه المسيح ، فهذا لا يقبل ، لأنك تعرف كما يعرف كل اليهود كيف وعلى أى صورة سيأتى المسيح ملك اليهود ومنقذهم ومحرّرهم .

– « يسوع الناصرى » هو ملك اليهود ومنقذهم ومحرّرهم .

..فاغتاظ « بنيامين » من هذه الإجابة التى رآها غير منطقية ومتعسّفة ، فقال وقد علت نبرات صوته قليلاً :

– أنا أحترم يسوع ولا أحب أن أسىء إليه ، ولكن ليس له أن يّدعى أنه المسيح ، وكذلك ليس من حق تلاميذه أن يقولوا ذلك ، فهو على أحس الظنون مثل « أرميا » أو « إشعياء » جاء ليفّهم الناس ويبكّتهم

على خطاياهم ، أو لينذرهم بهدم الهيكل عقاباً على عصيانهم كما حدث من قبل ، هذا وإن كنت أنا اعتقد أن ما حدث أيام «نبو خذ نصر» لن يتكرر ثانية .

– أنا أحاول أن أقنعك بأن « يسوع الناصرى » هو المسيح ، ولكن ما دمنا متفقين على أنه رجل الله ، وأنه يأمر بالخير وينهى عن الشرّ ، ويشفي المرضى ويفعل حسنات كثيرة ، ويتوب أمامه خطاة كثيرون .. افلا يستحق مثل هذا المعلّم أن نتبعه وأن نسمع وصاياه ؟

– هذا لابأس به .. ولكن مجّرد ادعاء البعض أن « يسوع » هو المسيح سيثير ذلك فتنة كبيرة ، وسنجنى شراً أكثر من الخير الذى فعله كلّه .

.. سكت « إيليا » قليلاً ثم قال هادئاً :

– « يسوع » وتلاميذه فى جبل الزيتون .. على قرب من مزرعتك هناك .. فلماذا لا تأتى معى لتعرفه أكثر ، وليكون حكمك عليه صادقاً ؟ .

.. اعتذر « بنيامين » بمرضه ، وأنه قد تعب بالأمس لمغادرته الفراش .. ويئس « إيليا » من اقناعه بالذهاب معه .. ودار بينهما حديث طويل ، وعندما أراد « إيليا » الإنصراف ، فوجىء « ببنيامين » يطلب إليه أن ينتظر لكى يذهب معه إلى « يسوع » .. كان « بنيامين » يريد أن يخرج لعلّه يلتقى « بزوبولون » ؛ ليتحقق مما حدث له ، فهو يريد أن يتعرف على سرّ هذه المعجزات التى يقوم بها « يسوع » ، ثم إنه سيخبر زوجته بعزمه على الذهاب إلى مزرعته الشرقية فى جبل الزيتون ، وبذلك لن يعرف عمّه وحموه أنه ذهب إلى « يسوع » .. وأخبر « بنيامين » أهله بتوجّهه إلى المزرعة ليطمئن على أحوالها ، ولكنه أحسّ

بنظرة « إيزابيل » الغير راضية ، وهى تحاول أن تخفى سخطها قائلة ، وهى تتصنع الشفقة :

– أتذهب وأنت مريض هكذا ؟ ألا يكفى أنك خرجت بالأمس وعدت متبعاً منهكاً ؟ إن خروجك على هذا الحال يضرّك كثيراً ويؤخر شفاءك .

.. وكتم « بنيامين » غيظه قائلاً فى برود :

– أنا الآن بخير .. وأعتقد أن الرحلة ستفيدنى .. فأنا لن أظلّ هكذا طريح الفراش إلى الأبد .. واليوم معى « إيليا » ليرافقنى إلى هناك فإطمئنى .

.. سكتت « إيزابيل » على مضض ، وحنق عليها « بنيامين » ، فسارع بالخروج مع « إيليا » ، وإتجّها إلى جبل الزيتون .. كان « بنيامين » وهو يقرّر الذهاب إلى « يسوع » يعتقد أن الزيارة الثانية تكون عادة أقل روعة من الأولى ، فهذا ما حدث له عندّ ذهابه « للمعمدان » ، فقد عاد فى المرّة الأولى شديد الإعجاب بالمعمدان ولكنه فى زيارته الثانية اكتشف أن انبهاره كان أكثرممّا يستحق الأمر . ولكنه يريد أن يعرف المزيد عن يسوع الناصرى ، حتى يستطيع أن يقرر بينه وبين نفسه حجم هذا الرجل ومكانته ، فقد استاء من طريقة التقديس التى يتكلم بها « إيليا » عنه ، فهو عنده أعظم من « المعمدان » ، بل أعظم من أشعياء ، ومن كل الأنبياء .

.. كانت المزرعة التى بها يسوع وتلاميذه قريبة من مزرعة بنيامين .. وقد تحلّق الناس جماعات تحت الأشجار ، أو داخل خيام رخيصة من وبر الإبل ، وكان المكان يدوى كخلية النحل ، فهؤلاء يتحاورون فيما بينهم ، وهذا يتكلم معلماً من حوله ، وآخرون يقرءون

فى بعض الأسفار ، والبعض يصلى فى حرارة .. وظلّت عين « بنيامين » تبحث عن « يسوع » ، وأشار « إيليا » إلى رجل يجلس مع آخرين قائلاً : إن هذا هو « يسوع » ، وتعجب « بنيامين » أنه لم يعرفه رغم أنه رآه بالأمس ، ولكن كيف يعرفه وهو رجل بسيط فى لباسه وهيأته ، لا يختلف عن باقى أصحابه ، بل يبدو بينهم أكثر تواضعاً .. إنه يختلف كثيراً عن « المعمدان » ، فالمعمدان كان ظاهراً بين أصحابه كسيّد مهاب ، ولكن « يسوع » يبدو كرجل منهم بل هو يتواضع لهم ، و « المعمدان » كان قلعة حصينة ذات أبراج وأسوار ، أمّا « يسوع » فيبدو هادئاً كصفحة الماء ، ولكنه إذا تكلم كان كنهر متدفق يمتلىء حياة ونوراً ونعمة .

..كانت هذه هى المرة الأولى التى يقابل فيها « بنيامين » « يسوع » وجهاً لوجه ويتكلم معه .. وقد أحسّ أن « يسوع الناصرى » وهو ينظر إليه يعرف كل شىء عنه .. كل شىء .. وحينما تكلّم « يسوع » كان كأنه يكلّمه هو ، ويعلّمه هو .. هو بالذات ..

« .. النفس الشبعانة تدوس العسل ، والنفس الجوعانة كل مرّ حلو ... آمن تخلص أنت وأهل بيتك ... لماذا تنظر القذى فى عين أخيك وأماّ الخشبة التى فى عينك فلا تفطن إليها ؟ ! .. أسألوا تعطوا ، إطلبوا تجدوا ، أقرعوا يفتح لكم ، لأن كل من يسأل يأخذ ، ومن يطلب يجد ، ومن يقرع يفتح له ... رؤساء الأمم يسودونهم والعظماء يتسلطون عليهم ، فلا يكون هذا فيكم ، بل من أراد أن يكون فيكم عظيماً ، فليكن لكم خادماً ... تحب الرب إلهك من كل نفسك ومن كل فكرك ... لا تدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد الذى فى السموات ... »

.. كانت هذه بعض الكلمات التى حفظتها ذاكرة « بنيامين » ، وقد شعر وهو يستمع إليها أن قلبه يريد أن يتفتح على هذه الكلمات ، وأن تتشرب جدرانه العطشى ماء الحياة هذا .. ولكن شيئاً ما يقبض على قلبه ، إنه داؤه القديم ، وتمنى أن يخرّ باكياً أمام « يسوع » يسأله أن يخلصه مما هو فيه ، إنه يريد لقلبه أن يخلص ؛ ليعرف طعم الراحة والسعادة الحقيقية .. ولكنه لم يستطع أن يفعل ، رغم أنه أحسّ بأن « يسوع » ينتظر منه ذلك .. آه إنه حقاً ملك ولكن على القلوب . إنه ينتظر منه هو أن يتقدّم ويعلن إيمانه وخضوعه لكى يخلّصه ، إنه لا يخلّص إلاّ من يقبله ويخضع له ويطيعه ، أماّ من استغنى فهو الآخر ليس فى حاجة إليه .

.. ليتك يا « بنيامين » كنت قادراً على أن تؤمن كما يؤمن هؤلاء العوام فى سهولة ويسر ، ولكنك تظلّ تفكر وتفكر وتتردد ، وتملأ صدرك المخاوف والشكوك ، فإلى متى هذا العذاب ؟ ! ، هيىء لبنيامين أنه لو رأى الله جهرة فسيحتاج أيضاً إلى تفكير عميق قبل أن يؤمن بأنه هو ، فيالها من لعنة تلاحقه .

.. وأفاق « بنيامين » من شروده ليسمع « يسوع » يقول :

— « .. إن كان أحد يأتى إلىّ ولا أكون أحب إليه من أبيه وأمّه وامرأته وأولاده ، واخوته وأخواته ، ومن كل شىء حتى نفسه أيضاً ، فلا يقدر أن يكون لى تلميذاً . ومن لا يحمل صليبه ويأتى ورائى فلا يقدر أن يكون لى تلميذاً . ومن منكم وهو يريد أن يبنى برجاً لا يجلس أولاً ويحسب النفقة ، هل عنده ما يلزم من المال لإكماله ؛ لئلا يضع الأساس ولا يقدر أن يكمل ، فيبتدىء جميع الناظرين يهزءون به قائلين : هذا الإنسان ابتدأ يبنى و لم يقدر أن يكمل . وأى ملك إن ذهب

لمقاتلة ملكٍ آخر فى حرب لا يجلس ويتشاور ، هل يستطيع أن يلاقى بعشرة آلاف الذى يأتى عليه بعشرين ألفاً ؟ ، وإلاّ فما دام ذلك بعيداً ، فإنه يرسل سفارة ويسعى فى الصلح .. فكذلك كل واحد منكم لا يترك جميع أمواله لا يقدر أن يكون لى تلميذاً .. » .

.. حينما سمع « بنيامين » كلمات « يسوع » هذه ، عرف أنه لا يمكن أن يكون تلميذاً « ليسوع الناصرى » ، فهو لا يمكنه أن يترك كل شىء ليتبعه .. شخص مثل « إيليا » يمكن أن يفعل ، فهو لا تربطه زوجة ولا أولاد ، ولا أخوات وأقارب ومشاكل .. « إيليا » قادر على أن يترك كل شىء ، أماّ هو فألف شىء يربطه ويقيّده ! ، ثم إن كلام « يسوع »لا يعنى أنه يدين من لا يفعل ذلك ، بل هو فقط يحدّد شروطاً يجب توفرها لمن يريد أن يتبعه ويصبح تلميذاً له ، ولكن « يسوع » لابد يدرك أن كثيرين لن يستطيعوا أن يفعلوا ذلك لظروف حياتهم ، ولإمكانياتهم الروحية والجسدية ؛ لذلك هو لايدينهم .

.. وانفلت « بنيامين » فى هدوء مغادراً جبل الزيتون وحده ، على حذراً أن يراه « إيليا » أو أى شخص آخر يعرفه ، فهو يريد أن يغادر المكان بسرعة ، ولكنه فوجىء بمن ينادى :

– يا أخى « بنيامين » .. إنتظر يا أخى .

.. والتفت فوجد « زوبولون »مقبلاً عليه مبتسماً وهو يقول فى فرح :

– أهلاً بك هنا يا أخى .

. أرأيت نعمة الله علىّ ؟ من كان يصدّق أننى سأعود إلى هذا العالم ؟ أرأيت الربّ يسوع ؟ إنه نعم الرب الصالح .. لقد شفانى وشفى آخرين

ببركته .. كل من يؤمن بالمسيح وبالذى أرسله يؤمن ويشفى ويعرف طعم الراحة والسعادة .. ودعك من البرص .. ان ما أشعر به من سلام هو أهم من شفاء الجسد .. ولكن إلى أين أنت ذاهب الآن ؟ إنك لم تمكث معنا إلاّ قليلاً . لقد رأيتك وأنت مقبل مع صديقك .

– إننى عائد إلى أورشليم .

– لماذا لاتمكث معنا بعض الوقت ؟ اغتنم هذه الفرصة ، فالمسيح لن يمكث معنا إلى الأبد . إنه دائم الترحال .. لماذا لا تبقى لتستمع اليه ؟

– لقد كنت جالساً إليه .. ولكن ورائى شيء هام أفعله فى « أورشليم » .

.. فقال « زوبولون » آسفاً :

– ليس هناك أهم اليوم من سماع يسوع .. إن كلماته هى ماء الحياة .

– إنى ذاهب وسأعود بالتأكيد . استودعك الرب .

.. قالها « بنيامين » وهو يسرع فى العودة « لأورشليم » ، وقد أحسّ وهو يبتعد عن جبل الزيتون ، أنه يعود تدريجياً إلى الأرض ، إلى الحياة الدافئة التى ألفها .. إن « يسوع الناصرى » ومن معه يعيشون فى عالم آخر .. إنهم لا يهتمون إلاّ بالحياة الأبدية فى السماء ، أماّ حياتنا على هذه الأرض فهى آخر ما يلقون إليه بالاً .. فهم لا يهتمون بما يأكلون ولا ما يلبسون ولا أين ينامون .. ولماذ يهتمون ؟ .. وكل من عنده مال يأتى به فيأكلون ويشربون وكل شيء بينهم مشتركا ! . إن هذا لا يمكن أن يكون منطق حياة ، إنها شبه ما تكون بحياة الجند فى المعسكرات ، فهم لا يهتمون بكيفية الحصول على الطعام واللباس لأن كل هذه توفّر لهم ، فما عليهم إلاّ التدريب والاستعداد للحرب ، وهؤلاء

ماعليهم إلاّ الصلاة والدعاء والتعلّم . أماّ المأكل والملبس فهذه كلّها تتوفّر لهم ، أماّ كيف تتوفر لهم فهذا لا يعنيهم . لا يمكن أن تكون هذه حياة طبيعية يعيشها الإنسان ، ولكن من قال : إنها حياة طبيعية ؟ ، أليس المسيح يخوض حرباً ولكن على طريقته الخاصة ؟ . وأحسّ بنيامين أنه فى حاجة لأن يجلس مع قوم عقلاء يناقشهم بالمنطق ، أو بالأحرى هو يريد أن يجلس مع قوم ضدّ هذه الأفكار ليسمع منهم ، فسماع الرأى المضاد دائماً يزيد العقل فهماً .

..وحينما دخل « أورشليم » توجّه إلى بيت عمّه صموئيل فلم يجده ، وخطر له أن يذهب إلى صديقه « داود » .. آه « داود » .. « داود » ذو عقل منظم ، ولابد أن أجد عنده رأياً حول هذا الأمر .. كان « بنيامين » قد التقى « بداود » منذ فترة ودعاه إلى بيته الجديد ، ولكن « بنيامين » تكاسل فى زيارته ، فهو كعادته لا يرتاح إليه كثيراً ، خاصة إذا كانا سيجلسان منفردين ، وليس وسط الأصدقاء ..

ولكن « بنيامين » توجّه إليه اليوم على شوق لأن يجد عنده الرأى والمشورة ، وحينما دق عليه بابه ، فتحت له جارية حسناء ، وأحسّ « بنيامين » برائحة الترف ، فكل شىء قد انتقى غالياً جميلاً ، وبيت « داود » أشبه ببيوت السادة الأغنياء ، حتى « داود » نفسه قد ظهرت عليه معالم السيادة والكبرياء ، وقد فرح « داود » بزيارة « بنيامين » ورحّب به كثيراً ؛ فقد اسعده كثيراً أن يرى « بنيامين » ما هو فيه من وجاهة وثراء ، وأحسّ بأنه ينتقم من أشياء لا يدركها . وحكى « بنيامين لداود » عن « إيليا ويسوع » ، و كيف شفى « زوبولون » أمام عينيه ، وما حدث فى الهيكل وأعرب عن حيرته فى أمر هذا الرجل ! ، وداود صامت يستمع له ، ثم قال أخيراً فى استياء :

– ولكن لماذا لا يتبعه سوى أراذل الناس والحمقى منهم ؟

– ماذا تقصد ؟

– أقصد أنه لم يتبعه سوى أمثال « زوبولون » هذا .. وحتى « إيليا » لم يكن سوياً تماما ، فهو شخص غريب الأطوار .

– هذا شيء غير جوهرى . ولكن ألا يمكن أن يكون « يسوع الناصرى » هو المسيح حقاً ؟

– هل جننت يا « بنيامين » . أهذا هو المسيح ملك اليهود !!

– غريب أمرك يا « داود » . ألم تكن شديد الإعجاب « بالمعمدان » ؟ ! .

– المعمدان شيء آخر . إنه نبى زاهد فى الحياة . ثم إنه لم يّدع أنه المسيح .

– ولكن ما رأيك إذا كان « يوحنا » قد شهد « ليسوع الناصرى » بأنه هو المسيح . وقد تبع تلاميذ « المعمدان » « يسوع » وآمنوا به أيضاً .

– يكون « المعمدان » قد جنّ هو الآخر .. أى مسيح هذا ؟ ، لقد رأيته فى الهيكل ! ، إنه لا يصلح حتى أن يكون أحد أعضاء السنهدرين . إنه رجل به لوثة . بل هو أشبه بالأفاقين .

– ولكن ما تقول فى المعجزات التى تجرى على يديه ؟

– لا أعرف . ولكن كثيرين يصنعون عجائب . وهذا ليس دليلاً على أنه المسيح .

– ولكننا لم نسمع عن شخص أحيى الموتى ؟

– ومن قال إنه أحيا الموتى ؟ هل تصدق ذلك حقاً ؟

– ولكن لو رأيت ذلك بعينك . هل تؤمن ساعتها أنه هو المسيح حقاً . هذه هى القضية ؟

– لا . حتى لو رأيته يحيى الموتى فلن أومن بأنه المسيح .. المسيح يا « بنيامين » شيء آخر . المسيح ملك اليهود . أتعرف ماذا يعنى أنه ملك . أى أنه مثل « داود وسليمان » ، بل هو أعظم منهم ؛ لأنه سيهزم العالم كلّه وينصر اليهود عليهم .

* * *

.. لم يحقق بنيامين ما كان يرجوه من زيارته « لداود » ، فحديثه لم يكن منطقياً ولا منصفاً ؛ لذلك فقد سارع بالإنصراف من عنده ، و« داود »يلحّ عليه أن يمكث قليلاً ، فوعده بتكرار الزيارة ، ولكنه خرج من عنده مهموماً ، ومازالت حاجته الملحة فى أن يجلس إلى عقلاء ، يناقش معهم مايدور فى ذهنه من أفكار مضطربة ، وفكّر لعلّ عمه صموئيل الآن عند حميه ، فلماذا لا يذهب إلى حميه ؟ .. ووجد نفسه بعد قليل يدق باب حميه« نفثائيل » ، وقد صدق ظنه ، فقد رأى عمّه يجلس مع حميه يتحدثان ، وقد فرح به عمه ورحّب به قائلاً :

– أهلا بك يا « بنيامين » ، أنت شاب طيب ، هل تعرف أننى وعمّك « نفثائيل » ، كنا نتحدث عنك الآن ؟

– خيراً يا عمى إن شاء الله .

– إننا نعدّ لك رحلة عظيمة إلى « روما » .. سوف تذهب مع وفد اليهود لحضور احتفال الإمبراطور ، سيتكفّل الهيكل بكل نفقاتك .. سترى عالماً جديداً وتتعرّف على عظماء ، إنها خطوة جيدة فى حياتك .. والفضل يرجع إلى عمّك « نفثائيل » .

شكرهما بنيامين فرحاً ، فقد كان يرغب دائماً فى زيارة « روما » ، ودار بينهم حديث ودّى حول المال والتجارة وأحوال « أورشليم » ، ثم عرج بهم الحديث نحو الهيكل وشئونه ، فلم يستطع

« بنيامين » أن يكبح جماح نفسه قال متسائلاً :

– هل رأيتم « يسوع الناصرى » الذى يّدعى أنه المسيح المنتظر ؟

.. فأجابه عمّه وهو يبدى الاحتقار والتهوين من شأن « يسوع » :

– إنه دجّال من تلاميذ يوحنا . نحن نعرف عنه كل شىء . إنه ابن زنا . يقولون : إن أمه جاءت به من جندى رومانى .

.. فقال « بنيامين » بإهتمام وهو لا يستطيع أن يخفى استنكاره :

– لا ياعّمى لا يمكن أن يكون هذا صحيحا .

– أقسم لك يا بنى أن هذا صحيح . يمكنك أن تسأل أحداً من بلدته فهم جميعاً يعرفون ذلك ، انها أسرة فاسدة كلها ، لقد قدّم للهيكل تقرير كامل عنهم .. لقد كان هناك رجل طيب يدعى « عمران » ، ولكن شاء الرب أن يموت ويترك صبيتان سلكتا طريق الشيطان ، « مريم ، واليصابات » ، فلماّ أذلّهما الفقر ، تزوجت اليصابات من شيخ كبير لم ينجب طوال حياتّه ، فلماّ تزوجته أدّعت بأنها حملت منه ، فجاءت « بيوحنا » هذا ، والله وحده يعلم من أبوه الحقيقى ، أماّ أختها مريم ، فلم تكن قد تزوجت بعد ، ولكنها اختفت عن أهلها ثم عادت إليهم وهى تحمل وليدها « يسوع » ولم تعرف ماذا تقول لهم ، وكذلك لم يعرف أهلها ماذا يقولون للناس ، ولكنهم كتموا فضيحتهم ، حتى إذا كبر الصبى والجميع يعرف انه ابن زنا ، إذا بها تقول : إن هذا الولد جاء من عند الله وليس من زنا ، وإذا بهذه الفكرة تتسلّط على عقل الغلام ، فيكبر ليّدعى أنه ابن الله ؛ ذلك لأنه لا يستطيع أن يقول للناس من أبوه ، ويعرف أن الناس تعرف قصّة أمّه كلها ، فأراد أن ينتقم لأمه ، وأن يسود بين الناس ، فماذا يقول غير أنه ابن الله ؟

– لا ياعمى .. أعتقد أن هذا افتراء عليه .

– صدّقنى يا بنى . وهل يمكن أن أقول هذا لك إن لم يكن حقاً أكيداً . اذهب أنت إليه وأسأله [من أبوك ؟] .. سيقول لك : إنه ابن الله . بل اسأل تلاميذة من أبوه ؟ لن يعرف أحد . صدّقنى يا بنى ، إنه يحاول أن يدارى خطيئة أمّه . اسأل أى شخص تعرفه من بلدته . الجميع يعرفون قصة أمّه وكيف أتت به .

.. وهنا تدخّل « نفثائيل » ليتحدث مظهراً الحكمة :

– إن فكرة مجىء المسيح لها سحر وإغراء عند الشعب . لذلك يحرص الدجالون أن يستغلوها لمصلحتهم ! . إن كلمة مسيح تعنى ملك اليهود من قبل الله ، فمن قبل سمّى ملوك اليهود بالمسحاء ، فأنت تقرأ « قد مسحوا « داود » ملكاً عليهم » وتقرأ « .. أبشالوم الذى مسحناه علينا ..» .. « وحى « داود » مسيح إله يعقوب ومرنّم إسرائيل الحلو .. »

.. وتدخّل « صموئيل » مؤيداً :

– الكتب مليئة بذكر كلمة المسيح .. « والصانع رحمة لمسيحه « داود » ونسله إلى الأبد » .. « أيها الرب الإله لا ترد وجه مسيحك . اذكر مراحم « داود » عبدك .. » وقال الرب لصموئيل : غداً أرسل إليك رجلا من أرض بنيامين فإمسحه رئيساً لشعبى إسرائيل فيخلص شعبى من يد الفلسطينيين .. »

.. وعاد « نفثائيل » للحديث قائلاً :

– إلى غير ذلك . فالمسيح هو ملك اليهود من قبل الرب ليقودهم نحوالمجد .. ولكن لمّا زال مُلك اليهود ، وتشتت اليهود وسيق أسراهم إلى « بابل » ، راودتهم من ساعتها أحلام عودة الملك إليهم ، وأن

الله سيرسل لهم مسيحاً ملكاً يعيد لإسرائيل مجدها القديم . وتعدّدت نبوءات الأنبياء إرضاءً لهذه الأحلام والأمانى ، كلها تدّعى بأن الله سيرسل مسيحاً ملكاً لليهود . ولكن متى سيحدث ذلك ؟ لا يعلمه إلا الله . واعتقد أن هذا لن يحدث أبداً . ولكن إن حدث فسيحدث بعد أن يصبح اليهود أهلاً لأن يرسل لهم الرب مسيحاً .

.. وأضاف عمه صموئيل :

– المسيح حينما سيأتى سيقود الشعب كلّه ، ولن يختلف عليه أحد ، وسيتبعه خاصة الناس وعقلاؤهم قبل أن يتبعه رعاع الناس وسفلتهم ، لأنه سيجىء من أجل مجدهم ونصرتهم ، ولكن أنت ترى يسوع هذا لم يتبعه إلاّ السفهاء من الناس ، إنه أشبه ما يكون بالسحرة الذين يغشون الأسواق فلا يجتمع حولهم إلاّ النساء والصبية والحمقى ، إنه يبهر الناس بألاعيبه .

.. آثر « بنيامين » أن يجارى عمّه وحميه ، وألاّ يبدى معارضة لأقوالهم ، رغم أنه لم يقتنع بما قالاه ، وقد أدرك وهو يسير وحده إلى بيته ، أن كلامهما يمكن أن يردّ عليه بالحجة الواضحة ، فالرب يختار مسحاءه كيف يشاء . فهل كان « داود » ألاّ راعياً فقيراً . ثم قال الرب « لصموئيل » النبى قم امسح « داود » ليكون ملكاً بدلاً من مسيحه « شاول » .. وانتاب « بنيامين » ضيق شديد وهو يذكّر كلمات عمّه عن أمّ المسيح وخالته ، فهل يمكن أن يلد الأشرار رجالاً أتقياء هكذا ؟ وهذه الافتراءات كيف يمكن التحقق منها ؟ إنها فقط تثير البلبلة بين الناس ؛ لأن الناس ستنقسم بين مؤيد ومعارض حسب أهوائهم ، أما الحقيقة فلن يمكن إثباتها . وأزعج « بنيامين » أن تأتى هذه الاتهامات على لسان عمّه صموئيل ، فقد كان يراه رجلاً معقولاً غير « نفثائيل » فكيف

يقول ذلك عن « المعمدان ، ويسوع » ، إن هذا لا يقبله عقل ، فلو صدق هذا فإن عقلك يا « بنيامين » لا يدرك شيئاً من حقائق الحياة والوجود ، إنه لأقرب للعقل أنك أنت يا « نفثائيل » ، وأنت يا « صموئيل » . أنتم أبناء العاهرات وليس هؤلاء .

..ورغم أن « بنيامين » كان يميل فى خواطره للدفاع عن « يوحنا ، ويسوع » » ، إلاّ أن ما سمعه الآن من عمّه وحميه ، قد ترك أسوأ الأثر فى نفسه ، أو على الأقل قد جعله يتريث فى حكمه على « يسوع الناصرى » . ولم تمرّ أيام حتى شغل « بنيامين » عن ذلك كلّه بالاستعداد لرحلته إلى روما ، وقد عرف مع بدء رحلته كثيراً من المعلومات عن « روما » ، فالامبراطور « طيباروس » امبراطور روما الآن ، قد ترك « روما » منذ أعوام ليعيش معتزلاً فى « كابرى » ، ويقال : إنه رجل شديد القسوة ، فقد قتل كثيرا من أعدائه ، وكذلك كثيرا من أصدقائه ، بل قتل كثيرا من أهله ، متهماً أياهم بالخيانة ، ورغم أنه حاكم قدير ، إلاّ أن الناس فى « روما » تكرهه لدمامة وجهه من جهة ، ولقسوته وبخله وعاداته الشاذة ، التى يتناقلها الناس عنه من جهة أخرى .

.. وقد عرف كذلك « بنيامين » أنهم ذاهبون للمشاركة فى عيد الفلورا إلٰهة الأزهار ، حيث تعيش « روما » ستة أيام كلها مرح وسكر وعربدة وسعادة .. فعاش بنيامين طوال رحلته وهو يحلم بما يمكن أن ينتظره من متعة هناك . وقيل له : إن هذا الشهر هو الشهر المقدّس لإلٰهة الشهوة « فينوس » فهى المسئولة عن الزواج والإخصاب ، فهذا شهر تفتح الأزهار والحب والخمر والمتعة ، فساعدته هذه الأحلام اللذيذة على تحمّل مشاق الرحلة ، خاصة وأن هذه هى المرّة الأولى التى يركب فيها

سفينة كبيرة ، تقضى به أياماً وليالى بين عواصف البحر وأمواجه وأهواله المخيفة . حتى أنه تمنى فى لحظة من اللحظات ، وبعد أن تقيأ كثيراً ، أن ينام ليستيقظ فيجد نفسه فى بيته ولتذهب رحلة روما إلى الجحيم .

.. فوجىء « بنيامين » عند وصوله بالاتساع العظيم لمدينة « روما » ، وبكثرة سكانها وأناقتهم ، وكذلك باتساع الطرق التى تقطعها عربات فارهة .. كان هناك طريقان رئيسيان متقاطعان بطول المدينة كلها ، ورغم أن بيوت عامة الناس كانت متواضعة يمكن أن يكون فى « أورشليم » كثير من البيوت فى مثل حالتها ، إلاّ أن البيوت هنا تمتاز بإتساعها وبالحدائق التى تزينها .. أما بيوت الأغنياء فكانت قصوراً عظيمة لا تقل روعة عن قصر « هيرودس » .

.. ولكنه شاهد لأول مرة كيف تصل المياه إلى البيوت عبر أنابيب من الرصاص ، وشاهد الصنابير والمحابس من البرونز بأشكال رؤوس الحيوانات ، وأفران ملحقة بالقصور تحرق فيها الأخشاب فتمد الحجرات بالهواء الساخن عبر أنابيب من الطوب تمتد أسفل الأرض أو عند السقف . وقد أعجبه اهتمام الرومان الشديد بالأزهار والحدائق ، ولكن أعظم ما بهره هو الشعب الرومانى نفسه ، وما يتمتع به من روح عالية ، وإقبال على الحياة ، ومن النشاط والرغبة فى العمل الشاق ، بنفس الحماس الذى يقبلون به على المتعة والابتهاج فى احتفالاتهم ، كذلك ما يتمتع به المواطن من حقوق وضمانات وحريّات .

.. وأدرك « بنيامين »أن أهل « روما » ليسوا كما يشاع عنهم بأنهم منغمسون فى شهواتهم ، بل هم شعب جاد ، يطمح كثيراً إلى المجد ، بل إن سكان « روما » وحدهم قادرين على هزيمة كل اليهود والانتصار عليهم ، فهم يقاربون اليهود عدداً ، ويفوقونهم فى الشجاعة والفروسية

والبطولة . فشتان بين الرومانى فى قوته وصحته ، وبين اليهودى الذى أثقلته الهموم والأمراض ، وخاب أمل « بنيامين » فى أن يلهو مع الرومانيات ، فهن ينظرن لأمثاله من الأجانب بشىء من الترفع والاحتقار ، ولكنه فى الاحتفال الذى أقامته لهم الجالية اليهودية التى تعيش فى « روما » ، أعجب بأرملة يهودية ، عرف أن زوجها قتل فى الحرب ، وقد بدا وجهها الحزين أشبه بوجه قدّيسة ، فمال قلبه إليها ، وأحس بأنه يريد أن يدخل البهجة إلى قلبها بأى طريق ، فكان لقاؤه بها هو سلواه فى ايام إقامته بروما ، وتمنى لو تزوّج هذ المرأة فهى تجمع بين أصالة « إيزابيل » وإشراقة « سيمون » ، ولكن هل يمكن أن يأخذ مثل هذا القرار ؟ .

* * *

.. لم يعلق بذاكرة بنيامين من رحلة العودة للوطن ، سوى منظر الجيش الرومانى الذى شاهد معسكراته ! . إن منظر الجند فى ملابسهم وخوذاتهم ودروعهم قد ألقى فى قلبه الرعب ، وأحسّ أن جيش الرومان فعلاً جيش لا يقهر ، وأن كل الأحلام التى راودته عن نهضة اليهود وطردهم للرومان ما هى إلاّ أوهام ، بل أحسّ بالإمتنان لهؤلاء الرومان أنهم لم يدمّروا بلاد اليهود التى تحمل لهم كل هذا القدر من الضغينة والعداء . فلو كان اليهود هم فى مركز القوة مكان الرومان ، وكان الرومان مكان اليهود ، لدَّمر اليهود الرومان وأفنوهم عن آخرهم ، بحجة أنهم أعداء للرب . ولماذا يبدو هذا غريباً ، أليس هذا ما ينتظره الجميع من المسيح حينما يأتى ليقودهم إلى النصر على كل الشعوب ؛ لكى يدمّروا ويذلّوا أعداء الرب ؟ ألا يقولون بأنه من لا يكون يهودياً فإنه لا يستحق إلاّ غضب الرب ومقته ، وهو أشبه ما يكون بحيوان ؟ .. أليس من

العدل أن نقول : إن الرومان فى موقعهم هذا أكثر رحمة من اليهود ؟ ألا يترك الرومان اليهود يعبدون إلٰههم دون أن يزعجهم ذلك ، رغم أنهم يعلمون أن إلٰه اليهود لا يقبل معه آلهة أخرى ؟ .. أليست آلهة الرومان أكثر تسامحاً من الرب إلٰه إسرائيل ؟ .. وخاف « بنيامين » أن تكون خواطره قد قادته إلى التجديف فتراجع عن أفكاره ، وأخذ يستعيذ بالرب من أن يكون قد اتّبع الشياطين .

.. فى إحدى الليالى شاهد « بنيامين » رؤيا أزعجته ، فقد شاهد جحافل الرومان قد أقبلت فى طابور طويل ، وهو يقف مع طفليه وقد ضمهما إلى صدره ، وهيىء اليه أن أقدام الرومان تكاد تطؤهم ، وهو يحاول أن يحمى صغيريه ، ولكن القافلة تسير بقوة مقبلة عليهم ، وهو كأنه مقيّد إلى الأرض لا يستطيع فكاكاً ، وحينما أصبح لا سبيل إلى الفرار ، فالأقدام تكاد تطأ جبهته ، هب من نومه صارخاً مذعوراً .

.. حينما دخل « بنيامين » إلى بيته أخذ صغيريه فى صدره ، واغرورقت عيناه بالدموع ، شوقاً وحناناً وخوفاً عليهما من المستقبل الذى أصبح يخافه ويحذره فى شعور غامض بعدم الأمان ، لا يجد له مبرراً ألا نبوءات « يوحنا » ، و « يسوع » . وامتلأ قلب « بنيامين » بالشفقة على الجميع ، فغمر زوجته بمشاعره هذ عدّة أيام ، وحتى عمه وحموه « نفثائيل » قد أشفق عليهما ، وأحسّ بأنهما مثله ومثل كل سكان « أورشليم » ، هم جميعاً ضحية كارثة وشيكة ، وإنتقام رب غاضب عليهم بلا سبب ، فهم جميعاً ضحايا الزمان والمكان ، فقد ورثوا تركة مثقلة ، وعاشوا عبيداً لليونان والفرس ثم الرومان ، ومن قبل سحقهم البابليون والمصريون ، فورثوا الضعف والذّل والفقر والهوان .. ولكن هل ينسى الرب لهذا الشعب أنه صاحب أول ثورة على الطغيان ضد

فرعون ، وذلك قبل ثورة « سبارتكوس » بأكثر من ألف عام » وأول شعب تمسّك بشريعة التوحيد والعدل والتى أضاء نورها على كل البلاد المحيطة بهم ، فى وقت كان الجميع يعبدون قادتهم أو يعبدون أوثاناً هى رمز للشرّ والفساد ؟ .. هل يمكن أن ينسى الرب - فى شديد غضبه - لهذا الشعب أنه شعبه الذى كانت عينه عليه دوماً ، فتتابع فيه الأنبياء ورجال الله يعلّمونه ويرشدونه إلى الصواب إذا ما انحرف عن الطريق ، لقد كانت يد الرب تمتد غاضبةً دوماً ؛ لتعيد الشعب إلى الطريق المستقيم .. إن هذا الشعب ، وقبل أن يتمتّع الرومانى بحقوقه فى ظل المواطنة الرومانية ، كان اليهودى يتمتع بحقوق أكبر فى ظل الشريعة الموسوية ، التى كفلت كل الحقوق لأبنائها وساوت بينهم ؟ .. هل يمكن أن يُنْسَى لهذا الشعب أنه صاحب أول شريعة مجّدت الفضيلة والعدل والحق بين شعبها ، وحرسته بتعاليمها وحدودها ؟ .. أو يمكن أن ينبذ هذا الشعب ويمحق لمجّرد أن ظهرت منه أجيال ضعيفة ذليلة نتيجة لتكالب الأعداء عليه ؟ .. وهل تكالب الأعداء عليه إلاّ لأنه يعبد الله الإله الواحد ، ولا يساوم على ذلك ويرفض كل آلهتهم ؟ .. وماذا كان ينتظر الشعب من مجيء المسيح إلاّ أن يخلّصه مما هو فيه لتعود إليه أمجاده ؟ .. قد تكون معمودية « يوحنا » و « يسوع الناصرى » هى حقاً طريق الإصلاح ، فعلى الناس أن يتوبوا ويعرفوا طريق الاستقامة ؛ لكى ينهض هذا الشعب من جديد ، أمّا أن تكون دعوتهما هى النهاية ، هى نذير الفناء ، فهذا لا يمكن أن يقبله يهودى مخلص لشعبه وربه وأمّته ! ، واستراح « بنيامين » أخيراً لهذه الأفكار ، فأصبح قادراً على مواصلة حياته كما تعوّد أن يعيشها من قبل .

* * *

.. أصبح « بنيامين » أكثر لصوقاً بحميه وعمّه فى هذه الفترة ، فكان يتردّد عليهما كثيراً ، وقد أحسّ بانتمائه إليهما ، وبأن دماءهما تجرى فى عروقه ، فتعامى كثيراً عن عيوبهما ، وأخذ بنصائحهما فأقبل على الحياة وحرص على جمع المال ، وقد أشارا عليه أن يقيم مزرعة للخيول الأصيلة ، وقد وعداه أن يباع نتاجها بأسعار جيّدة إلى الرومان ، كما شجّعاه على الادخار واستثمار أمواله بإقراضها بربا ، وقد علّماه طريقة سهلة للتحايل على الشريعة ؛ حتى يتمكن من أن يقرض اليهود بربا ، فما عليه إذا أراد أن يقرض يهودياً إلاّ أن يقول له قد بعتك هذا الرداء – أو أى شيء آخر لا قيمة له – بمبلغ كذا ويحدّد المبلغ الذى سيتقاضاه زيادة على القرض ، وحينما يقول له المقترض قد قبلت ، يقول له إذاً أنت مدين لى بهذا المبلغ فسأضيفه على المبلغ الذى ستقترضه ويكتب ورقة دين بالمبلغ كلّه تظل معه حتى ساعة الوفاء ، فإذا حانت ساعة الوفاء بالدين ، وأراد المقترض أن يؤجل الدين ، يبيعه شيئاً آخر تافهاً ويكتب به ورقة قرض ، وهكذا حتى يدفع كلّ ما عليه ، أو يساق إلى الجند فيسجن ، مما يضطّره إلى السداد قدر ما يستطيع .

.. ولم تمض بضعة أشهر ، حتى أحسّ « بنيامين » بأن حياته قد أصبحت مليئة بالمشاغل والأعمال ، شأنه فى ذلك شأن العظماء ، فهو يتردد على بيت عمّه وبيت حميه ، ويلتقى هناك بعلية القوم وأثريائهم ، ثم هو يباشر مزرعته الجنوبية ، ومزرعته الشرقية ، والتى بها مشروع تربية الخيول ، ثم هناك معاملات مادية كثيرة أصبحت تربطه بالآخرين .. ورغم أن إيزابيل كانت فرحة بتغيّره هكذا ، وكانت تحرص على إرضائه ، إلا أنه شعر بأن من حقّه بعد كل هذا الجهد أن يحصل على شيء من المتعة ، ولم لا وقد عرف أن كل الكبراء مثل عمه وحميه لهم جلساتهم الخاصة ، لذلك فقد تملّكه الشوق « لسيمون » فقرر أن يذهب إليها .

.. عاد « بنيامين » إلى « سيمون » بشوق أنساها كل غضبها عليه ، وقد أحسّت بأنه يعود إليها هذه المرة بكامل وعيه وإرادته ، وأن الأمور قد تستقيم بينهما كما تودّ وتشتهى ، فغمرته بحبها وإهتمامها ، وأحكمت شباكها حوله ، فلابد أن تراه كلّ ليلة ولو للحظات ليعتذر إليها بمشاغله أو بحاجته للراحة فى بيته ، أو على الأقل يرسل إليها من يحمل اعتذاره ، المهم أن تشعر باهتمامه ، وبأنه لا يغيب عنها دون أن يبدى أعذاراً ، كما كان يفعل سابقاً ؛ لتظلّ جمرة الحب مشتعلة بينهما دوماً . ولم يعد « بنيامين » يهتم بعشّاق « سيمون » ، فكل ما يريده أن تكون له حين يلقاها بكل عواطفها الصادقة ، فهو يستمد من حيويّتها وأقبالها على الحياة ما يروى روحه الظمأى إلى الحب والمتعة الصافية .

.. ظلّت علاقة « بنيامين » « بإيزابيل » على أحسن حال ، فهى سعيدة بإقباله على حياته ، وبرضاء أبيها عنه ، وبنجاحه فى العمل ، كما أنه أصبح عطوفاً معها ، فهى تنعم به رغم مشاغله الكثيرة أكثر من ذى قبل ، فهو فى صورته الجديدة ممتعاً أكثر وقريباً إلى قلبها ، فهى تحب أن تراه رجلاً قوياً تجد سعادتها منضوية تحت جناحه ، أمّا سهره الكثير وعودته أحياناً مفرطاً فى الشراب ، فهذا شيء من حقه ، فهو رجل يحب المتعة ويبحث عنها وهذا لا يضيره ، خاصة وأنه رجل كامل تحسدها عليه كل النساء .

.. مرّت الأشهر متتالية على « بنيامين » وهو غارق فى حياته الجديدة ، وقد أحسّ بأن حياته قد استقامت ، فهو ناجح بين الرجال سواءً فى عالم المال أو عالم الحب ، ورغم أنه لاحظ أن من يعملون معه أو عنده أصبحوا أقل حباً له ، إلا أنه اقتنع بأنه يبحث عن الاحترام وليس عن الحب ، وبالفعل فقد زاد احترامه من الجميع .

.. حدثت فى هذه الفترة حادثتان كان لهما أثراً عميقاً على بنيامين ، أماّ الأولى فقد أشتد المرض على أمّه ، وقد نجح فى إقناعها بعد إلحاح وبعد أن أصبح الألم الذى ينتابها مبرحاً ، بأن تذهب إلى « أنطاكية » للعلاج ، ولكن الأجل وافاها هناك ، وأصرّ هو على تحنيطها ونقلها لكى تدفن بجوار أبيه ، وقد ساعده على ذلك برودة الجو شتاءً حيث تراكمت الثلوج على قمم الجبال ، وقد أحدث موتها فى نفسه ألماً وحزنا لم يحس بمثلهما طوال حياته من قبل ، فرؤية الموت أو السماع عن الموت شيء ، وأن تفقد إنساناً قريباً عزيزاً شيء آخر ، لقد أحسّ بنيامين أن هذه هى المرّة الأولى التى يدرك فيها معنى الموت وقسوة مصير الإنسان ، وأن كل شيء باطل الأباطيل وقبض الريح ، وامتلأت نفسه رهبة وأسىً عميقاً ، وخطر له أن الإنسان ينتمى فعلاً إلى عالم آخر غير هذا العالم ، وأنه إنما يقضى على هذه الأرض زمناً ثم يعود إلى عالمه القديم ، وتذكر على الفور عالم « يسوع الناصرى » ، وعالم « المعمدان » اليس عالمهم أقرب إلى الحقيقة من هذا العالم الزائف الذى يعيش فيه ؟ .. ومرّت الأيام ولم يستطع أن يتوقف « بنيامين » عن حياته التى كان قد انغمس فيها ، وخفّ الحزن تدريجياً من القلب ، وعاد « بنيامين » إلى ما كان عليه .

..أماّ الحادثة الثانية والتى هزّته أيضاً ، فإنه قد رأى بعينيه فتاة فى عمر الزهور ، رآها « بنيامين » كغزال شارد خائف تطارده الذئاب ، لقد كانت تساق إلى الرجم .. كان فى عينيها نظرة ذعر وخوف ورعب لن ينساها أبداً ، وتمنى لو كان قادراً على حمايتها ، ولكن أنَّى له ذلك ، وفى عيون الرجال حقد المحرومين من مثل هذا الجمال المذبوح ، وفى عيون النساء الغيرة والضغينة أن حباها الرب بكل هذا الجمال .. وأصاب

الفتاة حجر فى رأسها فتدفق الدم على وجهها وانكفأت على الأرض وهى تصرخ صراخاً أليماً يذيب القلب ، حتى أن بعض راجميها أشفقوا عليها ، وتقدم أحدهم بحجر كبير ليقضى عليها ويخلّصها من هذه اللحظات المريرة . كانت هذه الفتاة قد ظهر عليها أعراض الحمل ، ولمّا كانت فقيرة وتعمل فى خدمة البيوت ، فقد عجزت أن تداوى فضيحتها ، وكادت أن تمرّ هذه الحادثة وتنقشع من خيال « بنيامين » ، لولا أن علم أن هذه الفتاة كات تعمل خادمة عند حميه « نفثائيل » ، ووصل الى مسامعه ما يتهامس به الناس سراً بأن والد ابنها لم يكن سوى « نفثائيل » ، ولكن هل يجرؤ أحد أن يتكلم علناً فى هذا الأمر ، حتى « بنيامين » نفسه أقنع نفسه بأن هذا أمر مشكوك فيه فلا يمكن أن يدان رجل لمجرّد إشاعة قد تكون كاذبة ، ولكن « بنيامين » فى أعماقه لم يستبعد على حميه « نفثائيل » أن يفعل شيئاً كهذا ، خاصة بعد أن عرف عنه فى هذه الفترة الشىء الكثير .

* * *

اللوحة الثانية عشر



إيليا يبشر في أورشليم





.. أحسّ إيليا منذ أن ترك « أورشليم » وعاش فى كنف المسيح ، أنه قد بدأ رحلته نحو عالم السماء ، فما هو على الأرض إلاّ مسافر ، سيأتى يوم تنتهى فيه رحلته ،ويعود إلى عالمه ، عالم الراحة والخلود ، مع الأنبياء والصدّيقين والصالحين ، حيث السعادة الأبدية .. ومنذ أن قال لهم المسيح :

« .. إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ، ويحمل صليبه كل يوم ويتبعنى ، فإن من أراد أن يخلّص نفسه يهلكها ومن يهلك نفسه من أجلى يخلّصها .. » شعر الجميع أنهم جنود مقبلون على معركة كبيرة ، فلابد أن يكون استعدادهم لها دائماً ، وأن تكون يقظتهم متصلة ؛ حتى لا يفاجئهم الموت وهم غافلون . ولم يكن لهم من إستعداد إلاّ الصلاة ، فهم يصلّون قبل شروق الشمس ، وضحىً ، وظهراً ، وعصراً ، وعند الغروب ، وآناء الليل ، فهكذا علّمهم المسيح « .. صلّوا بلا انقطاع »

.. كان « إيليا » وهو قريب من المسيح وحوارييه يحسّ أنه فى درجة الاستعداد القصوى ، فهو يصلى بحرارة ويحسّ أنه قادر على أن يواجه الموت فى سلام ، وأنه قريب جداً من عالم السماء ، بل تختلط عليه الأمور أحياناً فيستيقظ من نومه وقد ظنّ أنه بعث للحياة من جديد ، وأحيانا يرقد للنوم وهو يشك فى أنه سيستيقظ مرّة ثانية ، لذلك فقد كان يردّد عندما يرقد للنوم « .. قلبى يدعوك ياربى فإرحمنى واستجب لى ، لقد قلت يا ربى اطلبوا وجهى . وجهك يارب أطلب .

لا تحجب وجهك عنّى . لا تسخط علىّ يارب فأخيب . قد كنت عونى . فلا ترفضنى ولا تتركنى يا إله خلاصى » .. حينئذ يشعر بالسلام ويذهب فى النوم وكان إذا استيقظ يقول : « .. إليك يارب أرفع نفسى يا إلهى عليك توكلت . فلا تخزنى ولا تشمت بى أعدائى .. طرقك يارب عرّفنى . سبلك علّمنى . لأنك أنت إله خلاصى ، وإياك رجوت النهار كلّه . لا تذكر خطايا صباى ولا معاصىّ . ولكن رحمتك يارب وإحسانك لأنها منذ الأزل هى .. » ، وكانت هذه الكلمات التى حفظها من مزامير داود وغيرها هى زاده فى كل وقت ، لقد سمع هذه الكلمات تتردد على لسان « يسوع » وتلاميذه فأحس كأنه يسمعها لأول مرة ، وبأنها تنطق بكل معانى الحياة النابضة ، واذا أحسّ « إيليا » بلحظات الخوف من المجهول الغامض أمامه ، أو مما قد تأتى به الأيام فى الغد ، ردّد : « الرب نورى وخلاصى ممّن أخاف ؟ الرب حصن حياتى ممّن أرتعب . إن نزل على جيش لا يخاف قلبى . إن قامت علىّ حرب ففى ذلك أنا مطمئن . واحدة سألت من الرب وإيّاها ألتمس . أن أسكن فى بيت الرب كلّ أيام حياتى لكى أنظر إلى جمال الرّب وأتفرّس فى هيكله .. »

.. وإذا أحسّ « إيليا » بنوازع الشرّ فى نفسه ، صرخ مستغيثاً بالرب « .. إليك يارب أصرخ . يا صخرتى اسمع لى . لا تتركنى فأكون كالهابط فى الجب . استمع صوت تضرّعى إذ أستغيث بك وأرفع يدىَّ إلى محراب قدسك . لاتجذبنى مع الأشرار ومع فعلة الإثم المخاطبين أصحابهم بالسلام والشرّ فى قلوبهم .. »

.. وقد علّمهم المسيح أن يخاطبوا الله بما فى قلوبهم ، وألا يردّدوا كلمات حفظوها دون وعى منهم « .. وحينما تصلّون لا تكرروا الكلام

باطلاً كالأمم ؛ فإنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يستجاب لهم .. » ..
وعلّمهم كذلك أن يصلّوا قائلين : « أبانا الذى فى السموات ليتقدّس اسمك . ليأت ملكوتك . لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض . خبزنا كفافاً أعطنا اليوم . واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا . ولا تدخلنا فى تجربة . لكن نجّنا من الشرير ؛ لأن لك المُلْك والقوّة والمجد إلى الأبد . آمين » .

كانت هذه الصلوات المتصّلة تغذى روح « إيليا » ، وتجعله يشعر بالأمن والسلام ، ولكن المشكلة كانت فى الأوقات التى يبتعد فيها عن موكب المسيح ، فحينما يهبط إلى مدينة أو قرية ، تعود إليه طبيعة الأرض ونوازعها ، وتخطر الشهوات على قلبه ، حينئذ ينتابه القلق ، ويتذكر قول يسوع : « .. إذا أعثرتك عينك فاقلعها .. » فيدفعه الرعب إلى الفرار والعودة إلى حظيرة « يسوع » ، وقد شكا هذا إلى أحد الحواريين المقرّبين يدعى « يعقوب » ، كان « إيليا » قد اتخذه أخاً ومعلماً يأنس إليه ويفتح له قلبه ، فطمأنه يعقوب إلى أن هذا هو حالهم جميعاً ، فالشيطان لن يتوقف عن مطاردة الإنسان حتى الموت ، وقال له : بأنهم لا يمكن أن يعيشوا حياتهم كاملةً على نفس الحالة التى يكونون فيها بين يدى « يسوع » ، ذلك لأن الإنسان خلق من التراب ليخطىء ، ولكنهم بين يدى « يسوع » هم أقرب إلى الملائكة ، ولا يمكن أن يدوم حالهم هكذا فلا يخطئون ، وأنه لا ينبغى أن ينزعج من ذلك ، فالله يحب من يخطىء ثم يتوب ويرجع إليه نادماً ، وقد علّمهم « يسوع » أن الله يفرح بعودة التائب إليه ، فاطمأن « إيليا » لهذا الكلام ، وعرف أنه يسير فى طريق الرب ، وأنه لن يهلك مع الهالكين .

.. كان المسيح يرسل تلاميذه إلى المدن والقرى ؛ لكى يبشروا بالإنجيل ، ولكن « إيليا » حرص على ألا يذهب معهم ، ليظّل قريباً من « يسوع » وحوارييه ، لأنه كان يحسّ بأنه مازال أقل من أن يحمل كلمات الله إلى الناس ، وأنه يعجز أن يعيش قديساً بين الأشرار ، ملاكا بين الخطاة ، لذلك ظلّ رفيقاً « ليعقوب » لايكاد يفارقه أو يفارق موكب « يسوع » وكان الموكب فى هذا الوقت يتجّه من جديد نحو « أورشليم » ، وحينما اجتاز الموكب أريحا ، إذا رجل اسمه « زكّا » وهو رئيس العشارين وكان غنيا ، وكان يطلب أن يرى « يسوع » ولم يقدر من الجمع الكثير حوله ؛ لأنه كان قصير القامة ، فركض متقدِّماً وصعد إلى جميّزة لكى يراه ، فلما جاء المسيح إلى المكان نظر إلى فوق فرآه وقال له : « يازكّا » أسرع وانزل لأنه ينبغى أن أمكث اليوم فى بيتك ، فأسرع ونزل فرحاً ، فلماّ رأى الجميع ذلك تذمّروا قائلين : إنه دخل ليبيت عند رجل خاطىء ، فوقف « زكّا » وقال : هأنذا يارب أعطى نصف أموالى للمساكين ، وإن كنت قد وشيت بأحد أعطى أربعة أضعاف .

.. فى بيت « زكّا » شاهد « إيليا » بناته ، فتذكر صديقه « داود » الذى كان يحلم أحياناً أن يتزوج من ابنة « زكّا » ؛ لأنه رئيسه ولأنه غنى وأمواله كثيرة .. وقد أعجب « إيليا » بإحداهن وتمنى أن تكون هذه زوجة له ، فأخبر « يعقوب » بذلك ، فسأله يعقوب :

– وهل تريد أن تمكث معها فى أريحا ؟

– لا بالطبع ، ولكن يمكنها هى أن تأتى معى أينما ذهبت .

– وهل تراها تصلح أن تكون لك أختاً تتحمل معك مثل هذه الحياة القاسية ؟

..أفاق « إيليا » من أحلامه ، وفكّر قليلاً فى كلام « يعقوب » ثم قال آسفاً :

– الحق ما قلت . نعم نطقت بالحكمة . مثل هذه الفتاة لا تصلح لذلك . بل أنا أظلمها إن طلبت منها شيئاً كهذا . إنها فتاة خلقت للبيت لا تغادره ، فإماّ أن أبقى معها أو أتركها فى سلام . .

.. كانت نظرات الفتاة مشجّعة « لإيليا » ؛ لكى يتقدم ويطلبها من أبيها . إنها نظرات تحمل كل معانى الحب الطاهر العفيف . أيمكن أن يكون الحب من أول لقاء هكذا ؟ . انها المرّة الأولى التى يكون محبوباً فيها من امرأة ، فكيف يقاوم ذلك ؟ .. ولكن أنّى له ذلك الآن ، إنه وجميع من حوله يترقبون حدثاً عظيماً فى « أورشليم » ، والمستقبل غير واضح أمامه ؛ لذلك فقد حزم أمره أن يطرد هذه الفكرة من عقله ، إنها فتاة لا يتمنى الآن غيرها ، ولكنها سيّدة تحتاج إلى بيت تستقر فيه ، وهو رحّالة لا يقر له قرار .. ولكنه وهو يودّعها لم ينس أن يقول لها : إنه يتمنى أن يكون هناك لقاء'' قريب'' بينهما .

* * *

.. غادر موكب المسيح « أريحا » متجهاً إلى « أورشليم » ، وصل إلى جبل الزيتون ، وعند قرية « بيت عنيا » توقف الركب ، وانتشر التلاميذ بين « بيت عنيا » ، و « بيت فاجى » والبساتين المنتشرة على الجبل ، وكان الجميع فى حالة توتر كأنهم مقبلون على معركة وشيكة ، فقد نما إلى سمعهم أن هناك مؤامرات لقتل المسيح ، وأن بعض الفريسيين قد حذّروا المسيح من أن « هيرودس » يريد قتله ، كما لوحظ أن هناك كثيرا من الجواسيس جاءوا من قبل الكهنة ورؤساء الهيكل ، وأن هناك محاولة لمنع المسيح من دخول « أورشليم » حتى لا يلتقى بجموع الحجيج

الذين وفدوا من الشرق والغرب – ولعلّ الأخطر من كل ذلك ، والذى أصاب الجميع بقلق مبهم ، هو كلام « يسوع » نفسه ، فهو يتكلم أحيانا كأنه سيفارقهم قريباً ، وحينما سأل « إيليا » « يعقوب » عن ذلك وأخبره بمخاوفه ، طمأنه « يعقوب » تماماً ، وقال له : إن يسوع باقٍ بينهم ، ولن يستطيع أحد أن يمسّه بسوء ؛ لأن ملائكة الله تحميه وتنصره .

.. ترك « إيليا » جبل الزيتون وذهب إلى « أورشليم » ، إنه يريد أن يبشر « بيسوع » كما يفعل باقى التلاميذ ، وَلِمَ لا وله أصدقاء يطمع فى إيمانهم فى أورشليم ، فلماذا لا يحاول محاولة أخرى مع « بنيامين » ، إن « لبنيامين » عقلاً يرجو من الرب أن يهديه إلى الحق ، وكذلك لماذا لا يحاول مع « يوقيم » ، و « داود » ، والآخرين أ؟ ، لقد آن الأوان أن يبذل جهداً لنصرة « يسوع » ، لابد أن تعرف كل « أورشليم » أنه هو المسيح الذى انتظروه طويلاً ، وأن عنده الخلاص ، لابد أن يقف الشعب معه ضد مكائد أعدائه الأشرار ، الذين يكيدون له ويحاولون إيذاءه .

..ونجح « إيليا » فى أن يجمع رفاقه الثلاث فى بيت « بنيامين » ، وأدرك عند رؤيته « لداود » والذى لم يكن رآه من فترة طويلة ، مدى ما أصابه من نعمة ورفاهية ، وكذلك « بنيامين » تبدو أحواله على مايرام ، أماّ « يوقيم » فكما هو كأنه قد تركه بالأمس .. وجاءت الخادمة بالشراب ، فمزج « إيليا » الخمر بكثير من الماء قبل أن يشربها . فقال « بنيامين » مداعباً :

– هل تعلمت ذلك أيضاً من « يسوع الناصرى » ؟ !

.. ابتسم « إيليا » فى محبة ، وكان « داود » قد اتكأ ورفع إحدى

ساقيه على الأخرى فى استعلاء وهو يقول :

– هل أصبحت يا « إيليا » حقا من اتباع هذا الرجل ؟

.. فكظم « إيليا »غيظه وأجاب فى هدوء :

– إنه ليشرّفنى أن أكون من أتباعه .

.. ابتسم « بنيامين » ، وقال مازحاً بروح فكهة :

– آه . يبدو أنك لست من أتباعه فقط ، بل من أتباعه المخلصين .

.. فقال يوقيم جاداً كعادته :

– فى الحقيقة يجب أن نأخذ هذا الأمر مأخذ الجد . « فيوحنا » حقاً كان نبياً عظيماً ، ولكنه عاش مع تلاميذة بعيداً فى الصحراء ، فمن يرد أن ينال بركته أو يتعلّم منه ، فليذهب إليه ، و لم يختلف الناس حوله ، فالجميع يرونه رجل الله الصادق .. أماّ « يسوع الناصرى » فأمره يختلف كثيراً ، لأنه يتنّقل بين المدن والقرى وأتباعه ينتشرون بيننا ، وقد أحدث أنقساماً كبيراً بين الناس ، فالبعض يقدّسه حتى يجعله المسيح المنتظر ، والبعض يرى أنه ساحر أو دجّال ، بل هناك من يقول بأنه ابن زانية ، وكل طرف يتحمّس لآرائه .. فهل تتصورون أن جارا لنا قد إختلف مع امرأته حول « يسوع » ؛ لأنها تمدحه وتعظمه فطلقها ، فقد سمعت « يسوع » منذ أكثر من عام فى الهيكل ، فأُحبته وآمنت به من كل قلبها ، ولماّ كان زوجها يكرهه ولا يرى فيه خيراً ، وكان عليها أن تطيعه . ولكنها أصرّت على موقفها فافترقا .

.. قال « بنيامين » مستنكراً :

– أو يمكن أن يطلّق رجل امرأته من أجل ذلك ؟

– إنه يعمل فى الهيكل ، ولعّله خاف أن يقال عنه : إنه من اتباع « يسوع » . والحمد للرب أنهما لم ينجبا أولاداً .. ولماذا تتعجب ؟ ..

أنت تعرف إبن عمى ، هذا الشاب الذى رأيته عندى يوماً فى الحانوت وتكلّمت معه . إن له أباً مريضاً وهو يحتاج إليه ، ولكنه ترك البيت وذهب وراء « يسوع » ، وحينما مات الأب كان بعيداً ، ولم يحضر جنازته ، مما أثار حنق الأهل على « يسوع » ، وعماّ يفعله بعقول الشباب .. وحالات كثيرة نسمع عنها هذه الأيام ولم نذهب بعيداً وهذا « إيليا » قد ترك كل شيء لكي يتبعه ؟ !

.. فقال « داود » :

– كل هذا بسبب ما يقوم به من سحر وشعوذة ، إنه يدّعى أنه يشفى المرضى ويشيعون عنه أنه يحيى الموتى ، فهل يؤثر فى الشعب شيء أكبر من هذا ؟

.. قال « بنيامين » موجهاً حديثه « لإيليا » ومتجاهلاً كلام داود :

– أنا بنفسى رأيت كيف شفى زوبولون . وقد سمعنا قصصاً كثيراً من آخرين ، ولكن هل تعتقد أنت يا « إيليا » أن « ليسوع » قدرات خاصة ، أو علم خاص ، به يستطيع أن يفعل ذلك ؟ خاصة وأننا قد سمعنا أنه قد علّم بعض تلاميذه طريقته هذه ، فهم يقومون بنفس هذه الأعمال بين الشعب .. أريد أن أسمع رأيك ، وهل تعلّمت أنت شيئاً من هذا القبيل ؟ فهذا أمر محيّر حقاً .

.. أجاب « إيليا » فى هدوء وفى صوت عميق :

– لقد رأيت أشياء كثيرة كهذه تحدث أمامى ، وعرفت أن تلاميذه المقربون قد فعلوا أشياء كهذه أيضاً .. ولكن لابد أن نعلم أنه لا « يسوع » ولا تلاميذه يفعلون ذلك بقدرتهم الخاصة ، أو بعلم خاص يتعلّمونه ، ولكن هذا من عند الله ، فمن يؤمن يشفى ومن لا يؤمن

لا يشفى ، فقد قالها « يسوع » أكثر من مرّة لمن حظى بنعمة الرب فشفى من مرضه فكان يقول له : .. إيمانك قد شفاك » .. أى أن الإيمان هو الذى يشفى ، فالإيمان شرط للشفاء . لأن الشفاء من عند الرب .

.. فقاطعه « بنيامين »

– ولكن أنتم تقولون : إنه يحيى الموتى . فكيف يكون هذا قد أحياه إيمانه أيضاً ؟

– ..قد يكون إيمان أهله الذين طلبوا من « يسوع » أن يشفيه .. ثم أن « يسوع »إنما يفعل ذلك لكى يطمئن الناس إلى أنه إنما يتكلم ليس من عنده ، ولكن من عند الله الذى أرسله ، فيؤمنوا ويتقبلوا كلمات الله ، فما هذه الأمور إلاّ برهان لكى يؤمن الناس بأن الرب هو الذى أرسل « يسوع » ، فالمطلوب هو أن يؤمن الناس بالرب .

..فقال « داود » بلهجة ساخرة مستنكرة :

– وهل نحن كفرة حتى نؤمن ؟ هذا كلام يقال للأمم الوثنية ، أماّ أن يقال لأبناء إبراهيم ، فهم وحدهم فى هذا العالم الذين لا يؤمنون بالله ويعرفونه . وهل كلّ ما يصيب اليهود من بلاء وعداء إلاّ بسبب إيمانهم بالرب إله « يعقوب » دون سواه من آلهة ؟

.. سكت « إيليا » حزيناً ، وأحس بأنه يريد أن يستجمع شتات فكره ليبحث عن مدخل مناسب للحديث يستطيع به أن يوضح لهم ما يؤمن به ، ولكن « يوقيم » سأله فى اهتمام :

– هل تعتقد يا « إيليا » أن « يسوع الناصرى » هو المسيح حقاً ؟

.. فقال إيليا بلهجة حزينة :

– هو لا يقول عن نفسه : إنه المسيح . ولكن الناس تقول عنه

ذلك . وهو لا ينكر هذا أيضاً .

.. فقال « يوقيم » مستوضحاً :

– كيف ؟

– لقد ظلّ فترة طويلة لا يقول عن نفسه إنه المسيح ، ولكن حينما عرف التلاميذ والناس أن هذا الرجل لابد أنه المسيح ، سأله التلاميذ عن ذلك فلم ينكر أنه المسيح ؟

– وإذا كان المسيح حقاً ، فلماذا لم يقل عن نفسه ذلك منذ البداية ؟

– كان لابد أن يستوثق أولاً من ايمان تلاميذه ، ثم إن القضية فى نظرى ليست من يكون « يسوع » ، وهل هو « إيليا » أم النبى أم المسيح ؟ ، القضية هى هل هو يتكلم من عنده أم من عند الله ؟ ، فإذا كان يتكلّم من عنده فهو كما يقول عنه أعداؤه ، أماّ إذا كان يتكلّم بلسان الرب ، فكل ما يقوله علينا أن نؤمن به ونصدّقه ونطيعه . « فالمعمدان » لم يقل عن نفسه أنه « إيليا » . ولكن نحن نعرف الآن أنه هو « إيليا » ، الذى كنا ننتظره .

.. وفجرّت كلمات « إيليا » الأخيرة الموقف ، فابتسم « داود » فى سخرية المنتصر ، وظهرت على « يوقيم » علامات الدهشة والاستنكار ، وأراد « بنيامين » أن يصلح كلام « إيليا » شفقة عليه فقال له :

– أنت لا تقصد طبعاً أن « المعمدان » هو « إيليا » ، تقصد أنه يشبهه مثلا ؟

.. فقال « إيليا » فى هدوء وهو يكتم ما فى صدره من جيشان :

– ألم تقرءوا فى أمثال سليمان : « .. مجد الله إخفاء الأمر .. » ؟

وهل جاءت نبوءة واضحة فى كلام الأنبياء ؟ أليست كلها رموز تحتاج إلى تفسير ؟ .. وهل يعقل أن يبعث الله « إيليا » من الأموات ليرسله للناس من جديد ؟ ولماذا ؟ وهل لو عاد « إيليا » اليوم يعرف لسان الناس الآن ولغتهم ؟ إن لغته القديمة لن يفهمها إلاّ بعض الكهنة . إن من يرسله الله يكون دائماً رجلاً من الناس قد عاش بينهم وعرف عاداتهم وخطاياهم وأفكارهم ؛ لكى يعرف كيف يصل بكلمات الله إلى قلوبهم ، ولكى يكون بسلوكه بينهم مثلاً يحتذى ؛ فيفعلوا مثله . إن « إيليا » كان قبل شتات بابل بحوالى ثلاثة قرون وهذا زمن قريب من أيام الملك « سليمان » ، وكان نبيًّا فى مملكة « آخاب » ملك إسرائيل ، بينما كانت « أورشليم » تحت حكم « يهوشافاط » بن « آسا » ملك يهوذا ، وهذا تاريخ قديم ، فحينما تتحدث النبواءات عن مجىء « إيليا » ، فهى إنماّ تعنى أن الله سيبعث رجلاً يحمل روح « إيليا » وقوته ، ويؤدى مثل رسالته ، ولا يمكن أن تعنى أن « إيليا » سيبعث من بين الأموات .

.. سكت الجميع متفكّرين ، وقال « يوقيم » :

– هذا كلام عجيب ، ولكنه تفسير حسن . والعاقل يجد فيه عزاءً وقبولاً .

.. وتنهد « بنيامين » ثم قال :

– تفسير معقول .. ولكنه يحتاج إلى إمعان فكر . فحقاً تبدو فكرة بعث « إيليا » من بين الأموات فكرة غير مقبولة ، و« المعمدان » يحمل روحاً شبيهة بروح « إيليا » حقاً . لذلك فليس من الصعب أن أتفق معك فى أن « يوحنا » هو بديل عن « إيليا » الذى ننتظره . ولكن يبدو أن كلامك هذا تمهيد ؛ لكى تثب لنا أن « يسوع الناصرى » هو المسيح الذى ننتظره . أليس كذلك ؟

.. أجاب « إيليا » وقد شعر بأن روحه قد امتلأت ثقة وإيماناً :

– نعم .. فالناس يعتقدون بأن المسيح الذى سيجىء هو ملك محارب « كداود » ، وأنه سيفتح بهم العالم وَيهزم الأمم ويعيد لليهود أمجادهم وملكهم الضائع ، وهم معذورون فى ذلك ، فكلمة المسيح جاءت دائماً بمعنى ملك اليهود ، فهم يقرءون عن نبى الله « صموئيل » ، وكيف أمره الرب أن يمسح « داود » رئيساً لشعب إسرائيل ، وكيف قال الرب « لإيليا » « . امسح « حزائيل » ملكاً على آرام .. وامسح « ياهو » ملكاً على إسرائيل .. » ، وكان الملك « داود » يسمى مسيح إله يعقوب » ، ومسيح الرب .. فالناس اختمر فى ذهنها أن المسيح سيأتى ملكا يحارب بهم أعدائهم ، وينتصر بهم على العالم كلّه .. ولكن أن يأتى المسيح ليقول لهم : إنكم تركتم طريق الرب ؛ لذلك فلن تكون لكم مملكة بعد اليوم ، فهذا يصعب عليهم أن يقبلوه ..

.. سكت « إيليا » ، والجميع منصتون له ، ينتظرون أن يكمل حديثه ، ولكن « إيليا » بدا كمن أنهى حديثه ، فقال « بنيامين » مستنكراً :

– كلامك هذا يدينك يا « إيليا » . فأنت قلت : إن المسيح هو ملك اليهود الذى ينتظرونه ليعيد لهم أمجادهم وينصرهم على أعدائهم . وهذا صحيح . فهل رجلك هذا يصلح لذلك ؟

– أى أمجاد هذه التى تتكلمون عنها ؟ ، أو كل ما يهم هذا الشعب هو أن ينتقم من باقى الأمم ويسقيهم من كأس الذلّ التى تجرّعها .

استفزّت هذه الكلمات « بنيامين » فقال محتداً :

– لست أدرى هل أنتم أتباع « يسوع » تكرهون هذا الشعب أم تحبونه ؟ فلم أر أحداً مثلكم يسخر منه ويتنبأ له بالخراب .

.. وأحس « إيليا » بتوتر أعصاب رفاقه ، وبأن كلّ منهم متحفز لأن يتكلم ، وبأنه سيواجه عاصفة شديدة بدت له بوادرها ، وأنهم لن يكتفوا بالمعارضة ، بل سيتحوّلون إلى السبّ والتجريح ، ولكنه قرر أن يخوض المعركة إلى نهايتها ، فقال فى تحدٍّ :

– نحن أكثر الناس حباً للشعب ورغبة فى الخير له ، ولكنك تنسى أن « أرمياء » من قبل قد تنبأ بخراب أورشليم ، وكلنا يعلم أنه نبى الرب الصادق ، ولم يكن كارها للشعب ، بل مشفقاً عليه محباً له .. والمسيح الذى ننتظره ، أقول لكم : إنه ليس ملكاً على المدن والقرى والممالك ، ولكنه ملك على القلوب والأرواح ، إنه يخلّص الأرواح من الشرور والآثام ، وليس مخلّصاً من أيدى الغزاة ، إن مملكته لن تكون على الأرض ، بل هى مملكة خالدة فى السماء

– إذاً فأنت تؤمن بأن ملك اليهود لن يعود أبداً ؟

..سكت « إيليا » قليلاً ثم تكلم بشجاعة :

– نعم أومن بذلك .

.. فانفجر « داود » متصنعاً الغضب ، وقد وجد الفرصة ليهاجم بشراسة

– أنا أعتقد أن من ينشر مثل هذه الأفكار يستحق الموت . فهذه خيانة ظاهرة للأعمى ، أن أشدّ أعداء اليهود لا يمكن أن يقولون أكثر من هذا .

ابتسم « إيليا » فى تسامح ، وأراد « بنيامين » أن يخفف قليلاً من كلام داود الذى لا يثق دائماً فى دوافعه ، فقال فى ذكاء :

– لابد أنك يا « إيليا » تعتقد أن نهاية العالم قد أصبحت وشيكة ؛ لأن نهاية هذا الشعب إلى غير رجعة تعنى نهاية هذا العالم وقيام الدينونة ؟

.. أجاب « إيليا » فى هدوء وثبات :

– لقد قال المسيح : إنه لا يعلم أحد تلك الساعة ولا حتى الملائكة ، لا يعلمها إلاّ الله وحده فقط .. ثم إنه قبل الدينونة لابد أن يأتى النبى أولاً .

.. قال « بنيامين » ، وهو يحاول أن يكتم غيظه ، حتى لا يعطى « داود » مبرراً فى أن يزيد الموقف اشتعالاً :

– إذا كانت أمّة اليهود حقاً ستنتهى . فلماذا يرسل الله مسيحه ، هل جاء يشيّع جنازة هذا الشعب وينوح عليه ؟

.. أجاب « إيليا » بقوة غبط نفسه عليها :

– جاء بالحق .. الحق الذى يحرر المؤمن من كل عبودية .. عبودية الخطيئة والشهوات .. عبودية المال والطاغوت .

.. قال « داود » فى جفاء واستكبار :

– نحن أبناء إبراهيم ولدنا أحراراً . ولم نستعبد قط . وإن كان هناك من يريد أن يحررنا . فذلك يعنى أنه سيحررنا من الرومان . فهل صاحبك يقف ضد الرومان ؟ . الجميع يعلم أنه عميل لهم .

.. تدخّل « بنيامين » ليصحح من كلام « داود » فقال :

– لقد استعبدتنا شعوب كثيرة ، وكنا ننتظر من المسيح أن يأتى ليحررنا من الرومان الذين يستعبدوننا الآن ، لترجع إسرائيل ويهوذا مملكة واحدة قويّة أمام العالم كلّه . ولكن مسيحكم يعترف بالرومان سادةً لنا . فهو يقول دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، بل ويدفع هو وتلاميذه الجزية لقيصر الروم صاغرا ، فأى مسيح هذا ؟

.. وعاد « داود » للحديث وقد نفذ صبره قائلاً فى غلّ شديد :

– إن هذا الناصرى لابد أن يقتل ، إن دعوته أخطر مما نتصور ، إنه يريد أن يقضى على ديننا وهيكلنا ، ويجعلنا عبيداً للأمم الأخرى ، إنه يقضى على روح القتال والتحدى ، ويقضى على الأمل فى أن يقف الرب معنا . نعم لابد أن يقتل ويسجن اتباعه ؛ لتنتهى هذه الأسطورة ، أنا أقول هذا رغم أنى أعمل عشاراً ، ألاّ أننى أحب أمتى وأتعصب لها ، ولست خائناً .

.. وتكلم « يوقيم » مهدئاً من ثورة « داود » :

– انتظر يا « داود » . نحن لا نتشاجر . وأنت تنسى أن « إيليا » صديقنا قبل كل شيء ، إننا نريد أن نعرف الحقيقة . إن الغرض من هذا الحديث أن نعرف من « إيليا » كل شيء عن « يسوع » وعن دعوته ، بل وعن أفكار قلبه وطموحاته .

.. قال « إيليا » بإطمئنان الواثق المؤمن بكل ما يقول :

– إنه لا يرضى أن نكون عبيداً للأمم الأخرى . ولكن أولا يجب أن نتحرر من شهوات قلوبنا وخطايانا ؛ لكى نصبح معلّمين وهداة للأمم .. وأنتم تعلمون أن يونانيين ومصريين ورومان قد آمنوا « بيسوع المسيح » . بل أزيدكم علماً ، لقد آمن كثيرون من أعضاء السنهدرين سراً .

.. ظهر أثر هذه الكلمات على رفاق « إيليا » فلما لاحظ ذلك أضاف :

– بل هناك شخصيات كبراء وعظماء كثيرون قد آمنوا به . لقد شفى ابن خادم الملك فآمن به ، وقد رأيت بنفسى زوجة « بيلاطس »

ونساء كثيرات من علية القوم يستمعون إليه ، وآخرين وآخرين . صدّقونى إن كلمات الله ستسود وتنتشر وتكون لها الغلبة على كل الأمم ، وليس على شعب إسرائيل وحده ، إننا سنغلب العالم بهذه الكلمات التى ستنتشر بين الأمم فتزلزل الممالك كلّها .

علق « داود » على هذا فى هدوء قائلاً :

– وحتى لو آمن به « بيلاطس » نفسه . فلن يتركه رؤساء الهيكل ، لابد لهم أن يقتلوه .

.. فقال « إيليا » فى حزن وآسى :

– وأنت تقول هذا أيضاً يا « داود » ، نعم : إنهم حاولوا وما زالو يحاولون ذلك ، ومن يدرى فقد ينجحون فى ذلك للأسف ، فكم قتلوا أنبياء من قبل ، لطالما كانت « أورشليم » مقبرةً للأنبياء ، كأن هذا الشعب محتاج إلى جريمة أخرى أكبر ؛ لكى تضاف إلى جرائمه ، ما أسهل أن يصدر الكهنة أحكامهم بالقتل على كل الأبرار .

.. قال « بنيامين » مستنكراً مسألة قتل « يسوع » :

– بالطبع لا يمكن أن يوافق عاقل على قتل « يسوع » . لأن الفكر يحاور بفكر آخر . على الأقل نصبح كالإغريق الذين لا يعرفون الرب . أماّ القتل فهو فعل شرير ، ولا أعتقد أنهم سيقتلوه ، قد يسجنوه فقط ؛ حتى يتوقف عن نشاطه ، ولكن لا يمكن أن يقتلوه ، ولا أحد يوافق على هذا .

.. وسمعت أصوات طرقات على الباب ، وخرج « بنيامين » بنفسه ليرى من الطارق ، ثم سُمِع وهو يرحّب بالقادم ، فاطمئنوا إلى أنه صديق لهم ، ودخل « بنيامين » ومعه « حزقيال » ، فقاموا لمصافحته ، وفرح قلب « إيليا » كثيراً لمرآه ، فعانقه فى شوق ، وجلس « حزقيال » وهو يقول لإيليا :

– أحمد الرب أن لقيتك اليوم ، فقد اشتقت أن أراك وحرصت على ذلك .

.. ثم التفت إلى الحاضرين قائلاً :

– وكم اشتقت إلى هذه الجلسة بينكم ، فشكراً للرب لأنى أراكم جميعاً هكذا .. أنا لم أركم منذ رحلتنا « للمعمدان » . لقد مضى عامان على ذلك أو أكثر .

.. انقبض قلب « داود » لرؤيته حزقيال ، فقد بدا رغم بساطة ثيابه ، أكبر سناً وأقوى شكيمة ، وأكثر اعتداداً بنفسه عن ذى قبل ، بل هيأ إليه كأنه محارب عائد من معركة ، فلاذ « داود » بالصمت ، ولكنه أتكأ فى مجلسه ، ووضع إحدى ساقيه على الأخى فى تعاظم ، ورمقه « حزقيال » بنظرة حادة ، فابتلعها « داود » واستمر فى جموده وأبدى عدم المبالاة .. أما « بنيامين » فقد كان شغوفاً لمعرفة أخبار « حزقيال » فسأله :

– ماذا فعلت طوال هذه السنوات ؟ .. هل ظللت مع « المعمدان » ؟ هل كنت هناك حينما قتل ؟ وماذا فعل التلاميذ ؟ قصّ علينا فنحن فى شوق لمعرفة ذلك .

.. تنهد حزقيال ، وتوترت أعصابه قليلاً وأجاب :

– قتله الثعلب العجوز .. وهذا الشعب اللاهى السادر فى خطاياه ، ينظر ولا يبالى كأن الأمر لا يعنيه ، وكأن « المعمدان » ليس رجل الرب المرسل إليهم ، وكأن قتله لن يصيبهم بأذى ، ولن يجرّ عليهم غضب الرب ولعنته .

.. فقال « بنيامين » فى استفهام لا يخلو من استنكار :

– وماذا فعلتم أنتم تلاميذ « المعمدان » ؟

– لقد كناّ عل استعداد للقتال وللموت حتى لا تطوله يد « هيرودس » ، ولكنه هو رفض ذلك ، وقد أرسل الينا أن نتبع « يسوع الناصرى » من بعده .

.. فقال بنيامين مقاطعاً :

– وهل كان يؤمن بأن « يسوع الناصرى » هو المسيح ؟

– نعم .. إنه صديقه ، وابن خالته ، وهو أول المصدّقين به .

.. وأدرك « بنيامين » أن المعركة ستكون الآن أكثر شراسة ، « فحزقيال » يقف فى صف « إيليا » الآن ، ولكن « داود » لاذ بالصمت ، وتكلم « يوقيم » متسائلاً :

– هل « المعمدان »قريب للمسيح ؟ وابن خالته ؟

– نعم ابن خالته .

– و « المعمدان » قال : إن « يسوع الناصرى » هو المسيح المنتظر ؟

– نعم لقد قال لنا ذلك ، وقد صرّح للتلاميذ بأن يتبعوا المسيح ، وفعلاً ذهب البعض ليتبع « يسوع » وذلك فى حياة « المعمدان » ، أماّ بعد مقتله فكثيرون أصبحوا تلاميذ للمسيح .

.. وسكت « يوقيم » ، فتكلّم « بنيامين » قائلاً :

– وأنت هل أصبحت من تلاميذ « يسوع » ؟

.. أجاب « حزقيال » وقد لمعت عيناه ببريق مخيف ، ذكّرهم بنظرات « المعمدان » :

– لا . لقد أعتصمت فى الجبال مع تلاميذ آخرين ، لم نكن نريد أن نعلن الثورة كما أشاع « هيرودس » ، فقط كناّ نريد أن نعيش كما عاش المعمدان ، فلماّ قتل الفاجر « يوحنا » ، أرسل جيوشه بعدها لتحاصرنا

وتجاربنا ، هذا الجبان الرعديد تصوّر أنه يخوض معركة مع الأعداء ، هذا الثعلب استأسد علينا بكثرة جنوده وقوّة عتادهم ! ، وهل كناّ نحن سوى رجال عزّل تقريباً من كل سلاح ، إنها لم تكن معركة بل هى أشبه بمجزرة .. لقد رأيت دماء التلاميذ تسيل على الصخور ، وشفاههم تمجّد الرب وتشكو إليه ! . أتظنون أن الله العادل سيسكت على هذا ؟ ! أبداً لابد أن ينتقم لهؤلاء الأبرياء .. ولم يشأ الرب لى أن أكون الآن فى السماء أنعم مع « يوحنا » والأنبياء ، فكنت ممن نجوا من هذه الجريمة ، حيث هبطنا إلى القرى المجاورة ، واختفيا عن أنظار الجند وجواسيسهم .. وحينما هبطت من الجبل ، ودماء الإخوةمازالت صورتها فى عينّى ، وجدت الشعب سادراً فى لهوه ومجونه ، وكأن ما يحدث على الجبل شىء لا يعنيهم ، وكأن الدماء التى سالت ، ليست دماءهم ! ، وكأن هؤلاء الذين ذبحوا ليسوا أبناءهم ! ، وكأن اللعنة لن تحيق بهم .

.. وخشى « بنيامين » – رغم تأثره بكلام « حزقيال » – أن يكون « حزقيال » مازال مطلوباً من الجند ، أو أنهم مازالو يبحثون عنه ، فقال له :

– وهل مازلت هارباً ؟ أعنى هل مازالوا يبحثون عنك ؟

.. فقال حزقيال :

– إنهم لا يعرفوننى . لقد انتهت تلك المأساة من ساعتها فقد اختار الله مختاريه لينعموا فى السماء ، أماّ نحن فما زالت لنا أيام نقضيها فى هذا العالم .

– ولكن لماذا لم تنضم إلى أتباع يسوع ؟

– أو بعد كل ما شاهدت ؟ .. هل تعرف أننى عدت بعد يومين ليلاً إلى الجبل لكى أرى ما حدث ؟ فماذا وجدت ؟ إن جثث القتلى

لم تدفن بل تركت للذئاب ، كأن هؤلاء ليسوا يهوداً مثلهم . والأشدّ من ذلك وأفظع ، أنه كان هناك جرحى مازالوا يعانون سكرات الموت . لن تصدّقوا ذلك . ولكن أقسم بالرب أننى رأيت أثنين مازالوا أحياء وقد دخلوا بين الصخور خوفاً من أن تنهشهم الذئاب .. مثلى يا « بنيامين » لا يقدر أن يكون تلميذاً « ليسوع » .. تلاميذ المسيح قدّيسون ، قادرون على الغفران والتسامح .. أمّا من كان مثلى فهو غير قادر على مخالطة الأشرار والخطاة ، يكفى أننى أبتعد عنهم ؛ لكى أعيش فى سلام مع نفسى .. أنا مثل «المعمدان » أصبحت أعشق الصحراء أجد فيها الأنس والسكينة ، فوحوش الصحراء أفضل كثيراً من ثعابين الإنسان .

.. ثم ألقى « حزقيال » نظرة حادة محتقرة « لداود » الذى كان مازال متكأً فى مجلسه وأكمل :

– لقد جئت لأنتهى من ميراث قديم لى فى « أورشليم » ، ولأودع الأهل وأطمئنهم ، وقد تمنيت أن أراكم كذلك ، وبعدها سوف أعود إلى رفاق الطريق ، فلم يعد لأمثالنا مكان على أرض اليهود .

.. فقال « بنيامين » فى اهتمام وقلق :

– وإلى أين تذهبون ؟

.. قال « حزقيال » فى حدّة :

– إلى الصحراء .. هناك الطهر والنقاء .. هناك نعبد الله ، حيث لا سلطان لأحد علينا ، ولا سيّد لنا إلاّ الرب .. هناك لا نرى وجوه المتكبّرين الأذلاء ، ولا المرائين الأشرار .. هناك يمكن أن ننعم بالسلام .

.. وأحسّ « داود » أن هذه الكلمات تدينه هو ، رغم أن « حزقيال » لم يكن ينظر إليه ، فاعتدل فى جلسته ، ثم سأل « حزقيال »

فى تحدٍّ :

– وهل تؤمن أنت بأن « يسوع الناصرى » هذا هو المسيح الذى ينتظره اليهود ؟

.. نظر إليه « حزقيال » فى قوّة نظرة حادة . ثم قال :

– نعم أومن .. أنا أعرف أن هذا شعب شرير ، لا يملأ قلبه إلاّ الشهوات والرغبة فى الانتقام ، ويريد مسيحاًيساعدهم على ذلك .. أمّا أن يكون المسيح رجلاً باراً فهذا لن يقبلوه .. نعم « يسوع الناصرى » هو مسيح الرب .. وكل ما يتكلم به هو من عند الرب وكل ما يفعله هو بمشيئة الرب . الله إله « إبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب » .. وكل من لا يؤمن به فقد كفر بما أنزل الله على « موسى » والأنبياء .. هذا الناصرى هو المسيح ، وهو كما قال عن نفسه ، هو الحق وهو الطريق وهو الحياة ، ومن لا يقبله فهو عبدللشيطان وللشهوات .

.. فقال « داود » فى هياج :

– أنتم مجانين وحمقى ، كيف تصدّقون أن هذا الرجل يمكن أن يكون ملك اليهود ؟

.. فصرخ فيه حزقيال فى غضب :

– بل أنت الأحمق .. منذ متى وأنت تهتم لشىء فى حياتك سوى جمع المال ! ، أنت عبد للمال فلن تقدر أن تكون عبداً لله .. قل لى : أين كنت أنت حينما قتلوا «المعمدان » ؟ ! ، ألم يكن «المعمدان » هو الآخر عندك نبى الله ؟ ! ، ألا تعلم أن «المعمدان » قد شهد « ليسوع » أنه المسيح ! . إن مايريده أمثالك ، هو مسيح يجلب لهم مزيداً من متاع الدنيا الزائل .. مثلك لم يفكر يوماً أن يحمل كلمات الله وأن يضحّى بشىء من ماله ومتاعه من أجلها فضلاً على أن يموت فى سبيلها .. إن

كلمات الله التى أنزلها على أنبيائه هى تبعة وعناء لمن يحملها ؛ لأن ملكوت الله لا يدخله إلاّ الأبرار ، الذين حرموا أنفسهم من متاع الدنيا ، لقد كانت كلمات الله لهذا الشعب ليكون نوراً للأمم الأخرى ، يضىء لهم الطريق ، ولكن أمثالك يريدونها ناراً يحرقون بها الآخرين ؛ لتكون الدنيا لهم وحدهم .

.. وهب « داود » واقفاً يريد أن ينصرف فى غضب ، فأمسك به « بنيامين » ، فقال وهو يبعد يد « بنيامين » عنه بصوت كالفحيح :

– أنا لا أطيق .. لا أطيق أن أسمع مثل هذا الهذيان .. لا أطيق دعنى . دعنى يا « بنيامين » .

.. فقام « حزقيال » ، وقال فى حدّة :

– أنا الذى سأترككم .. واجلس أنت يا « داود » ، ارتع بين أصحابك فى أحضان « أورشليم » الزانية ، لقد جئت فقط لأقول لكم : وداعاً .

.. ولم تفلح محاولات « بنيامين » ، ويوقيم فى إثناء « حزقيال » عن عزمه فتركوه ينصرف ، وقد ذهب معه « إيليا » ، الذى قال فى لهجة حزينة آسفة :

– أرجو ألا يكون هذا وداعاً ، وأن نلتقى ثانية ، فأنا أعرف أننا جميعاً يهمنا أن نعرف الحق ، وأن نعرف طريق الخلاص .. ولا أحد يدرى ما تخبّئه لنا الأيام .

* * *

اللوحة الثالثة عشر

أورشليم في عيد الفصح





.. حلّ نيسان ، وأقبل الربيع ، وتزيّنت « أورشليم » لعيد الفصح ، وأقبل اليهود من كل صوب ، فامتلأت بهم الطرقات ، وبدا منظرهم غريباً فى أزيائهم الوطنية المختلفة ، فقد أقبلوا من مصر وسوريا وبابل وبلاد العرب ، ومن مختلف المدن اليهودية واليونانية ، بل من أثينا ، وروما ، وقبرص ، وغيرها من البلاد .. وانتشرت أكواخ البوص والخيام التى أقاموها ، أو أقيمت خصيصاً لاستقبالهم .. ووجد اللصوص والغوانى وسط هذه الجموع المحتشدة فى « أورشليم » فرصةً للعمل والكسب ، كما وجد التجاّر والصيارفة فرصاً أخرى مماثلة .. فالتجار يعرضون بضائعهم المختلفة التى تبدو ظريفة فى أعين الغرباء القادمين من أماكن قاصية ، وهم يستبدلون من الصيارفة عملات بلادهم المختلفة بشاقل إسرائيل ، ليتمكنوا من دفع ضريبة الهيكل ، وتقديم النذور للكهنة ، حيث كان على كل يهودى قادر أن يقدّم ذبيحة ، هى عادة خروف صحيح ذكر عمره عام ، يسمى ذبيحة عيد الفصح .. وقد جرت العادة أن تظلّ « أورشليم » تموج بالحركة والنشاط طوال أيام وليالى عيد الفصح .

.. خرج « بنيامين » يتمشّى بين الجموع ، شارد الفكر يتأمل فى كلّ ما حوله .. كانت « أورشليم » قد امتلأت شوارعها وأسواقها بتيارات بشرية متلاحمة تموج بها ، وتكدّست الجموع حول الهيكل فملأت أروقته .. وأحسّ « بنيامين » بعد فترة باختناق شديد فى هذا الجو المزدحم المليء بالأتربة ، وقد عمل هذا بالإضافة إلى ما يعتريه من أفكار ورغبات كثيرة ، على زيادة عوامل السخط والحنق فى قلبه ..

فأصبح يراقب ما حوله بغيظ شديد ، فبدّت له جموع اليهود المتدافعة ، كقطيع من الخنازير ، فهم يسيرون مترهّلين بلا هدف ، وقد علاهم الغبار ، واتسخت ملابسهم ، وبدت عيونهم جاحظة نهمة ، وهم يقبلون على المآكل الرخيصة ، والحلوى التى علاها التراب .. وكان بعضهم يحمل ذبائحه من الطيور ، أو يجر وراءه بقرة ، تلقى بروثها وبولها فى الطريق ، أو شاة يرتفع صوتها ليزيد من ضجيج المكان .. وهم يذهبون بما معهم ليقدموه ذبائح للهيكل ، وتعجّب كيف جادت أنفس هؤلاء السذّج الفقراء بالشواقل القليلة ، التى جمعوها بعرق حياتهم المضنية ، ليسكبوها بين يدى الكهنة !! ..

.. ورأى « بنيامين » جنود الرومان ، يمرحون ويضحكون مستهزئين ساخرين من هذه الجموع ، وهم يعاملونها كأنها قطيع من الحيوانات ، فحينما حدثت مشاجرة بين بعض الأفراد ، رفع الجند أسواطهم ، فتفرّق الجميع مذعورين كالأغنام ، فشعر « بنيامين » بقلبه يعتصر ألماً .. وشارك الغوانى فى الاحتفال ، ففتحت الحانات أبوابها ليل نهار ، أماّ الهيكل المقدّس فقد ملىء بالصيارفة والتجار والباعة المتجوّلون ، والنصابين ، واللصوص ، الذين يخدعون الغرباء أو يسرقونهم .. وخطر « لبنيامين » خاطر أزعجه ، فلماذا يرى وجوه الرومان مشرقة ، ويبدو عليهم السعادة كأنهم يستمتعون بالعيد أكثر من اليهود ، بل هم كذلك فعلاً ؟ ولماذا هذه الكآبة تعلو وجوه اليهود على اختلاف مشاربهم ! ، فلا هم يبدو عليهم السعادة والبهجة التى ينبغى أن تظهر على الناس فى أعيادهم ! ، ولا هم بدت عليهم السكينة والخشوع التى تلزمهم فى موقفهم هذا ، وهم مقبلون على زيارة الهيكل وتقديم الذبائح للرب . لقد رأى « بنيامين » أعياد روما ، ورأى بهجة الرومان فى أعيادهم ، كما

رأى السكينة والتقوى على وجوه العابدين ، ولكن لا شيء من هذا ولا ذاك يراه على وجوه اليهود التى أمامه ، فهى وجوه عليها غضب الرب ، متكدّرة ، مكتئبة ، نهمة ، ذليلة ، منكسرة ، منسحقة ، تعلوها عيون غير صافية .. فما الذى أتى بكل هذه الجموع ؟ ! ، وماذا يريدون ؟ ! ، وأى لعنة كتبت على هذا الشعب ؟ لعنة تظهر على أشكالهم وسلوكهم ، وحتى على أعيادهم .

.. كان « بنيامين »مكتئباً ، ويرى كل شيء مظلماً أمام عينيه ، وقادته قدماه إلى بيت حميه « نفثائيل » ، ولم يكن « بنيامين » يبغى من هذه الزيارة ، أن يخفف من آلامه ، أو أن يجد شيئاً من البهجة ؛ فهو يعرف أنه ما من مرّة تقريباً ذهب فيها إلى بيت حميه ، إلاّ وقد خرج من عنده أكثر اكتئاباً ، ولكنه كان كمن يريد أن يشرب الكأس حتى الثمالة ..

.. وفى بيت حميه ، وجد جمعاً من رجال السنهدرين ، وعرف أن « قيافاً » موجود أيضاً ، وحينما دخل المجلس ، كان « قيافا » يتكيء متصدراً المكان ، وقام عمّه وأخذ بيده وذهب به إلى « قيافا » ، قائلاً فى تودد ، بدا لبنيامين أنه تودّد ذليل :

– هذا ابن أخى « بنيامين » ، الذى أرجو أن ينال بركتكم ، وأن تشملوه بعطفكم .

.. نظر إليه « قيافا » معجباً ، وقال له وهو يجلسه بجانبه :

– اجلس يا بنى . ليباركك الرب . ولكن لماذا لا نراك مع عمّك ؟ .. تبدو شاباً صالحاً ، فلتحرص على أن تحضر مثل هذه المجالس المباركة .

.. ابتسم « بنيامين » فى حياء دون أن يجيب ، وشعر بأنه يتضاءل أمام « قيافا » ، وأراد عمّه أن يرفع من مكانته عند « قيافا » فأكمل قائلا :

– إنه زوج لإبنة « نفثائيل » كذلك .

.. فقال « قيافا » وقد انبسطت أساريره :

– إذن هو ابننا .. وكيف منعتموه عنّا كل هذا الوقت .. إن مكانه أن يكون بيننا .

.. ثم أكمل قيافا وهو يربت على فخذ بنيامين قائلاً :

– هذا الشباب الطيب .. هذا الشباب الطيب .

.. أنكر بنيامين من نفسه هذا التضاؤل أمام شخصية « قيافا » وصار يخمّن ، هل يرجع ذلك إلى ما يسمعه عنه من مكانة عالية وشخصية فريدة ؟ ، أم لهذا اللقاء الأبوى الذى ابتدأه به « قيافا » ؟ ، أم لتلك العينين الواسعتين التى يشع منها الذكاء الممتزج بالقسوة ؟ !

.. والتفت « قيافا » إلى « نفثائيل » قائلاً وهو يبتسم :

– لك صهر طيّب يا « نفثائيل » ، يجب عليك أن تعتنى به ، إننا فى حاجة إلى مثل هذا الشباب أن يكون قريباً منا .

.. فقال نفثائيل فى حنكة :

– هو ابنك وخادمك ، وأنت تضعه حيث تشاء .

.. فقال « قيافا » وما زالت الابتسامة على وجهه فى رضا :

– يفعل الرب ما يريد . نعم لابد أن يكون لمثله مكان يليق به .

.. بعد قليل ، دخل بعض الرجال ، بدا « لبنيامين » أنهم من خدام الهيكل وحراسه ، فاعتدل « قيافا » فى مجلسه ، وقال بغضب

موجهاً حديثه إليهم :

– لا تقولوا : إنكم لم تجدوه ؟ . وإلاّ أمرت بجلدكم .

.. فقال أحدهم متلعثما فى خوف :

– لقد عرفنا أنه فى « بيت عنيا » ، عند « لعازر » ، ذلك الذى كان قد أقامه من بين الأموات .

.. فصرخ « قيافا » فى وحشية :

– وأنت تقول أقامه من الأموات يا ابن الزانية ؟

.. فقال الرجل وقد اشتد خوفه :

– هم يقولون ذلك يا سيدى .. لقد أردنا أن نقبض عليه هناك ، ولكن جموعاً كثيرة كانت حول البيت ، إنهم يريدون أن يروا « لعازر » الذى يشيعون أنه قام من بين الأموات . فلم نستطع أن نصل إليه ، وانتظرنا أن تنفض الجموع ، ولكن بعدها اختفى الناصرى ولم نعرف أين ذهب ، ولكنه لا يمكن أن يكون قد ذهب بعيداً .. إن أصحابه وأتباعه يحرسونه ويخبئونه حتى لا يصل إليه أحد .

.. فقال « قيافا » فى ثورة وحنق شديد وهو يلتفت إلى الجالسين حوله :

– ألم أقل لكم ؟ هذا الرجل لابد أن يموت ، فخير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمّة كلها . إن هذا الساحر لو بقى بيننا فسيتبعه الجميع ، وستكون فتنة ، إن هذا الأفاق لا يحمل للهيكل أى قداسة ، إنهم لا يريدون لأمتنا أن تعيش ، يريدون للرومان أن يأتوا ويأخذوا موضعنا وأمتنا ؛ لتصبح آلهتهم هى آلهتنا ، ولا يبقى لله مكان حتى فى الهيكل ! .. إن هذا الساحر يعمل للرومان وهم يساعدونه ، ألم تروا أنه يأمر الناس أن تطيع قيصر وتدفع له الجزية ، لقد تربى فى

مصر على أيديهم ، إنه كافر مثلهم ، وقد تعلّم هناك سحر الفراعنة ، ورجع حاقداً على شعبه ؛ ذلك لأنه يعلم أنه ابن زانية ، هربت من بلدتها بعد أن فضحت بين الناس ، وابن الزانية هذا الذى لا يعلم من أبوه ، يريد أن يعلّمنا طريق الرب .. مثل هذا لابد أن يقتل بأسرع ما يمكن منعاً حدوث شغب بين الشعب .

.. وتكلّم « نفثائيل » فى هدوء متصنعاً الحكمة كعادته :

– أرى أن ننتظر حتى تنتهى أيام العيد ، وتعود جموع الغرباء إلى بلادهم ؛ لكى لا يحدث شغب بين الشعب . ويمكن أن ترصد مكافأة لمن يرشد عنه ، أو لمن يقتله ، وحبّذا لو قتله جليلى مثله فهو يحمل دمه .

.. وقال رجل آخر من الجالسين :

– أو إن قتله رجل من الجليليين يكون ذلك موافقاً للناموس ؟ .. لعلّ ناموسنا يدين إنساناً لم نسمع منه أولاً . ونعرف ماذا فعل وبماذا يتكلّم ؟

.. فقال « قيافا » فى حدّة وتهكّم :

– تكلّمت أخيراً يا « نيقوديموس » .. لعلك أنت أيضاً من الجليل ؟ . فتّش وانظر ، إنه لم يقم نبىٌّ من الجليل قط ! ، وهل يأتى من الجليل خير ؟

.. فتكلم رجل آخر من الجالسين مناصراً « لنيقوديموس » :

– إن ما يقوله « نيقوديموس » حق . فيجب أولاً أن نسمع هذا الرجل ؛ حتى نكون قد قدّمنا براءتنا أمام الرب وأمام الشعب ، ونكون إن أدنّاه ندينه بحق .

.. فاشتعل غيظُ « قيافا » ، وقال مهاجماً فى شراسة :

- آه .. وهذا يوسف يتكلّم هو الآخر .. ماذا جرى للناس ؟ .. لعلك رأيت عجائبه التى صنعها عندكم فى «الرامة» .. ولعلّكم وأنتم الرؤساء قد آمنتم به أيضاً ! اذا كان الشعب الذى لا يفهم الناموس ملعون إذا آمن به ، فالبحرى من يفهم الناموس ويؤمن بهذا الساحر يكون ملعوناً أكثر مائة مرّة .

.. وتدخّل « نفثائيل » ليهدىء من تصاعد الموقف ، وليعضّد موقف « قيافا » فقال :

- الجميع متفقون على أن هذ الرجل ملعون . ولكن نحن نبحث عن طريقة مثلى ؛ لكى نتخلص من شروره دون أن يثير شغباً بين الشعب ، ودون أن نتحمل نحن دمه إذا أمكن ذلك

.. فقاطعه « قيافا » وهو ما زال محتداً :

- أى شعب ؟ وأى دم ؟ .. ما نراه نحن مجلس السنهدرين حقاً فسيراه الشعب كذلك . أماّ دم هذا الكذّاب فعلينا وعلى أبنائنا ، أن فى قتله صلاحا لهذه الأمة ، وحياته فساد لها .

.. وتلفّت قيافا فى الحاضرين يتفحصهم ، وعينه تقدح شرراً ، ثم أكمل :

- أنتم لا تعرفون ، أو لا تدركون أى شرّ يحمله هذا الناصرى الملعون .. أتفهمون فتشوا فى كل مكان .. ابعثوا الجواسيس تراقبه .. لا تتركوه يبتعد عن أعينكم أبداً ، ومتى حانت الفرصة فأمسكوه واحضروه هنا فوراً ، واقبضوا على كلّ من يناصره أو يمنعكم من الإمساك به أفهمتم ؟ .. وأنتم لماذا لا تذهبون لتسمعوه وتسألوه لكى تعرفوا شرّه ؟ . اسألوه من أبوه ؟ واسألوه عن موسى ؟ .. وليكن معكم شهود لتشهد على ما يقول . أليس هذا واجبكم ؟

ثم التفت إلى الخدّام الواقفين وقال صارخاً فيهم :

– اذهبوا لعنة الله عليم ، إن لم توفقوا فى عملكم هذا .

.. ساد الصمت برهة فى توتر ، ثم قال « نفثائيل » فى استنكار وسخرية متملقاً « قيافا » :

– وهل هذا الملعون فى حاجة إل شهود بعد ؟ . إنه يخالف الناموس علناً ، لقد منع الناس أن ترجم امرأة زانية ، قائلاً : إنه لا يرجمها إلاّ من كان بلا خطيئة ، وهل هناك أحد بلا خطيئة ، إنه يريد أن يعطل الناموس ، لقد عجز عن أن يبدّل الناموس فأراد أن يعطله . يا له من كافر مارق ! .

.. ثم قال رجل آخر مؤيداً « قيافا » كذلك :

– الناس تتبعه لسحره ، وأنا أقسم أننى جرّبته فوجدته ليس سوى ساحر ، لقد ذهبت مع أخى بابنه الذى ذهب بصره ، وأنا ما ذهبت إلاّ لأجربه ، وقال له : أخى بكل تواضع : يا معلّم ابنى ذهب بصره ، فأعد إليه بصره نؤمن بك جميعاً ، ونعرف أنك حقاً من عند الله .. ولكنه لم يستطع أن يفعل للصبى شيئاً ، وحينما رأى الاستهزاء فى عيوننا ، ورأى أخى متحفزاً أن يهجم عليه ، قال فى برود : آمن أولاً يشفى ابنك . إن الملعون قوى الحجة ويعرف كيف يخدع الناس بلسانه ، وبالطبع لم يستطع أن يشفيه ، وعرفنا أن ما يأتيه ليس سوى سحر يخدع به بسطاء الناس وأغبيائهم .

.. وأراد آخر ألا تفوته فرصة مجاملة « قيافا » والوقوف فى صفّه فقال :

– هذا كله بسيط ، ولكن لو عرفتم ما يحدث بين أتباعه ! . إنهم مجموعة غريبة من العواهر واللصوص ، وحثالة الخطاة والزناة ، ولكم أن تتصوروا ما يمكن أن يحدث بين هذا الجمع النجس الملعون ! . آثام

يخجل منها الشيطان نفسه .

.. انبسطت أسارير « قيافا » لسماعه هذه الكلمات ، ولاحظ بذكائه صمت « يوسف الدامى » كأنه لا يستحسن ما يقال ، فقال له فى حقد وسخرية :

– أما زلت تريد أن نستمع لهذا الناصرى ؟ لعلّك فى شك من أمره ؟ عجيب أمرك ! ، كيف وأنت من الرؤساء ما زلت مخدوعاً فى هذا الملعون ؟ .. أى خير رأيت منه سوى ألاعيبه التى يجمع بها سفاء الناس ؟ .. أجبنى بربك ، هل حقاً يساورك الشك فى أن يكون هذا الناصرى هو المسيح المنتظر ؟

.. قال « قيافا » كلماته الأخيرة فى مرارة شديدة ، فكتم « يوسف الرامى » غيظه وأجاب فى هدوء وثبات :

– ما قلته كان واضحاً . إن ناموسنا لا يعطينا الحق أن ندين أحداً قبل أن نسمع منه لنرى ونعقل ما يقول . ولا يكون حكمنا لأن الناس يقولون عنه كذا أو كذا .

– ونحن نفعل ذلك الآن . نحن نبحث عنه لكى نسأله ونسمع منه ثم نحكم عليه ، أليس هذا ما تريدون ؟ .. لن نحكم عليه إلاّ بما يقوله الناموس .. فليكن الرب فى عون الشباب .. فإذا كنتم أنتم ، وأنتم الرؤساء ما زلتم فى حيرة من أمره ، فماذا يفعل الآخرون ؟ ! .

.. قال « قيافا » هذا ، وهو يلتفت إلى « بنيامين » فى تودّد ثم أكمل حديثه :

– أيظن أحد أننى أقف كما يقولون ضد الأنبياء ؟ .. أقسم بالرب إن هذا غير صحيح ، ولكن أين الأنبياء ؟ .. إن زماننا لا يعرف إلاّ المتاجرين بإسم الناموس .. لو جاءنى نبى يحترم الهيكل والناموس

ويقدّسهما ، فأنا أول من يقبله .. أليس أبونا « إبراهيم » هو أبو الأنبياء وأبونا جميعاً ، لقد كان يحترم « ملكى صادق » كاهن « أورشليم » ويقدّم له العشور .. ، لأن هذا بيت الله وكهّانه هم كهّان العلّى ، فمن لا يحترمهم ويقدّسهم فقد خرج على الناموس ، وعرفنا أنه كاذب ، وهم يشيعون عنّى أننى صديق « بيلاطس » و « الرومان » ، ولكن هل تصدّقون أننى أحب هؤلاء الكفار ، لقد نجّسوا أرضنا حينما وطئوها ، ونجّسوا الهيكل حينما علّقوا عليه نسرهم علامة الكفر واللعنة ! ، ولكن ماذا نفعل ؟ ! أليست هذه مشيئة الرب ؟ ! ، هل نستطيع أن نقف فى وجه الطوفان ؟ . ألا يكون ذلك حمقاً وكفراً بنعمة الرب علينا بالأمان ؟ ، فإذا كان الله قد كتب علينا هذا فعلينا أن نصبر ونرضى ، ونمالقهم ونخادعهم ؛ حتى يذهب الرب بهم إلى الجحيم .. و « بيلاطس » هذا يعلم الله كم يمقتنى وكم أمقته ، ولكن كلانا يخدع الآخر ، فهو يريّد مزيداً من الذهب دائماً ونحن نداهنه بأقل ما نستطيع ليبعد عنّا شرّه ، وهكذا تسير بنا الأيام ..

سكت « قيافا » قليلاً ثم تنهد وأكمل :

– نحن نهادن الرومان ، ونضمر فى قلوبنا العداء لهم ، وهذا أضعف الأيمان ، وننتظر يوم الخلاص منهم .. أما هذا الناصرى ، فهو يريد أن نتصالح معهم على ما نحن فيه ، أن يكونوا هم السادة ونحن عبيدهم ، إنه يريد أن نترك كل شيء للرومان ، وبذلك نحكم على أمتنا بالفناء إلى الأبد ! . إننا نعيش على أمل الخلاص ، ولابد أن يمتلىء القلب دائما بالكره للأمم الأخرى ، حتى لا نفقد إيماننا بالله إلٰهنا ؛ لأنها كلها أمم كافرة تعبد أوثاناً ولا تعرف الله إلٰه « إبراهيم » . فوجب علينا اليوم أن نقضى على هذا الملعون قبل أن تنتشر كلماته بين الناس ، فتنحل عرى اليهود وينفك رباطهم ! . إن يهود العالم الذين يعيشون بين الأمم لا

يربطهم إلاّ قداسة الكهنة والهيكل ، فإذا شكك فى هذه القداسة ، فما الذى يربط اليهودى فى أى مكان بالعالم « بأورشليم » ؟ لا شيء بالطبع ، وسيصبح أبناؤهم كأبناء الأمم الأخرى ، ويعبدون آلهتهم ..

.. لقد أورثنا الرب هذه الأرض إلى الأبد وحمّلنا هذا الناموس ، وسنحافظ عليهما وعلى هيكلنا المقدّس ، ولن نسمح لأى كذّاب أن يشككنا فى إيماننا ، وسنقضى عليه ونسحقه ، وسنصبر حتى يرسل الرب إلينا مسيحه ، الذى هو ملكنا ومخلصنا وناصرنا على كل الأمم ، ملكنا الذى سنسير خلفه جميعاً لنقضى على كل الكفار عبدة الأوثان .. نحن نؤمن بكل ما هو مكتوب ومسطر فى الكتب ، فسوف يأتى ملك اليهود ليثأر لنا من كل الأمم التى أذلّتنا ؛ ليعلم الجميع أن المجد لله وحده .. والنبوءات تقول كذلك بأن ملكنا هو من أشرفنا نسباً ومن نسل « داود » ومن الرؤساء وابن عظماء ، وليس ابن زانية كهذا الملعون .. إن أمّه ساقطة وحتى هى لا تعرف من أبوه من كثرة ما خالطت الرجال .

.. وحينما بلغ « قيافا » هذا الحدّ من البذاءة ، قام « يوسف الرامى » غاضباً ، وانصرف دون أن يفتح فاه بكلمة ، أو أن يلقى التحية على الحاضرين .. فنظر إليه « قيافا » بعين حانقة حتى غاب خارجاً ، ثم قال بمرارة وحسرة :

- انظروا .. وهذا رجل من الرؤساء يؤمن به أيضاً .. ألم أقل لكم : إن هذا الرجل لابد أن يقتل وبأسرع ما يمكن ، فلو بقى بيننا أكثر من ذلك فسيفسد كل شيء .

.. فقال أحد الحاضرين بحماس :

- صدقت .. هناك خلافات فى كل بيت وفتن من أجل هذا

الناصرى .. رجل يطلق امرأته ! ، وأبناء يعصون آباءهم ! . لابد أن نسرع فى الخلاص منه

.. فقال « قيافا » محذّراً :

– ولكن فلنعلم أن الأمر لن يكون هيناً .. « فبيلاطس » لن يجد فيه غير صديق للرومان وسيحاول أن يحميه ، ولن يرضى أن نقلته ؛ لذلك يجب أن نكون صفاً واحداً .. لابد أن نجمع الرجال ونحشد الشعب ضده ، لكى يكون صوتنا قوياً فى آذان « بيلاطس » ، وليعرف أن الشعب كلّه يدينه ، وأنه سيكون شغباً وفتنة إن لم يفعل ما نريد ! ، إن هذا الأمر يجب أن نستعد له جيداً ، لأننى لن أسمح بأن نفشل فى هذا أبداً .

* * *

.. بعد فترة قصيرة من انتهاء « قيافا » من خطابه بين الحاضرين ، استأذن « نيقوديموس » ، وذهب متخفياً إلى بيت « يوسف الرامى » ، ودخل عليه منزعجاً جداً ، وبادره بقوله :

– إن قيافا مصرٌّ على قتله ، لابد أن نفعل شيئاً نمنع به هذه الجريمة الشنعاء ، لقد نجح هذا الخبيث أن يؤلب الجميع ضدّه

.. فقال « يوسف الرامى » وهو رابط الجأش :

– اطمئن فلن يصلوا إليه أبداً . لقد أحكم التلاميذ الحراسة من حوله ، والشعب جميعاً متعاطف معه ويبجلّه ، ولن يجرؤ أحد أن يأخذه وهو بين الجموع ، لأن الناس سوف تفتك بهم ، وهو دائماً يختفى فى مكان أمين بين خاصته .

– ولكن الجواسيس منتشرون فى كل مكان ، و « قيافا » سيعلن عن جائزة كبيرة لمن يدُلّهم على موضعه .

– ثق أنهم لن يصلوا إليه أبداً . إن عين الرب ترعاه

– لماذا لا نذهب لامرأة « بيلاطس » ؛ لكى تمنع زوجها من أن يوافق على هذا ؟

– إنها شديدة الإيمان ، ولن تدّخر وسعاً لانقاذه ، وليس هناك ما يمنع أن نقابلها ؟

– ويجب أن نحذّر « يسوع » ونقصّ عليه ما يجرى هنا .

– نعم . اذهب أنت إليه الآن إن استطعت . فلا يليق أن نشاهد معاً الليلة .

– نعم سأذهب .

... وانصرف « نيقوديموس » ، وخرج من « أورشليم » إلى جبل الزيتون ، حيث التقى ببعض التلاميذ ، ولكنه لم يتمكن من رؤية « يسوع » ، فحكى لهم عمّا حدث ، وعاد بعد لقائهم مطمئناً إلى أن « يسوع » فى أمان بين تلاميذه ، الذين أحكموا الحصار حوله ، وهم على استعداد أن يموتوا من أجله ، وقد انتقلت إلى « نيقوديموس » هذه الثقة البالغة ، التى يتحدث بها التلاميذ ، فأمسى مستريح البال ، ونام ليلته فى هدوء .

* * *

.. أمّا « بنيامين » فقد ألهب فكره حماس « قيافا » ، فخرج مشتّت الفكر ، قد أختلطت عنده كل الحقائق ، فلم يعد قادراً على أن يميّز بين حق وباطل ، فكل شيء نسبىّ ، وكل حق فيه باطل ، وكل باطل فيه حق .. « قيافا » لايبدو عليه أنه رجل صالح ، ولكنه يقف اليوم مدافعاً وحامياً لكل أمجاد الشعب وأيامه العظيمة ومستقبله ، وهو واثق وشديد الإيمان بأن الرب يقف معنا وإلى الأبد ضد كل الأمم ،

مدافعاً عن قداسة الهيكل وعن كل ما يمثّله لنا من تاريخ وتراث وآمال لهذه الأمة .. وعلى الجانب الآخر « يسوع الناصرى » ، ذلك الرجل الذى لا غبار عليه ، فهو رحيم محبّ للفقراء متواضع وصالح وطيب القلب ، والذى صنع نعمةً كثيرة إلى الناس ، ولكنه فى الوقت ذاته يقف ضد الهيكل ، وضد الأمّة ، وضد مستقبل هذا الشعب ، إنه يقطع كل أمل ورجاء أن تحيا هذه الأمّة وتنتصر من جديد على أعدائها .

.. آه لو كان « قيافا » رجلاً صالحا « كيسوع » ؟ ولكن هذا لا يمكن أن يكون .. ولكن ألا يمكن أن يصبح « يسوع » مدافعاً عن الهيكل ؟ ألا يمكن أن يقف « يسوع » مع الشعب فى آماله وطموحاته ؟ ! ، ألا يمكن أن تختفي من كلماته هذه الروح المتَّضعة التى تدعو للاستسلام أمام الأعداء ؟ .. يبدو أن هذا هو الآخر لا يمكن أن يكون .

.. إن « يسوع » يبدو غريباً بين رجال الشعب ، شكله وهيئته ليست كهيئة اليهود ، وحتى تلاميذه يصيبهم هذا التحوّل بعد ملازمتهم له ، كأن روابطهم بهذا الشعب قد انفصمت تماماً ، فلم تعد مشاكله مشاكلهم ، ولا همومه همومهم ، فهذا أحد أتباع « يسوع » يريد أن يذهب ليدفن أباه ، فيقول له « يسوع » بكلّ قسوة : دع الموتى يدفنون موتاهم .. فهو يريد لمن يتبعه أن يقطع كل أواصره بالشعب ، فهل يمكن أن يحدث انقسام وفتنة بين الناس أكبر من هذه ؟ ! . إنها نهاية أمّة اليهود كما قال « قيافا » حقاً ، « فيسوع » لم يأت ليجمع اليهود بل ليفرقهم ، فإذا كان كذلك ، أفليس أقل شيء يستحقه حقاً هو الموت ؟ ، أليس خيراً كما يقول « قيافا » أن يموت رجل من أن تموت الأمّة كلها ؟ ! .

وأحس بنيامين كعادته بأن النار قد اشتعلت فى صدره ، وبأن عقله يكاد يتمزق ، فلم يكن أمامه سوى الخمر يطفىء بها كل هذا ويستريح ، فتوجّه من فوره إلى حانة ديموستيس .

* * *

.. فى نفس هذا الوقت ، كان « يسوع » مختفياً على جبل الزيتون ، يتكلم بين خاصته فى حزن قائلاً :

- « .. ومتى رأيتم « أورشليم » محاطة بجيوش فحينئذ اعلموا أنه قد اقترب خرابها . حينئذ ليهرب الذين فى اليهودية إلى الجبال . والذين فى وسطها فليفروا خارجاً . والذين فى الكور فلا يدخلوها . لأن هذه أيام انتقام ليتم كل ما هو مكتوب . وويل للحبالى والمرضعات فى تلك الأيام ؛ لأنه سيكون ضيق عظيم على الأرض وسخط على هذا الشعب . ويسقطون بحدّ السيف ويُسْبَون إلى جميع الأمم . وتكون « أورشليم » مدوسة من الأمم حتى تكمل الأزمنة .. الحق أقول لكم : إنه لا يمضى هذا الجيل حتى يكون الكلّ . السماء والأرض تزولان ولكن كلامى لا يزول . فاحترسوا لأنفسكم ألا تثقل قلوبكم فى خلاعة وسكر وهموم الحياة ، فيصادفكم ذلك اليوم بغتة .. »

.. وسأله أحدهم بإنزعاج :

- والهيكل المقدّس يا معلّم ؟

.. فأجاب يسوع :

- « .. الحق أقول لكم .. لن يترك فيه حجر على حجر لا ينقض .. قد كلّمتكم بهذا لكى لا تعثروا . وسيخرجونكم من المجامع . بل تأتى ساعة فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدّم خدمة لله . وسيفعلون هذا بكم ؛ لأنهم لم يعرفوا الآب ولم يعرفونى . لكننى قد كلّمتكم بهذا

حتى إذا جاءت الساعة تذكرون أنى أنا قلته لكم . ولم أقل لكم من البداية ، لأنى كنت معكم . وأمّا الآن فأنا ماضٍ إلى الذى أرسلنى ، وليس أحد منكم يسألنى أين تمضى ؟ لأنى قلت لكم هذا فملأ الحزن قلوبكم . لكن أقول لكم الحق : إنه خير لكم أن أنطلق . لأنه إن لم أنطلق فلن يأتيكم المعزّى . ولكن إن ذهبت أنا أرسله إليكم . ومتى جاء ذلك يبكت العالم على خطيّة وعلى بّر وعلى دينونة . أمّا على خطيّة ، فلأنهم لم يؤمنوا بى . وأمّا على برّ فلأنى ذاهب ولن ترونى أيضاً . وأمّا على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد أدين . إن لى أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن . وأمّا متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق . لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية .. »

.. فقال أحد التلاميذ متأثراً :

– لقد آمنا بك وصدقناك ، ولا نعرف كيف ستفارقنا ؟

– « .. الذى يؤمن بى ليس يؤمن بى بل بالذى أرسلنى .. أنا جئت نوراً إلى العالم حتى كل من يؤمن بى لا يمكث فى الظلمة . وإن سمع أحد كلامى ولم يؤمن بى فأنا لا أدينه . لأنى لم آت لأدين العالم بل لأخلّص العالم ومن رذلنى ولم يقبل كلامى فله من يدينه . الكلام الذى تكلّمت به هو يدينه فى اليوم الآخر . لأنى لم أتكلّم من نفسى لكن الأب الذى أرسلنى هو أعطانى وصيّة ماذا أقول وبماذاأتكلّم .. أنتم تعلمو ن أنه بعد يومين يكون الفصح ، وابن الإنسان يسلّم للصلب .. إن النور قد جاء إلى العالم ، ولكن أحب الناس الظلمة أكثر من النور لئلاّ تفضح أعمالهم . أمّا من يفعل الحق فيقبل إلى النور لكى تظهر أعماله ، لأنها بالله معمولة .. هذا الجيل شرير يطلب آية ولا تعطى له

آية إلاّ أية يونان النبى .. » فبعد ثلاث سوف ترونني بينكم .. ليتم ما هو مكتوب بالأنبياء عن ابن الإنسان .

.. بدا على التلاميذ أنهم لا يفهمون كلام معلّمهم ، وقال بعضهم لبعض ما هو هذا الذى يقوله لنا ؟ ! ، إنّه سوف يسلّم للصلب ثم بعد ثلاث سوف نراه ويكون بيننا ، فقال لهم المسيح :

— « .. أعن هذا تتساءلون فيما بينكم لأنى قلت بعد قليل لا تبصرونني ثم بعد قليل أيضاً ترونني . الحق . الحق أقول لكم : إنكم ستبكون وتنوحون والعالم يفرح . أنتم تحزنون ولكن حزنكم يتحوّل إلى فرح . المرأة وهى تلد تحزن لأن ساعتها قد جاءت ، ولكن متى ولدت الطفل فلا تعود تذكر الشدّة لسبب الفرح ؛ لأنه قد ولد إنسان فى العالم . فأنتم كذلك عندكم الآن حزن . ولكنى سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم ولا ينزع أحد فرحكم منكم . قد كلّمتكم بهذا ليكون لكم فىّ سلام . فى العالم سيكون لكم ضيق . ولكن ثقوا . أنا قد غلبت العالم .»

.. أكمل « يسوع » حديثه للتلاميذ ، ثم قام وأخذ معه « بطرس ، ويعقوب ، ويوحنا » للصلاة ، وصعد بهم إلى مكان مرتفع من الجبل ، وتواروا عن الأنظار ، وصلّوا فى حراة شديدة فأمّا « بطرس » وصاحباه فقد أثقلهم النوم بعد فترة فغفت عيونهم ، ولكنهم ما لبثوا أن استيقظوا على أصوات حولهم .. كان « يسوع » يقف وقد ظهر وجهه منيراً وثيابه بدت بيضاء لامعة ، وإذا رجلان يتكلمان معه وهما : « موسى ، وإيليا » أنبياء الله وقد ظهرا هما أيضاً بمجد كبير ، وتكلّما عن خروجه الذى كان مزمعاً أن يتمّمه فى « أورشليم » . وفيما هما منصرفان عنه ، قال « بطرس » لمعلّمه « يسوع » : يا معلّم حسن

أن نكون ههنا . فلنصنع ثلاث مظال واحدة لك ، وواحدة « لموسى » ، وواحدة « لإيليا » ولم يكن « بطرس » يدرى ما يقول ، بل كان كأنه يهذى ، ثم سمعوا صوتاً من السحابة التى اختفى وراءها « موسى ، وإيليا » يقول : هذا هو ابنى الحبيب فله اسمعوا .. وسكت التلاميذ عن هذه القصة فلم يخبروا بها أحداً فى تلك الأيام .

.. فى الغد هبط « يسوع » وتلاميذه نحو « أورشليم » ، وفيما هو يقترب من المدينة نظر وبكى عليها قائلاً فى حزن شديد :

– « أورشليم : يا أورشليم » . ياقاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين لها . كم مّرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا . هو ذا بيتكم يترك لكم خراباً ! . إنك لو علمت أنت أيضاً حتى فى يومك هذا ما هو لسلامك .. حتى الآن أقول لو آمنت تخلصين . ولكن قد أخفى عن عينيك .. ستأتى أيام يحيط بك أعداؤك ويحدقون بك ويحاصرونك من كل جهة ، ويهدمونك وبنيك فيك ، ولا يتركون فيك حجراً على حجر .

.. وكانت جموع اليهود والغرباء قد سمعوا أن « يسوع » آت إلى « أورشليم » ، فأخذوا سعوف النخل وخرجوا للقائه .. كان « يسوع » يركب جحشاً وأصحابه يسيرون حوله ، وكان كثير من الناس الذين اجتمعوا قد رأوا من قبل آيات كثيرة صنعها « يسوع » أو سمعوا عنها ممن شاهدوها ، وكان الجميع يسبّحون فرحين بصوت عظيم قائلين : مبارك الملك الآتى بإسم الرب سلام فى السماء ومجد فى الأعالى .. وكانت الجموع تفرش ثيابها أمامه على الطريق .. فلماّ رأى بعض الفريسيين كل هذا الحب والمجد ، قالوا فى حقد : يا معلّم إنتهر تلاميذك . فأجاب « يسوع » وقال لهم : أقول لكم : إن سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ .

.. ودخل الموكب إلى شوارع « أورشليم » متّجهاً نحو الهيكل ، تحفّه قلوب المحبيّن بالفرح وقلوب الحاقدين بالغيظ والحقد الشديد ، ولكن لم يجرؤ أحد أن يعترض طريقه .. وحينما دخل إلى الهيكل ، وجد الصيارفة والباعة يملؤن أروقته وتتعالى أصواتهم مع جموع الشعب الذين يشترون منهم ، وهم فى ذلك أيضاً يتشاجرون ، ويعبثون كأنهم فى سوق وقد نسوا أنهم فى معبدهم المقدس ! ، فثار « يسوع » غيرة على بيت الله ، وقام يقلب موائد الصيارفة وكراسى باعة الحمام ومعه تلاميذه ، وصرخ « يسوع » فيهم قائلاً :

– مكتوب بيتى بيت الصلاة يدعى . وأنتم جعلتموه مغارة لصوص .

.. وكان « يسوع » يتكلم ويفعل ذلك بسلطان ، فلم يجرؤ أحد من أصحاب المال أو من خدّام الهيكل أن يعترضه ، ولكنهم وقفوا ينظرون فى مرارة ، وحينما زال عنهم الخوف وأرادوا أن يتجمّعوا لمقاومته ، حدث ما أذهلهم ، فقد تقدّم إليه عمى وعرج فشفاهم أمام الجميع .. وكان الرؤساء والكتبة وفريسيين يرقبونه من بعيد ، وغاظهم أن الجموع كانت تصرخ من قلبها تحية له ، ولكنهم ظلّوا ينظرون دون أن يجرؤا على إيذائه خوفاً من الذين آمنوا به وأحبوه .

.. بعد فترة اختفى « يسوع » ، واحتار الرؤساء والخدّام والحرس ، كيف يختفى فى كلّ مرة من بينهم هكذا دون أن يلحظوه ، ولكنه بعد قليل ظهر من جديد وقد اعتلى حجراً وبدأ يتكلم فى الجموع التى أحاطت به قائلاً فى غضب :

– « .. جئت لألقى ناراً على الأرض . فماذا أريد إلاّ أضطرامها . ولى صبغة أصطبغها ، وما أشدّ تضايقى حتى تتم . أتظنون أنى جئت

لألقى على الأرض سلاماً . أقول لكم : كلاّ بل شقاقاً ؛ لأنه من الآن سيكون خمسة فى بيت واحد منقسمين ثلاثة على اثنين واثنين على ثلاثة . يشاق الأب الابن ، والابن الأب ، والأم البنت ، والبنت الأم ، والحماة كنتها والكنة حماتها .

.. كان « قيافا » قد ظهر بين الكهنة والرؤساء ، يستمع إلى « يسوع » ، فلما سمع « يسوع » يتكلم بهذا صرخ قائلاً :

ـ ألم أقل لكم . هاهى ذى الأفعى تظهر أنيابها .. إنه يريد أن يفرّق أمرنا ويشعل الفتنة فى كل بيت . اقبضوا عليه عليكم اللعنة . هذا الرجل حلال قتله حتى فى السبت ، ولو كان فى الهيكل ، أو فى قدس الأقداس . هذا هو الشيطان الأكبر . هذا عدوّكم الذى سيقضى عليكم وعلى أبنائكم وعلى هيكلكم .

.. كان « قيافا » هائجاً ، فأمسك بعض الرؤساء به مهدئين من روعه وقال أحدهم :

– وأين سيذهب ؟ .. سنمسك به عاجلاً أو آجلاً . ولكن الآن سيكون شغب عظيم .. شغب فى الهيكل لا نعرف كيف سينتهى وعلى من يقضى ، وسيديننا الشعب لأننا بدأنا هذا فى هذا المكان المقدّس .

.. وتراخى « قيافا » إعياءً ، وانصرف غاضباً .. وحينما تلّفت الحراس ليعرفوا أين سيذهب « يسوع » بعد مغادرته للهيكل لم يجدوه ، بل وجدوا آخرين يتكلمون معلّمين بين الجموع ، وكلّما ذهبوا إلى واحد لينظروا هل هو المسيح لم يعرفوه .. وخاف الحراس أن يعودوا إلى قيافا فيقولون له : إن « يسوع الناصرى » قد اختفى من بين أعينهم ، فقبضوا على أحد التلاميذ ، وأهانوه إهانة شديدة ، ثم ذهبوا به إلى « قيافا » قائلين :

– هو ذا ياسيدى رجل يعرف أين يكون « يسوع » ، لقد شهد كثيرون بأنه هو صاحب صندوق الناصرى والمتصرّف فى كل أمواله وهو الذى يطعم الجموع .

.. نظر إليه « قيافا » فى وحشيّة نظرة عميقة ثم صرخ فى وجهه قائلاً :

– أقسم بالرب وبالهيكل وبقدس الأقداس . إن لم تقل لنا أين نجده . لأرجمنك أنت وأبناؤك ، ولأعذبنك عذابا لم تسمع عن مثله . أتفهم هذا ؟

.. وقال أحد الحراس وهو يضع حربة فى جنبه بقوة :

– تكلّم أيها الملعون . فنتركك وشأنك . بل أنت ستأخذ مكافأة أيضاً على ذلك .

– كان هذا التلميذ هو « يهوذا الإسخريوطى » ، وقد ظلّ يهوذا صامتاً لا يجيب ، فصرخ « قيافا » فى الحراس :

– لماذا إذاً جئتم به إلىّ ؟ أغربوا به عن وجهى ولا تحضروه إلاّ بعد أن يتكلم ، قطّعوا لحمه قطعة قطعة ، وكسّروا عظامه عظمة عظمة . أفهمتم أيها الكلاب ؟ !

.. انصرف الحراس بيهوذا وتبعهم شيخ من الرؤساء ، فأبعدهم عن يهوذا ، وأخذ هو بيده وقال له هامساً فى مودّة :

– يا بنى إرحم نفسك . أنا مثلك مؤمن « بيسوع الناصرى » إنه هو المسيح ، ولكن كما هو مكتوب ، لابد أن المسيح سيتألم من أجلنا ، ولكن لا يمكن أن ينتصر عليه أحد . بل هو الذى سينتصر عليهم . وسيظهر مجده أمام الجميع ، لذلك لا ضير عليك أن تقول لهم أين هو ، لأنه خير له أن يقف ويحاكَم ، ويظهر للناس جميعاً أنه المسيح ،

من أن يقتلوه خفية فلا يعرف قاتله . نصيحتى إليك يا بنى إذا كنت تعرف أين يكون الآن أن تقول لهم فهنا لن يستطيع أحد إيذائه ، بل سينال محاكمة عادلة أمام السنهدرين .

.. كانت كلمات « قيافا » ونظراته القاسية قد نفذت إلى أعماق « يهوذا » وقتلت فيه إرادة العضيان ، وجاءت كلمات هذا الشيخ لتقضى على كل أمل فى أن يستعيد إرادته أو أن يتمالك نفسه ، وحينما اختلى إلى نفسه فى حجرة مظلمة حبسوه فيها انهار باكياً ، وأمام « قيافا » وعد بأن يدّلهم على المسيح فتركوه ينصرف .

* * *

اللوحة الرابعة عشر

محاكمة يسوع





.. رغم أن الأثنى عشر تلميذاً المقرّبين من المسيح ، كانوا أكثر التلاميذ إيماناً به ، ومعرفة بروح تعاليمه لالتصاقهم به ، وكثرة محاوراتهم له .. إلاّ أنه كان هناك أتباع آخرون آمنوا به وصدّقوه ، وكان بعضهم من ذوى المكانة والنفوذ ، فأشار عليهم المسيح أن يكتموا إيمانهم ، لعلّهم يكونون أكثر فائدة للدعوة فى مواقعهم هذه .. ففى أول أيام الفطير تقدّم التلاميذ إلى « يسوع » قائلين : أين تريد أن نعدّ لك لتأكل الفصح ؟ .. فأرسل « بطرس ، ويوحنا » قائلاً : اذهبا إلى المدينة فإذا دخلتما يستقبلكما إنسان حامل جرّة ماء ، أتبعاه إلى البيت حيث يذهب ، وقولا لرب البيت : يقول لك المعلّم أين المنزل حيث آكل الفصح مع تلاميذى ؟ .. وحينما ذهب التلميذان وجدا عند مدخل المدينة حامل الجرّة ينتظرهما ، فذهبا خلفه إلى البيت حيث قابلا سيّدة وأخبراه بسؤال المسيح ، فدلّهما على المكان الذى سيعدّان فيه ذبيحة عيد الفصح

.. ولمّا كان المساء ذهب المسيح واتكأ مع الحواريين الأثنى عشر ، وقُدّم الطعام ، فقال « يسوع » :

— شهوة اشتهت نفسى أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم .. هذا هو آخر فصح آكله معكم .

.. ثم تناول كأساً وشكر ، وقال : خذوا هذه واقتسموها بينكم . لأنى أقول لكم : إنى لا أشرب من نتاج الكرمة ثانية حتى أشربه جديداً فى ملكوت الله .. ثم أخذ خبزاً وكسَّر وأعطاهم قائلاً : فلتكن لكم هذه ذكرى كل عام لجسدى الذى يبذل عنكم ، وحينما أعطاهم الكأس ليشربوا بعد العشاء ، قال لهم أيضاً : هذه الكأس هى العهد

الجديد بدمى الذى يسفك من أجلكم . ولكن ويل لذلك الإنسان الذى يسلّمه . ويل لذلك الرجل الذى به يسلَّم ابن الإنسان . كان خيراً لذلك الرجل لو لم يولد .

.. قال « يسوع » ذلك فى حزن وألم شديد ، كمن فجع فى أحد أبنائه ، وتلفّت التلاميذ بعضهم إلى بعض متفحّصين ، من منهم يمكن أن يكون مزمعاً أن يفعل ذلك .. وأحس « يهوذا » الإسخريوطى بأن كلمات « يسوع » تحمل قدراً فظيعاً من القسوة ، لا يتناسب مع قصده من وراء تسليم المسيح ، فهو يريد له أن ينال محاكمة عادلة ، وأن يظهر مجده أمام العظماء ، وأن يخرسهم بحجته الدامغة ، وإذا كان هو المسيح حقاً فلماذا يخاف هكذا أن يقف أمام السنهدرين ليحاكم ، أليست هذه فرصته ليعلن دعوته أمام الجميع ؟ .. ولاحظ « يهوذا » فى شروده أن عيون الآخرين كأنها مصوّبة نحوه ، فانفلت لسانه دون أن يعى ما يقول ، قائلاً فى تساؤل أبله :

– هل أنا هو يا معلّم ؟

.. فنظر إليه المسيح ملياً ثم قال فى حزن ومرارة :

– أنت قلت .

.. بعد انتهاء العشاء ، خرجوا إلى جبل الزيتون . وكان خروجهم كمجيئهم على حذر أن يراهم أحد ، فخرجوا اثنين اثنين ، وتواعدوا أن يلتقوا هناك ، أماّ يهوذا فقد ذهب وحده ليؤدى عملاً أراده ، وكان اللقاء فى ضيعة يقال لها « جشيمانى » ، وحينما إجتمعوا كان « يسوع » حزيناً ومكتئباً ، ونظر إلى تلاميذه ثم قال فى مرارة :

– نفسى حزينة جداً حتى الموت .

.. وقد اعتاد « يسوع » إذا أهمّه أمر أن يفزع إلى الصلاة ليستريح ، وكان أحيانا يستمر فى صلاته فترة طويلة حتى يغشى عليه ، فإذا قام من غفوته يدخل فى الصلاة ثانية .. ولمّا كان يعلم أنه مقبل على تجربة مريرة ، حيث يتحمل آلاما كثيرة ، ويواجه قوى الشرّ والجحود والكفر كلها ، فقد ترك تلاميذه وابتعد يصلى وحيداً ، وكان يصلّى بحرارة شديدة كمن يجاهد نفسه ، وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض .. ثم عاد إلى تلاميذه فوجدهم نياماً من الحزن والغمّ ، لما رأوه من حال معلّمهم ، فقال لهم « يسوع » وهو يوقظهم :

– اسهروا وصلّوا .. صلّوا بحرارة لئلا تدخلوا فى تجربة .

.. قام التلاميذ للصلاة ، وذهب « بطرس ، ويعقوب ، ويوحنا » ؛ ليصلّوا مع المسيح ، ثم تركهم وبدأ يصلّى وحده فى حرارة شديدة ، لم يكن « يسوع » يلقى بالاً إلى ما هو مقدم عليه من ألم وإهانة ، ولكن كل ما كان يخشاه أن يتخلّى عنه روح القدس الذى يقوّيه ، فيفقد بهاءه ومجده أمام الشعب ، ويظهر أمامهم وأمام تلاميذه ومحبيّه مذلولاً مخذولاً . إن الجسد ضعيف ، ولكن الروح لابد أن تظلّ نشيطة لا ينال منها كل قوى الشرّ والظلام

ظل « يسوع » يناجى ربّه فى حرارة وقد جثا على ركبتيه :

– « .. كل شىء مستطاع لك . فإن شئت أجز عنى هذه الكأس ، ولكن لتكن مشيئتك لا مشيئتى .. يا أبتاه الروح مستعدّ لكن الجسد ضعيف .. أيها الأب قد أتت ساعة الآلام ، واقترب مجيئى إليك .. مجدّ ابنك ليمجّك ابنك أيضاً ، إذ أعطيته سلطاناً على الجسد ، ليعطى حياة أبدية لكلّ من أعطيته ، وهذه الحياة الأبدية هى أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ، و « يسوع » المسيح الذى أرسلته . أنا

مجّدتك على الأرض . العمل الذى أرسلتنى لأعمل قد أكملته ، والآن مجّدنى أنت أيها الأب عند ذاتك بالمجد الذى كان لى عندك قبل كون العالم . قد أعلنت اسمك للناس الذين أعطيتهم لى من العالم . هم كانوا لك وأنت أعطيتهم لى وقد حفظوا كلمتك ، والآن قد علموا أن كل ما أعطيته لى هو منك . لأن الكلام الذى أعطيته لى قد أعطيته لهم ، وهم قبلوا وعلموا حقاً ، أنّى منك خرجت وآمنوا بأنك أنت أرسلتنى .. إن الذين أعطيتهم لى قد حفظتهم ولم يهلك منهم أحد إلاّ ابن الهلاك ليتم الكتاب .. إنى أعطيتهم كلمتك ، وقد أبغضهم العالم ؛ لأنهم ليسوا من العالم ، كما أنى لست من العالم ، لست أسأل أن ترفعهم من العالم ، بل أن تحفظهم من الشرير .. قدّسهم بحقك إن كلمتك هى الحق ، كما أرسلتنى إلى العالم أرسلتهم أنا إلى العالم . ولأجلهم أقدّس ذاتى ليكونوا هم أيضاً مقدّسين بالحق .. يا أبتاه لا تتركنى .. قوّنى .. مجّدنى .. أيّدنى بروح القدس .. لا تخذلنى بين الناس .. لقد اقتربت الساعة .. لطالما دعوتك ألا تدخلنى فى تجربة ولكن لتكن مشيئتك .. أنا لا أسألك أن ترد مشيئتك ، ولكن أسألك ألا تتركنى . كن معى ، إن تركتنى أنت فمن يكون معى ؟

.. وبينما « يسوع » يصلّى ، وقد نام التلاميذ ثانية ، رأى « يسوع » مشاعل ومصابيح تقترب ، فعرف أن الساعة قد حانت ، فقام من صلاته وسار يستقبل الموكب المقبل ، وإذا « بيهوذا » مقبلاً عليه ، ثم ألقى التحية على المعلّم ، وذهب يعانقه ويقبلّه كما تعوّد أن يفعل من قبل ، فقال له يسوع فى حزن وألم :

– لماذ جئت يا صاحبى ؟ أبقبلة يا يهوذا تسلّم ابن الإنسان ؟

.. وكان « يهوذا » قد اتفق مع رؤساء الهيكل والجند ، أنه حينما يرى يسوع سيقبّله لكى يعرفوه فيمسكوا به ، واقترب الرجال يحملون السلاح والمشاعل ، وهبّ التلاميذ من نومهم على أصوات وضجيج ، فتقدم « يسوع » ليواجه الرجال ، وقال لهم فى قوة :

– من تطلبون ؟

فأجابوه :

– نريد « يسوع الناصرى » .

.. فأجابهم « يسوع » بسلطان وروح القدس تؤيده فيما يقول :

– أنا هو .

.. فلماّ سمعوا ذلك منه ، خافوا وتراجعوا إلى الخلف ، وسقط بعضهم على الأرض ، ونظروا اليه مبهورين ، فقال لهم ثانية :

– سألتكم من تطلبون ؟

– يسوع الناصرى .

– قلت لكم أنا هو . فإن كنتم تطلبوننى فدعوا هؤلاء يذهبون .

.. لم يصّدق الرؤساء الذين حضروا مع الجند ، أنهم سيمسكون « بيسوع الناصرى » بهذه السهولة ، ثم إن عبد رئيس الكهنة « قيافا » تقدم ليمسك « بيسوع » .. وكان التلاميذ يرقبون ما يحدث أمامهم فى شبه ذهول للمفاجأة ، فلماّ رأى « بطرس » العبد يمسك « بيسوع » ، استل سيفا وضرب العبد فأصاب أذنه .

.. وخاف الحرس والرؤساء وتراجعوا ، فقد هيىء إليهم أنها ستكون معركة ، ولعل « يهوذا » قد خدعهم ، وجاء بهم هنا لكى يفتك بهم « يسوع » وأتباعه ، وأوشك قائد الحرس أن يأمر بالتراجع والاستعداد للمعركة ، أو الفرار إذا لزم الأمر ، ولكن « يسوع » فتح

فاه وتكلّم مخاطباً بطرس :

– اجعل سيفك فى غمده .. ودعوا لى هذا الأمر .. فالكأس التى أعطانى الاب لابد أن أشربها .. لو أردت لطلبت من الأب أن يرسل ملائكة تحمينى ، ولكن لكى يكمل المكتوب

.. ثم تقدّم « يسوع » ولمس أذن العبد فأبرأها ، فبهت الحرس من مجد « يسوع » ، ووقفوا كالمشلولين ، ولكن العبد اللئيم لم يصلحه ما فعل « يسوع » معه ، بل ظلّ ينظر للجميع شزراً فى تربّص ، كأنه لا يعنيه من كل هذا إلاّ أن يعود « بيسوع » إلى سيده ليرى على وجهه علامة الرضا عنه .. ونظر « يسوع » إلى قواد حرس الهيكل ورؤسائه المقبلين مع الجند ، وقال مبكّتا لهم :

– كأنه على لصّ خرجتم بسيوف وعصى . إذ كنت معكم كلّ يوم فى الهيكل لم تمدّوا علىّ الأيادى ؟ ولكن هذه ساعتكم وسلطان الظلمة .

.. وسلم يسوع نفسه إليهم ، فلما رأوه هكذا تشجعوا وأمسكوه واوثقوه ، وذهبوا به إلى « أورشليم » ، أماّ تلاميذه فلما رأوه يسلّم نفسه للجند .. تفرّقوا وهربوا .. وعرفوا أنه حقاً سلطان الظلمة .. أماّ الرؤساء الذين كانوا مع الجند لما رأوا كيف أبرأ يسوع أذن عبد رئيس الكهنة ! ثم كيف كان يتكلّم بسلطان ويبكّتهم ! ، ثم بعد ذلك يسلّم نفسه إليهم بكل هذه الوداعة والمسالمة ، راودهم شكّ فيما هم مقدمون عليه ، وقال أحدهم :

– فلنذهب به أولاً إلى حنّان ، فهو رجل حكيم ، فلو ذهبنا « لقيافا » أولاً فلن يسلم هذا الرجل من القتل أو الرجم .

.. ووافقه الباقون ، فقد كان حنّان رئيس الكهنة قبل « قيافا » ، ثم هو حموه ، وصاحب الفضل عليه ، لذلك كان « قيافا » يحترمه كثيراً ، وقد كان شيخاً مهيباً عاقلاً ، وكانوا يأملون أن يجدوا عنده رأياً حكيماً خيراً من رأى « قيافا » .

.. واجتاز الجميع « وادى قدرون » ومنه توجّهوا إلى « باب الضأن » أحد أبواب « أورشليم » والذى كان بمقربة من الهيكل ، حيث بيت حنّان .. وحينما دخلوا عليه بيته وأيقظوه وقدّموا إليه « يسوع » ، نظر إليه ملياً ، ثم قال بازدراء :

– أهذا هو ملك اليهود ؟ هل أنت المسيح ملك اليهود حقاً ؟

.. نظر إليه « يسوع » فى رثاء ولم يفتح فمه بكلمة ، واحتار حنّان ماذا يفعل به فى هذه الساعة من الليل ، فقال للرؤساء الذين أتوا به :

– لماذا جئتم به إلىّ ؟ . اذهبوا به إلى بيت « قيافا » فهو رئيس الكهنة ، وهو الذى سيحاكمه .

.. وخرج الجمع مرّة ثانية ، وقد خاب رجاؤهم ، فتوجهوا إلى بيت « قيافا » ، والمسيح يمشى بينهم ساكناً فى هدوء كشاة تساق إلى الذبح .. وحتى هذه اللحظة لم يفكّر أحد فى إيذائه ، بعد أن لمسوا فيه كل هذه الوداعة .

* * *

.. كان بيت رئيس الكهنة بيتاً كبيراً ، ذو فناء واسع ، والحرس ينتشر فى المكان ، وجارية تعمل على باب البيت ، فهى تدخل من تشاء وتمنع من تشاء ، فسمحت للجند والرؤساء ومعهم « يسوع »

بالدخول ، ومنعت آخرين ممّن تبعوا الركب .. وكان بعض تلاميذ المسيح قد تبعوه عن بعد ليعرفوا إلى أى مصير يذهبون به ، وحاول « بطرس » أن يدخل مع الداخلين ولكن الجارية منعته ، وإذا « بيوحنا » تلميذ المسيح والحبيب إلى قلبه يصل فيجد « بطرس » واقفاً بالخارج ، ولمّا كان « يوحنا » معروفاً فى بيت رئيس الكهنة ولا يعرف أحد أنه تلميذ « يسوع » ، فقد دخل ومعه « بطرس » .. وحيث إن الوقت كان فى الساعات الأخيرة من الليل ، والوقت شتاء والجو بارداً ، فقد أشعل العبيد والخدّام ناراً كبيرة فى فناء البيت ، وجلسوا حولها يستدفئون ، وجلس معهم « بطرس ، ويوحنا » كذلك ، أما « يسوع » فقد أوقف موثوق اليدين فى البرد بعيداً عن الدفء .. وجاءت جارية تقدّم شراباً للجالسين ، فلما رأت بطرس ، قالت فى خبث وهى تنظر إليه وتتفرّسه :

– هذا الرجل كان مع « يسوع » الجليلى .

.. فقال « بطرس » مستنكراً فى فزع ، وقد داخله خوف أن يتعرّفوا عليه :

– عمَّ تتكلمين ؟ لست أدرى ما تقولين !

.. وأشاح بوجهه ، فقال « يوحنا » منقذاً له من ورطته :

– كيف تقولين هذا يا جارية ؟ ألا تعرفين من هذا ؟

.. فهزّت الجارية رأسها وانصرفت ، وبعد قليل قام بطرس يتوارى فى ظلام دهليز قريب خشية أن يتعرّف عليه أحد ، فإذا بجارية أخرى تحمل سراجاً تمشى أمامه فلماّ رأته تفرّست فيه وقالت :

– من أنت ؟ ألست أنت كنت مع « يسوع » الناصرى ؟

.. فقال لها « بطرس » فى توسّل :

– كيف تقولين ذلك يا امرأة ! ، أقسم لك أننى لست من تظنين .

.. ورأى « بطرس » أن وقفته هذه فى الظلام تثير الريب أكثر ، فعاد مع الجالسين حول النار .. ومضى وقت ، و « يسوع » كان مايزال واقفا فى البرد مقيّد اليدين ، أمّا الرؤساء فقد دخلوا إلى غرفة يتكئون ويستدفئون وينتظرون أن يستيقظ قيافا ويخرج إليهم .. وكان الجند والعبيد والخدّام يتكلمون عن « يسوع » ويشيرون إليه ، وبدأ « بطرس » يتكلّم معهم حتى لا يداخلهم شك فيه ، ولما كانت لهجته تفضح أنه جليلىّ ، قال له أحدهم :

– ولكنك من لغتك تبدو جليلى مثل هذا الناصرى .. فحقاً صدقت الجارية أنت منهم .

.. فانزعج بطرس جداً ، وقال :

– أقسم لكم بالرب وبالهيكل وبقدس الأقداس إننى لا أعرف هذا الرجل .

.. والتفت « بطرس » إلى حيث يقف « يسوع » فرآه ينظر إليه بإشفاق وحب ورحمة ، وأحسّ فى عينى المعلّم عتاب صامت ، فتذكر أنه قال له منذ ساعات وهم على جبل الزيتون : إنك قبل أن يصيح الديك تنكرنى ثلاث مرات ، حينئذ سمع « بطرس » صياح الديك ، فهب واقفاً كمن لدغه عقرب ، ولم يبال بأن يعرف الحاضرون من يكون ، وتحرك نحو الباب وفتحه بقوة وأزاح عنه الجارية ، وخرج إلى الطريق ، وحينما أصبح وحيداً بكى بكاًء مرًا ، وقد تصاغرت الدنيا كلها أمام عينيه ، ولم يعد يملأ رأسه غير وجه يسوع ينظر إليه فى إشفاق ورحمة .

.. حينما استيقظ « قيافا » وعلم أنهم قد قبضوا على « يسوع » ، أمرهم أن يحكموا الرقابة عليه ، وأن يبعثوا إلى أعضاء السنهدرين ليجتمعوا فى مجمعهم مع إشراقة الصباح لمحاكمة .« يسوع » ثم قام « قيافا » ونظر من شرفته خلسة إلى « يسوع » الواقف فى الفناء ، ولمعت فى عينيه نظرة انتقام شيطانية رهيبة ، ثم نزل « قيافا » ليجلس مع الرؤساء الذين كانوا ينتظرونه ، ولمّا رأى الخدّام أن « قيافا »يجلس مع الرؤساء ، ساقوا إليه « يسوع » موثوق اليدين ، ودخل « يسوع » فى خطوات هادئة مطمئنة ، وفى تواضع واستسلام ، وقف أمام « قيافا » والرؤساء الذين معه ، وتفرس فيه قيافا باهتمام شديد ، ثم قال فى حقد واستكبار واستهزاء :

– الآن أنت يا ملك اليهود . قل لنا لماذا تجمع تلاميذ حولك ؟ وأى شىء تقول لهم ؟ وأى سموم تنفث فى عقولهم ؟

.. فسكت يسوع ونظر إليه بقوة ولم يجب ، فصرخ « قيافا » منزعجاً من نظرة « يسوع » :

– تكلّم .. ما هى تعاليمك التى تبشر بها بين الشعب ؟

.. فقال يسوع فى هدوء وثقة :

– أنا كلّمت العالم علانية ، ولم أخف شيئاً ، أنا علّمت كل حين فى المجمع وفى الهيكل وحيث يجتمع اليهود دائماً ، وفى الخفاء لم أتكلّم بشىء لماذا تسألنى أنا ؟ اسأل الذين قد سمعوا ماذا كلّمتهم .. هو ذا كل هؤلاء يعرفون ماذا قلت أنا .

.. كان « يسوع » يتكلم بقوة وسلطان ، فبهت « قيافا » ولم يستطع أن يرد ، واغتاظ أحد خدّام « قيافا » أن رأى « يسوع » يردّ على سيّده بهذه اللهجة الآمرة ، وأراد أن يظهر مدى حبّه وإخلاصه

لسيّده ، فرفع يده ولطم يسوع بقوة قائلاً :

– أهكذا تجاوب رئيس الكهنة ؟

.. فالتفت إليه « يسوع » وهو بعد رابط الجأش ولكنه قد تألم ، قائلا :

– يا هذا .. إن كنت قد تكلّمت بالسوء فاشهد علىّ بالسوء ، وإن كنت تكلّمت بخير فلماذا تضربنى ؟

.. وأحسّ « قيافا »بأن كلمات « يسوع » الهادئة لابد تؤثر فى سامعيه ، فصرخ قائلاً :

– خذوه الآن خارجاً .

.. وبصق « قيافا » على « يسوع » وهو خارج مع الخدّام ، فلماّ رأوا ذلك تجرؤا عليه ، فجرّوه خارجا ، وصاروا يضربونه ويبصقون عليه ، ويستهزؤون به ، وكانوا يغطّون وجهه ، ثم يلطمه أحدهم ، وبعد أن يكشفون وجهه ، يسألونه ان كان هو المسيح فليعرف من الذى ضربه ، و « يسوع » واقف بينهم مستسلماٍ لما يفعلونه به فى وداعة وألم ولا يتكلم .. ورأى « يوحنا » تلميذ « يسوع » الحبيب ما يفعلونه ، فاقترب وقال للعبيد والخدّام :

– ما هذا الذى تفعلون ، دعوه لأنه سيحاكَم الآن ، وقد يذهب إلى الوالى ، فليس حسناً أن يرى أننا قد آذيناه هكذا .

.. قال هذا « يوحنا » ، وتوارى بعدها بعيداً ، فلم يعد قادراً أن يرى معلّمه على هذه الصورة ، لقد كاد يصرخ مدافعاٍ عنه ، ولكنه أشفق أن يزيد ذلك الأمر سوءاً .

.. وحينما اجتمع الرؤساء وانعقد مجمعهم لمحاكمة « يسوع » ، بدأ « قيافا » حديثه متسائلاً :

– أين الذين يشهدون عليه ؟ أريد شهوداً عليه إنه يجدّف .

.. فقال أحدهم :

– هو يقول : إنه ابن الله وقد سمعته يقول ذلك مراراً .

.. وقال آخر :

– هو يقول : إنه المسيح ملك اليهود .

.. وكان حاضرا « يوسف الدامى ، ونيقوديموس » وآخرين ممن أحبوا المسيح وآمنوا به ، فطال نقاش أعضاء المجمع ، وتعالت أصواتهم ، وكثرت حججهم ، و« يسوع » صامت ينظر إليهم ولا يتكلم ، ورأى « قيافا » أن الأمر يكاد يفلت من يده ، فتملكه غيظ شديد وخوف من أن ينجو « يسوع » من قبضته ، فقال وكأنه يستعطفه ، ولكنه كان يريد أن يوقع به :

– هؤلاء يشهدون عليك وأنت ساكت .. استحلفك بالله الحى أن تقول لنا ، هل أنت المسيح ابن الله ؟

.. فقال المسيح فى قوّة :

– إن قلت لكم لا تصدّقون . وإن سألت لا تجيبوننى ولا تطلقوننى . منذ الآن يكون ابن الإنسان جالساً عن يمين قوة الله .

.. فصاح أحدهم من أتباع « قيافا » :

– إذا فأنت ابن الله . وأنت المسيح ملك اليهود ؟

.. فقال « يسوع » :

– أنتم تقولون : إنى أنا هو . نعم أنا هو .

.. وهنا وجد « قيافا » فرصته ، فصرخ ومزّق ثيابه قائلا بلهجة المنتصر :

– وما حاجتنا بعد إلى شهود . قد سمعناه جميعاً يجدّف . ألا يكفى هذا ليستحق الموت ؟

.. وتعالت أصوات أعداء « يسوع » فى المجلس :

« .. إنه مستوجب الموت ... إن ناموسنا يدينه بالتجديف ... إذا كان يقول : إنه هو المسيح فعقابه الموت ... نعم مستحق للموت على هذا ... »

* * *

اتفق رؤساء الهيكل على أن « يسوع » يجب أن يقتل . ولكن لم يكن لهم سلطة الحكم بالحياة أو الموت ، فلم يكن فى ذلك الوقت جائزاً قانوناً أن يحكم على أى شخص فى ولاية رومانية حكماً يمسّ حياته إلاّ أمام السلطة الرومانية المختصة .. لقد كان السنهدرين فى الماضى وقبل ذلك بوقت طويل أحد المجامع التى يفخر اليهود بها كمكان تقام فيه العدالة ، ويتمتع فيه المتهم بإجراءات وضمانات كافية ، يكاد لا يكون لها نظير بين الأمم .. ولكن أى شىء بقى فى هذه الأمة صالحاً ؟ كل شىء قد فسد . لذلك كانت محاكمة « يسوع » أمام هذا المجلس أشبه بمهزلة ، الغرض منها إدانة « يسوع » أمام الشعب مستغلّين ما بقى من قداسة لهذا المجمع بين الشعب .. وقرر الأعضاء أن يذهبوا « بيسوع » إلى الوالى « بيلاطس » لكى يطلبوا منه أن يقتله ، معتمدين على قرار السنهدرين الذى أدانه .

.. وفى بيت « بيلاطس » ، كانت تجرى أحداث كثيرة أيضاً منذ الصباح ، « فيوسف الرامى » منذ أول الصباح وهو يلّح فى مقابلة زوجة « بيلاطس » ، ودخلت زوجة يوسف إلى حيث جناح الوصيفات ، وطلبت إيقاظها فى أمر هام ، ولم يكن هذا سهلاً ، ولكن مع إصرارها أيقظوا زوجة « بيلاطس » ، فقامت منزعجة ، لتسمع من « يوسف الرامى » نبأ القبض على « يسوع » .. ثم تركها يوسف ليحضر محاكمة « يسوع » أمام السنهدرين ، وعاد إليها ليبلّغها أنهم قد حكموا عليه بالموت ، فقالت زوجة « بيلاطس » :

– هذا تفسير رؤياى . لقد رأيت رؤيا أزعجتنى كثيراً الليلة .. لا .. لايمكن أن نتركهم يفعلون ذلك ، وهل يمكن أن يحكموا هم على أحد بالموت ؟ ! ، أليس لهم والٍ مسئول عنهم ؟ !

– نعم سيدتى . هم سيأتون به إلى الوالى ويطلبون منه أن يحكم عليه .

.. حينئذ اطمأنت وطمأنت « يوسف » ، بأنه مادام الأمر سيكون فى يد « بيلاطس » ، فلا داعى للانزعاج ، لأنها لن تسمح أن يقتله « بيلاطس » ، فهو رجل عادل ، ولا يجب أن يقتل رجلاً باراً كيسوع .. وفى الحال أرسلت إلى « بيلاطس » من يقول له على لسانها :

– « إياك وهذا البار . لأنى تألمت كثيراً فى حلم من أجله »

.. وكانت هى تعلم أن زوجها يعتقد كثيراً فى الرؤيا ، ويخاف أن يخالف ما جاء فيها لأنه يعتبرها كأنها نذير إلٰهى ، فلذلك لم تشك أن كلامها هذا كافٍ لأن يمنع « بيلاطس » من أن يقدم على عمل كهذا .. وكان « بيلاطس » قد جلس على كرسى الولاية ، وقد علم بأمر الجموع التى جاءت حول القصر ، وأن الرؤساء والشيوخ والكتبة ،

قد جاءوا ممسكين « بيسوع » الناصرى ، وهم يطلبون مقابلته ، وسأل « بيلاطس » قائد حرسه :

– ماذا يريدون ؟

– إنهم يريدون أن تقتل لهم يسوع الناصرى .

– دعهم يدخلون .. الرؤساء فقط .

– انهم يا سيدى يطلبون أن تخرج أنت اليهم . فهم حسب ناموسهم لا يدخلون فى الفصح إلى هنا حتى لا يتنجّسوا .

– لعنة الآلهة عليهم جميعا! .. إنهم أنجس خلق الآلهة فى كل زمان ومكان .

.. ثم قام « بيلاطس » ، وخرج إليهم ، وتكلم قائلاً :

– أىّ شكاية تقدّمون على هذا الإنسان ؟

.. فأجابوه قائلين :

– لو لم يكن فاعل شرّ لما كنا قد سلمناه إليك .. إنه يفسد الأمة ويمنع أن تعطى جزية لقيصر قائلاً إنه مسيح ملك ، وهو يهيّج الشعب فى كل المدن من الجليل إلى هنا .

.. فلماّ سمع « بيلاطس » ذكر الجليل سأل هل الرجل جليلى ؟ وحين علم أنه جليلى تحت سلطان « هيرودس » ، فرح لأن « هيرودس » كان فى هذا اليوم يزور « أورشليم » ليحضر عيد الفصح ، لذلك أرسله إلى « هيرودس » ؛ لكى يتخلّص هو من هذه المشكلة مع اليهود .

.. ودخل « بيلاطس » إلى داره ، وهو يتكلّم مع قائده الذى يسير معه قائلاً :

– هؤلاء المرائين ما أسلموه إلاّ حسداً له . لأن الجموع تكرههم

وتحب هذا الرجل ، وهم يخافون على سلطانهم ومكانتهم بين الشعب ، وعلى ما يجمعوه من أموال منهم .. وما هذا كلّه إلاّ تدبير ذلك الأفعى « قيافا » وأتباعه .

.. وكانت « كلوديا » زوجته فى انتظاره فى قلق بالغ ، فبادرته بقولها وهى شديدة الانزعاج :

– ماذا فعلت بهذا البار ؟

.. فقال « بيلاطس » فى ضيق :

– لعلّك سمعت كيف يشتكون عليه ؟

.. فقالت « كلوديا » فى حدّة :

– لكنك تعرف أنه رجل بار .. وتعرف أنهم يكذبون ، فهو وتلاميذه يدفعون جزية قيصر ، وهو الذى رفع شعار « دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله » أنت تعرف أنه لم يكن أبداً يحرّض ضد قيصر .

.. فقال « بيلاطس » :

– وماذا فعلت أنا به ، إنه جليلى وأمره يخص « هيرودس » ، فأرسلته إليه ، ثم إنه يهودى مثله وهو أدرى فى معرفة أمره ، وما يحكم به ناموسهم .

.. فقالت « كلوديا » فى حسرة :

– ولكنك تعرف « هيرودس » ، إنه لا يؤتمن على شىء ، إنه يبيع أباه ليحقق مصالحه ، فلماذا لا يفعل ما يرضى الكهنة ؟ ، انه لن يخسر شيئاً ، حتى لو قتل عشرات .

.. فزاد ضيق « بيلاطس » وقال متنصلاً من زوجته :

– لقد رأيت الجموع . إنهم يمكن أن يثيروا شغباً . وأنا كوالٍ

« لأورشليم » – وطبقاً لتعليمات الإمبراطور – قد آليت على نفس أن أترك هذا الشعب الغبى يعيش طبقاً لناموسه ، مادامو يقدمون لنا الطاعة والولاء ، إننى لست مسئولاً عن إصلاحهم ، وهم يتبعون الكهنة ويقدّسونهم ، فالكهنة يمكنهم أن يحدثوا فتنة بين الشعب باسم الناموس ، هؤلاء الشياطين يمكن أن يفرّطوا فى كل شىء : كرامتهم وشرفهم ، وكل شىء لكى يحققوا مصالحهم ، ووراءهم شعب عفن أعمى لا يعرف الحق من الباطل .

.. ولماّ رأى القائد الذى كان مع « بيلاطس » مدى انزعاج « كلوديا » زوجته تقدّم منها وقال فى توسّل وإشفاق :

– سيدتى . لا تنزعجى هكذا ، لن يمسّوه بسوء ، سأرسل جنودى وراءه ليعرفوا ما يحدث وسأطمئنك : ثقى لن يكون إلاّ ما تريدين لا تنزعجى هكذا .

.. كانت رسل « قيافا » قد انتشرت تجمع الأتباع والرعاع ليحتشدوا عند قصر الوالى مطالبين بقتل « يسوع الناصرى » ، وقد فوجىء « بنيامين » بعمه « صموئيل » يدق بابه ويوقظه فى الصباح الباكر ويطلب منه أن يذهب معه ليشهد محاكمة يسوع ، وذهب به إلى قصر « بيلاطس » فوجدوا الموكب يغادر القصر متجهاً إلى قصر « هيرودس » ، ورأى « بنيامين » « يسوع » موثقاً ومحاطاً بالجند وفى هيئة زريّة ، وجموع يبدو عليهم مرتزقة ، قد تعالى صياحهم : الموت للناصرى .. الموت للناصرى ..

.. وكان حموه « نفثائيل » يسير أيضاً مع رؤساء آخرين أمام « يسوع » ، وتهلّل وجهه حينما رأى « بنيامين » وعمه « صموئيل » يقبلان عليه ، وابتسم راضياً وأخذهما ليسيرا معه ، وأمسك بيد

« بنيامين » يتكأ عليه فى عطف أبوى ، لم يعهده فيه من قبل .. والتفت « بنيامين » ليرى « زوبولون » الذى كان أبرص فشفاه المسيح – مقبلاً عليه ، حتى اذا اقترب منه قال فى انزعاج شديد وتوسّل :

– يا سيّد « بنيامين » .. استحلفك بالله أن تخبرنى .. لماذا يترك « يسوع » نفسه لهم هكذا ؟ أليس هو مسيح الرب ؟ لماذا لا يظهر مجده أمامهم ؟ إنه قادر على أن يحرقهم جميعاً فلماذا لا يخلّص نفسه ؟ ! .. إنهم يمسكون به كلّص .. كيف تركه كل أصدقائه ؟ ، لماذا لا ينقذونه ؟ ! ، لقد كانت الجموع كلها معه بالأمس تباركه وتقدّسه ، فكيف اليوم يطلبون له الموت ، وهو يساق بينهم كشاة للذبح ؟ !

.. وتنبّه « نفثائيل » لكلام « زوبولون » فصاح فيه بغضب شديد :

– إذهب أيها الشقى ، لعنة الرب عليك ، والاّ أمسكناك وقتلناك معه .

.. ولّى « زوبولون » هارباً من أمام « نفثائيل » ، الذى التفت إلى « بنيامين » وهو مازال غاضباً ، كأنما يعاتبه على أنه ما زال يعرف أمثال هذا الرجل ، وأنه سمح له أن يتكلّم أمامه هكذا دون أن ينهره ، ولكنه لم يتكلّم ولاذ بالصمت .

.. أما « زوبولون » فحينما ابتعد ، التقى بصديقيه : « حيلون ، وشمشون » الأعور ، وهما يصرخان مع الجموع : الموت للناصرى .. فاندفع نحوهما وصار يجرّهما بعيداً عن الموكب ، حتى إذا ابتعد بهما قليلاً ، قال فى ألم وحسرة :

– يا أبناء العاهرات ، وهل تعرفان الناصرى حتى تحكمان عليه بالموت ؟ !

.. فقال « حيلون » فى غضب :

– فليذهبوا جميعاً إلى الجحيم .. ولكن لماذا أنت مهتم هكذا ؟ .. ما شأنك أنت والناصرى لتدافع عنه ؟ ! .. آه لابد أن اتباعه يعطون مالاً كثيراً أيضاً .

.. فقال شمشون :

– هؤلاء لا يعطون مالاً إيها الأحمق .. أنسيت أن هذا الناصرى هو الذى شفاه من برصه

.. فابتسم « حيلون » ، وقال مازحاً :

– آه .. لقد نسيت .. نعم من حقّك أن ترد له الجميل .. أنت محق إذاً .. ولكن لماذا نكون معك ؟ . ، هو لم يقدّم لنا أى شىء ، ثم إننا إن لم نفعل ذلك فسيمنعوننا من دخول الهيكل ثانية ، وأنت لا تعرف مدى ما نحن فيه من ضنك منذ قبضوا على « باراباس » إننا نكاد نهلك من الجوع ، ولولا أنها أيام الفصح لهلكنا فعلاً .

.. وقال شمشون فى حكمة :

– لقد عاهدت الرب أن أفعل أى شىء فى سبيل أن أحصل على المال ، وأن أسرق حتى مال الأرملة واليتيم ، ولو رأيت قطعة خبز فى يد صبى لخطفتها منه ، إننا فى زمان لا يرحم ، وعلى كل رجل أن يفعل أى شىء ليعيش ، نحن حيوانات فى غابة كبيرة ، بل « أورشليم » هى أكثر من الغابة ، لأنه فى الغابة حينما يشبع الحيوان يترك غيره يأكل ولا يعود يفترس ولكن حيوانات « أورشليم » لا يشبعون ولا يتركون أحداً يأكل بعدهم .

.. والتفت « شمشون » فرأى دموعاً تترقرق فى عينى « زوبولون » ، فسكت برهة ، ويبدو أنه قد هزّته هذه الدموع ثم قال :

– حسنٌ . فليذهب الكهنة للجحيم ، لعنة الله عليهم جميعاً .. سنكون معك يا « زوبولون » ، إنك تحب هذا الرجل ، ونحن نخجل أن نفعل ما يكّدرك .. إيه : لقد رأينا أياماً حلوةً مع « باراباس » ، ولكن منذ أمسكوه ، ونحن نتلفت يميناً ويساراً من الخوف ، نكاد نتوارى فى الجحور ، ونبحث عن طعامنا كالذئاب الجائعة .. لقد كانت هذه فرصتنا اليوم لننال رضا خدّام الهيكل .. ولكن فليذهبوا إلى الشيطان جميعاً ، نحن معك .

.. أحسّ « زوبولون » بعطف شمشون عليه ، فقال متأثراً ومبرراً حبه « ليسوع » :

– لقد صنع أمامى آيات كثيرة ، وقد رأيتم أنه شفانى ، وسمعتم كيف أقام « لعازر » الذى من بيت عنيا من بين الأموات ، بالطبع سمعتم هذا ، وهو قادر على أن يخلّص نفسه من أيديهم ، ولكن لا أعرف لماذا يترك نفسه لهم هكذا ؟ ! ، وأين أتباعه الذين كانوا يحيطون به ؟ ، لماذا لا ينقذونه من أيديهم ؟ !

.. فقال « حيلون » :

– هذا كالذى حدث « لباراباس » ، من كان يظن أنهم يمكن أن يمسكوا به بهذه السهولة .. ولكن هذه إرادة الرب ، يذهب الطيبون الذين يحبون الفقراء والمساكين ، ويبقى هؤلاء الأشرار .. ولكن لا تنزعج هكذا ، فماذا يمكن أن يفعلوا به ؟ إنه لم يسرق ولم يقتل ، فكل مافى الأمر أنهم قد يودعوه السجن مع « باراباس » .. آه لو اتفق هذا الناصرى ، و « باراباس » ! .. لن يقف أمامهم أحد .. فليكن الناصرى

هو الملك ،و« باراباس » هو قائد جنده ، حينئذ لن تقف آية قوة أمامهم .

.. فقال « زوبولون » فى حزن :

– عن أى شىء تتكلم .. الناصرى مسيح الرب ، ولو أراد لكان له جيش من الملائكة تحرسه ، انه شىء آخر غير « باراباس » .

فقال شمشون :

– « وباراباس » ، كان معنا رجلاً صالحاً ، إننا لم نعرف أياماً هنية إلاّ معه .

.. كان « زوبولون » وصاحباه يتحدثون وهم يتبعون الموكب أيضاً ، وقد وصل الموكب إلى قصر « هيرودس » ، حينما علم « هيرودس » أنهم أمسكوا « يسوع الناصرى » ، وأنهم أتوا به إليه فرح جداً ، لأنه كان مشتاقاً أن يراه ، فطالما شكّ أن هذا الناصرى الذى سمع عنه كثيراً وعماّ يصنعه من آيات ، هو « يوحنا المعمدان » قد قام من بين الأموات ، وقد بعث جواسيسه مراراً ليقبضوا عليه ولكنهم فشلوا ، فلم يكن يسوع يظهر إلاّ فجأة ومحاطاً بالأتباع والجموع ، ثم هو يختفى أيضاً فجأة ، ولا يعلم أحد حتى أين يبيت ! . ثم إنه كان مشتاقاً أن يرى « يسوع » يصنع آيات أمامه .. لذلك فقد أمر « هيرودس » بأن يدخل الرؤساء فوراً ومعهم الناصرى ، وحينما رآهم تهلّل وجهه فرحاً ، ولم يلق بالاً إلى الرؤساء وتحيّاتهم له ، بل أقبل بوجهه على « يسوع » ، وكانت أول صدمة « لهيرودس » أن رأى « يسوع » رجلاً بسيطاً متواضعاً ! ، ليس فيه حدّة وكبرياء « المعمدان » ، ولكنه كان حريصاً أن يراه يصنع أمامه آية ، لذلك قال له :

ـ أنت « يسوع الناصرى » ؟

.. فسكت « يسوع » ولم يجب ، فأكمل « هيرودس » :

– سمعت أنك تصنع آيات كثيرة .. وأنا أحب أن أراك تصنع آية أمامى حتى نصدّق أنك رجل صالح حقاً .

.. ظل « يسوع » صامتاً ، وبدا الضيق على وجه « هيرودس » فقال فى غضب :

– لماذا تصمت هكذا ؟ ! هل أنت خائف ؟ . أنا لن أوذيك أريد أن أرى صدق ما تقول فقط فأحسن لك الجزاء . لذلك عليك أن تصنع آية الآن أمامى تدل على أنك حقاً من عند الله .

.. وظلّ « يسوع » أيضاً صامتاً ، فتكلم أحد الشيوخ الرؤساء قائلاً :

– أيها الملك العظيم « هيرودس » ، ما هذا الرجل إلاّ ساحر ملعون ، وهو يضلّ الشعب بكلماته ، ويقول لهم : إنه ابن الله ، وأنه ملك اليهود .. وهو يستحق حسب ناموسنا الموت لأنه يجدّف ، والوالى « بيلاطس » لا يعرف الناموس ؛ لذلك هو أرسلنا إليك ، لأنك أنت الملك اليهودى الذى يعرف الشريعة ويفهم الناموس ، وأنت تحكم لنا عليه بالموت .

.. وعاد « هيرودس » يكلّم « يسوع » فى غيظ :

– لماذا تسكت هكذا أيها الأحمق ، ألا تسمع ما يتكلمون به عليك ؟ ! ، إماّ أن تصنع الآن أمامى آية أو أفعل بك ما يقولون .

.. ظلّ يسوع صامتاً ، وقد هامت روحه بعيداً ، فهذا هو وجه « هيرودس » القبيح ، « هيرودس » قاتل « يوحنا » ، « هيرودس » الشقى عدوّ الرب ، فماذا يمكن أن يجيب به هذا الذى قد لعن فى السماء وفى الأرض على فعلته .

.. وأحسّ « هيرودس » بالإهانة لصمت « يسوع » ، فبدأ يستهزىء به قائلاً فى احتقار :

– مسيح أخرس .. أنت ملك اليهود ؟ .. أنت لا تصلح حتى أن تكون خادما عند الملك .. أنت لا تصلح إلاّ أن تكون حوزيا أو راعى غنم .

.. فقال أحد أتباع الملك :

– لقد كان يعمل نجاراً ، قبل أن يترك ذلك العمل ليعمل ملكاً لليهود .

.. فضحك الحاضرون ، وأكمل « هيرودس » :

– ألم يلهمك الرب بكلمات تتكلم بها أمامنا ؟ أم هل تخلّى عنك شيطانك الآن ؟ أقسم : إنك إن تكلمت جيداً ، وصنعت آية أمامنا ، أن أعفو عنك ، بل وأجزل لك العطاء ، وأقرّبك أيضاً .

.. ولكن « يسوع » لم يجب . فضاق به « هيرودس » وقال للرؤساء :

– أجئتم بجمعكم هذا من أجل هذا الأبله ؟ أو يستحق هذا كل هذا الاهتمام ؟ إنه رجل من رعاع الناس ولا خطر منه كما تزعمون .

.. ثم أشار إلى جنده قائلا وهو ينهى الموقف فى حزم :

– ألبسوه لباساً لامعاً وردّوه إلى « بيلاطس » ، وقولوا له : الملك يرسل إليك تحياته ويقول : إنه لم ير فى هذا الناصرى سوى رجل أحمق مأفون .

* * *

.. وعاد الموكب مرّة ثانية إلى « بيلاطس » ، حيث لم يجرؤ أحد من الرؤساء على مراجعة الملك فى أمره ، وكان « يسوع » فى لباس لامع

كالمهرّج ، وجند « هيرودس » تسير حوله تستهزئ به ، وقد جرّأ منظره المهين هذا عليه بعض السفهاء ، فتعالت ضحكاتهم مستهزئين بملك اليهود .. وحزن « بيلاطس » أن رأى « يسوع » يعود إليه مرّة ثانية لكى يحكم هو عليه ، فلم يكن يريد أن يؤذى هذا الناصرى ، ليس فقط إكراماً لزوجته « كلوديا » ، ولكن لأنه وهو رومانى ، لم يجد ما يدين به هذا الرجل البار ، وهو يعلم أن هؤلاء الرؤساء ما نقموا عليه إلاّ حسداً لمكانته بين الشعب ، ثم إنه لم يؤذ أحداً ، ولم يقف ضد قيصر ، ولم يدع إلى شغب .. وأراد « بيلاطس » أن يتكلم مع « يسوع » قبل أن يتكلم مع الرؤساء فأمر أن يدخلوا به عليه ، ثم سأله فى حيرة من أمره :

– من أين أتيت ؟ ومن أنت ؟ وهل أنت حقاً تقول : إنك ملك اليهود ؟

.. فقال يسوع فى هدوء :

– أنت تقول .

– لماذا لا تتكلم وتدافع عن نفسك ؟ ألا تسمع كم يشتكون عليك ؟ لماذا لا تجيب ؟ !.أنا أسألك هل تزعم أنت أنك ملك اليهود حقاً ؟

– أمن ذاتك تقول هذا أم آخرون قالوا لك عنى ؟

– ألعلّنى أنا يهودى . أمتك ورؤساء الكهنة أسلموك إلىّ . فلماذا يسلمونك ؟ ماذا فعلت أنت لهم حتى يكرهوك هكذا ؟ هل تريد أن تكون ملكاً عليهم ؟

– مملكتى ليست من هذا العالم . لو كنت أطلب مملكة فى هذا العالم ، لكان أتباعى يجاهدون كيلا أسلّم إلى اليهود . ولكن مملكتى

ليست هنا .

ـ فأنت إذاً ملك ؟

ـ أنت تقول : إنّى ملك . لهذا قد ولدت أنا ، ولهذا قد أتيت إلى العالم ، لأشهد للحق ، وكل من يحب الحق يسمع صوتى .

ـ الحق ! ، وما هو الحق ؟

.. وسكت « يسوع » ، وأحس « بيلاطس » أن هذا النقاش لا فائدة منه ، واحتار ماذا يفعل به ؟ ولكنه أراد أن ينقذه من أيديهم ، فخرج إلى الجمع والرؤساء ، وتكلّم قائلاً :

ـ قد قدّمتم إلىّ هذا الإنسان كمن يفسد الشعب . وهأنذا قد أرسلته إلى « هيرودس » فلم يجد به علّة ، كما أننى فحصته فلم أجد به علّة أيضاً ، ولا شيء فعله يستحق عليه الموت ، لذلك فأنا أؤدبه لكم وأطلقه .

.. فتكلّم أحد الرؤساء وقال :

ـ لقد جعل هذا الناصرى نفسه ابن الله ، وحسب ناموسنا لابد أن يموت .

... كان « بيلاطس » قد أمر جنوده ، أن يجلدوا « يسوع » وأن يهينوه ، وأن يظهروه للشعب فى حالة زرية ، وقد فعل الجند ذلك ، و « يسوع » بينهم لا يفتح فاه بكلمة ، بل هو فى صلاة دائمة « .. إلٰهى .. إلٰهى لا تتركنى .. لا تترك فتاك المحب .. إلٰهى .. إلٰهى أنا عبدك مجدّنى بين الناس ، ليس من أجلى بل من أجل كلمتك .. إلٰهى .. إلٰهى أعطنى القّوة وأيّدنى بروح القدس .. أنا فتاك المحب المطيع لأمرك ، لا تتركنى ، ولا تدخلنى فى تجربة ، ولكن نجّنى من الأشرار .. إلٰهى .. إلٰهى .. »

.. رأت « كلوديا » ما فعله الجند « بيسوع » فبكت بكاءً مّراً ، وأرسلت إلى قائد المئة المكلّف بهذا الأمر ، فلماّ دخل عليها ، كان « يوسف الرامى » واقفاً ، وكانت هى شديدة الانزعاج ، وعيناها مغرورقتان بالدموع وهى تقول :

– كيف تفعلون هذا بهذا الرجل البار ؟

– لقد أمر الوالى أن نهينه أمام الشعب ؛ لكى نطلقه بعد ذلك .

– هل أمر الوالى أن تطلقوه ؟

– لا ليس بعد . ولكن يريد أن يراه الناس مهاناً هكذا ، حتى يعرفوا أن لا خطر عليهم منه .

– لا تؤذه أكثر من هذا .. ألا ترى كم هو صالح ؟ وهذا رجل من اليهود ومن الرؤساء وهو يشهد ، وشهادته حق بأن هذا الرجل مبارك ومقدّس .

.. قالت « كلوديا » هذا ، وهى تشير إلى « يوسف الرامى » ، ثم أكملت :

– إياكّم أن يقع دمه علينا وعلى أبنائنا ، لقد رأيت رؤيا من أجله .. ستكون لعنة الآلهة علينا لو لم نغسل أيدينا من دمه . بل علينا أن ننقذه ، وليذهب كل هذا الشعب الردىء إلى حيث الشيطان وآلهة الجحيم .

– سأفعل كل ما أستطيع يا سيّدتى .

– معك « يوسف الرامى » ، افعل ما يشير به عليك ، هو أدرى كيف يتعامل مع أمثال هؤلاء الخبثاء .

... كان « بيلاطس » يقف فى شرفة قصره ، ويقف فى الساحة شيوخ ورؤساء « أورشليم » ، وقد انضمّ إليهم « قيافا » كذلك ، وأخرج

الجنود « يسوع » وهو يلبس لباساً قرمزياً لامعا ، وقد ضفّر العسكر إكليلاً من الشوك ، ووضعوه كتاج على رأسه ، لأنهم سمعوا أنهم يقولون عنه : ملك اليهود ، فأرادوا أن يسخروا منه .. وقال « بيلاطس » لهم و « يسوع » يقف أمامهم على هذه الهيئة المهينة ، وقد بدا أنه قد أهين إهانة شديدة على يد الجند :

– هو ذا الإنسان الذى تشتكون عليه .. ها هو ذا ملك اليهود !

.. ثم التفت إلى قائد المئة وقال ساخراً :

– فليقدّم الجند التحية لملك اليهود .

.. وفهم الجند أن الوالى يطلب منهم أن يسخروا من الناصرى ، فتقدّموا يجثون أمامه على ركبهم قائلين بسخرية : السلام يا ملك اليهود .

.. وقف « يسوع » بينهم صامداً ، وملامح وجهه تنم عن الجدّية والعزم ، فبدا أمامهم كملك أسير .. فاغتاظ بعض الجند وصاروا يضربونه على رأسه بقصبة ويبصقون عليه ، وتقدّم جندى يدعى « لنجينوس » يزهو بنفسه كالطاووس فى صلافة ، ووقف أمام « يسوع » وصفعه على وجهه صفعة قوية وهو يقول مستهزئاً :

– خذ هذه يا ملك اليهود .

.. وترنّح « يسوع » وكاد يسقط على الأرض ، وظهر الضيق على وجه قائد المئة ، فنظر شزراً إلى « لنجينوس » ، وقال بصوت خافت فى غضب :

– أيليق أيها الأحمق أن تفعل ذلك أمام الوالى ؟ هيّا ابتعد عن هنا .

.. وأحسّ « قيافا » أن ما يفعله « بيلاطس » ، هو محاولة ذكيّة لإنقاذ « يسوع » من الموت ، وأن الحاضرين قد هدأت ثائرتهم لما رأوا

« يسوع » على هذه الهيئة المهينة .. ونظر « قيافا » إلى وجه « يسوع » ، فوجده ممتلئاً مجداً وقوّة ، فثارت كل عوامل الحقد فى قلبه ، وأحسّ بأنه مادام هذا الرجل حياً فلن يهنأ له عيش ، وأدرك أن عليه أن يضرب الآن ضربته بقوّة وإلاّ ضاع كل شيء ، فهب يقول صارخاً أمام « بيلاطس » :

– لنا ناموس .. وحسب ناموسنا لابد أن يموت هذا الناصرى ؛ لأنه جعل نفسه ابن الله ، وجعل نفسه ملكاً لليهود من قبل الله .. فإن أطلقت هذا فلست محباً لقيصر ، لأن كل من يجعل نفسه ملكاً يقاوم قيصر .

.. وتعالت الصيحات : لا ملك لنا إلاّ قيصر .. لا ملك لنا إلاّ قيصر .

.. فانزعج « بيلاطس » كثيراً ، ودخل إلى دار الولاية غاضباً ، وجلس على كرسى الولاية واتكأ حزيناً ، وقد انشغل فكره فيما يجب أن يفعل ، وقال أحد مستشاريه :

– أرأيت هذا الثعبان ، إنه هو الذى يجب أن تقطع رأسه ، إن قلبه يمتلى حقداً وحسداً على هذا الناصرى ، لأنه يكشف للناس خبثه وجشعه وفساده .

.. فقال « بيلاطس » مؤيداً :

– هذا الخبيث يقف دائماً حجر عثرة أمامى ، ألم يكن هو الذى رفض أن نأخذ بعضاً من ذهب الهيكل الذى يكتنزونه ويسرقونه ؛ لكى نوّفر الماء لسكاّن « أورشليم » ، وإذا كانت هذه هى أموال الآلهة كما يقولون ، أفلا يجب أن تنفق من أجل الناس ؟ ، ألم يكن هذا المشروع

العظيم سيوفر العناء عل الشعب ؟ .. إننى واثق أن كل الشكاوى التى ذهبت ضدّى عند قيصر كان وراءها هذا الثعبان :

– لقد وضعنا الآن فى موقف حرج ، فلو أطلقنا الناصرى ، فسيكون ذلك مبرراً لمزيد من الشكوى ، بل لن يتورع هذا الملعون أن يذهب بنفسه إلى قيصر .

– طالما أوقعنى هذا الشقى فى حيرة بما يفعله .. اننى أعلم أن هذا الناصرى رجل بار و « كلوديا » لن تغفر لى أبداً أن أسلّمه ليقتل ، وقد رأت رؤيا من أجله أزعجتها ، ولا أدرى الآن ماذا علىّ أن أفعل ؟

.. ظلّ « بيلاطس » حائراً ، ثم طرأ له أن يبعث فى طلب « يسوع » ليكلّمه ، لعلّه يتكلم بشىء ينجيه ويخرجهم من هذا المأزق .. وحينما وقف « يسوع » بين يديه ، قال له :

– هل أنت تقول أنك ملك اليهود ؟

.. وتمنى « بيلاطس » أن ينكر ذلك « يسوع » ، حتى يجد مبرراً لإنقاذه ، لكن « يسوع » سكت ولم يجب .. فقال « بيلاطس » فى ضيق شديد :

– لماذا لا تتكلم ؟ ألست تعلم أن لى سلطاناً أن أصلبك الآن أو أن أطلقك ؟

.. فقال « يسوع » فى ثقة واطمئنان ، وبصوت عميق :

– إنها مشيئة الرب .. لم يكن لك علىّ سلطان ألبتّة لو لم تكن قد أعطيت من فوق .. ولكن الحق أقول لك .. الذين أسلمونى إليك لهم خطيّة أعظم .

.. زادت حيرة « بيلاطس » ، وأحسّ بأن هذا الرجل بار فعلاً ، ولكنه لا يصلح أن يعيش بمبادئه هذه بين الناس ، وأمر جنده أن يأخذوا

« يسوع » بعيداً ، وقال أحدهم « لبيلاطس » :
– إننا نطلق لهم كل عيد واحداً محكوماً . فلماذا لا نطلق لهم اليوم الناصرى ؟

.. كانت هذه الفكرة منقذةً « لبيلاطس » من حيرته ، ففرح بها كثيراً ، لذلك لم يتروّ لكى يدرس الفكرة ، ويعمل على نجاح تحقيقها ، بل قام مسرعاً وخرج إلى الجموع والرؤساء وصاح فيهم قائلاً :
– أنتم تعلمون أننى كل عيد أطلق لكم واحداً .. فها أنذا أؤدب هذا الناصرى أدباً شديداً ، ثم أطلقه ، لأننى لم أجد فيه علة للموت .

.. فصرخ « قيافا » والجموع :
– فليصلب الناصرى .. فليصلب الناصرى .
وصاح آخرون :
– أطلق لنا « باراباس » .. أطلق لنا « باراباس » .

.. ولما كان « باراباس » يجد عطفاً كبيراً من الشعب ، فقد أشعلت هذه الصيحة حماس الجموع فصرخ كثيرون ، شيوخ وكتبة وفريسيون ورؤساء قائلين :
– أطلق لنا « باراباس » .. أطلق « باراباس » .. الموت للناصرى .

.. وارتفعت صيحة مدويّة من بين الجموع :
أطلق « يسوع الناصرى » .. أطلق « يسوع الناصرى »
.. وكان « زوبولون » يقف بين الجموع مع « حيلون » ، وشمشون » ، فلماّ سمع ذلك صاح هو الآخر :
– أطلق « يسوع الناصرى » .. أطلق « يسوع الناصرى » .

.. ولكن بعض الواقفين استداروا إليه ولطموه ، وكادوا يفتكون به ، فأنقذه صاحباه ومنعوا عنه الأذى ، ولكنهما كانا يصرخان أيضاً :

— أطلق لنا « باراباس » .. أطلق لنا « باراباس » .

.. وتعالت صيحات متفرقة تنادى بإطلاق « يسوع » ، فقد كان كثير من أتباع « يسوع » قد تجمعوا أيضاً ، ولكن صوتهم كان متخاذلاً ، لا يتناسب مع جلال الموقف ، فالراعى قد ضرب ! ، فهل يمكن للخراف أن تنقذ الراعى ؟

.. وأمر « قيافا » أتباعه أن يخرسوا كل صوت ، ينادى بإطلاق « يسوع » ، وظهر الهياج بين الجمع ، وتعالت صيحات المتشاجرين .. وبدا كأن معركة كبيرة ستنشب بين أتباع « يسوع » وأعدائه ، فقد ظن أنصاره أن هذه هى الفرصة المواتية لإنقاذه ، ولكن عامة الغوغاء كانت تحب « باراباس » البطل ، الذى يتجرأ ويسرق معسكرات الرومان ، وهم يحكون كثيراً عن شجاعته وقوته وعطفه على الفقراء ، كما أن حرس الهيكل وخدّامه وأتباع الكهنة كانوا كثيرين ، وكان حماسهم عظيماً ، لذلك فقد أرهبوا كل صوت ينادى بإطلاق « يسوع » ، فجرّوا بعضهم بعيداً وأوسعوهم ضرباً وركلاً ، حتى كادوا يقتلونهم .. فما مرّت دقائق ، حتى اختفت الأُصوات التى تطالب بإطلاق يسوع .

.. وزاد هدير أصوات الشعب ، تطالب بإطلاق « باراباس » ، وبالموت« ليسوع » ، وأدرك « بيلاطس » أن هذه بوادر فتنه ، قد أحكم تدبيرها ، وأن هذه الشرارة يمكن أن تحرق كل شيء حوله ، فأى شغب يحدث فى « أورشليم » اليوم ، فلن يغفره له قيصر ، لأنه لو كان فى عاصمته قيصرية والفتنة تحدث بعيداً فى « أورشليم » لهان الأمر ، أماّ أن

تحدث الفتنة فى أثناء وجوده هو « بأورشليم » وفى أيام العيد ، حيث يجتمع اليهود من بقاع الأرض ، وأن يكون زعماء الشغب هم الكهنة ، فهذا هو ما لايمكن تفسيره للإمبراطور . وأحسّ بيأس من محاولته إنقاذ « يسوع » ، خاصة وأن هذا الناصرى لا يساعده على ذلك ، كأنه سعيد أن يساق إلى الموت ، لذلك فقد أمر جنده أن يسكتوا الجموع ؛ لكى يتكلم هو ، ثم وقف أمامهم وقال :

– من تطلبون أن أطلق لكم « باراباس » ، أم « يسوع » الذى يدعى المسيح ؟

.. فتعالت الصيحات عالية :

– أطلق « باراباس » . أطلق « باراباس » .

.. وأخفت هذه الصيحات العالية ، بعض صيحات خائفة تطلب إطلاق « يسوع » ، وقام الجند بإسكات الجموع ثانية ، ليتكلم « بيلاطس » فى مرارة :

– لقد سلّمتم إلىّ هذا الناصرى لأقدّمه للموت .. وقد فحصته ولم أجد فيه علّة تستحق الموت ... وأنتم تقولون : إن ناموسكم يدينه .

.. ثم قدّم « لبيلاطس » إناء به ماء ، فبدأ يغسل يديه أمام الجميع ويكمل بصوت مرتفع :

– هأنذا أقول لكم .. إنى برىء من دم هذا البار .. فأبصروا أنتم .

.. فصرخت جموع الرؤساء ومن حولهم :

– دمه علينا وعلى أبنائنا .. دمه علينا وعلى أبنائنا .. اصلبه .. اصلبه .

.. فأمر « بيلاطس » قائده قائلاً أمام الجموع :

– أطلق لهم « باراباس » .. وخذ « يسوع » للصلب .

.. وتعالت صيحات الناس :

– عاش قيصر .. لا ملك لنا إلاّ قيصر .. لا ملك لنا إلاّ قيصر .

* * *

اللوحة الخامسة عشر



طريق الآلام



.. دخل بيلاطس وارتمى على كرسى الولاية ، ومازالت هتافات الجموع تدوى بحياة قيصر ، فقال لمن حوله فى حنق شديد :

– استمعوا إلى هؤلاء المرائين .. لكم يتمنون أن يحرق قيصر وكل رومانى .. ياله من شعب فاسد مخادع ، لقد عرفتهم جيداً ، وحتى قبل أن آتى والياً عليهم ، فقد حذرنى منهم كل الأصدقاء .. لقد قالوا لى : إن هذا الشعب يظن أنه أذكى من كل الأمم ، فهم يخدعون الجميع ويظهرون غير مايضمرون ، ولكنهم حمقى فالجميع يعرف أمرهم وخداعهم جيداً ، ونحن نقبل منهم امتهانهم لأنفسهم ، ماداموا تحت أقدامنا ، ونتظاهر بأننا نصدقهم !، هل رأيتم شعباً بهذا الفساد ؟! إنه يقتل كل حكمائه والأبرار فيه ، لقد قتلوا من قبل « المعمدان » وهم يشهدون له بأنه رجل صالح ، وهاهم أولاء يقتلون هذا الرجل البار .. أقسم أن هذا الشعب لابد أن تحيق به لعنة الآلهة .

.. ودخلت « كلوديا » باكية ، وجثت أمام زوجها منزعجة ، وقالت فى توسل :

– أقسمت عليك يا « بيلاطس » ، ألا تسلمه لهذه الوحوش الضارية .. أستحلفك أن تفعل شيئاً لإنقاذه !، أنت تعلم أنى رأيت رؤيا أزعجتنى كثيراً من أجله .

.. فقام « بيلاطس » ، وأخذ بيد « كلوديا » ، وأجلسها بجانبه فى شفقة ، وهو يقول معتذراً :

– وماذا يمكنني أن أفعل ياعزيزتي .. لقد غسلت يدى أمامهم ، وقلت لهم : إنى برىء من دم هذا البار .

– أنت قادر على أن تفعل كل شيء يا « بيلاطس » !. ألست أنت الوالى . هذا الرجل بار وسيقع دمه علينا وعلى أبنائنا ! .

– ليس الأمر فى يدى يا « كلوديا » .. فهو رجل يهودى مثلهم ، وقد أمرنى قيصر ألا أخالفهم فى ناموسهم ، وهم قد حكموا عليه وأدانوه ، وهو كذلك لايساعدنى لكى أنقذه ، إنه يرفض أن يتبرأ من أية تهمة توجه إليه ، بل هو صامت متقبل لكل مايحدث برضا ، فماذا أستطيع أن أفعل له ؟!، ألا تكفينى متاعبى مع هؤلاء الأشقياء ؟!، ثم إنهم لن يدعوه أبداً ، سيطاردونه ويقتلونه ، وسيجدون مايشتكون به على لقيصر ، وهذا الملعون « قيافا » يقف مع الجموع ، ولن يهدأ حتى نسلمه للموت ، وإلا أثار شغباً وفتنةً بين الناس ، ليحرج موقفى أمام روما ، فقد يقتل كثيرون ، بل قد يقتحمون القصر ويأخذونه عنوة فى هياجهم ، فيكونون قد فعلوا ما أرادوا ، رغم مشيئتى !، فأى هوان لى !، وهل سيسكت قيصر على ذلك ؟! .

.. كان قائد المئة المكلف بأمر « يسوع » ، يقف منتظراً أوامر « بيلاطس » ، فلما رأى انزعاج مولاته « كلوديا » ، همس لها :

– سنفعل كل مابوسعنا من أجله ياسيدتى .

.. فسمع « بيلاطس » مايقول ، فقال بلهجة آمرة قلقة :

– أنا لا أريد ألاعيب .. فليصلب كما أرادوا .. لا أريد شغباً يعم المدينة ، بل قد تعم الفتنة كل الولاية .

– نعم ياسيدى .. كنت أقول فقط : إننا سنفعل مانخفف به عنه الآلام .

– قلت : لا أريد ألاعيب ، أريد أن يتم كل شيء دون شغب أو اعتراض ، وبسرعة .

– أمرك ياسيدى .

.. وخرج قائد المئة من عند « بيلاطس » ، ووجد « يوسف الرامى » ينتظره ، فقال له :

– ماذا ترى ؟ لقد سمعت أوامر الوالى .. فكيف ننقذه ؟ .. هل يمكن أن نصلب أحد مكانه ، دون أن يعرف أحد ذلك ؟

.. فقال « يوسف الرامى » :

– لا .. لأنه حسب الناموس .. لابد أن يشهد الرؤساء والشعب « يسوع » يصلب أمامهم .

– إذاً لا فائدة !–

– لا .. فلنخرج به أمامهم ليصلب ، ثم يعلق أمامهم على الصليب ، وبعد أن يطمئنوا جميعا إلى ذلك ، ننقذه قبل أن يموت ، ونقول لهم : إنه قد مات سريعاً ، وندفنه . فليكن الصلب فى موضع [الجلجثة] ، لأن هناك بستان لى ، وهناك قبر جديد لى منحوت فى الجبل .. ولكن فلتكن حريصاً على ألا يكسر منه عظم . وهم يدقون فى يده وأرجله المسامير ، وليثبت جيداً على الصليب حتى لا يتمزق جسده الضعيف ، كن حريصاً جداً على هذا ، وإلا مات رغماً عنا . .

– اطمئن سأشرف على ذلك بنفسى ، ولكن كيف سننزله من على الصليب والجموع ستشهد أنه لم يمت بعد ؟! .

– سنسقيه شرابا يفقده وعيه ، وسيبدو كأنه قد مات .. حينئذ سأطلب من الوالى أن يصرح لى بدفنه .. عليك أن تتأكد من أن يكون

مستريحاً على الصليب فقط ، فهو ضعيف الجسد ، وأخاف أن يتمزق جسده .

– اطمئن ، ولتساعدنا الآلهة ، فكم يدمى قلب « كلوديا » المسكينة .

.. وذهب قائد المئة ، فأمر أن ينزع عن « يسوع » اللباس اللامع ، وأن يرتدى ملابسه التى جاء بها ، لكى يقدم للصلب ، كذلك كان هناك محكومان آخران سيصلبان فى هذا اليوم ، فأمر أن يجهزا أيضا .. وجاء الجندى « لنجينوس » ، فرأى « يسوع » واقفاً فى هدوء ، وقسمات وجهه تنم عما فى نفسه من ثقة ومجد كبير ، فشعر بغيظ وكره شديد له ، واقترب منه ولطمه وبصق عليه ، وجاء بإكليل الشوك ليضعه على رأسه مستهزئاً وهو يقول فى صلف وميوعة :

– البس تاجك ياملك اليهود ، وأنت تساق إلى الموت .

.. فلاحظ ذلك قائد المئة ، فأقبل مسرعاً وانتهر « لنجينوس » قائلاً فى غضب :

– هذا رجل يقدم للموت . فلا يحق لك أن تفعل ذلك أيها الغبى التعس .. هذا فعل الجبناء ، فلتظهر شجاعتك فى المعارك وليس هنا ، فهذا فعل النساء .. أنت عار على كل رومانى ! . ولكن قائد المئة ، لا يدرى لماذا داخله الخوف فيما هو مقدم عليه من محاولة إنقاذ « يسوع » ، فلو انكشف أمره فهذه نهايته عند « بيلاطس » ، بل وكقائد أيضاً .. أكل هذا من أجل « كلوديا » ؟، لا بل هو يعرف أن هذا رجل بار حقاً ، وهو مستريح الضمير لما يفعل ، ولم يكن أمامه وقت ليفكر فى الأمر ، فترك كل شىء يسير كما تريد الآلهة .

.. كانت الجموع مازالت محتشدة أمام القصر ، تصرخ بين الحين والحين ، تنادى بالموت للناصرى .. ووقف المسيح هادئاً ، وصرخات العداء من الشعب الذى جاء لكى ينقذه ، تنفذ كسهام إلى قلبه .. كان الجسد مرهقاً جداً ، فهو لم يرقد طوال هذه الليلة الرهيبة ، بل لم يجلس إلا قليلاً ، وهو لم يذق طعاماً ولا شراباً ، منذ تعشى بالأمس العشاء الأخير مع تلاميذه ، ثم هو قد تعرض للإهانة والجلد ، وقد سال جزء من دمه .. أما الروح فقد كانت نشيطة ، فقد كان طوال هذه الساعات فى صلاة متصلة .. كان قريباً جداً من الله ، لقد أسلم قلبه ونفسه لله تماماً ، وهاهو ذا يرى الفصل الأخير فى الملحمة ، ليتم كل ماهو مكتوب .. فهم يكتبون بأيديهم اليوم نهايتهم كأمة ، ويجلبون غضب الله عليهم إلى يوم الدينونة ، بل هم قد فعلوا ذلك منذ أن قتلوا « المعمدان » الوارث لشريعتهم .

.. وهاجت الذكريات فى قلب « يسوع » ، فتذكر طفولته فى مصر ، وكيف كانت أمة متعلقة به ، متلهفة عليه دائماً ، لقد وجد فى كنفها الحماية والسعادة ، ولكن سعادته دائماً كان يخيم عليها أطياف من الحزن !. كم سأل أمه متى يعود إلى وطنه ، فقالت له حينما يموت « هيرودس » الشرير ، وحكت له كيف يسعى هذا الملك ليقتله ، وتعجب « يسوع » الطفل كيف أن ملكا كبيراً يطلبه هو ليموت ، وحرمه ذلك من أن يمرح كالأطفال من حوله ، بل كان دائم التأمل والتفكير ، وحينما علم أبواه بموت هيرودس الأكبر فرحا جداً ، وتوزعت مملكته بين أبنائه ، فقرر الأبوان أن يعودا إلى أرض الوطن ، ولكن لما كانت بيت لحم تحت حكم « أرخيلاوس » ، وكان شريرا كأبيه ، فقد ذهبا إلى الجليل واستقروا فى الناصرة .. وعاد يسوع الطفل إلى وطنه الذى طالما تشوق لرؤياه ، ولكنه لم يجد سوى شعب شرير ، قد عمه

الفساد ، ولولا أن وجد بعض الأصدقاء أنقياء القلب وسط هذه المزبلة ، لما استطاع أن يكمل مسيرة حياته بينهم ، فقد أمل دائماً أن ينقذهم ، وأن ينقذ بهم هذا العالم ، وأن يحقق بهم مشيئة الله .

.. وتذكر ملاك الرب ، ابن خالته « يوحنا المعمدان » .. كم كان لقاءهما رائعاً ، لقد وجد فى عقله صدى لكل أفكار قلبه ، كم كان عظيماً إذا قيس بكل مقاييس الرجال !، كيف بلغ العمى بهذه الأمة أن تقتل رجلاً عظيماً « كالمعمدان » ؟ وهى تعلم أنه رجل بار ، وأنه نبى الله ، كيف قتلت هذه الأمة المنكودة وارث شريعتها وخاتم أنبيائها ؟!. نعم كان لابد أن يقتل لكى تكتب هذه الأمة نهايتها بأيديها ، فالله ليس بظلام للعبيد .. رغم كل مافى ذلك من آلام ، كان لابد أن يحدث هذا ، ليتم ماهو مكتوب .. وأما متى جئت أنت ياروح الحق ، فأنت ستشهد لنا .. وأنت ستبكت العالم من أجلنا .. أنت ستبعث بالسيف لتقيم للرب مملكة تبقى فى هذا العالم حتى الدينونة . أنت ستشهد لى وتشهد لكل رسل الآب الذين أرسلهم .. أما أنت أيها الشعب الغليظ الرقبة ، فها هى ذى النعمة تنتزع منك لتعطى لأمة أخرى تعطى ثمارها .. أما أنت أيها الشعب الجاحد ، فغضب الرب عليك إلى الأبد .

.. تنبه « يسوع » وهو سابح مع أفكاره ، إلى ضجيج حوله ، ورأى لوحة قد كتب عليها « يسوع ملك اليهود » بالعبرانية واليونانية والرومانية ، والكهنة الذين رأوها اعترضوا وقالوا هذا ليس ملك اليهود ، ولكن خرج الحاجب ليقول لهم :

– يقول سيدى « بيلاطس » : ألستم أنت تقولون ذلك ؟! ماكتبت قد كتبت .. وصاح أحدهم مستهزئاً :

– ياملك اليهود ، خلصت آخرين ، فخلص نفسك مما أنت فيه .

.. رفع « يسوع » رأسه ونظر إلى الجموع بإشفاق وغضب ، فسكتت الجموع منبهرة بسلطانه ، وتعالت أصوات نساء يبكين ، أما أتباع « يسوع » الذين كانوا بين الجموع ، فقد امتلأ قلبهم بالخوف لكثرة الجواسيس المنتشرة بينهم ، ولم يكونوا مستطيعين أن يفعلوا شيئاً لمعلمهم .

.. نظر « يسوع » إلى الجموع ، ثم تاه ثانية مع أفكاره .. فها أنت ذى يا « أورشليم » .. يامدينة الهيكل ! .. ياقبلة قلوب اليهود فى كل مكان .. يامدينة الكهنة والرؤساء والأنبياء .. يابيت الرب المقدس .. هاأنت ذى أراك ستداسين بالأقدام ، ولا يبقى حجر على حجر ، وويل للحبالى والمرضعات وويل للأطفال والصغار من هول ذلك اليوم .

.. وأفاق « يسوع » على من يرفعه من على الأرض ، فأدرك أنه لابد قد غشى عليه ، ووقف « يسوع » ، فرأى أن كل شىء قد أعد ، والصلبان قد جهزت ، وبدأ الموكب يتحرك ، وحينما أصبحوا فى الطريق ، وضعوا صليبه على كتفه ، فمشى بين الجند يحاول أن يتماسك منتصب القامة ؛ حتى لايسقط مغشياً عليه ثانية ، ولكنه لم يسر سوى خطوات قليلة ، وأحس بدوار ثانيةً فوقع على الأرض ، فأخذ الجند رجلاً من الطريق ليحمل الصليب عن « يسوع » ، وسار « يسوع » فى الموكب ، مرفوع الرأس ، ينظر إلى الجموع كملك أسير ، وتعالى نحيب النسوة ، وهن يلطمن وينحن عليه ، فالتفت وقال لهم فى قوة ، مشفقاً حزيناً :

ـ يابنات أورشليم .. لا تبكين على .. بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن .. لأنها أيام ستأتى يقولون فيها : طوبى للعواقر ، والبطون التى لم تلد ، والثدى التى لم ترضع !. حينئذ تقولون للجبال اسقطى

علينا وللآكام غطنا . لأنه إن كانوا بالعود الرطب يفعلون هذا .. فماذا يكون باليابس ؟!

.. لم يخرج الجند بالموكب مباشرة إلى موقع الصلب عند [الجلجثة] خارج « أورشليم » ، فقد جرت العادة أن يسير الموكب فى طرق « أورشليم » بين الجموع أولاً ، لكى يتحقق الإعلان عن تنفيذ العقوبة ، ثم يخرجون به بعد ذلك ليصلب . كان الموكب يسير بطيئا فحامل الصليب يمشى ببطء لثقل مايحمل ، ووقف أفاعى الهيكل يسخرون من « يسوع » ، فقد غاظهم أن يسير هكذا متحديا لهم بنظراته وبهائه وكلماته ، وكأنما كذلك ليبرهنوا للجموع أنهم محقون فى صلب هذا الرجل فقالوا له :

– إن كنت المسيح مختار الله حقاً فخلص نفسك .. المسيح مختار الله لايمكن أن يموت على الصليب ، فلو كنت أنت حقاً فأنقذ نفسك .

.. هذا جزاء الكذاب .. من يدع أنه هو المسيح ملك اليهود تكن هذه نهايته .. المسيح مختار الله ، مكتوب أنه ينتصر على أعدائه ، فإن كنت حقاً المسيح ، فاصنع آية تنقذك مما أنت فيه .

.. نظر « يسوع » فوجد بعض تلاميذه بين الجموع فقال :
– ثقوا أنى قد غلبت العالم .

.. ثم أخذ المسيح يصلى فى تضرع إلى الله ألا يتركه « .. إلـٰهى أنقذ فتاك من أيديهم .. إلـٰهى أظهر آياتك لهم ليتمجد فتاك الذى يحبك من كل قلبه .. » .. كان « يسوع » يعلم أنه مكتوب حقاً أن المسيح لايموت على صليب ، وكان يعلم كذلك أنه سيعطى آية كآية « يونان » النبى ، الذى اختفى فى بطن الحوت وفى اليوم الثالث خرج حياً من جديد ؛ لذلك عرف أن مثل هذا الأمر سيحدث له ، ولكنه قد أخفى

عليه كيف سيحدث ذلك ؛ لذلك استمر فى صلاته بحرارة « .. إلٰهى لا تتركنى .. أنت إلى الأبد رحمتك .. أنت منقذ عبيدك من يد أعدائهم .. أنت يارب ملجئى وحصنى الذى أتكل عليه .. ملجأ كنت لنا دور فدور ، من قبل أن تولد الجبال ، أو بدأت الأرض والمسكونة ، منذ الأزل إلى الأبد أنت الله .. يارب ما أكثر مضايقىَّ !، كثيرون قائمون على ، كثيرون يقولون : ليس له خلاص بإلٰهه .. خلصنى يا إلٰهى .. تآمر الرؤساء وملوك الأرض على الرب ومسيحه .. الساكن فى السموات يضحك ، الرب يستهزئ بهم .. حينئذ يتكلم عليهم بغضبه ، ويرجفهم بغيظه ، يارب إلٰهى عليك توكلت ، خلصنى من كل الذين يطردوننى ونجنى ، لا تبتعد عنى يارب .. لا تتركنى فى ضيقى ، ولا تحجب وجهك عنى ، استجب إلى يارب يا إلٰهى .. لتتمجد كلمتك يارب ليعرف الجميع أنك أنت الحق ، لئلا يقول عدوى وعدوك : إننى قد قويت عليه ؛ لئلا يهتف مضايقىَّ بأننى تزعزعت .. قلبى يارب يبتهج بخلاصك .. » .

.. ظل يسوع يصلى بهذه الكلمات التى حفظها من الأسفار ، وتنبه إلى توقف الموكب الحزين ، فنظر حوله ، ليرى بستان « يوسف الرامى » الذى جاء إليه من قبل مراراً ، هاهو ذا يقف على تل [الجلجثة] ، وهاهى ذى « أورشليم » تبدو أمامه بأسوارها ، كامرأة تسير فى طريق الخطيئة !. وثلاثة رجال يحملون صلباناً ثلاثاً .. جندرومان يقفون مع قائدهم ، وجموع قد صحبتهم إلى هذا المكان .. عيون عكرة شقية عاصية ، وعيون ذاهلة متشككة ، وعيون دامعة .. قلوب حاقدة مستكبرة ، وقلوب لاهية ، وقلوب يشع منها النور والنقاء ولكنها خائفة !. هاهى ذى الدنيا بمأساتها كما أرادها الله .

.. ونظر « يسوع » إلى السماء ، فبدت بصفحتها النقية ، تزينها نتف من سحب بيضاء ، وبدا الكون صامتاً رهيباً ، يخفى وراءه عالم

المجهول ، ولكنه كان كمن ينظر ويتابع ما يجرى على أرض [الجلجثة] .. ولكن هل يمكن أن تكون هذه هى النهاية ؟!، لا .. لا يمكن أن يغادر هذا العالم مطروداً من أهله على هذه الصورة .. لا يمكن أن يترك أنقياء القلب الذين جاء من أجلهم ، وأحبهم ، ولهم عاش وتألم ، ليعرفهم طريق الحق والنور ، لا يمكن أن يتركهم فى يأسهم هذا ، ودموعهم باكية ... لا .. لا .. لا يمكن أن يكون كل ماعرفه أوهام شخص أحب أن ينتصر على أعدائه .. لا ، هذه ليست أوهاما ، فالله دائماً هو المنتصر على أعدائه ، لن ينجح كيد الأشرار غليظو الرقبة ، ستحدث الآن آية تنصره عليهم .. نعم لابد أن تحدث آية ، فهذا ما آمن به ، ولا يمكن أن يكذبه قلبه . ولكن كيف ؟ ومتى ؟ لا يعلم هو .

لم يكن يسوع يعرف كيف ولامتى ستمتد يد الرب لإنقاذه ، لقد تحمل آلاماً كثيرة ، والجسد ضعيف ، فهل مازال فى الكأس بقية يتجرعها ؟ .. نظر فرأى نساءً يبكين وتوقف نظره على أمه العذراء تقف بينهن .. لم تكن تبكى ، فكأنما تحجرت الدموع فى مآقيها ، ولكنها كانت كذاهلة عما حولها .. لقد شهدت هذه المرأة فصول القصة من بدايتها ، فهاهو ذا ملاك الرب يبشرها فتحزن ، وهاهى ذى تضع الحبيب فتبكى ، وظلت ترقبه ينمو ونعمة الله عليه ولكن مخاوف كثيرة تملأ قلبها عليه .. وأصبح هو قرة عينها ، وعزاءً لكل عناء السنين ، أصبح كالنور يضىء أينما ذهب ، ولكن هذا شعبها قد كره النور وأحب الظلمة ، وهاهى ذى الذئاب قد تجمعت ، وملاكها يقف بينهم كشاة وديعة !.. لتكن مشيئة الله .. عزاؤها أن « يسوع » الحبيب هو الذى أراد أن يسلك هذا الطريق ، طريق المجد ومعرفة الرب .. لو شاء أن يطلب من الله أن يرسل ملائكته لتحميه لاستجاب له الرب .. لقد أيده الله دائماً بالروح القدس ، وأعطاه نعمة أن يصنع آيات كثيرة .. ولكن يسوع هو الذى أراد أن يبيع نفسه ، ليشترى بها حياة الأبدية وهذا طريق الأبرار ..

ولكن حتى متى ياربى تستمر هذه الآلام ؟! متى تمتد يدك ياربى لتنقذه ؟ ألا يكفيه ماعانى منذ الأمس إلى اليوم ؟! ، ياربى يكفى هذا !. يارب فلتغضب لفتاك الذى أحببته .. يارب دمر أعداءه وزلزلهم .. قلبى سينفطر ، فلن أتحمل أن أرى المزيد من هذا !.. أنت القوى !.. أنت .. أنت . .

.. كانت مريم المجدلية واقفة أيضاً ، وقد أضناها البكاء ، و« يوحنا » تلميذ المسيح الحبيب يقف معهم شارداً ، وقلبه يعتصره الألم وروحه متشوقة إلى أن ترى كيف ستكون مشيئة الرب . ونظر المسيح إلى أمه فنسى آلامه ، ورق قلبه لها ، لقد عاشت تستمد حياتها من حبه لها ورحمته بها ، وهى لا تطيق فراقه ، فكيف يتركها وحيدة فى هذا العالم ؟! لا لن يتركها سيكون معا بعد ثلاث ، هكذا عرف قلبه من إلهام الرب ، ولا يمكن أن يكذب إلهامه ؛ لأن قلبه دائماً مع الله .. ولكن كيف ستقضى أمه هذه الأيام حتى تراه ؟ ونظر إلى « يوحنا » ، ثم قال لأمه ، وقلبه يمتلىء بالرحمة لها :

– هو ذا ابنك .

ونظر إلى « يوحنا » الحبيب ، وقال بلهجة من يصدر إحدى تعاليمه :

– هى ذى أمك .

.. وترقرقت الدموع فى عينى « يوحنا » ، فهذه أول كلمة يكلمه بها المسيح منذ الأمس ، وها هى ذى نظراته المليئة بالرحمة والحب تلفه ، كما اعتاد دائماً أن يغرق فى نورها وينعم بما تلقيه فى قلبه من سلام .. ولكن قلبه تمزق لكلمات معلمه ، فكأنها كلمات وداع .. فهل يمكن أن تكون هذه هى النهاية ؟ هل يمكن أن يذهب عنهم حقاً ؟

.. كان « نيقوديموس » ، و « يوسف الرامى » يقفان أيضاً بين الجموع ، وهما ينظران إلى قائد المئة ، وقائد المئة ينظر إليهما خفية وهو حائر .. ماذا يمكنه أن يفعل ؟!. عيون رؤساء الهيكل والكتبة وشيوخ وفريسيين كلها تنظر وتراقب ، تريد أن تراه يتم هذا الأمر أمامهم ، وتحذير « بيلاطس » له يملأ قلبه حذراً ، « فبيلاطس » لايريد أن يغضب شيوخ « أورشليم » ، وهاهو ذا الرجل البار يقف مستسلماً لما يفعل به !. فماذا عليه أن يفعل ؟

.. الحفارون يحفرون الأرض التى ستثبت بها الصلبان .. وامرأة تقدم خلاً ومراً للمقدمين على الصلب ، لكى يخفف ذلك من آلامهم ، ولكن « يسوع » يرفض أن يشرب ، هل يريد أن يتحمل كل هذه الآلام واعياً لها ؟ لماذا يرفض أن يخفف هذا الشراب من آلامه ؟ .. الجنود يسحبون « يسوع » وصاحبيه ، ويخلعون عنهم ثيابهم .. يسوع يقف ، نحيف الجسم ، عريض الصدر ، بارز العظام والعضلات .. قائد المئة يقترب من حامل المطرقة والمسامير ، ويقول له بصوت خافت ، فى تحذير شديد وبلهجة آمرة ، وفيها رجاء :

- إرفق بهذا البار ، فهو ليس كصاحبيه .. كما قلت لك عظم منه لا يكسر .. ثبته جيداً حتى لايتمزق جسده .. هل تفهم ؟ لن أوصيك ثانيةً .

.. ترتفع المطرقة ثم تهبط ، وتتعالى صرخات المصلوبين ، ويتأوه « يسوع » فى ألم ، ويتصبب العرق غزيراً من جسده ، ويعلو نشيج النسوة ، وتسيل دموع على وجوه رجال واقفين .. وترتفع الصلبان الثلاث .. قلب قائد المئة يخفق حينما يرفعون صليب يسوع ، ولسانه يحذر الجند دون وعى منه .

- برفق .. برفق .. ارفعوه برفق .

.. هاهو ذا « يسوع » معلق على الصليب ، وعن يمناه ويسراه ، علق اثنان آخران .. أما أحدهما فقد أعماه شره ، فهو يحسد المسيح أن رأى اهتمام قائد المئة به ، وبكاء النساء عليه ، وتطلع الجموع إليه .. ورأى المكتوب على صليبه « هذا يسوع ملك اليهود » ، فقال ساخراً :

– إن كنت أنت المسيح ملك اليهود فخلص نفسك وإيانا كذلك .

.. قالها حاقداً ، ولكن رواده أمل أن يفعل يسوع ذلك فتكتب له حياة جديدة ، ولكن « يسوع » لم ينظر إليه و لم يتكلم فاشتعل الغيظ فى قلبه .. وأما الآخر الذى كان معلقاً أيضاً ، فقد امتلأ قلبه عطفاً وهو يرى ، رجلاً باراً وديعاً ، يفعل به مايفعل بهما ، فشغلته آلام « يسوع » عن آلامه ، وانتهر صاحبه قائلا :

– ألا تخاف الله ، إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه .. أما نحن فبعدل لأننا ننال استحقاق مافعلنا ، وأما هذا فلم يفعل شيئاً ليس فى محله .

.. ثم نظر إلى « يسوع » وقال له فى رجاء :

– اذكرنى يارب متى جئت فى ملكوتك ؟

.. نظر إليه « يسوع » فى رحمة وقال له مطمئناً :

– الحق أقول لك إنك اليوم تكون فى الفردوس .

.. وغاظت كلمات « يسوع » الهادئة الواثقة ، الرجال الحاقدين الذين ينظرون ، فبدءوا يسخرون منه :

« .. خلص آخرين وأما نفسه فما يقدر أن يخلصها !! »

« .. إن كان هو مسيح الرب فلينزل الآن من على الصليب فنؤمن .. »

.. قد اتكل على الله فلينقذه الآن إن أراده .. »

«.. ياملك اليهود انزل لنؤمن بك .. يانافض الهيكل وبانيه خلص نفسك ..»

«.. إن كنت ابن الله فخلص نفسك ، أو فليخلصك هو .. »

.. وكثرت ضحكات الشماتة الباهتة على وجوه الحاقدين ، فكانت كسهام مسمومة فى قلب العذراء ، فانخرطت فى صلاتها « .. إلٰهى لا تدعه يخزى بين الناس .. لا تشمت به أعداءه .. لا تخز كل الحاضرين الذين عليه وضعوا رجاءهم .. إلٰهى لا تتركه .. إنه ابنك الحبيب البار ، غاب يسوع عن آلامه ، مشغولاً ومنتظراً لمشيئة الرب كيف ومتى ستكون ؟.. لقد كان يتوقع أن تمتد يد الرب لتنقذه قبل هذا ، وبدأ اليأس يحوم حول قلبه ، فأحسّ بأنه وحيد فى هذا الكون .. لا أحد يقدم له عوناً ، والآب الذى طالما ارتكن عليه ، لماذا يحس فى هذه اللحظات أنه بعيد عنه ؟! هل يمكن أن يكون كل ماعرفه وتكلم به ليس سوى سراب ، وأن تكون الحياة كلها ليست سوى خيالات وأوهام والكل باطل ؟! .

وأفاق يسوع من لحظات شروده ليحس بآلام رهيبة تخترق عظام رأسه بما لا يطيق ، وهاهى ذى شماتة وسخرية الحاقدين ، ودموع وبكاء المحبين ، فقلبه يعتصره الألم .. وأحس بأنه لم يعد يتحمل أكثر من هذا ، وأنه سينهار ويهتز إيمانه ، واستيأس أن يرى آية تنقذه ليكمل ما آمن بأنه مكتوب ، لابد أن تمتد يد الرب الآن .. الآن .. ورفع رأسه نحو السماء ، ثم صرخ بصوت عظيم :

– « .. إلٰهى .. إلٰهى .. لماذا تركتنى ؟. »

.. وسكتت الجموع مهابة لنداء « يسوع » .. وأحست العذراء ، أن يد الرب لابد أن تمتد الآن حتى لا يهلك الجميع فى شكوكهم .. وقال أحد الرؤساء شامتاً :

ـ هاهو ذا ينادى الله أن ينقذه .. دعونا نرى إن كان حقاً ابن الله ومسيحه فكيف يتركه هكذا .. » .

.. وبعد لحظات قليلة ، وقبل أن تسرى سموم الشك فى قلوب أتباع « يسوع » ، تدخلت السماء ، واستجاب الرب لمسيحه .. فزحفت جيوش الظلام على صفحة السماء ، وامتلأت بالغمام ، وأرعدت وأبرقت ، وتحركت الريح فى صخب ، وتزلزلت الأرض والصخور تشققت .. وأحس الجميع بأن صرخة يسوع قد سمعها الله واستجاب لها .. فحدث رعب عظيم بين الجموع ، فأما أتباع « يسوع » ، فقد دخلوا فى صلاة عميقة يمجدون فيها الرب وقدرته وعظمته ، وأما حاقدوه والغافلون عنه ، فمنهم من هرب إلى أورشليم وهو يقرع صدره ، أن يكون حقا هو مسيح الله ، ومنهم من خاف أن تتحول الجموع إلى « يسوع » فتؤمن به ، حينئذ سوف تفتك بأعدائه .

.. ونظر قائد المئة ، فوجد الجند حائرين فى خوف ، فصرخ فيهم قائلاً :

ـ ألم أقل لكم .. بالحقيقة كان هذا الإنسان باراً ؟! .

.. وفى « أورشليم » أيضا ساد الذعر بين الناس ، وحينما دوت العاصفة ، وشقت حجاب الهيكل الذى يحجب قدس الأقداس ، سرت همسات الشك بين اليهود !. إن هذا الناصرى كان حقاً مسيح الرب ، وخاف الناس أن ينزل عقاب الرب الآن على « أورشليم » ، وكادت أن تكون فتنة ، وعاشت المدينة ساعات فزع ورعب كبير .

.. ولكن « قيافا » لم يهتز ، ولم يفقد إيمانه بنفسه ، وأعماه حقده على « يسوع » ، وجمع أتباعه والمقربين حوله ، وصرخ فيهم مبكتاً لهم :

– حتى أنتم أيها الجبناء ، قد ملأ الهلع قلوبكم ؟!.. هل صدقتم أن هذا الناصرى الملعون هو مسيح الرب حقاً ؟ .. كل هذا لأن عاصفة هبت ، وغماماً ملأ السماء ، أوحتى شمساً .!! إياكم أن يخدعكم بسحره .. فطالما هبت عواصف واقتلعت أشجاراً وهدمت قصوراً مشيدة .. من أى شيء تخافون أيها الجبناء ؟! أتخاون الظلام كالأولاد ؟ .. هذه هي الساعة التى يعرف فيها الرجال .. أقسم بالرب وبالهيكل وبقدس الأقداس لأسحقن كل مجدف رعديد .. كونوا رجالاً الآن ، وإلا ضاع منكم كل شيء !. اذهبوا وانشروا الجواسيس فى كل مكان ، وكل من يتكلم بتجديف اقبضوا عليه .. انشروا الرعب بين الناس .. بل امسكوا بكل من يقول حسناً عن هذا الناصرى .. إن لم تحكموا قبضتكم الآن فسيكون شغب بين الناس ، ولن تأمنوا حتى على حياتكم .

.. وجاءت إلى « قيافا » ، رسالة من حميه « حنان » ، يقول له فيها : إن عليه أن يطلب من « بيلاطس » أن تكسر سيقان المعلقين على الصليب حتى يموتوا قبل أن تغرب الشمس ، لأن الشريعة تحرم أن يبقى أحد من اليهود على الصليب يوم السبت ، وكان اليوم هو الجمعة ، والسبت عندهم كان يبدأ مع غروب شمس الجمعة ، كما طلب حنان من « قيافا » أن يظهر للجميع شراً هذا اليوم ، حتى يخاف الناس وتهدأ الفتنة ، وطلب كذلك أن يظل رجال من الهيكل يراقبون [الجلجثة] ليتأكدوا من موت الناصرى ، ويواروه فى قبره ، وأن يظل مستيقظاً حذراً حتى تنتهى هذه الأوقات العصيبة .

* * *

.. يسوع معلق على الصليب .. الوجه تظهر عليه علامات الرضا ، والإيمان يعود ليعمر القلب .. يد الرب قد امتدت إليه .. المستهزئون الساخرون الجاحدون للرب يهربون أمام غضبه فى فزع

وخزى .. الرجاء يعود إلى قلوب أنقياء القلب .. وتذكر يسوع كلمات الأسفار فترددت على شفتيه « .. مبارك الرب لأنه سمع تضرعى .. الرب عزى وترسى .. عليه اتكل قلبى فانتصرت !. قلبى يبتهج وبأغنيتى أحمده .. الرب عز لنا ، وحصن هو لخلاص مسيحه .. » .

.. لمح المسيح ، « يوسف الرامى » و « نيقوديموس » ، مقبلين عليه ، فابتسم لأنه عرف ماهم مزمعان أن يفعلاه .. وتقدم « نيقوديموس » ، وقد حمل إناء الشراب ، وغمس فيه إسفنجة ، وضعها على قصبة ، ونظر إلى قائد المئة والجند من حوله ، ثم قال :

– اسقه .. لأنه يقول : إنه عطشان .

.. وأومأ إليه قائد المئة أن يفعل ، فتقدم « نيقوديموس » ووضع الإسفنجة على فم المسيح ، ونظر إليه يريد أن يتوسل إليه أن يشرب ، ولكنه وجده ينظر إليه هادئاً ، وعلى شفتيه بسمة الرضا ، كأنه يقول له : أنا أعرف ماتصنعون .. وفتح يسوع شفتيه ليذوق هذا الشراب شديد المرارة ، ثم قال :

– قد أكمل .

ودارت به الأرض ، وغاب عن الوعى ، فنكس رأسه .

.. فالتفت « نيقوديموس » إلى قائد المئة ، وقال :

– لقد أسلم الروح .. نريد أن ننزله من على الصليب .

.. فخاف قائد المئة ، أن يشهد عليه جنوده أنه فعل ذلك ، دون أمر « بيلاطس » ، أو أن يشكوا أنه متواطئ معهم ، خاصةً بعد أن صرخ دون وعى معلنا إيمانه بأن هذا الرجل بار حقاً .. لذلك أجاب :

– لابد من أمر « بيلاطس » ، لكى تأخذوا الجسد .

.. أسرع « يوسف الرامى » إلى « بيلاطس » ، فوجد رؤساء آخرين خارجين من قصره ، وعرف أنهم قد صرح لهم بأن يكسروا

سيقان المعلقين على الصليب ليموتوا ، فامتلأ قلبه فزعاً ، ودخل على « بيلاطس » الذى كان يعرفه ويثق به ويستشيره ، فقال له : إن يسوع قد مات ، وإنه يطلب أن يأخذ جسده ليدفنه فى قبره ، فخاف « بيلاطس » أن تكون هذه لعبة لإنقاذ « يسوع » ، فأبدى تعجبه من أن يموت رجل على الصليب بهذه السرعة ، وأبدى شكه ، وطلب أن يرى قائد المئة ليسمع منه أيضاً .

.. أسرع يوسف الرامى مرة ثانية ليسبق وفد الهيكل ، قبل أن يصلوا إلى [الجلجثة] ، وحذر قائد المئة أن يمسوا « يسوع » ، وحينما جاءوا كسروا سيقان اللصين . أما يسوع فرأوه قد مات ، ومنعوا أن يقتربوا منه ، فسكتوا ولكن بعض الشك راود قلوبهم ، فظلوا واقفين منتظرين أن يروه يوارى فى قبره .

.. أسرع قائد المئة مع « يوسف الرامى » ، وتركوا « نيقوديموس » لحماية « يسوع » ، وفى الطريق استحلف قائد المئة « يوسف الرامى » ، ألا يظهر يسوع للناس مرة ثانية ، وأن يغادر « أورشليم » ، بل كل أرض فلسطين ، وقال فى خوف :

– لو ظهر « يسوع » لغير أتباعه المقربين ، ففى هذا نهايتنا ، إن هذه خيانة عقابها الموت أو السجن ، أو العزل .. لابد أن تعدنى أن يختفى تماماً ، وألا يعلم أحد بقيامه ثانية ، فليعرف الجميع أنه قد مات .. فلن يهدأ الهيكل حتى ينتقم منا ، ثم انهم سيبحثون عنه ويقتلوه .. ليس من مصلحة أحد أن يظهر بين الناس من جديد .

.. ووعده يوسف الرامى ، وأقسم له بأن هذا هو ماسيحدث ، وأن « يسوع » سيختفى ولن يراه إلا بعض أتباعه المقربين .. وطمأنه إلى أن مسئولية ما يحدث لا تقع عليه ، فالجميع قد رأوا أنه مات .. وعند « بيلاطس » أكد قائد المئة موت يسوع ، فصرح لهم أن ينزلوه

وأن يأخذ يوسف جسده ليدفنه .

.. حاول بعض الرؤساء فى غيبة قائد المئة ، أن يكسروا سيقان « يسوع » ، كما فعلوا باللصين ، واستجاب الجندى « لنجينوس » لهم ولكن « نيقوديموس » تصدى له فى حزم قائلاً :

ــ لا يجوز عندنا أن يكسر عظم ميت .. هذا شر كبير .. إنها ستكون فتنة وشغب كبير .. أنت تخالف أوامر قائدك .

.. وحدثت همهمة بين الواقفين ، وبهت « لنجينوس » للهجة « نيقوديموس » الحاسمة ، وأنقذ الموقف وصول قائد المئة « ويوسف الرامى » ، وهبط صليب « يسوع » فى رفق ، ونزعوا المسامير التى دُقَّت فى رجله ويديه برفق .. وكان الشك مازال فى قلوب الرؤساء أن يموت هكذا سريعاً ، فحرضوا عليه « لنجينوس » ، وأبدوا له شكوكهم ، وسمعهم قائد المئة فصرخ فيهم أن يبتعدوا عن المكان فابتعدوا .. ولكن « لنجينوس » ظل واقفاً وقد شك هو الآخر فى الأمر ، فأخذ حربة وتقدم وطعن يسوع فى جنبه ، فللوقت خرج دم وماء ، فقال لنجينوس فى شك :

ــ أقسم أنه مازال حياً .

.. ذعر قائد المئة ، وامتلأ قلبه غضباً ، وذهب ولطم لنجينوس لطمة شديدة ، وصرخ فيه قائلا :

ــ من أمرك بهذا أيها الأحمق .. اذهب وسلم نفسك لتحاكم .. اغرب عن وجهى ، أيها النذل الجبان .. إياك أن أسمعك تنطق بهذا .. أفهمت .. أنت تريد أن يكون شغب ... ألم تروا أنى جئت الآن من عند الوالى ، وهو قد أمر أن نسلمه لهذا الرجل .. أتريد أن أقول هذا لسيدك ؟! .

.. رفع « يوسف ، ونيقوديموس » ، ومعهم « يوحنا » تلميذ « يسوع » الحبيب الجسد ، وذهبوا به إلى القبر ليدفعوه ، وأمر « يوسف الرامى » « يوحنا » أن يذهب إلى النساء ليمنعهم أن يقتربوا ، وأراد أن يدخل معهم « يوحنا » إلى القبر فمنعوه ، ودخل « يوسف » ومعه « نيقوديموس » الذى ضمد جراح « يسوع » بعناية ، ثم تركوا « يسوع » ، وأغلق القبر أمام الحاضرين بحجر كبير .

.. وكان « يوحنا » ونساءكن قد أتين معه من الجليل ينظرن إلى القبر ، وانزعج النساء أن يدفن « يسوع » هكذا حتى دون حنوط وأطياب ، ولكن « يوسف الرامى » أمر خدامه أن يبعدوا الواقفين عن المكان ، لأن القبر كان فى بستانه .

.. لما سمع « قيافا » بما فعله « يوسف الرامى » ، وكيف أخذ جسد « يسوع » ودفنه عنده فى قبره وفى بستانه ، استشاط غضباً .. وتوجس خيفة أن تكون هناك مؤامرة تدبر من ورائه لإنقاذ « يسوع » ، وذهب إلى « حنان » يستشيره فى الأمر ، فأشار عليه أن يذهب لبيلاطس ، ويطلب منه أن يحرس القبر ، حتى لا يأتى أتباع الناصرى فيأخذوه ، ويقولون : إنه قام من قبره ، فيكون شغبا بين الشعب ، وبذلك يموت الناصرى فى القبر إن لم يكن قد مات فعلاً .. وفعل « قيافا » بما نصحه به حنان ، فأرسل إلى « بيلاطس » من يطلب منه ذلك ، ولكن « بيلاطس » رفض أن يقابل أحداً من الرؤساء .

.. وفى الغد ، ومنذ الصباح ، تقابل الرؤساء وأذكى « قيافا » شكوكهم ، فقرروا أن يذهبوا إلى « بيلاطس » ثانية فى جميع كبير يطلبون منه حراسة القبر ، وسمع منهم « بيلاطس » ثم قال فى ضجر :

– اذهبوا أنتم واحرسوه .. عندكم حراس .. اذهبوا واضبطوه كما تريدون . فمضوا وضبطوا القبر بالحراس وختموا الحجر الذى أغلق به باب القبر . وكان هذا عصر السبت .

* * *

.. مع خيوط فجر الأحد ، إكتشف الحراس الذى يحرسون قبر يسوع ، أن الحجر قد تدحرج ، والقبر خال .. فانزعجوا ، وأسرعوا ليخبروا رؤساءهم بما حدث وفى هذا الوقت أيضاً جاءت « مريم المجدلية » ومعها نساء أخريات إلى القبر حاملات الحنوط الذى أعدته ، كانت الشمس لم تشرق بعد ، وكن يقلن فيما بينهن من يدحرج لنا الحجر عن باب القبر .. كان الوقت أول الفجر ، والظلام باقٍ ، فوجدن الحجر قد دحرج عن القبر ، فدخلن و لم يجدن جسد الرب « يسوع » ، كان القبر فارغاً .. وفيما هن محتارات فى ذلك ، إذا رجلان يلبسان ثياباً بيضاء ، وكانت النسوة خائفات جداً ، أولا لأنهن فى قبر ، وثانياً لأنهن وجدن القبر فارغاً ، وقال لهن أحد الرجلين :

– لا تخفن .. إنى أعلم أنكن تطلبن « يسوع » .. لماذا تطلبن الحى بين الأموات ؟ ليس هو هاهنا لكنه قام .

.. كانت النسوة يقفن منكسات وجوههن إلى الأرض ، فلما سمعن ذلك ، انطلقن فرحات .. وبينما « مريم المجدلية » ، « ومريم أم يعقوب » مسرعتان نحو « أورشليم » فى فرح عظيم لتخبر التلاميذ ، إذا « يسوع » لاقاهما وقال سلام لكما ، أما هما فمن فرحتهما لم يعرفاه ، فنادى قائلا :

– يامريم

.. عرفت مريم صوت الحبيب ، فصرخت فرحة :

– « ربونى .. الذى تفسيره يامعلم .. » .

.. وأقبلت عليه تريد أن تحتضنه وتقبله ، فأبعدها « يسوع » عنه برفق قائلاً :

ـ لا تلمسينى لأنى لم أصعد إلى أبى بعد .

.. فانكبت المرأتان على قدميه ، تقبلانها فى شوق وحب وفرح عظيم ، فقال لهما « يسوع » :

ـ قوما .. اذهبا الآن .. قولا لإخوتى أن يذهبوا إلى الجليل وهناك يروننى .. وأسرعت « مريم المجدلية » إلى حيث يجتمع التلاميذ سراً فى بيت « بأورشليم » ، وقد كان التلاميذ ساعتها فى أسوأ حال .. يتذكرون هذا الذى أرسل إليهم ليعلمهم ويضىء لهم الطريق ، وكيف ذهب عنهم هكذا ، وهل يمكن أن تكون هذه هى نهايته ؟! وظهرت على خوف كلمات الشك فى حكمة الله ومشيئته .. ألم يقل لهم « يسوع » : إنه سينتصر على أعدائه ؟ ألم يقل لهم : أنا قد غلبت العالم ؟ فكيف ، وقد فعل أعداؤه به ما أرادوا ؟!. لم تعرف عيونهم النوم هذه الليلة ، وسادتهم روح الهزيمة ، وتسلل الخوف إلى قلوبهم .. وفيما هم كذلك وبعضهم يبكى .. دخلت مريم فى فرحتها لتخبرهم بأن المسيح حى ، وأنها قد رأته وتكلمت معه ، وهو أرسلها إليهم .. وأكدت « مريم أم يعقوب » أنها قد رأته وسمعته كذلك .. فبدا كلام المرأتين كالهذيان ، ولم يصدقوهما .. وانطلق « بطرس » و « يوحنا » الحبيب مسرعين إلى القبر ليتأكدا من صدق ماسمعا .. وحينما وصلا إلى القبر كان القبر مفتوحاً فعلاً ، ودخلا فوجدا الأكفان موضوعة ، والمنديل الذى كان على رأسه ملفوفاً فى موضع وحده .. إذاً قد صدقت المرأتان .

.. وأسرع التلميذان يزفان البشرى لإخوتهم .. وانطلق الجميع متسللين من « أورشليم » إلى الجليل ، إلى الجبل حيث طلب « يسوع »

أن يلاقيهم هناك .. وهناك وجدوه كما قال لهم ، فأقبلوا عليه معانقين ، ونظروا إليه فى ذهول كأنهم لا يصدقون أن المسيح بينهم ثانية .. فقال « يسوع » :

– ألم أقل لكم . كلكم تشكون فى هذه الليلة ، لأنه مكتوب اضرب الراعى فتتبدد خراف الرعية ، ولكن بعد قيامى أسبقكم إلى الجليل .. أما علمتم أنه كان ينبغى للمسيح أن يتألم بهذا ويدخل إلى مجده .

.. ثم بدأ « يسوع » فى جلسته معهم ، يفسر لهم الأمور المختصة به ، والنبوءات التى تكلم بها الأنبياء من « موسى » وحتى « المعمدان » .. وأعلمهم « يسوع » أنه باق معهم فترة ، ثم سيذهب إلى السماء ؛ ليعود إلى الله ، وأوصى « بطرس » قائلا عنه « .. على هذه الصخرة أبنى كنيستى .. اذهبوا إلى العالم أجمع ، وبشروا بالإنجيل للخليقة كلها .. فمن آمن واعتمد خلص .. ومن جحد ولم يؤمن يدان .. »

.. وقال لهم « يسوع » أيضاً :

– .. قلت لكم : ملكوت الله ينزع من هذه الأمة ، ويعطى لأمة تعمل أثماره .. وقد قال لكم الكتبة : إن « إيليا » يجب أن يأتى أولا قبل المسيح ، وقد صدقوا .. فقد جاء « يوحنا » ، أيضاً وعملوا به كل ما أرادوا كما هو مكتوب عنه ، ثم تم ماهو مكتوب أيضاً عن ابن الإنسان أن يتألم كثيراً ويرذل . .

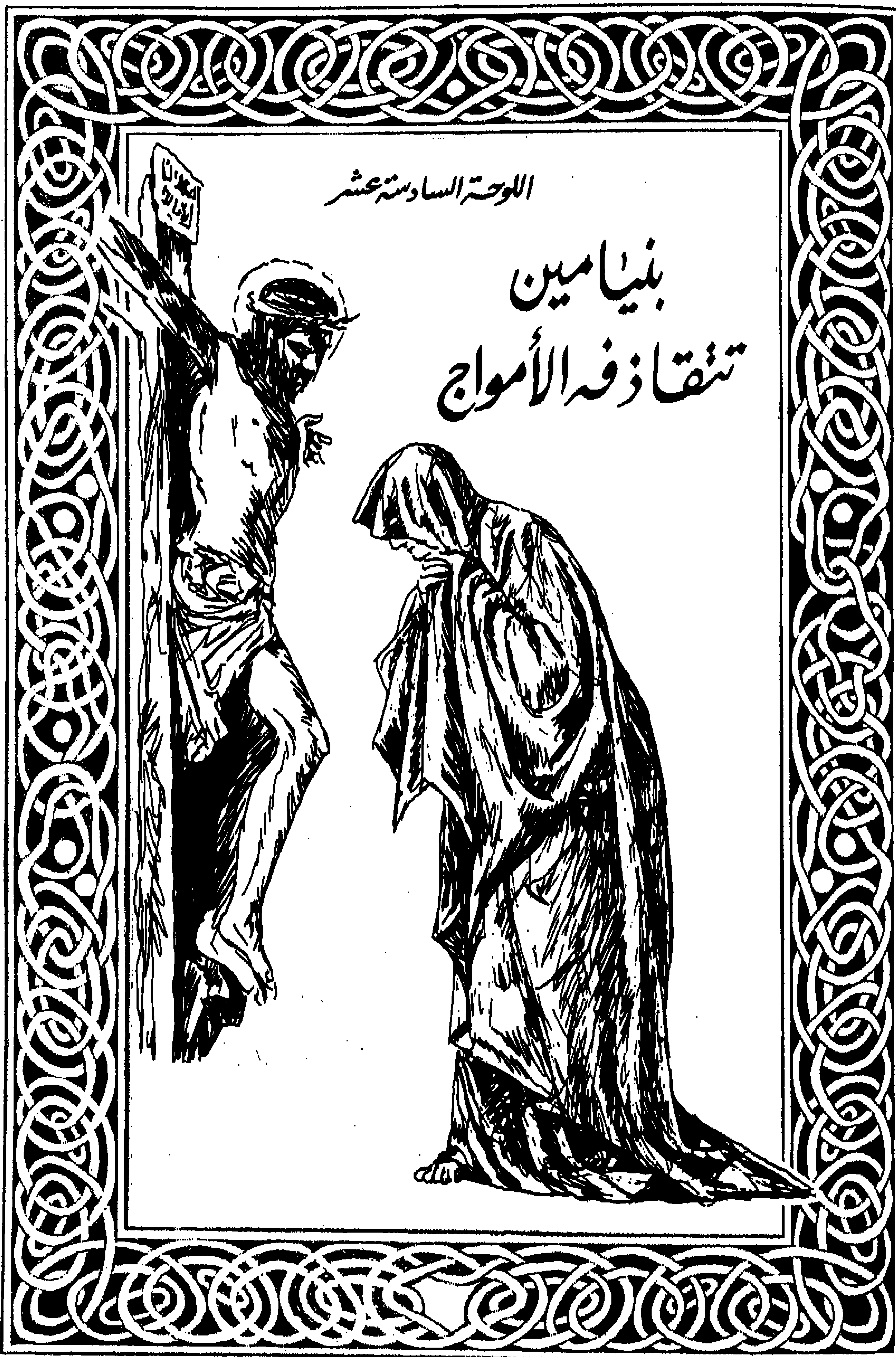
.. والآن إذهبوا . هأنذا أرسلكم مثل حملان بين ذئاب ، لا تحملوا كيساً ولا مزوداً ولا أحذية ، ولا تسلموا على أحد فى الطريق ، وأى بيت دخلتموه فقولوا أولاً : سلام لهذا البيت ، فإن كان هناك ابن السلام ، يحل سلامكم عليه ، وإلا فليرجع إليكم ، وأقيموا

فى ذلك البيت آكلين وشاربين مما عندهم ، لأن الفاعل مستحق أجرته .. وأى مدينة دخلتموها وقبلوكم ، فكلوا مما يقدم لكم ، واشفوا المرضى الذين فيها ، وقولوا : قد اقترب منكم ملكوت الله ، وأى مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا إلى شوارعها وقولوا : حتى الغبار الذى لصق بنا من مدينتكم .ننفضه لكم .. وانظروا إلى أنفسكم ، لأنهم سيسلمونكم إلى مجالس ، وتجلدون فى مجامع ، وتوقفون أمام ولاة وملوك من أجلى شهادة لهم ، لأنه ينبغى أن يكرز بالإنجيل فى جميع الأمم .

.. هذه وصيتى أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم .. بشروا بأن ملكوت الله الذى سينزع من هذه الأمة ، قد اقترب أن يأتى من جديد فى أمة تحفظه إلى يوم الدينونة .. بشروا بروح الحق المعزى الذى سيرسله الآب ، وهو يشهد لى أيضاً ، روح الحق الذى يرشد إلى جميع الحق ، روح الحق الذى لا يتكلم من نفسه بل كل مايسمعه من الروح القدس يتكلم به .

.. كان يسوع فى هذه الأيام يختفى ، ثم يظهر للتلاميذ وهم مجتمعون فيأكل معهم ويحاورهم ، ثم يختفى من جديد ، فقد كانت العيون كلها ترصده ، ولم يظهر للناس أبداً ، ظهوره — فقط — لتلاميذه والمقربين من أهله ، أما العذراء فلم تفارقه أبداً .. ولكن حانت فى يوم ساعة الفراق ، وجاء « يسوع » يودع تلاميذه ، ثم انفرد عنهم وأصعد إلى السماء .. وسجد التلاميذ وعرفوا مجد الله ، وعادوا إلى « أورشليم » بفرح عظيم ، يبشرون باقتراب ملكوت الله .

* * *


اللوحة السادسة عشر
بنيامين
تتقاذفه الأمواج



.. هكذا شاء القدر لبنيامين أن يكونشاهداً على الكثير من فصول المأساة ، فمن قبل كان ذاهباً ليستمتع بإحتفالات « هيرودس » ، فإذا به يعود مريضاً بعد أن رأى مقتل المعمدان !، ثم هذا عمه صموئيل يوقظه من نومه ؛ لكى يشهد آلام المسيح ومقتله هذه القتلة الشنيعة على الصليب ، لذلك لم يطق بعدها أن يظل فى أورشليم ، فتركها مع زوجته وأولاده ؛ ليعيش فى بستانه على جبل الزيتون .. ولكن حال « بنيامين » أشعل الضيق والغضب فى نفس « إيزابيل » ، فهو دائم الاكتئاب ، يخلو إلى نفسه دائماً ، بل كثيراً مايظل فى فراشه نهاره كاملاً وحيداً لايتكلم مع أحد ، وأمسى كذلك ينام وحده ، ولم يعد يشرب كعادته ، وأهمل عمله ومصالحه ، وساء « إيزابيل » أن تراه على هذه الحالة ، ثم هى تخاف أن تشكو إلى أحد أمرهم .. ولكن مضت أسابيع وهو على هذه الحالة من المرض ، وتعددت طلبات أهلها أن يعودوا إلى « أورشليم » ولكن « بنيامين » كان يرفض فى كل مره ، وهى لا تستطيع أن تناقشه ، وأصبحت لا تطيق هذه الحياة الجافة المملة ، فطلبت منه أن تذهب هى والأولاد لزيارة أهلها .

وحينما التقت « إيزابيل » بأبيها ، بكت أمامه ، وهى تشرح له حالها مع « بنيامين » ، فانزعج « نفثائيل » كثيراً ، وأمرها أن تعود لزوجها ، وأرسل إلى « صموئيل » ؛ ليحكى له ماقالت « إيزابيل » ، ولم يمضى يوم على عودة « إيزابيل » لبنيامين ، حتى جاء نفثائيل ، وصموئيل لزيارتهم .. ولم يكن من السهل على « بنيامين » أن يتكلم عما يدور فى نفسه من أفكار ، ولكن وجود « نفثائيل » بوجهه الكريه ،

كان كافياً ليفجر كل غضبه وآلامه ، وأن يبعث فيه روح التمرد والعصيان . وبعد أن حاول كتمان أفكار قلبه فى بداية حديثهم ، إذا به ينفجر فى غضب ليقول لحميه :

– ألم يكفكم أنكم قتلتم المعمدان ؟! فها أنتم هؤلاء تقتلون « يسوع » أيضاً ؟

.. فظهر الحنق على وجه « نفثائيل » ، وقال فى ضيق :

– هذا هو أمرك إذاً ؟!.. لقد عرفت أن لعنة الناصرى قد لحقت بك !. ألم أقل لك ياصموئيل ؟!. هذا واضح ، فقد ذهب عنا منذ ذلك اليوم .. لقد هاله مارأى كصبى صغير أحمق .. إنه لن يصبح رجلاً أبداً !. هى نهاية العالم عنده أن رأى رجلاً يصلب .. إن النساء أشجع من ذلك !.

.. وذهب الغضب باحترام « بنيامين » لحميه ، فقال فى حدة :

– وهل هذا هو فعل الرجال أن تقتلوا رجلاً صالحاً أعزل ؟!، إنه سيق بينكم كشاة ، لم يقاوم أو يشاغب !. وحتى أتباعه لم تمتد يد منهم لإنقاذه !

.. ألم يكفكم أنه حتى « بيلاطس » قد غسل يديه براءةً مما فعلتم ؟!، فأى شر فعل هذا الرجل حتى يدان بالموت ؟!. وهل « باراباس » عندكم أفضل منه ؟! هذا اللص القاتل هو عندكم أفضل من هذا الرجل البار ؟! .

.. واحتقن وجه « نفثائيل » غضبا ، وأحس « صموئيل » بتطور الموقف ، وبأن « بنيامين » فى حالة لا يحمد عقباها ، فقد يرد على حميه الصاع صاعين ، فتدخل بسرعة ، وقبل أن يتكلم « نفثائيل » وقال فى محاولة لامتصاص غضب « بنيامين » :

– يابنى « باراباس » قد وجه شره ضد الرومان غالباً ، أما « يسوع »

فشره ضد الهيكل ، وضد كل ماهو مقدس عند اليهود ، فلو تركناه فلن يبقى لليهود أرض ، ولن يعود لهم وطن !، إنه يريد أن يمزق مابقى من أمتنا ، ويحرق كل تراثنا ، وماتركه لنا الآباء !.

.. وأحس صموئيل أن وجه « بنيامين » مازال يشتعل فيه الغضب ، وأن كلماته التى قالها لم تهدىء من روعه ، فقال فى محاولة جديدة لتهدئته :

- .. ثم من قال لك : إننا قتلناه ؟! إنه حى يجتمع بتلاميذه فى الجليل !. إن تلاميذه أنفسهم يشهدون بذلك !. إن كل مافعلناه أننا أخفناه ، فهو بعد ماحدث لن يظهر ثانية بين الناس وإلا قبضنا عليه وصلبناه .. لذلك فهو لابد سيخرج من أرضنا ليختفى بعيداً عن أيدينا ، وهذا ماأردناه ، أن يبتعد بشره عنا .

.. قال « بنيامين » مندهشاً ومتشككاً :

- كيف يكون ذلك ، وقد رأيناه معلقاً أمامنا على الصليب ؟! ، وبعد ذلك تقول : إنه حى ؟! .

- أنا لا أقول شيئا .. تلاميذه هم الذين يقولون ذلك ! ، ثم إن هذا غير مستبعد ؛ لأنه عجيب أن يموت رجل على الصليب سريعاً هكذا ، فلم تمر سوى ساعة أو أكثر قليلا ، وإذا بهم يقولون : إنه مات ، ثم يدفنونه ، وبعد ذلك نرى القبر فارغاً !. قد يكون وراء ذلك خونة منا نحن .. لقد كنت أتحدث مع عمك « نفثائيل » عن ذلك .. فهذا « يوسف الرامى » الذى أخذ جسده ودفنه فى قبره ، ظهر لنا أنه من أتباع الناصرى سراً ، وكذلك « نيقوميدس » ، وهما من الرؤساء ، ثم قائد المئة الذى شهد بأنه قد مات ، والذى كان هو مكلفاً بصلبه ، آمن هو الآخر وأعلن ذلك ، ولعله كان من أتباعه من قبل كذلك .. فإن

كان مايحزنك هو قتل الناصرى ، فهو حى بين تلاميذه ، وهم فرحون جداً ، وليس فيهم أحد حزين مثلك !. إنهم يقولون : إنه يلتقى بهم ، وأنه لم يمت بل هو حيّ ، وقد انتصر على أعدائه .

.. ورغم أن كلمات « صموئيل » كانت منكسرة لاسترضاء « بنيامين » ، ورغم أن هذه الكلمات قد أذهلت « بنيامين » لغرابتها ، وهزت أفكاره ، إلا أن قلبه كان قد امتلأ كرهاً لحميه « نفثائيل » ، لذلك لم يتراجع واستمر يعلن التمرد والعصيان عليهما ، فقال :

– ولكنكم أدنتموه وأردتم قتله !، فسواء أكان قد صلب أم نجا من الصلب فهذا لا يغير من الأمر شيئاً ، فحتى متى يقتل كل رجل صالح يتكلم بالحق فى « أورشليم » ؟ .

.. ولم يطق « نفثائيل » صبراً ، فقال فى غضب وازدراء :

– إنه يريد أن يحاكمنا !. انظر إلى هذا الولد العاق الأحمق كيف يتجرأ علينا ؟! لقد فعلنا ذلك لأجل أمثالك ممن لا يستحقون هذا !. أردنا أن نحافظ على « أورشليم » من أجلكم ومن أجل أبنائكم ومستقبلكم !، أردنا أن ترثوا مدينة قديمة ظلت مدينة الرب المقدسة مئات السنين ، وستظل هكذا إلى ماشاء الله ، ولن يجرؤ أحد على أن يدنسها أو يذهب بأمجادها ونحن أحياء .. فإذا متنا فافعلوا بها ماشئتم أو إحرقوها بنار لا تنطفىء .. لطالما حلمنا نحن بأن يرسل الرب مسيحه ؛ لكى ينصرنا على أعدائنا ، ولكن أنسير وراء كل كذاب يريد بنا الخراب ؟!

– ولكن المدينة التى تقتل أنبيائها لا تستحق أن ينصرها الرب !.

– قطع الرب لسانك أيها الأحمق ! ، لن يستطيع أحد أن ينزع من « أورشليم » هيكلها ولا قداستها .. ستظل « أورشليم » بيت الرب دائماً ، ونحن اليهود شعبه دون سوانا من الأمم .. أفهمت ؟! أنتم جيل

أحمق يستمع إلى كل ناعق .. ماذا كان يضيرنا نحن أن يكون هذا الملعون الناصرى هو المسيح حقاً ؟! ، لقد كنا نتمنى ذلك ونفرح به . ولكن ماذا يطلب هذا الناصرى ؟! ، هل جاء ليقود الشعب لينتصر به على أعدائه ؟ هل وقف أمام الرومان الذين يطئون « أورشليم » بأقدامهم النجسة ؟!. لا .. بل صب غضبه وحقده على الهيكل وعلى خدمه ورؤسائه ، وعلى اليهود جميعاً !. إنه يريد أن يحطم مابقى لهذا الشعب من ناموس .

.. ولم يستسلم « بنيامين » ، فلطالما استسلم لعمه وحميه ، وقرر أن يستمر فى تمرده عليهما ، فلقد كان موقناً أنهم يسلكون طريق الشر ، فلو كان المسيح حياً ، فهذا لا يغير من الأمر شيئاً ، لأنهم على استعداد لأن يحاكموه ويدينوه ويصلبوه ثانيةً إذا رأوه !. ألم يباركوا قتل « المعمدان » ، ولم يكن المعمدان عند الجميع إلا نبى الله الصادق ؟! .

.. خرج « نفثائيل » غاضباً ، ورفض أن ينتظر تناول الطعام ، وذهب معه « صموئيل » ، ومن ساعتها زادت الجفوة بين « بنيامين » ، و « إيزابيل » ، وأيقن أنها هى سبب هذه الزيارة ، وكرهها لأنه رأى فيها صورة أبيها !، انها تظهر له الخضوع خوفاً ، ولكنها فى قلبها لا تشاركه أفكاره ، بل هى لم تشاركه فيها يوماً ما .. وضاق برؤيتها أمامه ، ورغم حبه الشديد لأبنائه إلا أنه قرر أن يذهب بعيدا إلى مزرعته الجنوبية ، وطلب من « إيزابيل » أن تذهب هى مع أبنائه إلى بيتهم فى « أورشليم » لتقيم هناك .

.. ظل « بنيامين » فى مزرعته الجنوبية بعيداً عن « أورشليم » اشهراً متتالية ، وأهمل كل أعماله ، وفشلت كل محاولات عمه للعودة به إلى حياته القديمة ، أما « إيزابيل » فانتظرت أن يرسل فى طلبها ، ولكنه لم يفعل ، ولم ترض هى أن تذهب إليه قبل أن يستدعيها ، فظلت مع

أولادها فى « أورشليم » يشتعل الغيظ والشوق فى قلبها .. أما « بنيامين » فقد وجد فى الشراب سلوته ، حتى أحس بأنه لم يعد يصلح لشىء .. وجاء إليه عمه « صموئيل » فى محاولة أخيرة يائسة لعودته ، ولكنه رفض ، فقال له مهدداً .

– إذاً . فاعلم أن « نفثائيل » لن يرضى هذا لابنته ، إنه يطلب أن تعطيها ورقة طلاق .

.. ولم ينزعج « بنيامين » كما توقع عمه ، بل وجدها فرصة مواتية لكى يتخلص من هذه المرأة التى لم يشعر بحب حقيقى نحوها أبداً ، فسارع إلى تطليقها ، واعتبر عمه أن هذه إهانة موجهة إليه هو شخصياً ، فقاطع هو الآخر « بنيامين » ، وتبرأ منه .. ولكن « بنيامين » أحس أنه قد تحرر أخيراً من كل مايربطه « أورشليم » ، ولم يحزنه إلا بعده عن أولاده ؛ فقد كان يحبهم كثيراً ، ولكن ماذا يمكنه أن يفعل ؟ هذه مشيئة الرب .. وهذا قدرهم ..

* * *

.. لم يستطع « بنيامين » أن يستمر فى وحدته طويلاً .. واشتاق أن يرى أولاده ، فذهب لرؤيتهم فى « أورشليم » .. وهناك قرر أن يذهب إلى « سيمون » .. لقد آن له أن يعيش كما يريد ، وأن ينطلق ليفعل مايحلو له ، دون أن يلقى بالاً للآخرين ، خاصة بعد أن أحس فى زيارته هذه ، أنه قد فقد إحترامه وهيبته عند « إيزابيل » وأهلها ، وعند كثيرين آخرين ممن يعرفونه ، فأقلهم سوءاً كان ينظر إليه بإشفاق ، كنظرته لرجل مريض .. و « سيمون » هى الوحيدة التى قابلته بشوق وفرح ، لذلك فقد قضى ليلته عندها ، وفى الصباح كان قد تزوج بها .

.. وتركت « سيمون » كل شيء لتعيش مع « بنيامين » فى مزرعته الجنوبية بعيداً عن « أورشليم » ، وكانت فرحة بحياتها الجديدة ، رغم خلوها من المرح الذى تعودت عليه ، فلطالما تمنت أن يكون لها بيت وزوج تحبه ، وأضفت بسعادتها على « بنيامين » ، عالما من المتعة والهناء .. ولكنها فى الوقت ذاته أشعرته بوجوب عودته إلى عمله ونشاطه ، فعاد يصلح مافسد من أعماله ومشروعاته .

.. حاول « نفثائيل » أن يحطمه فى أعماله ، وأن يمنع بيع خيوله للرومان ، ولكن ذلك أثار فى « بنيامين » روح التحدى فتغلب على كل الصعاب ، وزاده ذلك رغبة فى النجاح وجمع المال ، ومن ورائه « سيمون » تشجعه على ذلك .. وكانت مفاجأة له أن يرى « سيمون » حاملاً ، وبعد أشهر الحمل وضعت طفلاً جميلاً ، له ملامح تختلف عن ملامح أبناء « أورشليم » ، فالبشرة بيضاء والعيون خضراء ، ورغم ذلك أحس « بنيامين » أن روحه وكثير من ملامحه قد انتقلت إلى هذا الطفل .. وشعر بالحنين لرؤية ولديه : « شاول ، ودينا » .. ولم يعد ينغّص عليه حياته إلا إحساسه ببعده عنهما وبأنه مقصر فى حقهما ، فطلب أن يضمهما إليه ، وقد فوجىء « بايزابيل » ترحب بذلك ، وتعجب من هذا الأمر ، ولكنه وجد تفسيراً لذلك ، حينما علم بزواجها بعد ذلك بأشهر ، فاستراح ضميره .

.. ورغم أن بنيامين قد أسعده كثيراً أن يرى « سيمون » تبذل قصارى جهدها لكى ترعى ولديه ، وقد تقربت إليهما بشتى الوسائل حتى ألفاها ، وبذلك عم البيت نوع من السكينة – إلا أنه كانت تراوده أحياناً أفكاراً تزعجه ، فهو يحس بأن الأيام تنقضى به ، وروحه غير آمنة تخاف من الغد ،وتخشى ما تخبئه الأيام ، وصورة رأس « المعمدان » التى لصقت فى ذهنه ، تشعره بأن الكل باطل وقبض الريح ، و

و« يسوع »وهو يسير طريق الآلام كأنما يقول له : لماذا تجرى وتتعب كثيراً فى هذه الحياة ، وعن أى شىء تبحث ؟ ولمن تجمع والموت قادم إليك لا محالة ؟.. ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس ؟!. دور يمضى ودور يجىء والأرض قائمة إلى الأبد .. وتذكر كلمات الملك « سليمان » :

« .. افتكرت فى قلبى أن اعتل بالخمر ، وقلبى يلهج بالحكمة ، وأن آخذ بالحماقة حتى أرى ماهو الخير لبنى البشر ، عظمت عملى ، بنيت لنفسى بيوتاً ، غرست لنفسى كروماً ، مهما اشتهته عيناى لم أمسكه عنهما ، لم أمنع نفسى من كل فرح .. ثم ألتفت أنا إلى كل أعمالى التى عملتها يداى ، وإلى التعب الذى تعبته فى عمله ، فإذا الكل باطل وقبض الريح ، ولا منفعة تحت الشمس .. »

.. ولكن تيار الحياة الجارف ، والمتعة التى يجدها فى حياته الجديدة ، ومسئولياته أمام « سيمون » وأولاده وأعماله ، جعلته يتجاوز كل ذلك ويستمر فى الحياة .

.. رزق « بنيامين » من « سيمون » بولد آخر ، فأصبح عنده ولدان من « سيمون » ، لهما ملامح إغريقية ، لعلهما ورثاها عن جدتهما التى كانت يونانية ، ولكن مازال « لشاول » ابنه الأول فى قلبه مكانة خاصة ، فهو يرى فيه طفولته ! ، إنه قطعة من قلبه منذ جاء إلى هذه الحياة .. وهكذا امتلأت حياة « بنيامين » كل يوم بما يشغلها ، ولكن روحه تزداد خواءً ، كأنها تبحث عن مستقرٍّ لها ؛ لذلك فقد عاد ليفرط فى الشراب .. وقد اقتنع أخيراً وبعد محاولات كثيرة مع نفسه للابتعاد عن السكر ، إن حياته مع « سيمون » لا يمكن أن تستمر إلا مع الشراب ، ففى هذه العلاقة شىء مفتقد يداويه بالسكر .

.. كان نزول « بنيامين » إلى « أورشليم » على فترات متباعدة ، وقد فكر مرة فى أن يستقر مع عائلته فى المدينة ، من أجل أن يتعلم الأطفال فى الهيكل ، ولكنه أبعد هذه الفكرة عن رأسه ، فهو يعرف أنه لن يستريح هناك ، وقد اكتفى بما تفعله « سيمون » مع الأولاد حيث أخذت تعلمهم اليونانية والمصرية ، كما أن « شاول » الذى كان قد تعلم القراءة ، أصبح يقرأ كثيراً فى الأسفار ، ويحفظ بعضاً منها كذلك .

.. واعتقد « بنيامين » أن يد القدر هى التى ترسم له طريقه ، فهى التى ألقت به إلى قصر « هيرودس » ليشاهد جريمة ذبح « المعمدان » ، وهى التى قادت عمه صموئيل لكى يوقظه حتى يشاهد آلام « يسوع الناصرى » !. وقد زاد من اعتقاده هذا ماحدث له اليوم فى « أورشليم » ، فقد مضى أكثر من شهر لم يهبط فيها إلى المدينة ، ولكن هاهو ذا اليوم تسوقه الأقدار إلى هناك ، وإذ هو مار أمام الهيكل ، يشهد تجمعاً كبيراً ، فيحاول أن يعرف ما هناك ، وكأنّ الأقدار تريده أن يشهد الفصل الأخير من أشهر محاكات السنهدرين بعد محاكمه « يسوع » .. كانت المحاكمة قد انتهت ، والجموع خارجة تحيط برجل موثوق اليدين ، والحرس ممسكون به ويدفعونه أمامهم .. وأصوات جموع تهتف : الموت للمجدفين ، الموت للخائن .. ما أسهل أن تدين الرجال بالتجديف أيها الهيكل لتقتلهم !، أصبحت يا « هيكل سليمان » ، كوحش جائع ، يعيش على جسد الإنسان ودمه !، كل يوم لابد أن تقدم إليك القرابين !، ولكنها ليست شياه تذبح ، بل يهودٌ أبرار يسفك دمهم على أعتابك .

.. وأحس « بنيامين » بالمرض لمرأى هذا الرجل الذى يساق إلى الموت ، وبينما هو واقف يرقب عن بعد فى إعياء وألم ، إذ بيد تمسك بذراعه ، إنه « إيليا » صديقه العزيز ، لقد دهش « بنيامين » ، أن رأى

وجه « إيليا » ممتلئاً بهاءً ومجداً وقوة ، لم يكن خائفاً ، ولكنه قال فى حزن ، وكأنه يغبط الرجل المساق إلى الموت :

– لم أر أحداً يطلب أن يقتل مثل هذه القتلة ليكون مع « يسوع » مثل هذا الرجل .

– أو تعرفه ؟

– نعم .. هذا « استيفانوس » .. لقد رأيته يدعو الله من كل قلبه أن يقتل لينال الحياة الأبدية .. لم أر ولم أسمع عن رجل يطلب ذلك من كل قلبه . كما رأيت « استيفانوس » يفعل !. لقد أخلص فى طلب ذلك من الرب ، وهاهو ذا الرب قد إستجاب له .

– أنت تعرفه جيداً إذاً ؟

– نعم .. هو من إخوتنا .. بل هو أخ حبيب .. لقد آمن بكلمات الله التى تكلم بها « يسوع » ، وقد حفظ الإنجيل كله ، وطالما رأيته فى سكون الليل يصلى به ويبكي ، كأنه كان يرى نعيم وجحيم العالم الآخر أمام عينيه !، لقد كان صادقاً مع نفسه ، عرف الحق فسار على طريقه ، لم ينحرف عنه يمنة أو يسرة .

.. كان « إيليا » يتكلم فى حزن ، ولكن فى حماس شديد أيضا ، وقد سارا سوياً وراء الموكب الذى اتجه إلى باب دمشق ، ومن هناك إلى حافة « وادى قدرون » ، حيث توقف ، وبدأت الجموع وبينهم رؤساء وخدم للهيكل وحراس كذلك ، يلتفون حول « استيفانوس » ، وإذ أحس بأن الذئاب قد أحكمت حصارها حوله ، وأنها مقدمة على إتمام جريمتها بافتراسه .. جثا « استيفانوس » على ركبتيه يصلى ، ثم صرخ بصوت عظيم « .. يارب لا تقم لهم هذه الخطية .. » .

.. وهنا ألقي أحد الرؤساء عليه حجراً ، فانهالت الحجارة من كل صوب ، فانكفأ « استيفانوس » على وجهه ساجداً ، وأصابته الحجارة فسال دمه ، وفارق الحياة دون أن يسمع له أحد أنة ولا صراخا .

.. نظر « بنيامين » فوجد « إيليا » تسيل دموعه على خديه ، وأحسّ هو برعدة تسرى فى بدنه ، وهو يسمع صدى كلمات « استيفانوس » : « .. يارب لا تقم لهم هذه الخطية .. » .. وتملكه يقين بأن هذه دعوة صادقة ، وأن السماء قد استجابت لها ، وظل كلما ردد هذه الكلمات بينه وبين نفسه : عاودته تلك الرعدة التى يقشعر لها بدنه .

.. وأخذ بيد « إيليا » وذهب به إلى بيته ، كان البيت مغلقاًمترباً ، فلم يعد يسكنه أحد ، ولكن كان « بنيامين » يريد أن يخلو إلى « إيليا » ، وقد عرف منه فى هذا اليوم الكثير عن « استيفانوس » ، وعن أتباع « يسوع الناصرى » فى « أورشليم » ، فقد سمع أن عددهم قد زاد كثيراً ، وأنهم يكونون جماعة لها نظامها وترابطها وعملها بين الشعب .. وأما « استيفانوس » فإن حكايته بدأت منذ عرف كلمات الإنجيل فآمن بها بقوة ، وكان فصيح اللسان ، له حجة ومنطق وفهم ، ولم يكن يخشى أحداً أن ينطق بالحق أمامه .. لقد عاش فى روما فتعلم أن يكون حراً فى طباعه ، وحينما زار « أورشليم » عرف الحق فسار فيه بكل جهده وقوته .. وقد اجتمع له مناظرون من اليهود الغرباء الذين جاءوا من « القيروان ، والإسكندرية ، وآسيا ، وكيليكيا » لكى يحاوروه .. ولم يخف عنهم « استيفانوس » شيئاً ، فقال لهم : إن « يسوع الناصرى » هو مسيح الرب ، وإنه إنما جاء لكى يعلن للعالم أن هذا الهيكل سيهدم ، وأن النعمة ستنتقل من هذه الأمة إلى أمة أخرى ، وأن على اليهود إذا أرادوا النجاة من غضب الله الآتى عليهم ، أن يؤمنوا به وبالإنجيل الذى

جاء به لأن فيه خلاصهم ، فبالإنجيل ومعه يستطيعون أن يخرجوا للعالم بحياة جديدة ، وأن يبشروا بملكوت الله الآتى إلى هذا العالم ؛ ليبقى إلى يوم الدينونة .. وقد حقد السامعون على « استيفانوس » لجرأته ولكلمات الحق التى جرت من فمه ، فهيجوا عليه الشعب ، والشيوخ ، والكتبة ، وقادوه ليحاكم أمام السنهدرين .

.. ولقد كانت كلمات « استيفانوس » فى المحاكمة ، أعظم تلخيص لقصة شعب إسرائيل فى نظر « بنيامين » ، وقد ظل منصتاً باهتمام بالغ وهو يستمع إلى « إيليا » يحكى له عن تفاصيل المحاكمة التى شهدها ، والتى يبدو أنها انطبعت فى ذهنه بكل دقائقها ، قائلا :

– جلست هيئة المحكمة كما هى العادة فى وضع دائرى ، وجلس الرئيس فى صدر المحكمة ، ووقف « استيفانوس » كأنه ملاك الرب أمامهم .. وبعد أن قذفه المزورون بكل التهم والشهود لكى يثبتوا عليه التجديف ، سأله رئيس الكهنة عما يقول فيما هو منسوب إليه ، فقال « أستيفانوس » بقوة وحزم :]

« .. أيها الرجال : الإخوة والآباء اسمعوا .. ظهر إله المجد لأبينا « إبراهيم » وهو فيما بين النهرين ، وقال له : أخرج من أرضك ومن عشيرتك ، وهلم إلى الأرض التى أريك إياها ، إلى الأرض التى أنتم فيها الآن ساكنون .. ولم يعطه فيها ميراثاً ولا موطىء قدم ، ولكن وعد أن يعطيها ملكاً له ولنسله من بعده ، ولم يكن له ولد بعد .. وتكلم الله هكذا .. » وحكى « استيفانوس » بعد ذلك قصة إبراهيم ، وكيف رزق بإسماعيل فاسكنه بلاد العرب ، ثم رزق بإسحق وبعد إسحق يعقوب (إسرائيل) ، وكيف ذهب يوسف إلى مصر ، ثم كانت نعمة الله عليه هناك ، فجاء بإخوته ، ومن الاثنى عشر أخاً أبناء إسرائيل ، كان شعب إسرائيل فى مصر ، ثم كيف اضطهد فرعون أبناء إسرائيل ، وكيف

أنقذهم الله على يد موسى الذى صنع الرب على يديه آيات وعجائب فى أرض مصر ، وفى البحر الأحمر ، وفى البرية أربعين سنة !. ثم قال « استيفانوس » :

« .. هذا هو « موسى » الذى قال لبنى إسرائيل : نبياً مثلى سيقيم لكم الرب إلٰهكم من إخوتكم . له تسمعون .. » .. وهنا ظهر الامتعاض على وجوه السامعين ، وسأله رئيس الكهنة :

– إذاً فأنت ترى حقاً أن الهيكل سَيُنْقَضْ ، وأن السنن التى سلمها الينا موسى ستتبدل ، وأن النعمة ستذهب إلى أمة أخرى ؟.. أجب .. هل سيزول هذا الناموس ، ناموس الآباء ؟، وهل سيكون هناك ناموس آخر ؟

.. ولم يجب « استيفانوس » ، بل أكمل وكلمات المجد تخرج من فيه :

« .. خيمةالشهادة كانت مع آبائنا فى البرية ، وكان بها كل ماهو مقدس .. فرأى نبى الله « داود » أن يقيم مسكناً لإلٰه يعقوب ، فلما جاء « سليمان » بنى الهيكل فى « أورشليم » ووضع به كل ماهو مقدس ، فأصبحت الخيمة بيتاً وأصبح لبنى إسرائيل مُلكاً .. ولكن العلى لا يسكن فى هياكل صنعت بالأيادى ، فالسماء كرسيه والأرض موطىء قدميه .. وأنتم ياقساة القلوب أخذتم الناموس ولم تحفظوه .. وأى الآنبياء لم يضطهده آباؤكم ، وقد قتلوا الذين سبقوا فأنبأوا بمجىء البار الذى أنتم صرتم مسلّميه .. »

.. فلما سمعوا هذا حنقوا بقلوبهم وصرُّوا بأسنانهم ، وأما هو فَشَخَصَ إلى السماء وهو ممتلىء من الروح القدس وقال : « ها أنا أنظر إلى السماء مفتوحة ، وابن الإنسان قائماً عن يمين الله .. » .. وهنا صاحوا بصوت

عظيم ، وسدوا آذانهم ، وهجموا عليه بنفسٍ واحدة ، وأخرجوه خارج المدينة ، ورجموه كما رأيت .

.. كان « بنيامين » ينصت بعقله وقلبه لكلمات « إيليا » ، وقد امتلأت نفسه إعجاباً بشخصية « استيفانوس » ، وتمنى لو كان تعرف عليه من قبل .. وساد الصمت بينهما برهة ، ثم قال « بنيامين » :

– أراك قطعت شوطاً طويلاً مع تلاميذ المسيح يا « إيليا » . أليس كذلك ؟

– نعم منذ أن كان المسيح بيننا ، أوصانا أن نتماسك ، وأن يحب بعضنا بعضاً ، لذلك فنحن نكاد لا نفترق ، بل أصبحنا كبنيان واحد فى ترابطنا .

– لا أُخفى عليك يا « إيليا » .. مازال فى نفسى شىء من قولكم : إن الهيكل سينقض ، وأن النعمة ستنتقل من أمتنا إلى أمة أخرى .. كأننى لو صدقت هذا فقد أقدمت على خيانة كبيرة لشعبى وأمتى .

– ليست هذه هى كلمات « يسوع » وحده ، فمن قبل تحدث الأنبياء عن ذلك كثيراً ، وأنت سمعت ماذا قال موسى : « نبياً مثلى سيقيم لكم الرب إلٰهكم من إخوتكم له تسمعون .. » .. و« المعمدان » ألم يقل : « إن الله قادر على أن يخلق من هذه الحجارة أبناء لإبراهيم .. » .. وكم من نبى توعد اليهود بغضب الله ، وبأن الله حينئذ سينزع منهم النعمة ، وتداس أرضهم بأقدام الأعداء .. ولكن المسيح هو الذى فسر لنا كل النبوءات ، وأنار لنا الطريق .. وكما قال استيفانوس : ، فالهيكل لم يكن من قبل سوى خيمة تنتقل مع بنى إسرائيل حيثما ذهبوا ، حتى بنى « سليمان » الهيكل فنقلت محتويات الخيمة إليه ، والخيمة ماذا كان بها مقدساً حقاً ؟ أهو التابوت ؟ أم ما بداخله من صحائف موسى ؟.. بالطبع صحائف موسى التى هى لنا الشريعة والناموس .. فإذا لم نأخذ

بالشريعة ، ونتمسك بحقيقة الناموس ، فهل بقى شيء مقدس ؟.. إن كلمات الله لا تسكن فى أحجار ولو كانت من ذهب ، ولكن تسكن فى القلوب المؤمنة !، فإذا أصبحت القلوب خراباً ، فحق أن تذهب النعمة من هذا الشعب !، ثم يا أخى ماظنك بشعب يقتل « المعمدان » ، ويسلم « يسوع » للصلب ؟

– سمعت أن « يسوع » لم يصلب .. بل أنقذتموه ، وذهب إلى الجليل .

– وماذا يهم إن كان صلب أم لا ؟!. المهم أنهم علقوه ودقوا فى يديه المسامير وجلدوه وعذبوه وأهانوه ! .

– ولكن ألم يمت على الصليب حقا ؟

– نعم .. ولقد عاش مع تلاميذه أياماً كثيرة ، حتى رفعه الله إليه .

.. سكت « بنيامين » .. برهة ، ثم تنهد ، وقال فى حزن :

– حقاً وأى فرق .. لقد أسلموه للصلب وهذا يكفى .. ومن قبل قتلوا المعمدان !.

.. فرح « إيليا » إذا أحس بقبول كلماته لدى « بنيامين » وطمع فى أن يضمه إليهم ، فأكمل مستبشراً :

– استمع إلى يا « بنيامين » .. أنت تعرف أننا كنا ننتظر « إيليا » ، والمسيح ، والنبى ، فجاء « المعمدان » بروح « إيليا » ، وجاء « يسوع المسيح » ، والذى بشر بالنبى الذى تحدث عنه « موسى » ، وهو نبى من أمة أخرى ، من إخوتنا كما سمعت .. والآن لماذا هم لا يقبلون المسيح ؟!؛ لأنه يشهد للحق ، والحق ضد أهوائهم ، فهم يريدون مسيحاً يقول لهم : إنهم سيظلون شعب الرب ، رغم عارهم وخطاياهم وفسادهم وجحودهم ، وإنهم هم دون العالمين ، الذين يحملون نعمة الرب دائماً وإلى الأبد ، مهما زاغو وقتلوا أنبياء الرب ، ومهما تركوا

الوصايا وساروا فى طرق الشر . أما يسوع فلأنه يشهد للحق مهما كان الحق مؤلماً ومراً ؛ ولأنه يريد أن يأخذ بأيدينا إلى طريق الحق والحق فقط ، مهما كان الحق ضد أمانينا أو أطماعنا ، فهم يرفضونه ؛ لأنهم لا يحبون الله ، فالذى يحب الله يحب الحق ، ويرضى بمشيئته ، بل يحب مشيئة الله أكثر من كل شيء آخر .. لقد سخطوا على « يسوع » ؛ لأنه قال : إن الهيكل سينقض ، وإن النعمة ستنتقل إلى أمة أخرى ، لذلك لم يقبلوه .. ولكن المسيح جاء ليجمع خرافه .. أتعرف من هم خرافه ؟ هم الذين يحبون الحق أكثر من أى شيء آخر .. هم الذين يحبون مشيئة الرب أكثر من أنفسهم ومن أهليهم ومن أمتهم ومن بلادهم ومن أرضهم .. ومن كل شيء .

– ولكن حب الوطن ، وحب الأمة ، هو شيء مقرر فى الناموس .. أليس كذلك ؟

– ألم تسمع كلمات يسوع « .. ماذا يكسب الإنسان إذا ربح العالم كله وخسر نفسه ؟. »

.. ثم ماهو الوطن ؟ وماهى الأمة ؟.. لقد كان أبونا إبراهيم يعيش فيما بين النهرين وهناك كان موطنه ، ثم كانت كلمة الله إليه أن يترك هذه الأرض ، ويذهب إلى « حاران » ، ثم منها إلى أرض كنعان ، فلم يقل هذا ولا ذاك كان وطنى لا أتركه ، بل كان يحمل وطنه وأمته بين صدره أينما ذهب .. ألم يأخذ ابنه إسماعيل ويتركه فى بلاد العرب بعيداً ؛ ليكون له فيها وطن وأمة كما أراد الرب ؟.. وأبونا يعقوب ألم يترك هذه الأرض هو وأبناؤه ليذهب إلى مصر لأن نعمة الله كانت على يوسف هناك ؟، ثم حينما اضطهدهم فرعون ، تركوا له الأرض التى ولدوا فيها وعاشوا ، ليعودوا إلى أرض فلسطين ، وحينما شعر بعضهم بالحنين إلى

مصر قرّعهم الرب على ذلك كثيرا ؟ .. لأنه حيث تكون مشيئة الله ، وكلمة الرب فعلى الإنسان أن يكون .

– ولكنك بذلك تقطع كل الروابط التى تجمع الأمة وتجعلها تتماسك وتترابط أمام أعدائها ، وتضحى وتقاتل فى سبيلها .. أليست الأرض هى التى تجعل الناس أمّة وشعباً ؟ .

– من قال ذلك ؟ لقد كنا شعباً وأمة ، أفضل مما نحن عليه الآن ، ونحن بلا أرض ولاوطن !، أسرى فى بابل !.. ان الأمة تجمعها كلمات تعيش عليها وآمال وذكريات ، ثم أقول لك : ان ما ينطبق على كل أمم العالم ، لا ينطبق على الأمة التى تحمل كلمات الرب .. فكل الشعوب تصنع لها آلهة توافق أهواءها ، ثم هى بعد ذلك تتعصب لآلهتها وأمتها ، وتصنع جرائم كثيرة تقدمها قرابين لهذه الآلهة !. أما نحن فإلهنا هو الحق .. والحق هو الذى ننادى به بين الأمم ، لأننا يجب أن نؤمن بالحق أولاً ، ولا نكون كالشعوب التى تساق عمياء من أجل أهداف شريرة ، وطموحات وأمجاد رجال جبارين كاذبين ، وهم يخدعون شعوبهم ، باسم مصلحة الأمة وآمالها .. أما نحن فقد تعلمنا من ملكنا « يسوع المسيح » ، الذى أراد أن يهدينا للحق ولا يضلنا ، تعلمنا أن الحق أحب إلينا من أنفسنا ومن الأب والأم ، والمرأة والأولاد ، والإخوة والأخوات ، والمال والأرض ومن كل شىء فى هذه الحياة ! .

.. جلس « بنيامين » يستمع فى نشوة ، كمن يشرب كأساً معتقة ، وقد اشتعل فكره ، وتيقظت خواطره كلها وهو يتأمل كلمات« إيليا » ، ولكنه لم يستطيع أن يمضى وقتاً أطول معه ، فقد كان عليه أن يقضى مصالحه ويعود إلى مزرعته بأسرع مايمكن ، لذلك فقد افترقا وقد تواعدا على لقاء قريب .

* * *

.. عاد « بنيامين » من « أورشليم » ، وهو يشعر بخواء روحى ، وأنه لم يعد يقف على أرض صلبة كما تعود أن يكون ، فالأرض تتزلزل تحت قدميه !. إنه كلما زاد إغراقاً فى المتعة مع « سيمون » ، أحس بروحه تذبل ، وأنه فى حاجة دائمة لأن يغيب عن الرشد بالسكر ، فهو لم يعد يطيق أن يخلو إلى نفسه ، وتذكر إيزابيل ، لقد كان معها لا يشعر بأى أعباء للحياة ، فقد كانت أشبه بخادمة ترعاه وترعى بيته ، ولكن فلتذهب هى الأخرى للجحيم ، فهو معها لابد أن يكون شريراً لكى يحسن قيادتها ، وتسلم له زمامها ، أما أن يكون معها رجلاً باراً صالحاً ، فهذا كان يثير عندها روح التمرد والعصيان !.. فماذا يمكنه أن يفعل الآن لكى تخلص روحه ويشعر بالسلام ؟! .

.. هل يمكن أن يترك أيضا « سيمون » الآن ؟ .. كلا : إنه لا يمكن أن يترك مسئولياته الآن والتى أصبحت كثيرة ومتشعبة ، فسيمون ثم أولادها وأولاد « إيزابيل » ، ثم عمله ، هل يمكن أن يترك كل هذا ؟ وهل سيكون مستريح الضمير وهو يلقى بكل هذا وراء ظهره ؟! لا .. لا .. ولكن ألا يمكن أن تستقيم حياته مع « سيمون » ؟! ان مشكلة « سيمون » أنها بحبها الذى تظهره له ، تمتص روحه ، كما تمتص الفراشة رحيق الأزهار ، إنها لا تطلب من الدنيا إلا أن تسعد فى حبها معه ، وهى تقول له أحيانا « .. لماذا تشقى نفسك بهموم لا طائل من ورائها ؟! لماذا لا نشكر الآلهة على نعمهم علينا ، ونسعد ونتمتع بأوقاتنا ، أليست الحياة هبة الآلهة التى علينا أن نفرح بها ونأخذ منها أجمل مافيها ؟ .. » .. فهل يمكن أن تكون « سيمون » محقة فى منطقها ؟ .. ألم يذكروا فى الأسفار « كل خبزك بفرح » ؟ .

.. ولكن « بنيامين » كان يقاوم فى نفسه منطق « سيمون » ، فلا يمكن أن تكون الحياة هى مجرد بحث عن المتعة والسعادة ، قد يكون

هذا منطق « سيمون » الآن لأن الحياة قد وفرت لهم كل شيء : المال ، والأبناء والصحة والأمان ، أما لو حرموا من شيء من هذا لا ختلف الوضع ، ولأصبح ضرورياً أن يبحث الإنسان عن معنى لهذا الوجود !، وتعجب « بنيامين » ، لماذا تسعد « سيمون » سعادة خالصة بحياتهم ، أما هو فروحه تذوى ، وهو دائم الشعور بأن هناك ماينقصه ، وبأن الحياة ليست سوى عبث وباطل الأباطيل ؟

.. لم تمض أيام على « بنيامين » فى مزرعته حتى عاد ثانيةً إلى « أورشليم » ، كان يريد أن يلتقى « بإيليا » فقد اصبح فى شوق لسماع حديثه ، وفى هذه المرّة جمع له « يوشع » وداود ؛ ليكون الحديث اكثر متعة « لبنيامين » وقد إلتقى الأصدقاء على شوق ، فقد مضت فترة طويلة لم تجمعهم مثل هذه الجلسه ، فأما « يوشع » فهو كعادته ، تكاد الأيام لا تغيّر منه شيئاً يذكر ، أما « داود » فقد زاد وزنه كثيراً ، وما زالت آثار النعمة تزداد على ثيابه وهيئته ، ولكن وجهه بدا « لبنيامين » أكثر فجاجة وغرورا وحمقا .. ودار بينهم فى البداية ، حديث الود ، وتساءلوا عن الزوجات والأولاد ، وكيف تسير بهم الحياة ، لقد رزق الجميع بأبناء جدد ، وكبر الأبناء القدامى ، أما « إيليا » فكان الوحيد بينهم الذى لم يتخذ له امرأة بعد .. قال « داود » :

– أحسنت صنعاً . فليس وراء المرأة والأولاد إلا المشاكل !

وتساءل « بنيامين » جاداً :

– حقاً لماذا لا تتزوج يا « إيليا » ؟ أترى ستعيش بلا زوجة « كيسوع الناصرى » ؟

– ومن يستطيع أن يعيش كالمسيح ؟.. أنا أفكر حقاً هذه الأيام فى أن أتخذ لى زوجة .

فقال يوشع :

– ما أكثر طالبات الزواج هذه الأيام .. فقط عليك أن تنوى وأن تحدد مواصفات المرأة التى تريدها ، فهل تفضلها صبية عذراء ؟، أم أرملة غنية ؟، أم مطلقة جميلة ؟ .. وابتسم الأصحاب ، وقال « داود » :

– ولماذا هذا التصنيف ؟ ألا يمكن أن تكون صبية عذراء جميلة وغنية أيضاً ؟ فقال « يوشع » :

– هذا لا يمكن أن يجتمع ، ألا ترى أن الزمن قد سار بنا طويلاً ؟!، لقد أصبحنا اليوم كهولاً ، ولم نعد شباباً كما كنا بالأمس .

.. وتكلم « إيليا » فقال :

– الحقيقة أن ما أبحث عنه ، ليس المال ولا الجمال – أنا أريد امرأة تكون لى أختاً قبل أن تكون لى زوجة ، حتى تقبل أن تتحمل الحياة التى أعيشها الآن ، فأنا كثير التنقل من مكان إلى آخر ، كما أننى لن أوفر لها الحياة الرغدة التى تريدها كل امرأة ، الحق أننى أبحث عن قديسة تحب الحق وتضحى من أجله ، فهذه يمكنها أن تفهمنى وأن تقاسمنى حياتى راضية .

إعتدل « بنيامين » فى جلسته ، وهو ينصت باهتمام « لإيليا » ، ثم قال :

– ولكن هذه المرأة ألن تنجب منها أولاداً ؟

– إذا شاء الرب .

– إذاً فأنت لابد أن توفر لهم حياةً مستقرة .

– وهذا هو مايجعلنى متردداً حتى الآن فى الزواج .. فأنا لا أدرى كيف سأوفق بين حياتى هذه وبين أن يكون لى زوجة وأولاد .. ولكن يبدو أن على أن أجد طريقة ما ، فأنا اشعر أحياناً بحاجتى الشديدة فى أن يكون لى امرأة .. لقد فكرت مرة أن أبحث عن امرأة عاقر ، أو أرملة

ذات أولاد يمكن أن تقبلني على ألا ننجب المزيد منهم ، إنني أريد امرأة لا تسلبني حريتي .

قال « داود » مقاطعاً :

أليس لك عمل الآن ؟

أنا خادم للمسيح .. أنشر كلماته .. وأبشر بملكوت الله ، وأحمل الإنجيل الذى أنزله الله على مسيحه لكى يعرفه العالم .

.. فقال « داود » باستياء :

- أنت خادم للمسيح ، أم خادم للرب ؟

- أنا خادم للرب ، ولكنني أتبع مسيحه ، فهو الذى أنار لنا الطريق ، وهو الذى حملنا البشارة لنبشر العالم بملكوت الله الآتى .

وماهو ملكوت الله هذا ؟

- زماننا هذا السلطان فيه للظلمة .. وملكوت الله الذى نبشر به ، هو زمان يكون السلطان فيه للنور .. حيث يتبكت الأشرار ، وتتمجد كلمة الله ، ويعرف العالم النور الذى جاء به كل الأنبياء من قبل فلم يقبل .

.. فقال يوشع فى هدوء :

- أنا أومن بأن « يسوع الناصرى » هو رجل بار صالح ، وكذلك كان « المعمدان » .. أما أن يكون « يسوع » هو المسيح ، فهذا مالا أعرفه ، وأعتقد أن الإيمان بهذا لا يغير من الأمر كثيراً .

.. فقال « إيليا » فى حماس وثقة :

- لا .. إنه يغير كثيراً .. « يسوع » كان رجلا بارا هذا حق .. ولكن « يسوع » هو المسيح حقاً ، وهذا هو الأهم .. لأنه اذا لم يكن هو المسيح ، فمعنى هذا أننا ننتظر مسيحاً آخر ، وبذلك نعود عمياناً

ونضل عن الطريق ، أما إذا علمنا أنه هو المسيح المنتظر ، فإننا حينئذ سوف نستطيع أن نقبل كلماته ونفهمها ؛ لأنه لو لم يكن المسيح ، فإن كلماته تصبح ليست بذات معنى ، ولن يكون هناك تفسير لكل النبوءات التى فسرها لنا ، ولو لم يكن هو المسيح حقاً ، لا لتمسنا العذر لكل أعدائه الذين أدانوه كذلك .

.. وقال « بنيامين » ، وهو يحاول أن يثرى النقاش بأفكار جديدة ؟

– وكيف ؟ ألا يكفى أن يكون رجلاً باراً وصالحاً ، حتى نسمع كلماته ونقبلها ؟!

– كيف تقول ذلك ؟ فمنذ أن جاء الرب بهذا الشعب مع « موسى » إلى هذه الأرض ، وهو يعرف أن الله قد اختاره ليكون هو شعبه ، وعنده تكون شريعته ، وإليه يأتى أنبياؤه .. ورغم أنه كان يزيغ عن الطريق إلا أن يد الرب كانت دائماً ترعاه وترده إلى الحق ، وحتى بعد أن غضب الرب عليه ووضعه تحت أقدام « بابل » ، عاد فأرجعه إلى أرضه ، ولكنه لم يسلك طريق الرب فسلط عليه الأمم ، واليوم ينتظر الشعب مسيحاً ينقذه مما هو فيه ، وهو يريد مسيحاً ينتقم له من الأمم الأخرى التى حقد عليها ؛ لأنها أذلته .. فلابد إذاً أن يكون « يسوع » هو المسيح حتى يمكن أن نقبل الحق الذى يقوله ؛ لأن هذا الحق شديد المرارة ، وهو ضد كل آمال الآباء التى طالما حلموا بها .

.. فقال « داود » فى استياء كعادته وهو يستمع إلى إيليا :

– الحق .. الحق .. ماهو الحق ؟.. وأى حق ؟

– الحق .. هو أن جميع الأمم هم أخوة ، وهم أبناء آدم ، والله هو الذى خلق آدم وأسكنه هذه الأرض ؛ لتكون له ولأبنائه من بعده .. فالناس جميعا هم أبناء الله ، ولكن الإنسان يحب الظلمة أكثر من النور ، ويحب أن يكون ابناً للشيطان أكثر من أن يكون ابناً لله .. والله هو

الحق ، من يحب الله يحب الحق ، ومن يحب الحق يحب الله .. فإذا كنا نحن فيما مضى ، كنا دائماً نقول : إن هذا الشعب لا يستحق الحياة ، وإنه شعب شرير ، شعب امتلأت موائده قيئاً وقذراً ، وتذكرون أننا كنا نتفق على هذا ، وكنا نحسد الشعوب الأخرى فضائلها .. فاليوم حينما يأتى رجل ليقول لنا : إننا لسنا الأمم الأخرى ، وإننا لايمكن أن نستأثر بنعمة الرب دون العالم ، فإننا ننسى الحق ! ..ننسى كل ما كنا نقول ! ، وندافع عن كتنا ونلعن العالم كله .. فهل هذا حق ؟ ! إذا كنا نحب الحق فعلا ، فلابد أن نكون عادلين فى أحكامنا ؛ لأن الله يحب العدل .. وهذا هو الحق . أى فضل لهذا الشعب على الأمم الأخرى ؟ .. نعم كان لنا اباء عظماء ، علموا العالم الكثير من الحكمة والفضيلة ، ولكن جاءت بعد ذلك اجيال شريرة : قتلت الأنبياء ، وتركت طريق الرب ، وسلكت سبل الشر ، وضاع الحق بينهم ! ، فأصبحنا اليوم نرى الحق والعدل عند الأمم أكثر مما نراه بيننا .. بل صرنا نحسد الأمم على ناموسهم وتراحمهم وتعاطفهم فيما بينهم ، ونحن قد فقدنا ذلك منذ زمن بعيد .. ولكننا مازلنا نصر على أننا شعب الرب المختار .. لماذا ؟ هل هذا هو الحق ؟ وهل يكون الرب عادلاً لو فعل ذلك ؟

.. كان « بنيامين ، ويوشع » ، ينصتان فى اهتمام شديد ، أما « داود » ، فقد بدا على وجهه أنه لم يفهم شيئاً ، وعلاه الضيق وعدم الرضا ، قال باستياء وغضب :

– الحق .. الحق .. أى هراء هذا ؟ ألا تريد من الشعب أن يتعصب لأمته ؟ كل الشعوب تضعف أحيانا ثم تنهض من جديد .. فأى سخف هذا الذى تقول ؟! كل شعب لابد أن يتعصب لأمته .. أنا مثلاً أعرف أننى لست أفضل الناس ، ولكننى لابد أن أدافع عن نفسى ضد العالم

كله ، وأطلب من أبنائى وأصحابى أن يكونوا معى ضد الآخرين .. أما أن يأتى ابنى مثلاً – يوما ما – ليقول لى : إنه سيقف مع الآخرين ضدى ؛ لأنه يرى أنهم على الحق ، فهل يمكن أن أقبل منه هذا ؟!، وهل يرضى أحد بذلك ؟! ، هل يرضى أحد أن يقف ابن ضد أمه أو أبيه لأى سبب من الأسباب ؟

.. فقال « إيليا » بقوة ، وقد تجاوز إهانات « داود » :

– الكثيرون ممن عرفوا الحق مع المسيح ، وقفوا أمام آبائهم وأمهاتهم وإخوانهم وأهليهم ، كل هذا لأنهم أحبوا الحق أكثر من أى شىء آخر .

– هذا هو الفساد بعينه ، فأى هدم للروابط بين الناس أكثر من هذا ؟!، فهل يصلح شعب بعد هذا ، وقد فقد الصغير احترامه للكبير ، وعق الأبناء آباءهم ؟! ،. حسناً فعلوا إذ صلبوا هذا الرجل ، فأنا لم أكن أتصور قط مدى ماوراء كلماته من شر ، ولكنك اليوم تفتح عينى لأرى أى شر أراده بنا هذا الناصرى !، إنه يريد أن يهدم كل شىء : الماضى والحاضر والمستقبل لهذا الشعب .

.. فأجاب « إيليا » فى هدوء وحزم :

– اسمع يا« داود » .. هل تعتقد بأنك تحب « أورشليم » ، وتحب الشعب والناموس أكثر منى ، أو من أى فرد من أتباع « يسوع » ؟.. لا أظن ذلك ، وأعتقد أنك تعرف هذا أيضاً . إننا نحمل صليبنا على أكتافنا ، وننتظر أن نضحى بأرواحنا من أجل أن نقدم الحق لك وللشعب .. ولعلك اليوم قد رأيت أو سمعت كيف رجموا أحد أتباع « يسوع » .. ولكن هذا لا يخيفنا ، لأننا واثقون أنه اليوم فى الفردوس مع المسيح ، وكلنا يتمنى أن يلحق بهما .. فدعك من التباكى على الشعب والناموس والهيكل ، لأننا نعرف بعضنا جيداً ، وإذا كنا صادقين فى هذا التباكى ، فعلينا أن نقدم شيئاً لهذا الشعب ، وإلا كنا مرائين

وكاذبين .. وأسألك يا « داود » ، فأنت تعرفنى من قديم ، ماذا كسبت أنا من سيرى فى هذا الطريق ، سوى أنك ترى نعمة الله على روحى ونفسى ، فأنا عرفت طعم السلام والإيمان .. ثم ألم تسمع عن رومانيين ، ويونانين ، وفرساً ، ومصريين وغيرهم قد عرفوا طريق الله إلهنا ، وأمنوا بمسيحه وأصبحوا معنا ؟ بل تراهم اليوم يقرءون الأسفار ، ويعرفون الناموس والأنبياء أكثر من اليهود أنفسهم ؟! .

.. وهنا سأل يوشع :

-- إذا آمن شخص الآن بأن « يسوع » هو المسيح ، فماذا عليه أن يفعل ؟ ألا يظل على الناموس كما كان من قبل ؟

.. كان « داود » يريد أن يرد على « إيليا » ، ولكن سؤال « يوشع » ، ومارأه على وجهه ووجه « بنيامين » من قبول لكلمات « إيليا » ، جعله يصمت ، أما « إيليا » فأجاب يوشع قائلاً :

-- نعم يظل على ماهو عليه من اتباع الناموس والشريعة ، ولكن عليه أن يفعل الكثير أيضاً ، فإذا آمن بالمسيح ، عليه أن يتبع وصاياه مااستطاع ، فيحب إخوته فى الإيمان كنفسه ، ويتقاسم معهم حياتهم ، ويبذل نفسه من أجلهم ، وأن يشترك معهم فى التبشير بكلمات المسيح بين الناس .

.. فقال « داود » مقاطعاً فى سخرية :

-- الذى ينضم لهؤلاء ، إما غنى أحمق سيضيع أمواله عليهم ، أو من سفلة الناس وفقرائهم ، فهو يذهب ليعيش عالة عليهم ، دون أن يدفع شيئاً .. بل ويجالس أبناء الكبراء .. ويناديهم قائلاً : أخى .. أو قد يكون لبعضهم مآرب أخرى .. ولدان أو نساء .. فكل شىء بينهم مشترك .

.. فقال « بنيامين » محتداً على « داود » :

– هناك فرق بين أن نتناقش لنصل إلى الحقيقة ، وبين أن تدور بيننا مثل هذه الاتهامات البذيئة ؟

– صدقنى يا « بنيامين » : أنا لم أقل هذا من عندى ، لقد كان عندى أحد رجال الهيكل وهو الذى حكى لى ذلك ، إن هناك مفاسد كثيرة تحدث بين هؤلاء الإخوة الجدد .

.. فقال « إيليا »وهو يكتم غيظه :

– فليغفر لك الرب .. هل هذا ماعرفته فقط ؟!. منذ ساعة وأنا أتحدث إليك لتعرف ، فلم تفتح قلبك ، ولكنك فتحت قلبك وعرفت حينما حدثك أحد الخبثاء !!. إذا كنت قريبا منى وتعرفنى ، ورأيت حالى كيف تبدل إلى ماهو خير ثم تقول ذلك !، فماذا يقول من لم يسمع عنا إلا من الأعداء ؟!.

.. أنت تتشدق بأننا جميعا أبناء إسرائيل ، ثم تستكثر بعد ذلك أن نكون إخوة ، سواء منا الغنى والفقير .. ولكننى أقول لك مخلصا يا « داود » .. سيأتى يوم يدمر فيه هذا الهيكل ، وتداس فيه « أورشليم » ، وتتشتت هذه الأمة ، ويتمزق هذا الشعب الذى ملأ الحقد قلبه بين الأمم ، ولن يجد رحمة بينهم ، بل سيعيش حياة الذل والاستكانة ! . وأما أتباع « يسوع » فسيرعاهم الرب ، لانهم يحملون فى قلوبهم الحب والسلام .

.. فقال « داود » فى ضيق ، وكأنما يريد أن يسجل تبرأه من اتباع « يسوع » :

– أنتم أتباع الناصرى كالبوم تنعقون بالشؤم دائماً .

– استمع يامسكين .. أنا أعرف أنك تعيش فى خوف من الغد .. ومن الجواسيس المنتشرة فى كل مكان .. ويضايقك أن تسمع كلامى هذا ؛ لأنى أشهد بالحق .. والذى يشهد للحق فى أورشليم اليوم ، تفتح له السجون ، ويساق إلى الرجم أو الصلب .. فلابد أن يكون هناك

ضحايا جدد تقدم للمذبح ، فما رجم « إستيفانوس » إلا بداية الاضطهاد .. ولكن ثق بأننى قد وطنت نفسى على أن تقبل مشيئة الرب فى هدوء وسلام .. وثق أيضاً بأننى أشفق عليك !

.. دار النقاش بعد ذلك طويلاً بين الرفاق الأربعة ، يحتد أحياناً ويهدأ أحيانا أخرى .. ولكن منذ ذلك اليوم ، أصبح « بنيامين » بينه وبين نفسه يعتبر أنه من أتباع يسوع المسيح المؤمنين به سراً .

* * *

اللوحة السابعة عشر

ملخص خاتمة بنيامين





اكتفى « بنيامين » فى إيمانه « بيسوع » ، بأن يقدم بعض المال بين الحين والحين ، إلى « إيليا » أو يعطيه مباشرة إلى « يعقوب بن زبدى » ، أحد الحواريين الاثنى عشر ، والذى صار رئيساً للجماعة فى « أورشليم » ، وكان « يعقوب » رجلاً يتكلم بالحكمة والحق ، وقد أحبه « بنيامين » لتقشفه وصفاء روحه وبساطته .. وكانت « سيمون » قد بدأت هى الأخرى يتسلل الملل إلى قلبها من حياتها الجديدة طوال هذه السنوات وهى سجينة فى مزرعة « بنيامين » ، لا تكاد ترى أحداً ، وشعرت بالحنين إلى وطنها مصر ، وزينت لبنيامين حياة الإسكندرية ، وخاصة أن بها من اليهود أضعاف عددهم فى « أورشليم » ذاتها ، وأنهم يعيشون فيها حياة رغدة موسرة ، ولكن « بنيامين » كان يعرض عن كلامها ولم يأخذه أبداً مأخذ الجد .

.. ولكن حدث أن جاء « يوسف ابن جلعاد » لزيارة والديه ، فرأى فيه « بنيامين » شاباً مستقيماً ممتلئا قوة ونشاطاً ، ولما كان هو تلميذاً « للمعمدان » فقد أحبه « بنيامين » أكثر ، وطرأ له أن يقنعه بأن يدير أعماله نظير أجر ، ليحقق « لسيمون » رغبتها فى الذهاب إلى الإسكندرية ، وكان هو نفسه قد زهد حياته ، وأراد أن يغيرها ، ثم إنه كان حريصاً على ألا تفقد « سيمون » بهجتها وإحساسها بالرضا عن حياتها معه ، وكذلك وجدها فرصة ليرى أبناؤه عالماً جديداً ، ويتعلمون لغة أخرى وثقافة واسعة ، لذلك كله فقد قرر السفر إلى الإسكندرية .

.. كانت الإسكندرية فى ذلك الوقت من أعظم عواصم العالم وأروعها .. وكانت المدينة تمتد بطول الساحل على شكل مستطيل ، ويقطعها شارعان طولا وعرضاً ، لتنقسم إلى أربعة أقسام رئيسية ، يقطن اليهود فى الحى الشمالى الشرقى منها .. والشوارع الرئيسية متسعة يبلغ عرضها مائة قدم ، وهى مظللة لتحمى المارة من أشعه الشمس ، كما أنها مضاءة ليلاً ، وتنتشر بها الحوانيت التى تمتلىء ببضاعة العالم كله على اختلاف أنواعها .. وكانت تمتد على طول الشاطىء مقاصير للاستحمام والاصطياف ، وخلف المدينة كانت تقع « بحيرة مريوط » ، حيث تمتلىء بقوارب النزهة التى تضىء ليلاً لتملأ المكان بهجة وحيث إن الإسكندرية كانت مدينة تجارية ، وتحت حكم الرومان أيضاً ، فقد حفلت بأجناس كثيرة قد استقرت وعاشت بها ، فبجانب المصريين ، كان هناك اليهود ، واليونان ، والرومان ، وبعضاً من الفرس ، والعرب ، والزنوج والهنود .

.. ورغم ثراء المدينة ، إلا أن أهلها كان نهمهم إلى المال كبيراً ، فالحياة فيها تكلف كثيراً وعلى الجميع أن يعملوا ويكافحوا ؛ لكى يحققوا لأنفسهم وأهليهم حياة مستقرة ، ولكن الجالية اليهودية رغم ثرائها وسيطرتها على قطاع كبير من الأعمال ، قد أثارت حسد الآخرين وحنقهم عليهم ، وساعد على ذلك تميز اليهود فى لباسهم وطعامهم وختانهم وعزلتهم ونفورهم من الآلهة الأخرى ، ومن الصور والتماثيل ، وكذلك تشدد بعضهم فى المحافظة على السبت ، هذا بجانب ذكائهم وحذقهم لكثير من الأعمال .

.. لذلك لم يمض على « بنيامين » وأهله فى الإسكندرية سوى عدة أشهر حتى حدثت فتنة فى الإسكندرية ، حيث اقتحم بعض الغوغاء معابد اليهود وأصروا أن يضعوا فيها تماثيل لكاليجولا الإمبراطور الرومانى

الجديد ليتخذوه إلهاً ، وانحاز الحاكم الرومانى « أفليوس » ضد اليهود ، فحرمهم من حق المواطنة للإسكندرية ، وأمر بألا يعيش اليهود خارج الحى الخاص بهم ، وأحرقت منازل اليهود التى كانت خارج حيهم ، وقتل بعض اليهود أيضاً ، كما قبض على ثمانية وثلاثين من زعماء اليهود ، وجلدوا علناً فى إحدى دور التمثيل ، وعم الإضطهاد اليهود .. ولما كان « بنيامين » يعيش على مايأتيه من إيراد لأعماله التى يديرها يوسف فى فلسطين ، فهو لم يتأثر كثيراً بهذا الإضطهاد ، خاصة أن امرأته مصرية ؛ لذلك وتحت إلحاح منها ظل فى الإسكندرية ، ولم تمض سنتان حتى عُزل « أفليوس » وعُين حاكم جديد للإسكندرية ، وقد وقف فى صف اليهود ، وسعى لدى الإمبراطور « كاليجولا » للعفو عنهم واسترداد حقوقهم ، ومات « كاليجولا » بعد عام آخر ، ليخلفه الإمبراطور « كلوديوس » الذى أعاد ليهود الإسكندرية مالهم من حقوق ، وأكد لهم مواطنتهم فى المدينة .

.. وفى نفس الوقت الذى عادت فيه حقوق اليهود فى الإسكندرية إليهم ، كانت فلسطين تعانى من الاضطهاد ، فقد ملك عليها أحد أحفاد « هيرودس » ؛ لذلك فقد آثر « بنيامين » أن يظل مع « سيمون » وأولاده فى الإسكندرية .. ولكن شاول الذى قد أصبح شاباً اليوم كان كثير التطلع للعودة إلى « أورشليم » ، وكذلك أخته « دينا » التى أصبحت فتاة تتوق للزواج ؛ لذلك سعت « سيمون » فى أن تربطهم بالإسكندرية ، فشجعت على خطبتها لأحد أبناء اليهود الأثرياء ، وأسعد « بنيامين » أن يرى ابنته تزف إلى هذا الشاب ، وتعرف طعم الاستقرار فى حياتها الجديدة ، أما « شاول » فقد ظل على رغبته فى العودة للوطن ، وأخيراً سمح له « بنيامين » بذلك ، وأوصاه ألا يختلف مع « يوسف » القائم بأعماله هناك .

.. أحس « بنيامين » بأن سنوات عمره تتفلت من بين يديه ، ورغم أنه كان على اتصال مستمر بالإخوة أتباع « يسوع » ، كما أوصاه « إيليا ، ويعقوب » قبل سفره ، إلا أنه كان يفتقد بينهم ماكان يجده عند جماعة « أورشليم » من بساطة وصفاء فكر .. فهم هنا يثيرون قضايا غير جوهرية فى نظره ، وينشغلون بها عن جوهر روح المحبة والسلام والتضحية التى رأها هناك ، فهم يختلفون حول معنى أن المسيح هو كلمة الله ، فالبعض يرى أن كلمة الله هى أمره ، والبعض يرى أنها كالروح جزء من الله ، وبعضهم يتبع آراء فيلسوف يهودى يدعى « فيلو » ، يعتبر من زعماء اليهود بالإسكندرية ، وكان هو أحد خمسة أرسلهم اليهود إلى الإمبراطور « كاليجولا » ليتحدثوا باسمهم أمامه ، ويعرضوا عدالة قضيتهم ، وكان « فيلو » يرى أن الكلمة هى أفكار الله ، أو هى حكمته ، التى عن طريقها كشف الله عن نفسه للإنسان .. وكذلك يختلفون حول معنى الروح ، هل هى من خلق الله ؟ ، أم هى جزء من ذاته ؟.. إلى آخر هذه الخلافات التى هى فلسفية أكثر منها دينية .. وكانت الخلافات تصل بينهم أحياناً إلى حد العداء والمشاحنة ، ولم يطق « بنيامين » صبراً فى إحدى المرات فصرخ فيهم على غير عادته قائلاً فى أسى :

– أو سيظل حالنا هكذا نحن اليهود أبداً ؟.. لقد كنا نختلف من قبل أن يأتى « يسوع » ، فلما جاءنا ، أمرنا بالمحبة ، وكانت وصيَّته الأولى والعظمى أن تحب الرب إلهك من كل قلبك ثم أن تحب قريبك كنفسك ، ولكننا تركنا وصاياه كما تركنا وصايا موسى من قبل ، وصرنا نتعادى من أجل أفكار وفلسفة أتى بها البعض من الهند أو اليونان ، أو أى مكان آخر . وهذه أمور لو وجد فيها يسوع فائدة وصلاح لنا لتحدث فيها

معنا ، ولكنه لم يفعل ، لقد كان يريد أن ينقذ أرواحنا فقط بأن تغمر قلوبنا الرحمة والمحبة ، فانظروا و لم يمضى على ذهابه عنا عشر سنوات ، حتى صار حالنا كما ترون .

* * *

.. كان الحنين يستبد أحياناب « بنيامين » فيفكر بالعودة « لأورشليم » ، ولكن جاءت اليهم الأخبار ، بأن حفيد « هيرودس » قد قتل « يعقوب بن زبدى » ، أول الحواريين استشاهداً . وأن الاضطهاد مازال مستمراً ، وهو يتعقب تلاميذ « يسوع » ، فزهد فى العودة إلى « أورشليم » ، رغم قلقه المستمر على ابنه « شاول » الذى يواجه الحياة وحده هناك .. وكلما تذكر وجه « يعقوب » الطيب ، القوى السمح ، والذى لحق « بيسوع » بعد أربعة عشرة عاماً من الخدمة ، زاهداً فى كل متع الحياة ، شعر بأن أمثال هذا الرجل هم صنف آخر من الرجال ، صدقوا فى إيمانهم ، وباعوا هذا العالم ليشتروا به حياة أبدية ، فهل يمكن أن يفعل هو ذلك ؟ .

.. اضطر « بنيامين » ، مع تكاليف الحياة ، وإلحاح « سيمون » – ولأنه كان عاطلاً وقد مل ذلك – أن يعمل مشرفاً على مزرعة كبيرة للخيول جنوب شرق الإسكندرية ، وقد وجد فى ذلك متعة أن يخلو إلى نفسه بعيداً عن البيت ، حيث كان يبيت فيها كل أسبوع عدة ليالٍ ، ولكنه قاسى أن يجد نفسه مرءوساً من غيره ، وهذا مالم يعتد عليه طوال حياته ، فابتلع ذلك كنوع من تعذيب النفس ، امتثالاً لما تأتى به الأيام ، ولكنه كان يختنق أكثر يوماً بعد يوم ، من حياته ، ومن « سيمون » ،

التى كانت تجلّه دائماً ، ولا تدعوه أمام الجميع إلا [السيد بنيامين] ، فاعتقد أن هذه المرأة ترسم له صورةً فى مخيلتها ، تبعد كثيراً عن حقيقته ، ولكنها تتشبث بها وتجد فيها سعادتها .

.. وتفلتت السنون ، عاماً وراء عام ، ولم يستطع « بنيامين » أن يتآلف مع جماعة « يسوع » بالإسكندرية ، فقد أحس أنه غريب عنهم ، فهم ينسلخون تدريجياً من الشريعة والناموس ، بل من اليهودية كلها ، فلا يهتمون بالختان ، ولا بأعياد اليهود ولا بذبائحهم ، ولا يحفظون السبت ، بل لا يقدسون الهيكل ولا « أورشليم » ، ويزهدون فى زيارتها .. أما هو فيحس بأنه يهودى بكل قطرة دم فى جسده ، ولم لا ؟! ألم يكن « يسوع » وتلاميذه يهوداً يحافظون على الناموس ؟ .

.. وولداه من « سيمون » ، إنه رغم حبه لهما ، إلا أنه يحس أنهما غريبان عنه بعض الشىء ، فهما لا يعرفان الآرامية فضلاً عن العبرية ، بل يتكلمان اليونانية ولا يهتمان بأنهما من اليهود ، بل يعتبران نفسيهما مصريين قبل كل شىء ، وحينما أراد لهما أن يقرآ فى الأسفار ، كان عليه أن يأتى بالشروح والترجمات اليونانية ، ولكن هل يمكن أن يتذوقا حلاوة الكلمات بعد أن شوهتها يد الترجمة ؟! ولكن أليس هذا حال اليهود كلهم هنا ؟.. إنه لم يصادف شاباً يهودياً يعرف لغة آبائه !، أليست هذه لعنة كبيرة ؟!، وكيف سيفهمون كلمات « يسوع » وهو الذى كان يتكلم بأمثال وحكمة ؟!. إنهم سيقعون تحت رحمة من ينقل لهم هذه الكلمات ، فاما أن يصيب المقصد أو يخطىء الفهم ! .

.. كانت روح « بنيامين » تزداد شروداً ، وقد عرفت عنه « سيمون » والمحيطون بهم ذلك ، فظنوا أنه مرض يعالج بالعقاقير ، أو بالسحر والتعاويذ ، ولكنه رفض ذلك بغضب ، وأذعنت « سيمون »

التى حافظت دائماً على احترامها له .. ولكن أثير على حياء موضوع تقسيم الأموال بين الأبناء ، حيث « شاول » وحده الآن الذى يعرف ويضع يده على كل شيء ، وصادف هذا الأمر هوى فى نفس « بنيامين » ، فهو يريد أن يتخلص من كل شيء ، فكتب المزرعة الجنوبية الكبيرة « لسيمون » وولديها ، واستقطع جزءاً منها لنفسه ، وهو ينوى أن يهبها « ليوسف وأبويه » ، وكتب « لشاول ودينا » المزرعة الشرقية على جبل الزيتون وكذلك بيت العائلة الكبير فى « أورشليم » .

.. أسرع ابنا « سيمون » فى بيع نصيبهما من المزرعة ، ودون رضا أبيهما لكى يعملا بالتجارة ، ويتزوجا ، واقتنع « بنيامين » بعد فترة أنهما قد أحسنا صنعاً فقد شقا طريقهما فى الحياة بنجاح .. أما « يوسف » فقد توفى أبوه « جلعاد » ، ولم يرض هو بهبة « بنيامين » ، فاقترح عليه أن يزرعها مناصفة بينهما فوافق .. أما « شاول » فهو رغم أنه تزوج من ابنة خالته ، وأموره تسير على مايرام ، إلا أنه كان مثل أبيه ذا اهواء وشطحات ، فهو كثير السهر فى الحانات ، وهو كذلك على اتصال بزعماء الثورة ، الذين قويت شوكتهم فى « أورشليم » ، ولم يعودوا قلة مطاردة كما كانوا من قبل .. بل يمكن القول بأن « أورشليم » قد انقسمت قسمين : الأول يرى أن محاربة روما هى انتحار قومى ، لن يؤدى إلا إلى دمار « أورشليم » ، والقسم الثانى وأغلبهم من الشباب المتحمس والفقراء والجهلاء ، كان يتهم الآخرين بالعجز والجبن والركون إلى عبدة الأوثان ومحاباتهم ، ويدعو إلى الثورة والتمرد والعصيان .

* * *

.. مرت السنون واقترب بنيامين من الشيخوخة ، وزادت حالات شروده ، حتى أصبحت مثار حديث المحيطين به ، وبدأ يرى نظرات

الرثاء فى عيون « سيمون » وأولاده ، فلم يطق ذلك ، وقرر السفر إلى « أورشليم » بحجة زيارة ابنه « شاول » ، ولكنه كان ينوى ألا يعود .. لم يذهب « بنيامين » كما قال عند « شاول » ، ولكنه ذهب ليعيش مع فقراء الهيكل والمتشردين هناك .. كانت جماعة أتباع « يسوع » ترعى بعض هؤلاء فانضم إليهم ، وشعر بينهم بالسكينة ، فهو ينام أرضاً على فراش ردىء ، ويأكل ما يتيسر وليس حسب هواه ، ولا يفكر إلا فى الله ، وفى كلمات الإنجيل .. وانقطعت أخباره عن أبنائه ، وبحثوا عنه كثيراً ، ولكنه كان يتخفى حتى لا يصلون إليه .. كان يرجو أن يعتبروه ميتاً .. فهو يريد أن يتحرر من كل القيود التى تربطه بهذه الحياة . .

.. كان هناك رجل آخر تلميذ للمسيح ، وقد أصبح رئيس الجماعة فى « أورشليم » ، وكان أيضا اسمه « يعقوب » (العادل) ، كان حكيما ينطق بالعدل ، سمعه « بنيامين » يوماً يقول :

- « .. تقولون : إذا كان « يسوع » رجلاً بسيطاً متواضعاً ، فلماذا يمجد نفسه ؟. وأنا أقول لكم ، ألم تسمعوا دائماً أن على حامل الحكمة أن يبجل نفسه لكى يبجل الناس الحكمة التى يحملها ؟!، ألا تعرفون أن حامل الحكمة إذا لم يبجل نفسه ، فإنه يحقّر من الحكمة التى يحملها ؟. ألم تسمعوا كلمات « يسوع » وهو يناجى ربه ، متحدثاً عن تلاميذه : « .. ولأجلهم أقدس أنا ذاتى ليكونوا هم أيضاً مقدسين فى الحق .. » .. لأنه كلما كان المعلم مبجلا كان تلاميذه أيضاً مبجلون ، وكان ما يحملونه من حكمة هو أيضاً مبجل .. » .

.. وأحبه « بنيامين » حباً كبيراً ، ولكن لم تمض أشهر على معرفته بهذا الرجل البار ، حتى مات الوالى ، وفى الفترة التى سبقت مجىء الوالى الجديد ، انتهز هذه الفرصة ثعالب الهيكل وحاكموه بتهمة كسر

الناموس ، ورجموه أيضاً .. وكان « بنيامين » يرى مجد الله فى « يعقوب العادل » ، ويتمنى أن يكون مثله ، ولكن أنى له وقلبه مازال معلقا بالماضى و « بأورشليم » ؟ وزادت حالته تدهوراً ، فأصبح لا يحكم السيطرة على نفسه حقاً .. وكانت المدينة قد انقسمت بين الحزبين المتنازعين ، حزب الثوار الذى سيطر على الجزء الأعلى من أورشليم ، وحزب المحافظين الذين سيطروا على جزئها الأدنى .. ولم تمض سنوات حتى نشبت معركة كبيرة بين الطرفين ، قُتل فيها أغلب الأغنياء وزعماء الهيكل ، وسيطر الثوار على المدينة .. وانتشرت الثورة لتعم المدن اليهودية ، وحوصرت بعض القوات الرومانية وقتل كل رجالها .. وفى بعض المدن ذات الصبغة اليونانية كقيصرية العاصمة ، ذُبحَ فيها من اليهود ما يربو على عشرين ألفاً وبيع كثيرون من اليهود كرقيق .. وكان من المناظر المألوفه فى ذلك العهد أن ترى المدن مملوءة بجثث القتلى .. واقتربت الفيالق الرومانية التى أرسلت لكى تخمد الفتنة من « أورشليم » ، وتجمع الثوار داخل المدينة للمقاومة ، ودام الحصار خمسة أشهر ، وكانت جثث القتلى ترمى من فوق أسوار المدينة حتى لا تؤذى رائحة العفن سكانها .. واستولى الرومان على أكثر من نصف المدينة ، وعرضوا على الثوار أن يستسلموا ليعفوا عنهم ، ولكنهم قاتلوا ببسالة حتى آخر رجل منهم دفاعاً عن « أورشليم » ، وشاهد « بنيامين » الشيخ ، جثة ابنه « شاول » ملقاة على الطريق ، فأصابته لوثة ، فرفع سيفاً وحز رأسه ، وحمل الرأس على خشبة ، ودخل إلى الهيكل صارخاً ، هذه هى رأس « المعمدان » .. هذه هى رأس « المعمدان » .. وكانت الفيالق الرومانية قد أمرت فرق الحراقين أن تضرم النار فيما تبقى من المدينة مع الثوار ، وكان الهيكل مازال معهم ، فلم يلبث هذا البيت المقدس أن التهمته النار ، ووقعت بعض أجزائه المشتعلة على « بنيامين »

فقتلته .. كان ظهره إلى الأرض ووجهه مبتسماً ، وعيناه تنظران إلى السماء ، والنار تأكل كل شيء حوله . .

* * *

.. دمرت « أورشليم » تماما وكان ذلك حوالى سنة (٧٠) م على يد القائد الرومانى « تيتس » ، وظلت جيوب الثورة مشتعلة فى أنحاء متفرقة من فلسطين ، ولكن لم تمض سنوات حتى قضى عليها تماماً .. وتعتبر هذه السنوات هى بداية الانفصال بين اليهودية والمسيحية ، حيث إن اليهود أتباع المسيح ، لم يحزنهم دمار الهيكل ، بل عرفوا فيه صدق نبوءة « يسوع » ، لذلك فقد اتهمهم اليهود بالخيانة ، وبأنهم وراء كل هذا الخراب .. كما أن مئات الألوف من اليهود قد هجروا فلسطين وتشتتوا فى البلاد بين آسيا حتى الهند ، وأفريقيا حتى الحبشة ، وأوربا حتى الجزر البريطانية ، وقد حملوا معهم ذكرياتهم الأليمة ضد مافعله الرومان ، فما لبثت الفتن أن ظهرت فى البلاد التى تحتوى جاليات يهودية كبيرة ، ففى « قورينية » حدثت فتنة بين اليهود وغير اليهود ، قتل فيها أكثر من مائة ألف ، من الطرفين ، وخربت المدينة تماماً ، وكذلك فى « قبرص » قتل مثل هذا العدد ، حتى حرم على اليهود ، دخول « قبرص » بعدها أبداً ولعدة قرون .. إلى غير ذلك من المدن .

.. وكان اليهود مازالوا يعيدون تنظيمهم ، وقد كثر عددهم وانتشروا فى معظم مدن العالم ، وقوى أملهم فى أن يأتى المسيح الذى سينتصر بهم على أعدائهم ، ولكن شاء القدر ، أن يقذف إلى حكم الرومان ، بإمبراطور كره أعمال اليهود ، وامتلأ قلبه باحتقارهم ، وقرر أن يبنى ضريحاً « لجوبيتر » فى مكان هيكلهم المقدس فى « أورشليم » كما حرم الختان على اليهود ، وكذلك حرم تعليم الشريعة اليهودية علنا .. ولما كانت

آمال اليهود مازالت منعقدة على المسيح المنقذ ؛ فقد ادعى رجل يهودى هو « شمعون باركوشيبا » أنه هو المسيح ، وصادفت دعوته هوى فى نفوس من يجنحون إلى الثورة ، وظلت الثورة ثلاث سنوات (من ١٣٢ ١٣٥ م) ، واستبسل اليهود فى حربهم مع الفيالق الرومانية ، وحاربوا كعادتهم متحصنين وراء أسوار المدن التى استولوا عليها ، ودمر الرومان مايقرب من ألف مدينة وقرية فى فلسطين ، وذبحوا أكثر من نصف مليون يهودى ، وبيع باقى اليهود المأسورين فى سوق الرقيق ، وكثر عددهم حتى أصبح ثمن اليهودى أقل من ثمن حصان ، وهلك الذين اختفوا فى الجبال والمغارات جوعاً ؛ لأن الرومان أحكموا حصارهم على المنطقة كلها .

.. ولم يكتف « هدريان » الإمبراطور الرومانى بما فعله ببلاد اليهود ، بل أراد أن يذهب بما يمكن أن يكون قد تبقى فى هذه الديانة من شرف ورجولة ، وقدرة على إشعال ثورة من جديد ، فحرم كذلك عليهم الاحتفال بأعيادهم ، أو إقامة أى طقوس لعبادتهم علنا ، وزادت الضرائب على اليهود أينما كانوا ، وحرم عليهم دخول « أورشليم » ، إلا يوم واحد فى السنة يسمح لهم بأن يبكوا أمام خرائب الهيكل .. بل قامت فى موضع أورشليم مدينة « إيليا ، كيتولينا » الوثنية ، وشيد فيها ضريحان « لجويتر ، وفينوس » .

.. وتحققت كلمات يسوع ، فأما أتباعه ، فقد تزعموا الدعوة إلى بشارة الإنجيل وعرفوا طريقهم بين الأمم ، وأما اليهود الذين كفروا به ، فقد ضربت عليهم الذلة والتشرد ، وعاشوا قروناً بعد قرون ، فى أزقة المدن ، تحت رحمة حكامها .

إنتهت

فهرســت



إلى الذين حطمت قلوبهم تصاريف الحياة ...

إلى الذين يحملون كنوز هذا العالم في قلوبهم . ويعيشون بين الناس لايدري بهم أحد . لايعرفون إذا حضروا ، ولايشار إليهم بالبنان ..

إلى الذين استضعفوا فهان أمرهم على الناس ، وقال مستكبروهم إنما هم أراذلنا بادي الرأي

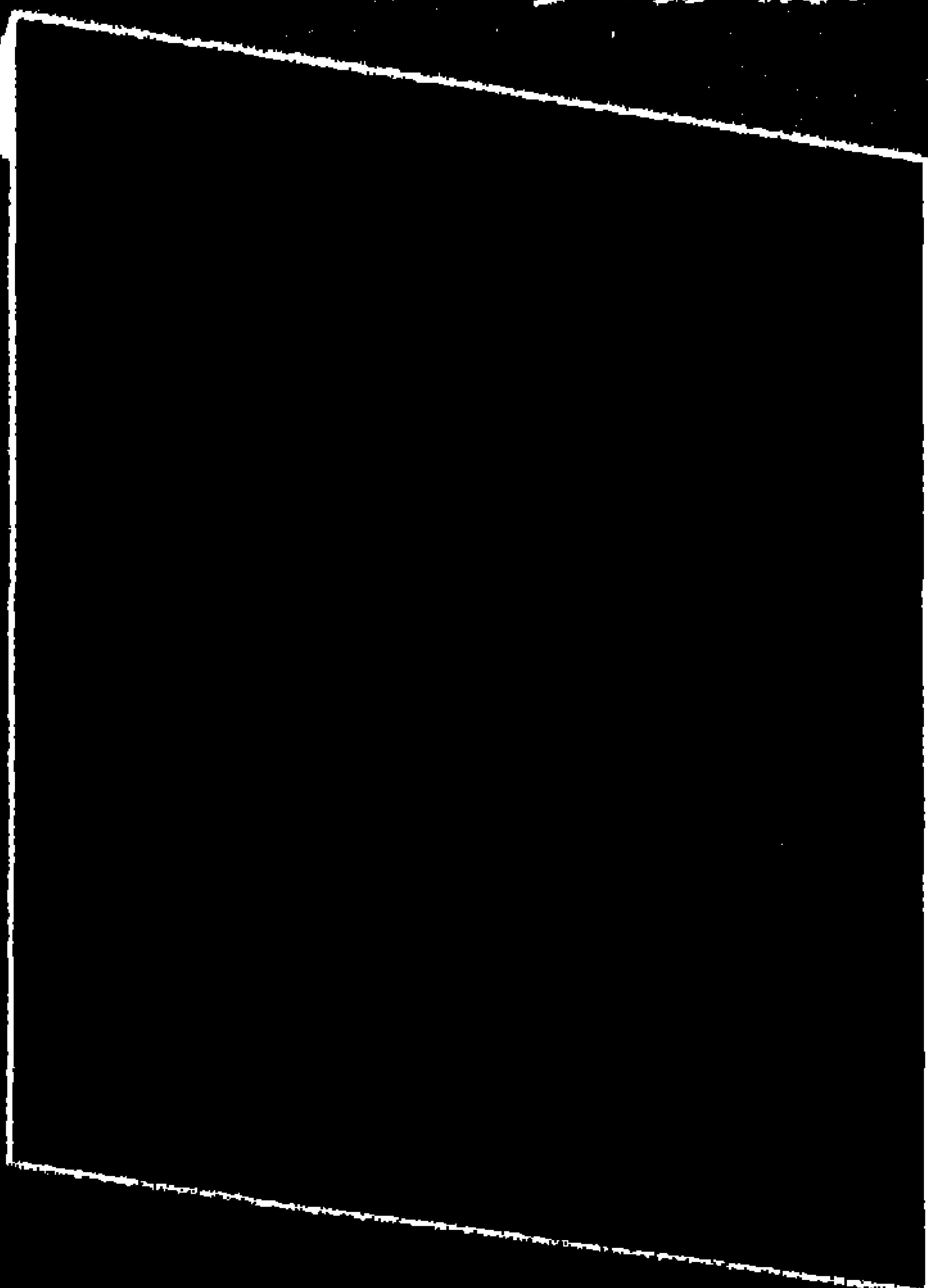
إلى الذين تمتلىء قلوبهم بأحلام النقاء والطهر والفضيلة والسعادة .

إلى الذين شرفهم خالق هذا الكون بأن يعيشوا بأفكارهم وأحلامهم وصلواتهم معه كثيراً من لحظات عمرهم

إلى منكسري القلوب لعل فيما كتبت بعض العزاء .

سمير الهضيبي

يطلب من الزهراء للإعلام العربي


نحو اقتصاد إسلامي
يطلب من الزهراء للإعلام العربي

تأملات حول
الحل الإسلامي والمشكلة الاقتصادية

.. لذلك حينما نقول : الإسلام هو الحل !! للمشكلة الاقتصادية . فنحن لانعنى أن الإسلام يقدم مذهباً اقتصادياً محدداً ، ولكن الإسلام يقدم علاجاً لطبيعة الإنسان ، فهو يحد من شططه الأخلاق ويجعله ملتزماً سلوكيا بمبادىء عامة ، وفى نفس الوقت يعطيه أملاً ومبرراً لكى يقدم على التضحية بكثير من لذائذه الحسية ، ليعوضه عنها بلذات روحية كبيرة .

رقم الإيداع : ٤٧٥٠ / ٨٨	
الترقيم الدولى : ٥ ـ ٠١ ـ ١٤٧١ ـ ٩٧٧	



مطابع الزهراء للإعلام العربي

القاهرة

نهاية أورشليم

.. ولم يكتف « هدريان » الإمبراطور الرومانى بما فعله ببلاد اليهود ، بل أراد أن يذهب بما يمكن أن يكون قد تبقى فى هذه الديانة من شرف ورجولة ، وقدرة على إشعال ثورة من جديد ، فحرّم كذلك عليهم الاحتفال بأعيادهم ، أو إقامة أى طقوس لعبادتهم علنا ، وزادت الضرائب على اليهود أينما كانوا ، وحرم عليهم دخول « أورشليم » ، إلا فى يوم واحد فى السنة يسمح لهم بأن يبكوا أمام خرائب الهيكل .. بل قامت فى موضع أورشليم مدينة « إيليا كيبتولينا » الوثنية ، وشيد فيها ضريحان « جوبتر ، وفينوس » .

..وتحققت كلمات يسوع ، فأما أتباعه فقد تزعموا الدعوة إلى بشارة الإنجيل وعرفوا طريقهم بين الأمم ، وأما اليهود الذين كفروا به فقد ضربت عليهم الذلة والتشرّد ، وعاشوا قروناً بعد قرون ، فى أزقة المدن ، تحت رحمة حكامها .

يطلب من دار الأمة الإسلامية

٦ ش عماد الدين كامل - متفرع من ش عباس العقاد - رابعة العدوية

مدينة نصر - ت : ٢٦١١٧٤٧ - فاكس : ٢٦١٨٢٤٠ - القاهرة

